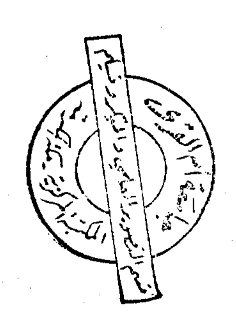
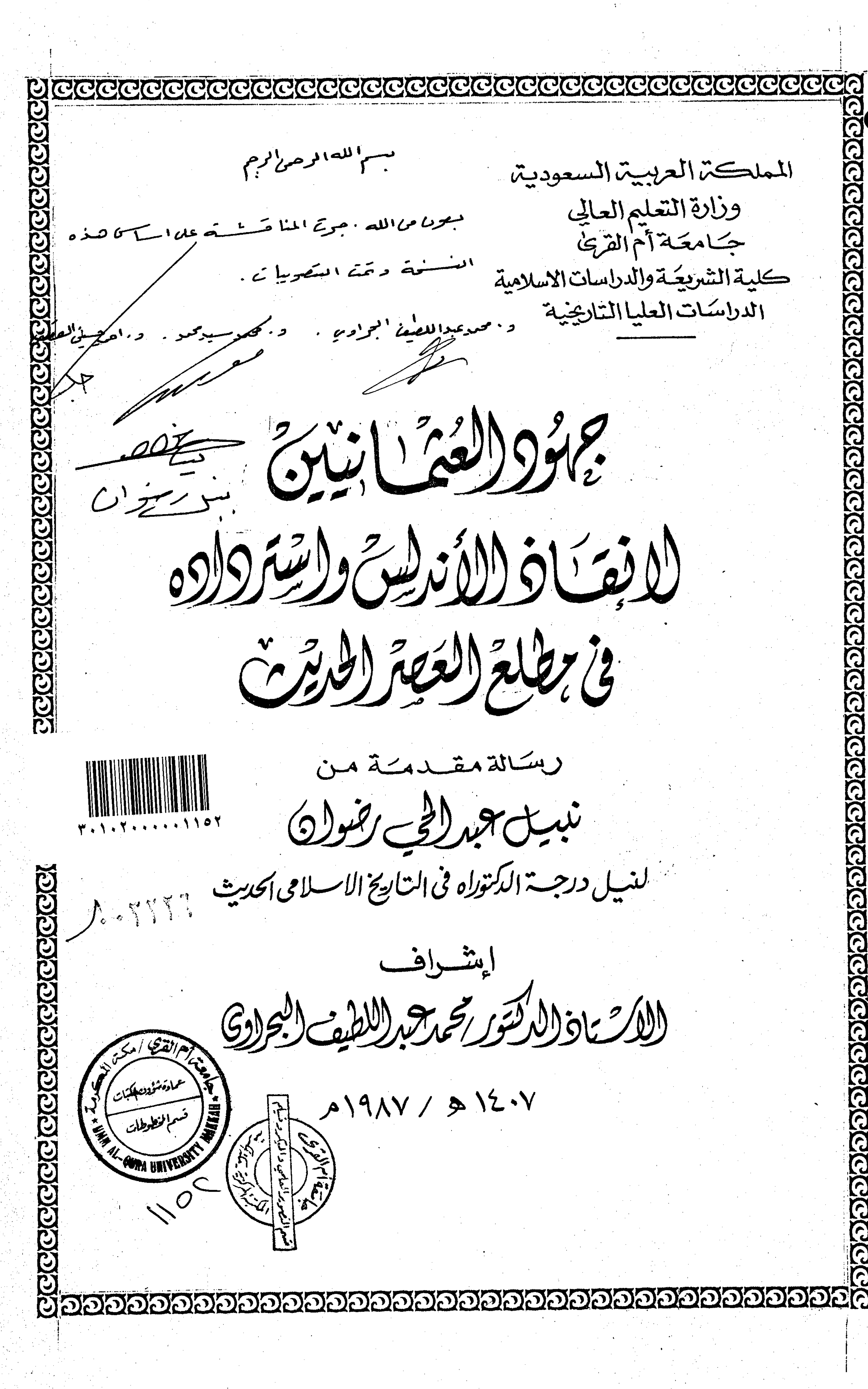
بسم الله الرحمن الرحيم

"وقل رب زدني علما"





بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الاسلامية
الدراسات العليا التاريخية

بعون من الله، جرت المناقشة على أساس هذه النسخة وتمت التصويبات.

د. محمد عبد اللطيف البحراوي . د. محمود سيد محمد . د. احمد حسني ...

جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث

رسالة مقدمة من

نبيل عبد الحي رضوان

لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الاسلامي الحديث

إشراف

الأستاذ الدكتور محمد عبد اللطيف البحراوي

١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م

المُقَدِّمَة

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله رب العالمين ،والصلاة والسلام على اشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين ،وبعد :-

جعلت الدولة العثمانية الجهاد فى سبيل اعلاء كلمة الاسلام ،الركيزة الكبرى لوجودها ، والمنطلق الأول فى بناء دولتهم ، فأقاموا دولتهم على الدعامات التشريعية الاسلامية وعاشوا ضمن النظم الاجتماعية الاسلامية ، واقتبسوا نظم الحضارة الاسلامية . فهم بذلك قدموا خدمة كبرى للاسلام ، وبذلوا ما فى وسعهم لنشر لوائه وأستطاعوا أن يدافعوا عن المسلمين وعقيدتهم مدة تجاوزت أربعة قرون ، ويعتبر ذلك فترة زمنية ليست بالقصيرة مقارنة بالدول الاسلامية السابقة .

ومع تلك الصفحة المجيدة للدولة العثمانية ، وصف كثرة من موءرخى التاريخ الحديث ،تاريخ الدولة بصفات لا تليق بتلك الاعمال التى قدمها السلاطين على مدى السنوات الطويلة ، كما وصفوها بأنها كانت من وراء التدهور الذى احاط بالعالم الاسلامى مندفعين فى كتاباتهم بدوافع شتى تأصلت جذورها فى عصور الاستعمار ، مما جعل كتاباتهم تبتعد كل البعد عن الحقيقة .

لقد آن الأوان لاعادة تقويم وكتابة التاريخ العثمانى على الوجه الصحيح ، وعلى الموءرخ أن يدخل ميدان الدراسة العلمية التاريخية العميقة وهو خالى الذهن من أية أفكار مسبقة ، وأن يمعن فى دراسته تحقيقا ودرسا وتنقيبا وتعديلا ، وذلك للوصول الى الحقيقة ووضع الأمور فى نصابها الصحيح ، وقد قام بتوجيه هذه الدعوة عدد من الباحثين والمهتمين بالدراسات العثمانية .(١)

---

(١) ليلى صباغ : نحو تقويم جديد للحياة الفكرية فى البلاد العربية فى المرحلة الاولى من الحكم العثمانى ،مجلة اوراق ،عدد(٣) ،١٩٨٠م.
، احمد عبد الرحيم مصطفى : فى اصول التاريخ العثمانى ،المقدمة.

من هذا المنطلق كان اختياري لموضوع الرسالة " جهود العثمانيين لانقاذ الأندلس واسترداده فى القرن العاشر الهجرى / السادس عشر ميلادى" فبالاضافة لكون الموضوع حديثا فى فكرته وجديدا فى اضافته ، فقد كان ايضا تصحيحا لافكار عديدة سبق وأن وضعها بعض المؤرخين ، ورددها من أتى بعدهم من دارسين ،وبذلك جاءت الرسالة فى حد ذاتها تأريخ وتصحيح .

قسمت الرسالة الى ستة فصول وخاتمة ، وسبق ذلك التعريف بطبيعة الدولة من حيث النمو والامتداد ، ثم اتجاه الفتح لأوربا ومحاولة اختراقها من شرقها الى اقصى جنوبها الغربى ، ثم جاء الفصل الاول بعنوان " شبه جزيرة أيبريا فى أواخر القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى ، تناولت فيه كيف نشأت الدولة الحديثة فى البرتغال واسبانيا ، ثم قيام دولة اسبانيا الموحدة ، ثم انتقلت بالحديث الى ما سمى بحروب الاسترداد المسيحية ، ثم تعرضت لسقوط غرناطة ٨٩٢هـ / ١٤٩٢م .

وفى الفصل الثانى أوضحنا كيف كانت الدولة العثمانية فى مفترق الطرق ، وفى البداية تحدثت عن أهمية التقدم شمالى الدانوب ، والدوران حول البحر الاسود ،ثم أوضحت عوائق الزحف العثمانى فى وسط أوربا ،فى وقت توالى فيه استنجاد غرناطة بالدولة العثمانية ، كما تعرضت بالحديث عن وصول البرتغاليين الى المحيط الهندى وتهديد الحدود الجنوبية للعالم الاسلامى لأول مرة فى التاريخ ، ثم تحول التجارة العالمية عن طريق رأس الرجاء الصالح .

اما الفصل الثالث فقد خصص للكلام عن شارل الخامس والامبراطورية الرومانية المقدسة ، والاستعمار الاسبانى فى امريكا الوسطى الجنوبية وأثر تدفق الفضة على اسبانيا فى حروبها ضد المسلمين ، وكيف أدى ذلك الى ضراوة تلك الحروب ، الا أن ظهور البروتستنتية فى شمال أوربا أثرت فى نشاط شارل الخامس مما أدى الى نشاط الكاثوليكية كحركة

مضادة للبروتستنية ، وظهور الروح الصليبية ، ثم نالت اهداف شارل الخامس الصليبية فى الحوض الغربى للبحر المتوسط والجيوب الصليبية على الساحل الافريقى العربى الشمالى قسطا وافرا .

ثم انتقلنا بعد ذلك للجهاد البحرى الاسلامى فى الحوض الغربى للبحر المتوسط وصدى حروب الاسترداد فى العالم الاسلامى ، وكيف كانت الروح الجهادية سائدة فيه ، ونتيجة لذلك فقد رأت الدولة العثمانية أن تقيم نظام بيلربك فى الجزائر ، لتضمن مواصلة الجهاد فى الحوض الغربى للبحر المتوسط لتصل منه للاندلس ، الا أن الحفصيين فى تونس ،وبنى زيان فى الجزائر والسعديين فى مراكش ، كان لهم دور بارز فى اعاقة تقدم الدولة لاسترداد الأندلس .

لم يعبأ العثمانيون بتلك العوائق بل كثفوا جهودهم لاستعادة الاندلس وهو ما تحدثنا عنه فى الفصل الخامس وسلطنا الاضواء على دور البحرية العثمانية فى عصر سليمان القانونى فى الجهاد البحرى ، ثم خطة استعادة الأندلس فى عهد صالح ريس بيلربك افريقية ، ثم أدوار حسن بن خير الدين فى ذلك ، ليأتى بعد ذلك قلج على الذى قام بجهود كبيرة ومضنية فى سبيل استعادة الأندلس ، بناء على تعليمات السلطان العثمانى .

امام تلك الجهود المكثفة التى قامت بها الدولة لاسترداد الأندلس نمت عوامل مضادة ، وتحولات خطيرة ، أوضحناها فى الفصل السادس ، من تلك العوامل المضادة الصراع بين العثمانيين والصليبيين فى البحار العربية بالاضافة الى موقف الصفويين الشيعة فى ايران من الدولة العثمانية كل هذا جعل الدولة تحول اهتمامها من أوربا الى الميدان الجنوبى،خصوصا بعد معركة ليبانتو التى دمر فيها الاسطول العثمانى الرئيسى ، مما أدى الى أن تغير الدولة فى سياستها نحو الشمال الافريقى ،فحولته الى نيابات ثلاث فى الجزائر وتونس وطرابلس ، وركزت الدولة اهتماماتها فى

الدفاع عن شبه الجزيرة العربية لتأمين مكة والمدينة ٠

ثم جاءت بعد ذلك الخاتمة والنتائج ، وهنا يتجلى منهجنا الخاص في الاهتمام بالخاتمة ، كأهم جزء في الرسالة لأنها تحتوي على النتائج والاضافات الجديدة ، ولأنها في حقيقة الأمر هي عبارة عن جهد الطالب ، ومقياس مقدرة الباحث في مجال الربط والتحليل والاستنتاج ، لذلك يقل التوثيق فيها بالنسبة لفصول الرسالة الأخرى ، ولعله من الملاحظ أن الرسالة تخلو من العناوين الفرعية ، وأنها جاءت وحدة فكرية واحدة من بدايتها الى النهاية عملا بالمنهج العلمي في الرسائل العلمية ٠

كان هدفي من وراء ذلك هو ابراز اهتمام الدولة العثمانية بالخطة التي وضعتها لاسترداد الأندلس ، وهو هدف سامي للعثمانيين ، غاب عن كثير من الباحثين ، كما هو تصحيح لمسار كثير منهم ٠

ولعل اهم المشكلات التي واجهت البحث في بداية العمل هي قلة المصادر والمراجع التي تعالج فكرة الرسالة وتغطي جوانب خطتها ، مما تطلب مني القيام بعدة سفريات الى الخارج بحثا عن تلك المصادر والمراجع ، فقمت بزيارة لمكتبات الجزائر والمغرب وتونس ، ثم خصصت لي جامعة أم القرى رحلة أخرى لزيارة الارشيف العثماني باستانبول ، بالاضافة الى زيارة عدة أماكن في لندن ومن ضمنها مكتبة الدراسات الشرقية بالمتحف البريطاني ٠

وأخيرا أرجوا أن تكون رسالتي جزء من خطة لتغطية جوانب هامة في التاريخ الإسلامي الحديث ، تلك الخطة التي اضطلع بها قسم التاريخ الاسلامي بكلية الشريعة والدراسات الاسلامية بمكة المكرمة ، وقد بدا لي من اطلاعي على كثير من المصادر والمراجع التي تناولت تاريخ الدولة العثمانية أن الذين كتبوا وأرخوا لها كانت كتاباتهم تقليدية أكثر منها موضوعية فهي مجرد سرد للأحداث ، وذكر سيرة السلاطين ، لذلك جاءت تلك الكتابات

وكأنها مجردة من الروح والفكرة ، مما أضفى على التاريخ العثماني صفة الركود والجمود ، كما أن معظم الكتابات جاءت سطحية بعيدة عن العمق نتيجة عدم فهم طبيعة الدولة العثمانية ، أو عدم الانتباه لذلك ، ولذلك كتبت رسالتي هذه في ضوء هذه النقاط جميعا .

وأنني أنتهز هذه المناسبة لأشكر جامعة أم القرى والمسئولين فيها وأخص بالشكر الأستاذ / الدكتور عميد كلية الشريعة والدراسات الاسلامية الذين سهلوا لي الكثير من الصعوبات ، كما لا يسعني الا أن أتقدم بالشكر الجزيل الى استاذي / المشرف الدكتور محمد عبد اللطيف البحراوي لما غمرني به من أفضال كثيرة ، كما أشكره على ارشاداته وتوجيهاته العلمية السديدة ، والتي أفادت البحث كثيرا .

والله الموفق والمستعان ،،،،،

تمہید

الدولة العثمانية واوربـــــــــــــــــا

أ ـ طبيعة الدولة من حيث النمو والامتداد .

ب ـ فتح اوربا واختراقها من شرقها الى اقصى جنوبها الغربى .

-=-=-=-=-=-=-=-=-=-=-=-

قام بعض المحاربين التركمان ،من اقارب السلاجقة ،وبدافع الجهاد المقدس ،باحتلال المقاطعات الآسيوية للأمبراطورية البيزنطية حتى نواحى بحر ايجه غربا . وبعد المعركة الحاسمة التى انتصر المسلمون فيها عام ٤٦٤هـ / ١٠٧١م على جموع البيزنطيين المحتشدة قرب بحيرة وان شرقي تركيا ،والتى عرفت باسم ملاذ كرد ، حيث هزم جيش بيزنطة ، وأسر أمبراطورهم (رومانوس الرابع) ، واكتسب القائد التركي الب ارسلان شهرة واسعة عمت ارجاء العالم الاسلامى ، عند ذلك تمكنت القبائل التركمانية المسلمة تثبيت اقدامها فى آسيا الصغرى ، واحتلت شرق ووسط الاناضول .

كان من ضمن القبائل التى سكنت الاناضول اثر تلك المعركة، قبيلة قابى اسلاف العثمانيين ، وظهر ارطغرل بن سليمان شاه ، الذى عاد بعد وفاة أبيه فى بلاد العجم ، ليتسلم زمام الأمور ، وشاهد ارطغرل فى طريقه جيشين مشتبكين فى قتال عنيف ، فناصر احدهما ، ثم علم فيما بعد ان الذى دعمه ، كان جيش علاء الدين سلطان قونية التى تأسست عام ٤٨٥هـ /١٠٩٢م . وكافأ علاء الدين أرطغرل أرضا قرب بروسه ، وعندما توفى أرطغرل حكم أكبر أبناءه عثمان والذى برز كأمير فى شمال غرب الاناضول ، على رأس قوة تتزعم الجهاد ضد بيزنطة فى تلك المنطقة . (١)

تعددت النظريات بعد ذلك حول كيفية نمو امارة الغازى عثمان ، تلك الامارة الصغيرة ، التى سخرت نفسها لقيادة الجهاد المقدس ضد المسيحية لتكون بعد ذلك دولة قوية وفى مدى زمنى قصير ، وهناك نظرية أكدت بأن دخول تلك الامارة الاسلام ، واتحادها فيما بعد مع المسلمين كان وراء نمو تلك القوة فى زمن قصير ، اما العلماء المسلمون الملمون بمصادر التاريخ فانهم يوافقون على تلك النظرية ، الا انهم يطالبون بالبحث عن بداية تكوين الدولة العثمانية ، والتطورات السياسية والثقافية للاناضول خلال القرنين

---

(١) على حسون : العثمانيون والروس ص ١٧، ١٨.

السابع والثامن الهجرى ، الثالث عشر والرابع عشر الميلادى .

تطورت الاوضاع فى المشرق الاسلامى بعد الغزو المغولى سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م وكانت النتيجة الفورية للغزو المغولى ، الهجرة الجماعية للقبائل التركية المتنقلة ، والمتميزة بالقوة ، وقد قدمت هذه القبائل فى البداية من وسط آسيا الى ايران والأناضول الشرقى (١) حيث المراعى الغنية والبيئة الاكثر ملائمة .

بعد ذلك ظهر عاملان عرضيان ساعد فى الاندماج التركى فى العالم الاسلامى جعلا من الاتراك قوما مميزين عن الشعوب الاسلامية الاخرى ،وساهما بطريقة قاطعة فى النجاح العسكرى والسياسى التركى فى المشرق الاسلامى ، احد تلك العوامل ، ان الاتراك عندما بزغوا فى بادئى الأمر كعنصر هائل فى الاسلام، فانهم اعتنقوه على المذهب السنى . وكان العامل الثانى هو المفهوم الاسلامى للجهاد الذى شنه الغزاة الاتراك أبطال الايمان ، الذين شكلوا ببسالتهم فى المعارك المقدسة عبر حدود الاسلام دورا نبيلا ، وكان هذا الدور ملائما تماما لتقاليدهم الحربية .(٢).

وازداد المسلمين الاتراك فى مناطق الحدود الاسلامية ، وحث زعماء تلك المناطق الرجال على الغزو ضد البيزنطيين ، على انه جهاد اسلامى وتجمع هوءلاء المحاربون حول زعماء غازون ، وصارت غاراتهم على الاقاليم البيزنطية اكثر ضراوة ، وقام هوءلاء الزعماء الذين نظموا الجماعات التركية المولعين بالقتال بتأسيس امارات مستقلة فى الاناضول الغربى انتزعوها من البيزنطيين وذلك بعد ٦٥٩هـ /١٢٦٠م . (٣)

1- Halil Inalcik : The Ottoman Empire P.5 .
2- Paul Coles :The Ottoman Impact on Europe P.P. 13-14.
3- Halil Inalcik : IBID P.60.

كانت مثالية فكرة الجهاد عاملا هاما فى تأسيس وتطوير الدولة العثمانية فمجتمع امارات الحدود صاغه اطار فكرى خاص اشبه بفكرة الجهاد المستمر والتوسع الدائم غربا ، فالجهاد كان واجبا دينيا فى هذا المجتمع يتطلب الجهد والتضحية ومن ثم تكيفت جميع الفضائل الاجتماعية فى محتمع الحدود مع مثالية فكرة الجهاد .

كان الهدف من وراء الجهاد اخضاع عالم الكفر (دار الحرب) وليس تدميره ، وأقام العثمانيون دولتهم على اساس توحيد الأناضول الاسلامية والبلقان المسيحية تحت حكمهم ، وبالرغم من أن الحرب المقدسة كانت المبدأ الاساسى للدولة ، فان الدولة العثمانية بزغت فى ذات الوقت كحامية للكنيسة الأرثوذوكسية وملايين المسيحيين الأرثوذوكس ، فقد ضمن الاسلام حياة وممتلكات المسيحيين واليهود بشرط الطاعة ودفع الجزية ، وسمح الاسلام لهوءلاء بممارسة شعائرهم الدينية الخاصة ، ومع وجود العثمانيين فى مجتمع الحدود ، واختلاطهم بحرية مع المسيحيين ، فانهم طبقوا مبادىء الاسلام تلك بأكبر قدر من الاريحية والتسامح ، وتابع العثمانيون سياسة ضمان الاستسلام الاختيارى وكسب ثقة المسيحيين قبل اللجوء الى الحرب ، وذلك خلال السنوات الاولى من تأسيس الدولة .(١)

طبق العثمانيون المبادىء الاسلامية ، فكانت حماية الفلاحين قد شكلت مصدر ايراد للدولة ، لذلك فانها تعتبر أحد العناصر المشجعة لاتخاذ موقف التسامح مع الفلاحين ، كما أن الواردات من الجزية قد شكلت جزءا كبيرا من ايراد الدولة ، تماما مثل الخلافة الاسلامية على عهد الراشدين وهكذا تعين على الدولة العثمانية ان تكون دولة حدود حقيقية ودولة متحررة من النزعات الاقليمية ، تعامل جميع العقائد والأجناس دون تمييز وتوحد البلقان المسيحية الأرثوذكسية والأناضول الاسلامية فى دولة واحدة (٢) .

---

(١) ابراهيم شحاتة حسن اطوار العلاقات المغربية العثمانية ص ٧٩، ٨٠

2- Halil Inalcik : The Ottoman Impire P.7 .

فكرتها الاساسية هى ان الاسلام كله فى حالة حرب دائمة ومستمرة مع المسيحية جمعاء لا يستثنى من ذلك الا الأمم والدول الداخلة تحت الطاعة والتى تدفع الجزية .(١)

كان الفتح المتواصل قانون حياة المجتمع التركى وبزغ السلاطين داخل التاريخ كزعماء قوم رحل من الغازين ، والدولة كلها عبارة عن معسكر واسع وكان السلاطين فيها قواد ميدان نشيطين ، يغادرون مركزهم ومعهم الجيش فى كل ربيع ، ويحاربون طوال الصيف .(٢)

اراد العثمانيون ان تكون دولتهم دولة اسلامية ، فاستندت احكامهم على الشريعة الاسلامية مع روح العصر ، الذى كان يضع الدين فوق كل اعتبار آخر وعمل موءسسو الدولة على تغذية العاطفة الدينية الاسلامية المستقلة فى نفوس العثمانيين ، رغبة فى الافادة منها فى دفع حركات التوسع العسكرى الاسلامى فى أوربا بوجه خاص ، وأملا فى القيام بالدور الذى قام به العرب فى صدر الاسلام ، وكان الاتجاه الدينى ملحوظا فى النظم العثمانية التى وضعوها واستنبطوها من الشريعة الاسلامية .

كان من مظاهر الاتجاه الدينى فى سياسة العثمانيين تشجيع التصوف حتى قيل فى هذا الصدد أن حياة المجتمع قد خضعت لتأثير مشايخ الطرق الصوفية ، أكثر مما خضعت لتأثير رجال الدولة ، وكان من أهم هذه الطرق الصوفية النقشبندية ، والمولوية ، والبكتاشية ، وقد انتشرت فى الاناضول ثم انتقلت مع نمو الدولة لانحاء اخرى ، وكان السلاطين فى مجموعهم يقربون اليهم علماء الدين والاتقياء .(٣)

---

(١) احمد توفيق مدنى : حرب الثلاثمائة عام ،ص ٦٠ .

2- Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P.34 .

(٣) فائق بكر صواف : العلاقات بين الدولة العثمانية والحجاز ،ص ١٩، ٢٠، ٢١.

وفى هذا الصدد تزوج موءسس الدولة العثمانية الغازى عثمان من ابنة احد المشايخ الصوفيين .(١)

كانت تلك هى الاسس والمعانى السامية التى وضعها العثمانيون لتكون منطلق حياتهم وبداية تكوينهم وسار عليها موءسس الدولة وتبعهم بقية السلاطين .

قام الغازى عثمان بعد ان وضع اسس الدولة بفتح قلعة قرة حصار الواقعة فى بلدة أفيون والقريبة من قونيه وذلك سنة ٦٨٨هـ الموافق سنة ١٢٨٩م فكافأه الملك علاء الدين على ذلك بمنحه لقب بك وأقطعه كافة الأراضى التى فتحها ، وأجاز له ضرب العملة وأن يذكر اسمه فى خطبة الجمعة .

أغار التتار سنة ٦٩٩هـ الموافق ١٣٠٠م على بلاد آسيا الصغرى ،وتوفى الملك علاء الدين آخر السلاطين السلجوقيين فى قونيه ، فأنفتح المجال لعثمان، فاستأثر بجميع الاراضى المقطعة له ولقب نفسه (بادشاه عثمان) (٢) ، وطد عثمان سلطته على أساس العدالة وما لبث أن وسع رقعة دولته التى وصلت الى ينى شهر وبذلك صار على مقربة من بروسة و نيقية ،أهم المدن اليونانية فى غرب الاناضول ، وما لبث ينى شهر أن صارت قاعدة لحكم عثمان وبذلك توفرت له القاعدة للانطلاق صوب الغرب (٣) ، ولما كانت دولة قرمان أقوى الدول التى قامت على أنقاض دولة السلاجقة . بحيث كان الاصطدام بها محفوفا بالمخاطر فقد رأى عثمان التوسع صوب الغرب ، حيث كان البيزنطيون غنيمة سهلة ، فبدأوا بتحرير الجزء الصغير الاسيوى من ربقة البيزنطيين ،بينما

---

(١) محمد فريد بك تاريخ الدولة العلية العثمانية ،ص ١١٥ .

(٢) محمد فريد بك نفس المرجع ،ص ١١٨ .

(٣) احمد عبد الرحيم مصطفى ،فى اصول التاريخ العثمانى ،ص ٣٧.

كانوا يقضون على الأمارات الأخرى فى الاناضول [١].

ارسل عثمان من قاعدته الحصينة فى ينى شهر الحملات ضد المدن اليونانية المجاورة ، وآستولى على عدد من الحصون ،قبل آن تتحرك جيوش الدولة البيزنطية لمواجهته ، فدمر بثينيا ،وبعد ذلك لم يجروء اليونانيون على الخروج من آسوار نيقيه ، ثم تقدم صوب الساحل ، وقلد آمراء ايدين وصاروخان الذين قامت آساطيلهم بغزو الجزر اليونانية ، وبالتدريج اقترب من بروسة ونيقيه وشيد بجوارهما قلعتين مكنتاه من ضرب الحصار عليها ، بالاضافة الى تخريب الحقول ، والاستيلاء على المواشى والعبيد وعرقلة الاتصالات التجارية .[٢]

واصل عثمان فتوحاته وكسب الاراضى بالتدريج مستغلا حالة الفوضى والاهمال المسيطرين على الأراضى البيزنطية بالأناضول ، وحدث آول صدام بين البيزنطيين وعثمان الذى كان يهدد نيقيه عاصمة البيزنطيين السابقة .[٣]

فرض الغازى عثمان حصارا على نيقيه (ايزنيك) سنة ٧٠١هـ / ١٣٠١م فبعث الامبراطور البيزنطى جيشا من المرتزقة قوامه آلف رجل ، فأوقعه عثمان فى كمين وهزمه فى بافيون (Baphaeon) فى صيف تلك السنة ، وكان لهزيمة الجيش البيزنطى صدى واسع فى آرجاء المعمورة ، فقد ذاعت شهرة الغازى عثمان فى الآفاق ، كما وصفت المصادر العثمانية والبيزنطية كيفية اندفاع المجاهدين من كل آنحاء الأناضول ، وآخذت امارات الحدود الاخرى اسم عثمان وصاروا معروفين باسم العثمانيين .

عقب ذلك الانتصار اقيمت الامارة العثمانية ، وكان نموذج الغزو والجهاد عنصرا هاما فى تأسيس وتطور تلك الامارة ، واستجاب المجتمع فى امارات الحدود

---

(١) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثمانى ،ص ٦٥ .
(٢) احمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٧ .
(٣) عمر عبد العزيز عمر : دراسات فى تاريخ العرب الحديث ،ص ٣٦ .

لنموذج ثقافى محدد ، اذ انه أفهم بالمثل الاعلى للجهاد المستمر ،والتوسع الدائم لدار الاسلام حتى يغطى العالم اجمع .(١)

سار عثمان بعد ذلك على هدى وايمان عميق بالدين الاسلامى وبنى سياسته على مشورة فقهاء المسلمين وحكم الناس حكما عادلا مستمدا من تعاليم الاسلام ووضع عثمان نفسه مجاهدا فى سبيل الاسلام .(٢)

" بعث الغازى عثمان الى جميع أمراء الروم ببلاد آسيا الصغرى ،يخيرهم بين ثلاثة أمور ،الاسلام أو الجزية أو الحرب ، فاسلم بعضهم ، وانضم اليه ، قبل البعض دفع الجزية ، واستعان الباقون على السلطان عثمان بالتتار واستدعوهم لنجدتهم ، لكن لم يعبأ السلطان عثمان بل هيأ لمحاربتهم جيشا جرارا تحت أمرة أبنه أورخان ، ومعه عدد ليس بقليل من أمراء الروم ومن ضمنهم كوسه ميخائيل صديق عثمان الذى أختار الاسلام دينا ، وبعد حروب كبيرة تشتت شمل التتار ".(٣)

عزم الغازى عثمان على فتح بروسه ، فأنشأ بالقرب منها قلعتين ، وعقد لواء ذلك لابنه الغازى أورخان فى ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م ، وبعد خروجه من مدينة ينى شهر مر باطره نوس ، ولما تقابل مع حاكمها أراد القبض عليه ففر من وجهه الى أن وقع من صخرة فمات وبذلك أمكن الاستيلاء على مدينة بروسه (٤) واسرع أورخان بن عثمان الى والده يخبره بالنصر الذى حققه ، وما لبث أن توفى عثمان فى سن السبعين ودفن فى بروسه ،العاصمة الجديدة للدولة الناشئة ، وكان سقوط بروسه خطوة هامة الى الأمام بالنسبة للعثمانيين ، الذين تحولت املاكهم من امارة حدود يسكنها الرعاة الى دولة اسلامية ، ذات عاصمة وحدود ،وسكان مستقرين ووسائل تطوير جيش نظامى

---

(١) 1- Halil Inalcik : The Ottoman Empire P.6 , 7 .

(٢) محمد عبد المنعم الراقد : الغزو العثمانى لمصر ونتائجه على الوطن العربى ،ص ٨٥ .

(٣) محمد فريد بك المحامى : مرجع سبق ذكره ،ص ١١٩ .

(٤) اسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ،جا ،ص ٤٨٧ .

يدافع عنها ويوسع رقعتها وادارة تشرف على شؤون الحكم .[١]

كانت الاناضول عشية تولى اورخان بن عثمان مقسمة لعدد من الامارات التى قامت بعد انقراض السلاجقة . فكان آيدين بك ،وصاروخان بك ، ومنتشا بك ،وكرميان بك ،وحميد بك ،وتكه بك ، وقره سى بك ،وهم جميعا من أحفاد السلاجقة حكاما على ممالك صغيرة ، يخشون على انفسهم من أولاد قرمان وكان أولاد اسفنديار حكاما مستقلين بجهات قسطمونى ، وكانت بقية الممالك الاخرى تحت تسلط بعض عشائر التركمان فكان بمرعش أولاد ذو القادرية وباطنة أولاد رمضان ،وكان من بين هؤلاء حكومة السلطان أورخان ، التى اكتسبت قوة ومكانة خصوصا بعد استيلائهم على مدينة بروسة ،التى جعلها أورخان مقرا لحكومته .[٢]

لم يلتفت السلطان اورخان لتلك القوى ولم يتحرك لملاقاتهم بل رغب فى تطوير دولته فى شتى المجالات الإدارية والمالية والعسكرية ليتمكن من بناء صرح اسلامى قوى [٣] خاصة وان دولته على الحدود مع الدولة البيزنطية ، بمعنى آخر انها دار حرب .

سن اورخان القوانين والانظمة بمساعدة رجال حكومته منهم قاضى بروسه ،وضرب السكة العثمانية ،وجعل للمأمورين والأمراء وأصناف الجنود وطبقات الأهالى ملابس مخصوصة ،كما رتب العساكر النظامية ووضع لهم قانونا للتربية ،بعد ان كانت جيوشه المؤلفة من الفرسان التركمان وممن استطاع من الرعية على الحرب لا نظام لهم ، فأنشأ لذلك طائفة الانكشارية ، وصار حسب ما رآه وزيره يأخذ كل سنة العدد الممكن من أولاد النصارى ،ويجمعونهم ثم يعلمونهم آداب الاسلام ومتى بلغوا السن الملائم أدخلوهم ضمن أوجاق

---

(١) احمد عبدالرحيم مصطفى : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٧ - ٣٨.

(٢) اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار ،ج١ ،ص ٤٨٨ .

(٣) على حسون : مرجع سبق ذكره ص ١٩ .

الانكشارية ، كما انشأ اورخان منصب الوزارة ،فعين آخاه علاء الدين باشا فكان اول وزير فى الدولة . آلتفت آورخان بعد ذلك الى الاراضى المفتتحة فقسمها الى قسمين وهما خاص وتيمار ، فكانت ايرادات التيمار لرجال الحرب والخاص للخزينة السلطانية ولأمراء العائلة الملوكية ولأعيان الحكومة ولم يكن هذان القسمان كالجفالك لان آراضيها كانت عبارة عن حقول يتصرف آربابها بالحرث والزرع ويعطون ما عليها من العشور الشرعية ، وما يخصها من خراج الانتقال من يد الى اخرى الى المتصرفين فى قسمى الخاص والتيمار وكان يتعين على اصحاب التيمارات بالنسبة لحاصلات تيماراتهم آن يدرب كل واحد منهم فارسا او فارسين او اكثر ويعلمه استعمال السلاح ، ومتى وقعت الحرب اجتمع هوءلاء الفرسان تحت لواء الأمير المعينون معه ، ثم يذهبون تحت قيادته الى ميدان القتال ،واطلق على هذا الصنف من الجنود اسم سباهية التيمار وقد خدموا الدولة خدمة جليلة .(١)

وضع اورخان شعارا لدولته فى المسجد الجديد فى بروسه ،موءكدا سياسة الدولة فى الغزو المتواصل وكان الشعار هو سلطان بن سلطان ،الغازى بن الغازى ومن خلال ذلك الشعار يتضح ان حكم اورخان كان حاسما فى مرحلة الانتقال من قوم رحل الى دولة مستقرة .(٢)

بعد ان استقرت اسس الدولة على تلك النظم الحديثة ، وجه آورخان اهتمامه نحو الفتوحات ، ففى سنة ٧٢٧هـ / ١٣٢٦م أعلن حربا على بلاد الروم والتى صادف خلالها وفاة حاكم ازميد مركز اقليم قوجه ايلى ،فانتقلت ادارة المدينة الى ابنته التى تصل اليها الامدادات العسكرية من القسطنطنية ولما حاصر تلك المدينة الغازى عبد الرحمن ،كاتبته الفتاة المذكورة سرا فأستولى على قلعتها ، وارسل الفتاة مع الغنائم الى السلطان اورخان ،الذى عقد نكاحها على الغازى عبد الرحمن لكونها اعانت الدولة ،ومازال يتقدم

---

(١) اسماعيل سرهنك : مرجع سبق ذكره ،جا ،ص ٤٨٨– ٤٨٩.

2- Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P.20 .

اورخان فى فتوحاته حتى حضر بنفسه فى سنة ٧٢٨هـ /١٣٢٧م ، وحاصر ازميد نفسها ، وارسل القائدين قرة على وايغور آلب مع جنود لفتح قيون حصار وفى اثناء القتال اصيب قلايون حاكم قيون حصار برصاصة فسقط ميتا من سور القلعة ، وبذلك استولت الجيوش العثمانية على القلعة المذكورة ،وبعدها سلمت بلاقونية حاكمة ازمير (نيقوميديا) المدينة الى السلطان أورخان فأركبها هى وجنودها ومن يريد من اهالى المدينة السفن وارسل الجميع القسطنطنية وذلك بناء على رغبتها وبذلك صارت حدود الدولة قريبة من خليج القسطنطنية .(١)

تقدم اورخان بعد ذلك نحو بحر مرمرة ،واستطاع أن يهزم حملة بيزنطية ضخمة ، كان يقودها الامبراطور آندرو نيكوس الثالث فى ٧٢٩هـ /١٣٢٨م،عندها تخلت بيزنطة عن بذل جهود خاصة بتنظيم المقاومة العسكرية فى الاناضول أو حتى تعزيز الحاميات المتبقية فى بعض المدن .(٢)

قام اورخان بعمليات عسكرية هامة ومن اهمها الاستيلاء على ازنك (Iznik) ،نيقية (Nicia) فى ٧٣١هـ / ١٣٣٠م (٣)،وكان فتحها على يد سليمان بن السلطان أورخان ، ولما تم فتحها وأصلح مبانيها حول السلطان بعض كنائسها الى مدارس ومساجد ، وعين للتدريس باحدى تلك المدارس العالم الشهير داود القيصرى ولما كانت هذه المدينة فى ذلك الوقت من اعظم المدن بتلك النواحى اتخذها السلطان اورخان عاصمة له .(٤)

استولى اورخان على ما تبقى من الاراضى البيزنطية فى شمال غرب الاناضول لسد الفراغ الذى خلفه البيزنطيون ، مما جعل دولته اقوى امارات التركمان فى المنطقة خاصة وقد تعزز مركزها باعتبارها زعيمة الجهاد ضد

---

(١) اسماعيل سرهنك : مرجع سبق ذكره ،جا ،ص ٤٨٩ .
(٢) احمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سبق ذكره ،ص ٤٥ .
(٣) عمر عبد العزيزعمر : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٧ .
(٤) اسماعيل سرهنك : مرجع سبق ذكره ،جا ،ص ٤٨٩.

العثمانيين [١] ،وكان من حسن سياسة العثمانيين فى هذه الفترة انهم اتجهوا بفتوحاتهم غربا نحو الدولة البيزنطية لبسط نفوذهم بعد ذلك فى اوربا وبجنود من البلقان ،تمكن العثمانيون فيما بعد من التوسع فلا صحة مطلقا للآراء التى كانت سائدة فى اوائل القرن العشرين عن ان العثمانيين جنس تركى مسلم قهر شبه جزيرة آسيا الصغرى ثم اتجه الى اوربا واسقط الدولة البيزنطية ، اذ مما لا شك فيه أن العثمانيين كانوا مسيطرين على البلقان كله قبل أن يمتد نفوذهم شرقا حتى قونيه .[٢]

افتتح سليمان بن اورخان سنة ٧٣٢هـ / ١٣٣١م بلاد مدونى وكمليك ،وفى اثناء ذلك ارسل قيصر الروم مجموعة من الهدايا للسلطان اورخان ،وعقد بين الطرفين هدنة لمدة عشرين سنة وبموجبها صارت نواحى مانياس ،وايدنجق ، وباليكسرى ،وبرغمه ،وقره سى ،وميخاليج ،وكرماستى ،من أملاك الدولة العثمانية ولم يتبقى للروم بالاناضول غير مدينة الاشهر وقلعة بيغا .[٣]

عزز اورخان مركزه بالتوسع على شواطئ بحر مرمرة ، منتهزا فرصة الهدوء النسبى مع المسيحيين فضم امارتى صرخان وقره سى ،مما جعل العثمانيين على مرمى البحر من جناق القلعة التى عبر الدردنيل ،كما سيطر على الساحل الجنوبى لبحر مرمرة مما سهل عليه العبور الى اوربا حين تسنح الفرصة .[٤]

اشتغل السلطان اورخان بعد ان عزز موقفه فى الاناضول ،بترتيب شئون الدولة ،وفتح المدارس وانشأ العمران وبنى الجوامع والتكايا ، فمن آثاره أنه أسس مدرسة عالية فى مدينة بروسه واخرى فى مدينة ازنيك وأجزل العطايا للشعراء والعلماء فأضاف بذلك خيرات السلم الى فتوحات الحرب .[٥]

---

(١) احمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سبق ذكره ،ص ٤٥-٤٦ .
(٢) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ،ص ١٧.
(٣) اسماعيل سرهنك : مرجع سبق ذكره ،ج ١ ،ص ٤٨٩ .
(٤) احمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سبق ذكره ،ص ٤٦ .
(٥) محمد فريد بك المحامى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٢٤.

كان العبور من الاناضول الى اوربا مهمة صعبة للعثمانيين ، ذلـــك لان بوغاز الدردنيل فى ايدى المسيحيين ومن ثم فان اى قوة ينزلها العثمانيون فى الاراضى الاوربية ، لم يكن فىاستطاعتها الاستمرار من دون ان ينالهـا الكثير من ضربات البيزنطيين ، لكن امارة كارسى (Karesi) الواقعة على الجانب الشرقى للدردنيل قد حلت المشكلة للعثمانيين .

ان النزاع حول عرش كارسى فى عام ٩٥٢هـ /١٣٤٥م اعطى السلطان اورخـان فرصة ضم هذه الامارة وان جنود كارسىالذين دخلوا فى خدمة العثمانييـن بدأوا بدورهم تعهد الفتح عبر الدردنيل واعدوا عدتهم لهذه المهمة الجريئة.

عقد السلطان اورخان فى عام ٩٥٣هـ / ١٥٤٦م اتفاقية تحالف مع يوحنـا الخامس كانتاكوزينوس (Cantacuzenc) احد المطالبين بالعرش البيزنطى وتزوج منابنته تيودورا ، هذا التحالف قد مد العثمانيين بفرصة التدخل فـى الشئون المحلية والاشتراك فى حروبهم (١) خاصة بعد ان استطاع كانتاكوزينوس الانتصار على خصومه ووصوله للعرش البيزنطى بفضل مساعدة العثمانيين (٢).

تحركت الدولة العثمانية فى عام ٧٥١هـ / ١٣٥٠م داخل القارة الاوربية كغزاة مستقلين ومستوطنيين ، ففتحوا الساحل الاوربى من بحر مرمرة ، وشددوا هجماتهم على ترانيا (Thrace) وموريا (Morea) (٣)، أصدر السلطـان اورخانامرا الى ولده الامير الغازى سليمان باشا ، بالاستعداد والزحف علـى بلاد الروملى فى الجنوب الشرقى لاوربا ، فجهز الجيوش وتقدم بها فـى عام ٧٥٧هـ / ١٣٥٦م حتى وصل الى قلعة جناق بساحل غربى آسيا على مضيـق الدردنيل ، وعقد هناك مجلسا مع اشهر قواده ، فأتفقوا على عمل حمالات(اكلاك) للعبور بها ، وبعد انشائها ركبوا عليها ليلا ، وعبروا بها الدردنيل الـى ساحل الروملى (٤) وصارت شبه جزيرة غاليبولى (Gallipoli) قاعـدة

---

(١) ابراهيم شحاته حسن : اطوار العلاقات المغربية العثمانية ،ص ٨١ - ٨٢.
(٢) عمر عبد العزيز عمر : مرجع سبق ذكـره ،ص ٣٧.
3- Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P.20 .
(٤) اسماعيل سرهنك : مرجـع سبق ذكـره ،جا ،ص ٤٩٠ .

للزحف العثمانى الجديد ، اذ أسس العثمانيون اول موطىء لهم فى اوربا ،وظل هذا الاتجاه ثابتا طوال ما يزيد على قرنين ، كما ظل سلاطين الدولة العثمانية مصممين على السمة الاوربية لفتوحاتهم على الرغم من الاخطاء والصعوبات التى واجهتها الدولة الا ان ذلك لم يترتب عليه اى تغيير ملحوظ للسمة الاوربية فى الفتوحات العثمانية .(١)

استولى سليمان بن اورخان فى سنة ٧٥٨هـ / ١٣٥٧م على قلعة جمبك (Tzympe) ، فى الوقت الذى كان فيه كونتاكوزينوس مشغولا بصراعه مع صهره حنا بالبولوجس ، بحيث لم يتفرغ للتصدى للقوات العثمانية بل ان الامبراطور البيزنطى طلب مساعدة السلطان ضد خصمه ومن ثم اتيحت الفرصة لارسال مزيد من الجنود العثمانيين ، لتعزيز قوات سليمان التى وطدت اقدام العثمانيين فى اوربا (٢) ،ومن اجل تقوية رأس الجسر العثمانى فى جمبك (Tzympe) فى اوربا نقل سليمان بن اورخان مسلمى الاناضول الى اوربا لاسيما البدو منهم ،الذين فى امكانهم التوطن بسهولة فى الاراضى الجديدة فنشأت قرى تركية جديدة وانتظمت الحدود تحت القيادة العامة لسليمان فى اطار قطاعات ادارية ثلاثة (ميسرى ويمنى ووسطى) يقوم على كل منها سيد غازى واستمرت الغارات العثمانية واتسعت مساحة المد العثمانى (٣) ،على مدى السنوات التالية ، وهذا ما سنلاحظه فى ثنايا الفصول التالية .

فلما فتحت القسطنطينية وتمركزت الدولة فى البلقان واتخذت القسطنطينية عاصمة للدولة ،كان معنى ذلك ان العثمانيين قوة ثابتة الدعائم فى شرق اوروبا ، وكانت خطة العثمانيين بعد ذلك هى اختراق اوروبا من شرقها الى جنوبها الغربى لاخضاع اوروبا للاسلام ونشر الاسلام فيها بدلا من التوسع فى عالم اسلامى سابق ،وكان الغرض من ذلك ايضا هو الوصول للاندلس برا باختراق اوروبا وانقاذ دولة الاسلام فيها .

---

(١) محمد عبد المنعم الراقد : مرجع سبق ذكره ،ص ٨٤.
(٢) احمدعبدالرحيم مصطفى : مرجع سبق ذكره ،ص ٤٧ .
(٣) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ،ص ٨٣ .

الفصل الأول

(الفصـــــل الاول)

" شبه جزيرة ايبريا فى اواخر القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى"

أ – الدولة الحديثة فى البرتغال واسبانيا .

ب – قيام دولة اسبانيا الموحدة .

ج – حروب الاسترداد .

د – سقوط غرناطة فى عام ٨٩٢هـ / ١٤٩٢م .

كان المجتمع الاوربى الاقطاعى ابان العصور الوسطى ،قد قدم الطبقة الحاكمة من المحاربين الاحرار كما قدم نموذجا ثقافيا اكثر جاذبية ،وملاءمة لاغراضهم عن قيصرية ومركزية العالم البيزنطى [1] ،وكانت طبقة النبلاء العالية والاشراف والامراء من ذوى الدماء الفرنسية واشراف اسبانيا ،والامراء من العائلات الايطالية القديمة نادرا ما اعتمدوا على طرق اقتصادية بحتة ليزيدوا من قيمة شراء عائلاتهم بل كانوا اكثر المستفيدين من الرعاية الملكية،حيث لم يمكن لحكم ملكى اوربى ان يعمل بدون تدعيم وتعزيز خدمة طبقة النبلاء فى المراكز الحربية والادارية العليا وهذه الخدمة كان يجب أن تكافأ بسخاء ، وبصورة تليق بكل من المعطى المستفيد [2] وحتى٩٠٦هـ/١٥٠٠م ، كان غالبية الاوربيين يعيشون فى الريف فى مزارع خاصة او فى مدن ريفية صغيرة كما كانوا عليه فى اغلب فترات العصور الوسطى ، وباستثناء بعض الحالات الشاذة ، فان طبقة الفلاحين لم يكونوا عبيدا كما كانوا عليه فى الماضى حين اكتمل النظام الاقطاعى ، بل اخذوا يتحررون بصفة قانونية ،ومن ثم اصبحوا قادرين على التصرف فى بيع املاكهم اذا رغبوا فى مغادرة قراهم والكثير من هوءلاء الفلاحين لم يعملوا باعمال المزرعة للعيش والرزق ،ولكن لانتاج محصول عينى كالصوف والكتان وآخرين عملوا فى غزل الصوف ونسج القماش وتشكيل وطرق المعادن ليس فقط لاحتياجهم واحتياجات زملائهم القرويين ،ولكن ايضا للبيع فى الاسواق المحلية والاجنبية المنظمة ، وفى اغلب اوربا فان المجتمعات القروية ظلت بحالة جوهرية على حالتها الأصلية ،فالاشراف والاقطاعيون استمروا فى تطبيق نظمهم المعروفة على طبقة الفلاحين ،فى الحصول على الايجارات المستحقة لهم من الفلاحين والعقوبات والخدمات الخاصة [3] ، كانت هذه الحالة قبيل مطلع العصور الحديثة .

وعندما عبرت النهضة جبال الالب ، نجدها قد تغيرت الى حالة عملية بدلا من فنية ، كما انها اصبحت انتقادية ، وتحلت بطابع ادبى وفلسفى جديد

1- Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P. 80 .

2- H.G.Koenigsberger and george L.Mosse : Europe in the sixteen Century P.42 .

3- IBID P.P. 12 - 22 .

ومن ثم بدأ التمرد ضد العصور الوسطى فيعدةمجالات وقدمت كل دولة شيئا مساهمة منها فى العالم الجديد.[١] واخذ الاقطاع بنظامية السياسى والاجتماعى يتحول الى ممالك مطلقة فى فرنسا واسبانيا كما تطورت معه الفلسفة المدرسية الماثلة فى نظام العصور الوسطى فى التفكير لتصبح علما حديث وتعليما على يد علماء ومفكرين[٢] ومن ثم شهدت سنوات النصف الثانى من القرن الخامس عشر تطورات كبيرة فى شبه الجزيرة الايبرية أثرت على مستقبل هذا الاقليم وسكانه كذلك على مستقبل العرب الموجودين فيه والمغاربة فى كل شمال افريقية وكانت اوربا تمر فى ذلك الوقت بمرحلة تطور واضحة ساعدت على اضمحلال سلطة ونفوذ النظام الاقطاعى ونمو وظهور القوميات الحديثة التى ارتبطت بسلطة الملك من ناحية وارتبطت بأبناء الطبقة الوسطى ،وطبقة رجال المال والاعمال من ناحية اخرى وكانت الحروب الصليبية قد ساعدت فى القضاء على عدد كبير من النبلاء وعلى سلطتهم ونفوذهم ولصالح التاج فى بلادهم وكانت كذلك قد ساعدت على نشأة نظام الضرائب المباشرة واللازمة للانفاق على الحملات الموجهة ضد المسلمين ، وزادت هذه الضرائب من تدعيم مركز الملوك[٣]، ومع نشأة الدولة الوطنية الحديثة فى الامم الموحدة اتجهت هذه الدول نتيجة لشعورها بقوة مركزها وانطواء شعبها تحت راية واحدة الى محاولة التوسع وبسط سيطرتها على غيرها من الامم والشعوب التى تأخر تكوينهاوكانت اقل تنظيما سواء فى داخل اوربا او فى خارجها ولهذا اتجهت الدول الموحدة فى اوربا الى توسيع املاكها داخلالقارة كما حدث فى ايطاليا عندما نشب الصراع الفرنسى الاسبانى المعروف بالحروب الايطالية[٤]، بينما اتجهت دول شبه الجزيرة الايبيرية الى نحو ما سمى بالاسترداد ،ومن ثم التوسع خارج اوربا وذلك بحكم موقعها الجغرافى .

وكانت البرتغال التى تتمتع بموقع هام لوجودها على الطرق التجارية بين موانىء البحر المتوسط وشمال غرب اوربا ، مما جعلها أقرب للسواحل

1- J.M.Thompson : Lect on Foregn History P.48 .
2- IBID P.84 .

(٣) جلال يحيى : المغرب الكبير ،ص ٧ .
(٤) غسان على رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين فى البحر الاحمر،ص ٨.

الافريقية حيث اعطاها ذلك اهمية استراتيجية وتجارية تجلى ذلك فى العاصمة لشبونة التى كانت مركزا لتجارة غرب افريقية المستوردة الى غرب اوربا وهذا بدوره وفر الاموال اللازمة التى ساعدت ملوك البرتغال على توجيد اجزاء البلاد الداخلية جعلتهم يعملون باستمرار من اجل الكشف والارتياد[١]، فشغل الملوك من بيت آفيس (Avis) فى ذلك[٢] خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ولتصبح البرتغال نصيرة المسيحية وراعيتها ضد الاسلام لتكون روح الحروب الصليبية مستمرة بل وتزدهر ايضا مكتسبة قوة على قوتها فى شبه الجزيرة الايبيرية خلال الفترة المذكورة .[٣]

كان هنرى الملاح (١٣٩٤ - ١٤٦٠ م) يحلم منذ طفولته بتقويض مراكز الاسلام فى اى مكان يستطيع ، فافتتح مغامراته ضد الاقطار العربية والاسلامية بالهجوم على سبته (Ceuta)[٤] سنة ٨١٨هـ/ ١٤١٥م ، وكان فتحها عملا من اعمال الحروب الصليبية التى سوف تشمل العالم كله وتهدد الاسلام من حدوده الجنوبية لاول مرة فى التاريخ[٥] واعتبر هنرى هذا النجاح عبارة عن مرحلة اولى من اجل الاستيلاء على مراكش .[٦]

بعد ان ثبت البرتغاليون اقدامهم فى سبتة وبعد تحصينها اتجهت انظارهم الى طنجة واعدت حملة قوامها ثمانية آلاف جندى ووصلت الحملة الى سبتة فى ٢٧ اغسطس ، وانقسمت الى قسمين برأسة الامير (D. Henrigue) الذى سلك الطريق البرى نحو طنجة ، والقسم الآخر رأسه الامير (D. Fernando) وسلك الطريق البحرى ، وذلك حتى يطبقوا على المدينة من الجهتين .

---

(١) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ،ص ٩.
(٢) محمدعبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ،ص ١٢٥.
(٣) ك.م.بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ،ص ٢٤ .
(٤) سليم طه التكرينى : المقاومة العربية فى الخليج العربى ،ص ٤٠ .
5- J.H.Elliot : Imperial Spain 1469-1716 P. 46 .
(٦) عبد القادر احمد اليوسف ،علاقات بين الشرق والغرب ،ص ٢٥٧ .

وكانت بلاد المغرب تمر بفترة حرجة ،فكان السلطان المرينى(ابوسعيدعثمان) قد قتل ٨٢٣هـ/١٤٢٠م ، وخلفه ابنه عبد الحق ،وكان طفلا صغيرا ،فآلت امورالدولة الى الوزراء والحجاب فكثر النزاع بينهم ولكن الوزير- ابو زكريا يحى الوطاسى نجح فى القبض على الامور ونصب نفسه وصيا على الملك الطفل، وارسل للاقاليم المغربية يحصنها واسرع فى تقديم المعونة للمدينة المجاهدة طنجة ، وكان على رأس الجيوش المدافعة عنها وانتهت المعركة بهزيمة البرتغاليين [١] ووقع الامير هنرى الملاح اسيرا بيد القوات الاسلامية ، ولم يطلق سراحه الا بعد تعهده بالانسحاب من سبته غير انه نكث عهده حالما رأى نفسه طليقا .[٢]

رأى الفونسو الخامس ان يتابع عمليات الغزو للثغور ،وتمهيدا للاستيلاء على طنجة قاد الملك فى محرم٨٦٣هـ/ اكتوبر١٤٥٨م حملة ضخمة لمهاجمة ميناء القصر الصغير ونجحت الحملة فى تحقيق اهدافها واقتحمت القوات البرتغالية الميناء المغربى ، وبنى البرتغال به حصنا لحمايتهم .

وكانت هذه استجابة لدعوة البابا بعد سقوط القسطنطنية ،اذ رأى الفونسو ان يوجهها نحو المغرب بدلا من القسطنطنية وذلك بحجة ارساء قاعدة بحرية فىالشمال الإفريقى تكون فى خدمة الاساطيلوالجيوش الاوربية فى المستقبل .[٣]

وفى عام ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩م ، هاجمت قوة برتغالية انفا (Anfa) ، واستولت عليها كما نجحت قوة برتغالية فى الاستيلاء على اصيلا (Arzila) عام ٨٧٦هـ / ١٤٧١ م ،ثم استولوا على العرائش ،ثم طنجة فىربيع الاول/ اغسطس من نفس العام ،وقد سقط هذا الميناء الذى سبق وان استعصى عليهم وذلك بسبب الخلافات الداخلية بين ملوك المغرب ،ومن هذا التاريخ اصبح ملك البرتغال يلقب بلقب ملك البرتغال والاقاليم البرتغالية فيما وراء البحار .[٤]

---

(١) شوقى عطا الله الجمل : المغرب العربى الكبير فىالعصر الحديث ،ص ٤٥ .

(٢) عبد القادر احمد اليوسف : علاقات بين الشرق والغرب ،ص ٢٥٧ .

(٣) شوقى عطا الله الجمل : نفس المرجع ،ص ٤٧ – ٤٨ .

(٤) شوقى عطا الله الجمل : نفس المرجع،ص ٤٩ .

ومع بداية حكم دون مانويل دعم وعزز البرتغاليون امبراطوريتهم بالفتح والاستيلاء على اجزاء من المغرب واحتلال جزر الاطلنطى واكتشاف الساحل الغربى لافريقيا ، فاستلم قلاع سبته التى سبق وان فتحت فى عام ٨١٨هـ/١٤١٥م ،والقصرالصغير ٨٦٢هـ/ ١٤٥٨م ،و مليلاةوطنجة ٨٧٦هـ/ ١٤٧١م ، وعمل محاولة للامتداد ذلك ببناء قلعة (Graciosa) عند مصب نهر (Lukkus) ولكنه ثبت انه غير عملى ، وعندما انسحب البرتغاليون شيد سلطان مدينة العرائش قلعة لحماية المصب ، وتحت حكم مانويل اضاف البرتغاليون الى الفتوحات فى المغرب الشمالى سلسلة من القلاع على ساحل الاطلنطى ، ولكن هذه القلاع كانت فى الاصل مراكز استولوا عليها ، وعززت وقويت بغرض تأكيد الحقوق التجارية البرتغالية .

وبلغت قمة التوسع البرتغالى عام ٩٢١هـ / ١٥١٥م عندما حارب (Nuno de Ataide) فى مراكش ، واتجه بعيدا وبنى قلعة فى المعمورة واعد حملة هجوم على فاس هزمت وقتل فى العام التالى اثناء غارة قرب مراكش(١) اما بالنسبة لاسبانيا فكانت هى اهم قوة فى اوربا فى هذا الوقت ، وكانت قشتالة هى اهم اقليم فى اسبانيا وقد لعبت سلسلة من الارث والزواج على تجميع الاقاليم واستقطاب الدول لدى ملوك اسبانيا وقد عرفوا كيف يديرون دفة سياستهم فى هذا العصر (٢) وسنرى كيف ساعد الميراث والمصاهرة فى الفترة التالية على تكوين الدولة المركزية الموحدة ،واثر ذلك على الوجود الاسلامى داخل شبه الجزيرة الايبيرية ، وخارجها فى الشمال الافريقى ودل صراع اسبانيا النصرانية على غرناطة ،على مدى اصرار الاسبان وتعصبهم وعنفهم بالنسبة لمسلمى غرناطة ، ولم يكن يخفف من هذا سوى احداث داخلية شغلت بعض الاوقات .

ساهمت اقاليم عديدة فى شبه الجزيرة الايبيرية بمهاراتها الخاصة فى سبيل تحقيق هدف واحد وهو الاتحاد ومن ثم حروب الاسترداد ، وتمكنت قشتالة بذلك من تحقيق نتائج حاسمة خلال العصور الوسطى ، واكتسب اهل قطالونيا وأراغون الخبرة الواسعة فى المغامرات التجارية والاستعمارية فى شمال افريقيا والشرق وأنشأ أهل جزيرة مايورقة مدرسة هامة لإعداد الخرائط توصلت الى وسائل متنوعة لرسم خرائط الارض المجهولة .(٣)

1- H.V.Livernmone : A new History of Portugal P.P.135-136.

(٢) جلال يحيى ،وجاد طه : مرجع سبق ذكره ،ص ٦٦ .

3- J.H.Elliott: Imperial Spain P.45 .

وهكذا رأينا كيف كانت اوربا ومعها شبه الجزيرة الايبيرية تعيش فى العصور الوسطى تحت ظل النظام الاقطاعى ،ثم قيام النظام المركزى الموحد ، لتتحد الاقاليم فيما بينها وتكون الدولة الموحدة فى كل من البرتغال واسبانيا يكون هدفها هو حروب الاسترداد ولتستمر عجلة الحروب الصليبية فيما بعد .

***

فى الوقت الذى بدأت فيه البرتغال نشاطها الاستعمارى فى القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى ،كانت اسبانيا تتكون من مملكتى قشتالة وأرغوان كما اشرنا من قبل ،وكانت قشتالة بحكم موقعها الجغرافى تتجه نحو المحيط الاطلسى ، وكانت بحكم دورها فى الصراع مع المسلمين تهتم بما يجرى فى المغرب ، اما مملكة أراغون فقد كانت بحكم امتلاكها جزر البليار وصقلية وسردينيا ، ولوجود احد أفراد أسرة أراغون الحاكمة على رأس حكومة مملكة نابولى ، اخذت ارغون تتجه نحو البحر المتوسط ، لذلك كانت سياستها تهدف الى تأمين طريق بحرى آمن بين اشبيليه وصقلية الغنية بالحبوب وكان لابد لها من اجل تحقيق ذلك ايجاد نقاط ارتكاز على سواحل شمال افريقيا (١) لذلك كانت مصالح المملكتين مختلفة لكن كان يجمعهم عامل واحد وهو عداوءهم للاسلام والمسلمين سواء المتواجدين فى شبه الجزيرة الايبيرية ،او فى شمال افريقية لذلك كان من الاجدى للممالك المسيحية داخل اسبانيا النصرانية ان تتحد لمواجهة الوجود الاسلامى فى المنطقة .

وكان قد تولى على عرش أراغون يوحنا " خوان الثانى " الذى سعى فى أن يزوج ابنه فرديناند " الخامس " من ابنة عمه ايزابيلا القشتالية (٢) التى كانت سترث ملك قشتالة ، فأخذ ملوك عصرها يتسابقون على خطبتها ، الا ان اختيارها وقع على فرديناند ابن عمها الذى سيرث مملكة أراغون ، ومضت اليه رغما عن ارادة الكثيرين من أعيان المملكة (٣) مثل (Joan Beltraneja) خال ملك البرتغال الفونسو الخامس ، والذى عارض فى ترشيح ايزابيلا لتكون ملكة لقشتالة ، بعد ان رشحها الفونسو لترث ابنه هنرى الرابع (٤) وتمت مراسم الزواج فى وادى الوليد سنة ٨٧٤هـ /١٤٦٩م .(٥)

---

(١) محمد خير الدين فارسى : تاريخ الجزائر الحديث ،ص ١٤ .

(٢) عبد الرحمن الحجى : التاريخ الاندلسى ،ص ٢٥٩ .

(٣) شكيب ارسلان : خلاصة تاريخ الاندلس ،ص ١٦٠ .

4- J.M. Gomez : Aconeise History of Spain P.265 .

(٥) شكيب ارسلان : نفس المرجع ،ص ١٦٠ .

اعتلت ايزابيلا عرش قشتالة سنة ٨٧٩هـ/١٤٧٤م ،وبعد ذلك بخمس سنين وفى سنة ٨٨٤هـ / ١٤٧٩م ، ورث فردينانـد عرش اراغون ، بعد ان توفى والده خوان الثانى [١] عندها ضم فردينانـد الكاثوليكى مملكته اراغون وبلنسيه وقطالونيا وصقلية وميورقة الى قشتالة وهكذا بينما كانت هذه الممالك النصرانية تتحد كانت الممالك الاسلامية تزداد تفككا [٢] وكان ذلك من عوامل فشل الابقاء الاندلسى ، كاد يقع بين الزوجين الكاثوليكيين فى اول الامر الشقاق والاختلاف ،لكون فردينانـد كان يزعم انه هو الملك الوحيد ،ولا يوجد رجل سواه من سلالة اتريك دوترا ستامرا ، بينما تزعم ايزابيلا ان انتقال الامر للنساء معروف فى عادات مملكة قشتالة ، وهى اقرب وريثة الى آخر ملك فلها الحق وحدها فى الملك وقرر فردينانـد العودة الى اراغون وهنا اخذت ايزابيلا تقدم له البراهين مقرونة بالرجاء بأن ما تدعيه هذا ضرورة لمصلحة ابنتهما ، على فرض انهما لم يرزقا ذكرا ، ثم وعدت ايزابيلا فردينانـد بأن يحكما سويا بدون ان تخالفه فى شئ ، وان تقدم اسمه على اسمها فى الاوامر ولكن لها وحدها الحق فى تنصيب الحكام والولاة [٣] وهكذا بدأت ايزابيلا حكمها بخطوات وثيقة وسرعان ما بدأت المعارك الطاحنة فخاض مساعدوا الامير معركة(Albuera, Toro) وبعدها وقعوا معاهدة (Trujilla) سنة ٨٨٤هـ / ١٤٧٩م [٤] .

توصلت اسبانيا بهذا الزواج وذلك الاتفاق الى توحيد الوحدات الادارية فيها وذلك بضمها الى بعض ووصلت الى وحدتها الوطنية فى عهد فردينانـد وايزابيلا ، ولكن هذه الوحدة القومية كانت مرتبطة فى شبه الجزيرة الايبيرية بصفة دينية وهى الصفة الكاثوليكية ،وعمل هذا العمل مع طبيعة معركة الاسترداد على الوصول الى حالة عداوة مستمرة مع المغاربة ، وكانت معركة تاريخية بين الاسبانيين من جهة والمسلمين من جهة اخرى ، استخدم الاسبانيون

---

(١) عادل سعيد بشتاوى : الاندلسيون المواركة ،ص ٩٨ .
(٢) شكيب ارسلان : ، مرجع سبق ذكره ،ص ١٦٢ .
(٣) شكيب ارسلان : نفس المرجع،ص ١٦١ .
4- J.M.Gomez : A concise History of Spain P.266 .

كل شدة ممكنة وكل تعصب يمكن تصوره [١] وكان الايبريون عامة قد سيطر عليهم الخوف من الحركة الاسلامية الممثلة فى قوة الدولة العثمانية وحركة الجهاد ، خاصة بعد فتح العثمانيين للقسطنطنية [٢] وحاولت القيادات الموجودة فى شمال افريقيا ارسال النجدات للمسلمين فى الاندلس ، لكن هذه النجدات لم تؤد الى نتيجة حاسمة لها قيمتها امام نمو قوى الكاثوليك فى النواحى العسكرية والاقتصادية فى مقابل زيادة ضعف الامارات الإسلامية فى بلاد المغرب سواء من الناحية الاقتصادية او الحربية .

اتسمت فترة الاتحاد بعملية اصلاح اسبانية واسعة ، كأنها انعكاسا لطموحات ايزابيلا فى بناء مملكة قوية ، وما كان ذلك يكتمل لديها دون اخراج الاندلسيين من غرناطة والقضاء على وجودهم فى اسبانيا ولتضمن ايزابيلا القضاء على اية معارضة حقيقية لها بين النبلاء وعلية القشتاليين ، اذ كانت اقاليم شبه الجزيرة الايبرية تعود لقتال بعضها بعضا احيانا فور انتهاء المعارك مع المسلمين [٣] بالاضافة الى الوضع الامنى فى الاقاليم الاسبانية اذ كثرت الاعمال اللصوصية وقطع الطرق وما كانت تخلو كورة [٤] من عبثهم وفسادهم [٥] وكل ذلك اعتبرت ايزابيلا ان تجديد الحرب مع الاسلام سبيلا الى ما لا يمكن توحيده فى السلم ، ولطالما لجأت الدول الى شن الحرب على دول اخرى لمجرد تحويل الانظار عن ضعف داخلى معين .[٦]

كان الضعف الموجود فى اسبانيا يتمثل فى مجموعة من المشاكل الداخلية وهذه صاحبت عمليات حروب الاسترداد بما اشتملت عليه من ضغوط ادارية وازمات اقتصادية ،نتيجة لسيطرة الدولة على الموارد الاقتصادية ، حتى تتمكن من

---

(١) جلال يحيى : المغرب الكبير ،ص ١٠ .

(٢)

3- H.V.Livermore : A new History of Portugal P.126 .

(٣) عادل سعيد بشتاوى : مرجع سبق ذكره ، ص ٩٨ .

(٤) يقصد بالكورة اقليم .

(٥) شكيب ارسلان : مرجع سبق ذكره ،ص ١٦٨ .

(٦) عادل سعيد بشتاوى : نفس المرجع ،ص ٩٨ .

القيام بتنفيذ عملياتها الحربية ، ولذلك اضطرت القيادة الاسبانية الجديدة والمتحالفة مع الكنيسة الى توجيه انظار سكان شبه الجزيرة نحو الخارج،واخذت ترفع من درجة حماسهم حتى ينسوا بوءسهم ، لذلك يصعب على اى موءرخ ان يصف حركة الاسترداد بانها حركة تحرر ، اذ ان اوضاع اسبانيا فى ذلك الوقت كانت تبعد كل البعد عن معنى الحرية ،حتى فى علاقة الحاكم والمحكوم .(١)

وكان فرديناند وايزابيلا فى محاولة مستمرة للسيطرة ، وكان تاريخهما عبارة عن فترة ممتدة من النشاط الادارى الصبور والحازم حتى اضطر المجتمع الاسبانى الى الوحدة لان الحرب الصليبية فى البحر المتوسط ضد المسلمين ،كانت تستنفذ الوقت والنشاط المالى وهى عوامل جوهرية لهذه الاهداف والمشاريع ،وحيث ان الحكومة انشغلت بضغوط وطلبات الحرب لذلك اضطرت ان ترضى بالواقع الممكن فىحين تركت مشاكل الدولة المحلية العميقة دون ان تمس .(٢)

وكما قدمنا فقد هيأ اقتران فرديناند ملك اراغون وايزابيلا ملكة قشتالة لاتحاد اسبانيا ، ولكن لم يدمج المملكتين معا ، فقد ظل لقب ملوك اسبانيا موجودا ، ولم يكن فرديناند ملكا على قشتالة الا بوصفه زوج ايزابيلا وكانت صور الاثنين تظهر على العملة والاسلحة والرايات ، وقد افادت قشتالة وحدها من ضم غرناطة ومن الكشوف الجغرافية ، ولكن لم يكن هناك سياسة اسبانية داخلية فقد كانت هناك سياسة اسبانية خارجية واحدة يوجهها فرديناند الذى نجح فى اثارة اهتمام قشتالة بمسائل القارة وشبه الجزيرة الايطالية (٣) بينما احتفظت اراغون بتقاليد التوسع الاستعمارى فى جزر الباليار وسردينيا ومالطة ونابولى وصقلية (Sicily) ، ولم تشترك قشتالة معها كثيرا فى هذا المضمار (٤) بينما نجد فرنسا قد قامت بمحاولات لبسط سيطرتها فى شمال ايطاليا ولتكون منافسةلاسبانيا لتنعكس مصالح الاثنين فىالبحر المتوسط (٥)

---

(١) جلال يحيى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٨ .

2- Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P.P.129 - 130.

(٣) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ،ص ١٤ – ١٥ .

4- Paul Coles : IBID P.P.129-130.

5- Stanford Show : A History of Ottoman Empire P.69 .

ومع هذا تمكن فرديناند من تسخير ثروة ونشاط قشتالة للاغراض الارغوانية ، ومواصلة حرب ناجحة ضد فرنسا للهيمنة على ايطاليا الشمالية ، وقد غرس استراتيجية طويلة المدى للفتح الايطالى ، كمبدأ ارشادى للسياسة الاسبانية الخارجية ، وورث هذه الاستراتيجية شارل الخامس ، وتابعها بنجاح لدرجة انه فى اوائل الثلاثينات من القرن السادس عشر كانت غالبية شبة الجزيرة الايطالية فى يد الإسبان ، او تحت التأثير الاسبانى ،وفى نفس الوقت بلغ الهجوم العثمانى الجرىء والافريقى الشمالى ضد العالم المسيحى نسبة هائلة ، وهددت الاساطيل العثمانية بمجاهدو الجزائر باكتساح البحر المتوسط لاخلائه من التجارة المسيحية (١) وسنتعرض لذلك بالتفصيل فى الفصول التالية .

لتحقيق الهدف الصليبى استخدمت اسبانيا العنف وسفك الدماء وحمل المسلمين على التنصير وتدمير قرى ومدن المناوئين منهم ، وارتكب الاسبان جرائم بشعة فى حق الحضارة والعلم ،باضطهاد الحضارة الاسلامية ،وحرق كتب العلماء ومصاحفهم ، مع ان حضارة المسلمين كانت النور الذى اخرج اوربا من ظلمات العصور الوسطى الى العصر الحديث (٢) وشعرت اسبانيا بالقوة نتيجة لهذه الاعمال ضد المسلمين فى غرناطة وسنرى ذلك فيما بعد .

اشرنا الى اهمية الزيجات السياسية والمصاهرة فى تاريخ شبه الجزيرة الايبيرية ،وان ايزابيل ابنة فرديناند وايزابيلا تزوجت من الفونسو امير البرتغال ، ولما توفى تزوجت عمانويل الذى ارتقى عرش البرتغال٩٠٠هـ/١٤٩٥م ،وعند وفاتها تزوج عام٩٠٨هـ/١٤٩٨م ، اختها مارى (٣) اما الاميرة جوان ابنة فرديناند وايزابيلا فقد تزوجت الامير فيليب امير بورندى وابن الامبراطور مكسميليان امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة وانجبت شارل الخامس اما الاميرة كاترين فقد تزوجت امير ويلز ، وكل ذلك اعطى اسبانيا مكانة كلاسيكية وشيئا من العالمية والوطنية (٤) واستغلت ذلك فى التغلب على كثير

1- Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P.124 .

(٢) محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ،ص ١٢٣.

(٣) محمد عبد اللطيف البحراوى : نفس المرجع ،ص ١٢٤.

4- J.M.Gomez: Aconcise History of Spain P.269.

من مشاكلها وتحقيق اهدافها سواء في شبه الجزيرة الايبيرية او في خارجها ،كما لاحظنا من وضع قشتالة يدها على جزر الكنارى بعد معاهدة ٨٨٤هـ/١٤٧٩م والذى تنازلت فيها البرتغال لقشتالة عن تلك الجزر مما اثر في توجيه قشتالة انظارها للمحيط الاطلسى وكان هذا شيئا بالغ الاهمية في تاريخ فتوحاتها عبر البحار نظرا لما تتمتع به جزر الكنارى من موقع جغرافي له قيمة كبيرة ، اذ جعلت منها مركزا مرحليا ضروريا للطريق الى العالم الجديد ، ورست الحملات الاربع بقيادة كولومبس امام ارخبيل الكنارى وهكذا تشكلت الحلقة الكاملة بين الاسترداد في اسبانيا واكتشاف امريكا .(١)

وكان اهل قشتالة قد اكتسبوا خبرة واسعة تجارية وبحرية خاصة خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، فنشطت حركة المسيتا (Mesta) ورواج ، تجارة الصوف ببلاد شمال اوربا ، وتسبب ذلك في تطوير موانئ شمال اسبانيا مثل سان سبيستيان (San Sebastian) ولاريدو (Laredo) وسانت نديير (Santander) وكورونيا (Corunna) والتى سبق وان اتحدت في عام ٦٩٦هـ /١٢٩٦م في رابطة واحدة تحت اسم هيرمنداد دىلاماريس ماس (Hermandad de las Marismas) بهدف حماية مصالحها التجارية الداخلية والخارجية ، كما نمت مدينة اشبيليه وتجار بلاد البحر المتوسط لمناقشة المشاريع الجديدة وتأسيس شركات جديدة والاعداد لمغامرات كبرى وكانت المدينة بمثابة برج اوربا لمراقبة شمال افريقيا والاراضى الواسعة عبر المحيط الاطلسى .(٢)

ولكل هذا قرر فريدناند وايزابيلا في اسبانيا ان يعضدوا خطة كولومبوس وكان هذا ليس بسبب ان ناصحى فريدناند وايزابيلا وخبراءهم قد اقتنعوا فجأة بصحة مناقشات وجدل كولومبوس ، ولكن بسبب ان وزير الخزانة الملكى لويس سانتانجل (Luis de Santangel) قرر ان يمده بجزء من الامداد

1- J.H.Elliott: Imperial Spain P.46.
2- IBID P.45.

المادى والضرورى ،فانضم سانتانجل وارتبط مع مجموعة من الممولين من جنـــوة الذين يعملون عبر اشبيليه وراقب تمويل مجموعة سانتا هرمانداد (Santa Hermandad) الموءسسة المسئوولة عن النظام المدنى فى قشتالـــة .(١)

لقد اكتشفت امريكا ،ولكن لم يكن اكتشافها عن طريق محاسن الصـــدف بل كانت شبه الجزيرة الايبيرية احسن دول اوربا فى استعدادها لتنتشر عبـــر البحار فى اواخر القرن الخامس عشر ،بالرغم من قيام قشتالة بفتح العالـــم الجديد واستعماره ، ويعتبر هذا الانجاز من اهم انجازاتها السائدة الا أنـــه تم على اساس ايبرى مشترك (٢) وهو الهدف المشترك لضرب المسلمين وتجارتهـــم للوصول الى مناطق التوابل فى الهند عن طريق الغرب .

وفى ١٥ جمادى الاولى ٩١٠هـ/نوفمبر ١٥٠٤م توفيت ايزابيلا فى (Medina del compa) وكانت وصيتها تدل على حنكة سياسية جديرة بالملاحظة (٣) فاوصت زوجهـــا فرديناند بمتابعة الحملة الصليبية ضد الكفار " المسلمين " فى المغـــرب والاستمرار فى الابتعاد عن ساحة الصراع فى اوربا ، واستجاب فريدناند لوصيـة زوجته فكانت بعض الحملات على الشمال ، ولكن معظم جهوده تركزت على منازلـــة الفرنسيين مستخدما الساحة الايطالية لذلك الصراع ، وحقق فريدناند انتصارا كبيرا على الفرنسيين فى ايطاليا .(٤)

وكانت ايزابيلا قد تركت عرش مملكة قشتالة لابنتها جوان ،التى كانـــت مصابة باختلال عقلى ،واصبح زوجها فيليب نائبا لها حتى يبلغ اكبر ابنائهـــا سن الرشد ،وكان فريدناند يطمح فى حكم مملكة قشتالة ولكنه حاول ان يتجنـــب حربا اهلية قدر الامكان حتى لا يوءثر ذلك فى مواجهة الاسلام والمسلمين وفى ٩١٢هـ/ ١٥٠٦م ، كان موت فيليب المفاجىء فرصة لفريدناند لحكم مملكة قشتالـــــة

1- Don O'Sullivon : The Age of Discavery P.27 .
2- J.H.Elliatt: Imperial Spain P.44.
3- J.M.Gomez : Aconcise History of Spain P.273 .
(٤) عادل سعيد بشتاوى : مرجع سبـــق ذكره ،ص ١٢٣ – ١٢٤ .

مرة اخرى (١) وكانت آخر سنوات حكمه ، الذى كرس جهوده فيها لوقف توسع الفرنسيين فى اوربا ، ودعم ممتلكات اراغون فى البحر المتوسط ،وضم مملكة نافارا الى سلطانه متزرعا بأن مملكة نافارا تحاول التآمر عليه مع الفرنسيين فسير اليها جيشا سنة ١٥١٢ (٢) وفى عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م توفى فريدناند تاركا اسبانيا لحفيده شارل الاول ابن الاميرة جوانا ، التى تزوجت من الامير فيليب ، كما ورث شارل الاول المقاطعات الألمانية المملوكة لاسرة الهابسبرج من جده لوالده ماكسيمليان عام ٩٢٥هـ/١٥١٩م حيث تم اختياره فى نفس العام امبراطورا على الامبراطورية الرومانية المقدسة .

وكانت المصاهرات داخل الاسرة الحاكمة قد تسببت فى نتائج هامة ،أثرت على تاريخ اوربا كله حتى قيام الثورة الفرنسية ،وجعلت من اسرة الهابسبرج قوة عالمية (٣) وذلك بعد وصول شارل الاول الى عرش اسبانيا ، الذى ينتمى لاسرة الهابسبرج ،وكثير من المعاصرين تخيلوا فى ذلك الوقت أن شارلز يهدف لجمع هذه السلسلة من الاملاك التى ورثها فى مملكة يحكم بها غرب اوربا وفى الحقيقة لم يفكر شارلز فى اى من هذه الافكار العظيمة ، ولم يستطع خلق نظام واحد لجميع الولايات التى يملكها ،ولو نجح فى ذلك لاعتبرت الولايات ذلك تدخلا ومنعا لحرياتها حتى لو كانت شخصية ، كما استطاع ان يعطى لشخصيته حرية التحرك ،ولكن فى محاولة للحفاظ على كل ما ورثه من املاك وجد نفسه فى صراع مستمر على كل الحدود .(٤)

وهكذا اتحدت الممالك الاسبانية المسيحية وبعض من اجزاء القارة لتوجه قواتها الى العالم الاسلامى وليبدأ الصراع بين الاسلام والمسيحية من اجل السيطرة على غرب البحر المتوسط بعد ان كانت الهيمنة الاسلامية فى اسبانيا

1- J.M.Gomez : Aconise History of Spain P.273 .

(٢) عادل بشتاوى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٢٤ .

3- G.Clark :Early Modern Europe P.42 .

4- IBID P.43 .

تلك الهيمنة التى جعلت من البحر كله بحيرة اسلامية ،لكن قيام الدولة العثمانية وتقدمها فى جنوب شرق اوربا قد حفظ للاسلام هيمنته فىالحصن الشرقى للبحر المتوسط ، واصبح واضحا آن الصراع العالمى آت لا ريب فيه بين هاتين الهيمنتين ، الاسلامية فى شرق المتوسط والصليبية فى غرب هذا البحر .

...

بدا لنا ان ظهور قشتالة على الساحة الاوربية كان من خلال النضال الذى خاضته الممالك الشمالية فى شبه الجزيرة الايبيرية ضد الاندلسيين على مدى عدة قرون ، حتى تحولت معه الى آلة قتال ، لا تستطيع ان تضمن استمرار قوتها او وحدتها ، اذا لم يتوفر لها التوسع على حساب القوى الاخرى .[١]

وكان لانتشار حركة الاسترداد فى اواخر القرن الثالث عشر الى مدينة طريف (Tarifa) على مضيق جبل طارق ، قد وفر لقشتالة ساحلا بحريا ثانيا على المحيط الاطلسى عاصمته اشبيليه ،بعد ان استولى عليها فريدناند الثالث للمرة الثانية عام ٦٤٦هـ/١٢٤٨م ،وتأسس مركز تجارى راسخ فى اشبيليه شمل كثيرا من النبلاء المرموقين المتطلعين الى امكانيات جديدة للثراء التجارى [٢] ولعبت الكنيسة القشتالية دورا حاسما فى حشد طاقات الممالك الشمالية ضد الاندلس على مر القرون ، وليمتد الصراع بين النصرانية والاسلام ،وترتب على ذلك انتقال الحرب الى العدوة المغربية فى منتصف القرن الثالث عشر وبعده [٣] والتى كانت امتدادا للفكرة الاساسية التى تطورت مع تقدم قوات الممالك الشمالية فى شبه جزيرة ايبيريا نحو الجنوب الاندلسى وتصورت تلك الممالك ان انتقال الحرب مع المسلمين الى المغرب يعنى متابعة للحملات الصليبية . وفى الفترة بين سنتى ٦٥٠-٦٥٢هـ/١٢٥٢-١٢٥٤م اى بعد احتلال القسم الاعظم من الاندلس وضع الفونسو العاشر ترتيبات لغزو المغرب بموافقة الكنيسة فى روما ، ولكن التخوف من القيام بهجوم اندلسى معاكس أدى الى تأجيل الحملة حتى ٦٥٩هـ/١٢٦٠م فأرسل الفونسو ثلاثين سفينة هاجمت مدينة سلا بغرض احتلالها ، ولكن لم يستمر الهجوم طويلا اذ قرر الفونسو صرف النظر عن مهاجمة السواحل المغربية ،والاهتمام بانهاء مملكة لبلة فى غرب الاندلس [٤] حتى استطاع ان يفتحها بعد سنتين ٦٦١/١٢٦٢م ويطرد سكانها [٥] ، وسقطت مدينة مرسيه للمرة الثانية سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٦م واعتبر ذلك التاريخ نهاية

---

(١) عادل بشتاوى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٢٢ .

2- J.H.Elliatt: OP.CIT P.45 .

(٣) عادل بشتاوى : نفس المرجع ،ص ١٧٨ .

(٤) عادل بشتاوى : نفس المرجع ،ص ١٣١ .

(٥) عادل بشتاوى : نفس المرجع ،ص ٣٠٥ .

استكمال الممالك الشمالية المسيحية للاندلس ، وما تبقى من ممالك اسلامية في الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة الايبرية كان خاضعا للجزية ، ومع انتهاء هذه المرحلة مرحلة التوغل الكبير فى الجنوب الاندلسى ، انصرفت اراغون الى بناء امبراطوريتها فى البحر المتوسط ،وتركت عملية استكمال فتح الاندلس لملوك قشتالة (١) وهذه كانت قد رسمت خلال العصور السابقة تقليدا عسكريا لخوض حرب طيبية ، اكتسبت من خلاله امبراطورية عبر البحار فى القرن السادس عشر واحرزت عن طريقه الخبرة البحرية التى صارت هى الاساس للتحرك للاستيلاء على الاراضى عبر البحار (٢) ومن ثم اخذت زمام المبادرة فى الحرب الصليبية فى العصور الحديثة .

كانت كلمة فتح بالنسبة لاهل قشتالة تعنى اساسا تثبيت الوجود الاسبانى وضمان المراكز القوية وشراء الممتلكات من الشعوب المقهورة وكان هذا النوع من الحرب قد اختبر فى اسبانيا فى عصور سابقة واعيد اختباره فى شمال افريقيا وعلى الرغم من وجود موانع طبيعية حدت من امكانيات نجاحه منذ البداية وذلك بسبب صعوبة تضاريس البلاد ،وقلة الغنائم ،اذ قدمت افريقيا بعكس الاندلس للمحارب القليل مما يسترعى انتباهه ،وذلك لان هدف المحارب فى هذا الوقت هو الحصول على مكافآت مادية بمجهوده الشاق بدلا من المكافآت الروحية ، لذلك انخفض حماس الخدمة العسكرية فى افريقيا انخفاضا سريعا . (٣)

وكانت اسبانيا التى نشأت وترعرعت اثناء قيام دولة المسلمين بالاندلس والتى استمرت تقاتل المسلمين طيلة قرون عديدة ،قد قامت على اسس دينية صرفة وكأنها تربت بين جدران الكنائس وقد اشعل رجال الدين من قساوسة ورهبان جذوة الحماس الصليبى للشعوب الايبرية المختلفة ،حتى الخاضعين

---

(١) عادل بشتاوى : مرجع سبق ذكره ،ص ٩٢ .

2- J.H.Elliatt : OP.CIT P.44 .

3- IBID P.44 .

لحكم المسلمين ،فجمعوا الشعب مستعملين كل وسائل الترغيب والترهيب ،حول هذه الدول ،مقابل انهم تسلموا فيها زمام السلطة واشرفوا على سير الامور .(١)

وكان اللون الدينى الذى اعطاه المسيحيون لحركتهم الخاصة باعادة غزو الاندلس واسترجاعه من الحكم الاسلامى سببا أساسيا فى ان تتبلور المعركة فى شكل صراع دينى بين الصليب والهلال ولم يتورع الاسبانيون عن الاصرار على هذا اللون المسيحى لحركتهم حتى يصلوا الى ضمان الحماس الشعبى اللازم للتغيرات الهائلة المنتظرة .(٢)

وفي غمرة الصراع ما بين العالمين الاسيوى والاوربى وفى زحمة ابتهاج العالم الاسلامى لسقوط القسطنطنية على يد السلطان العثمانى محمد الفاتح كانت اوربا ممثلة بدولتى اسبانيا والبرتغال تعيش حلم تأسيس الامبراطوريات فى الشرق واعادة سيرة الاسكندر الاكبر بعد الف وثمانمائة سنة (٣) ،لم تجد الجيوش العثمانية عناء فى البداية عند فتح القسطنطنية ولا فى هزيمة العرب والبلغار والالاق والبغدان ، تلك القوى التى اتحدت مع بعضها عندما تقدمت الى اورنة ، ولكن الحرب اصبحت بعد ذلك اكثر صعوبة عندما توجس خيفة سيميمسون ملك المجر عندما فقدت الصرب والبلغار استقلالها ، وهنا التجأ الى البابا ، الذى استجاب لندائه فأعلن اشارة الخطر فى اوربا ودعاها الى اتحاد مسيحى ضد الغزاة المسلمين ، فكانت هذه الحرب بداية حروب صليبية حديثة متواترة ،ظل الباباوات يحرضون عليها مدة قرنين و ونيف ويشتركون عسكريا وبحريا فى معظمها .(٤)

---

(١) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٧٩ – ٨٠ .

(٢) جلال يحيى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٧ – ١٨ .

(٣) قدرى قلعجى : الخليج العربى ،ص ٣٤٧ .

(٤) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثمانى ،ص ٧٢ .

وكانت حركة الاسترداد فى قشتالة قد توقفت تقريبا خلال الاضطرابات الاهلية فى النصف الاول من القرن الخامس عشر ، الا أن سقوط القسطنطنية اشغل الدول المسيحية مرة اخرى واستجاب هنرى الرابع ملك قشتالة بدافع الواجب لنداء البابا نحو اقامة حركة جديدة باستئناف حركة الاسترداد .(١)

وكان الاسبان والبرتغاليون يتلقون الدعم من اوربا ويقاتلون المسلمين فى الاندلس بغية اخراجهم منها تحت راية الصليبية ،حتى تمكنوا من ذلك ،وكان على العثمانيين الذين كانت دولتهم فى اوج قوتها أن يقاتلوا من جهة الشرق ليخففوا الضغط على المسلمين فى الاندلس ولردع الصليبية لتقليل هجماتها على بلاد المسلمين (٢) ومحاولة منهم للوصول من شرق اوربا الى جنوبها الغربى لانقاذ الاندلس .

ان ميدان الحروب الصليبية لم يكن مقصورا على المشرق وانما شمل غرب البحر المتوسط كذلك ،فثارت بين المسلمين فى الاندلس والنصارى فى الشمال حروب طويلة هى التى عرفت بحروب الاستراداد (Reconquista) وهذه الحروب اتصفت بشدتها وقسوتها ، ولا تقل شراستها بل تزيد عما دار فى الشرق بين الاسلام والمسيحية ،بل كانت الروح الدينية فيها اوضح واغلب من تلك التى قامت فى المشرق (٣) ، ويمكن ان نقول انهذه امتداد لتلك ،لقد اعطت الحروب ضد العرب والمسلمين البرتغال دفعة دينية قوية حتى ان الملك يوحنا الاول صرح بان الميدان الحقيقى الذى يكسب فيه افراد البيت المالك الفخر هو ميدان الحرب ضد المسلمين فى المغرب ،وانه سيمنح اكبر وسام فى بلاده ، وسام السيد الاعظم ،لمن يحارب فى هذا الميدان ،ونال هذا الشرف ابنه الامير هنرى الابن الثالث للملك الذى تصدى لهذه المهمة ،كما اوضحنا من قبل ،وكان لاغداق الملك عليه بالرتب من دوافع استخفافه بالمخاطر فى سبيل تحقيق الهدف الذى

1- J.H.Elliott: Imperial Spain P.34 .

(٢) على حسون : تاريخ الدولة العثمانية ،ص ٤٣ .

(٣) حسين موءنس : الشرق الاسلامى فى العصر الحديث ،ص ٢٨٩ – ٢٩٠ .

اعلن عنه الملك البرتغالي وفى هذا المجال اشار الضابط البرتغالي (فاسكو دى كا افللو) موءرخ الاستعمار البرتغالى فى هذه الفترة الى الروح السائدة بين الشباب البرتغالى عامة يومئذ قال :

" ان الشباب البرتغالى كان يعتقد ان المسلمين اذا التجأوا من شبه جزيرة الاندلس الى ، الشمال الافريقى فان الواجب يحتم على المسيحيين الا يتركوهم ينعمون بالمقام هناك بل ان يتعقبوهم حيث وصلوا " .(١)

وكان الامير هنرى قد ترأس جماعة عرفت باسم " جماعة المسيح " ونواة هذه الجماعة بعض الفرسان الذين هربوا من جزر البحر المتوسط بعد تعقب المسلمين لهم ،فلجأوا الى البرتغال وكانوا بطبيعة الحال يتوقون للانتقام من المسلمين ، وهو نفس هدف الامير هنرى ،الذى صرح بانه يعمل عملا يتقرب به الى الله عن طريق التبشير بالمسيحية الكاثوليكية فى سواحل افريقيا الشمالية وبين الوثنيين الافارقة وظلت هذه الجماعة من بعده تسهم اسهاما خطيرا فى اشعال الروح الصليبية الاستعمارية وكان الامير هنرى قد راودته فكرة رسم خطة كاملة لحملات بحرية تستولى على سواحل افريقيا الشمالية لتصل الى مصادر الثروة التى كانت تعتبر الاساس الذى يستند عليها المسلمون لتدعيم جيوشهم وكانت هذه الخطة تتجه اولا الى الوصول الى غانة التى ذاعت شهرتها لثروتها وتجارتها مع المسلمين (٢) ولقد بحث البرتغاليون عن مناجم الذهب الواقعة فى غانة (Guina) والعبيد والعاج بعد احتلالهم سبتة (Ceuta) (٣) اذ كانت تقع على الحدود للتجار الذين كانوا يأتون من الجنوب عبر الصحراء ومعنى هذا اختلاط الروح الاستعمارية بالحركة الصليبية اختلاطا تاما فى العصر الحديث ، ولما كانت ثغور المغرب تعتبر هى المنافذ الرئيسية لهذه التجارة وتلك الثروة ،فقد رأت الصليبية ان تقطع على المسلمين هذه التجارة ،وبذلك

---

(١) شوقى عطا الله : مرجع سبق ذكره ،ص ٤٢ - ٤٣.

(٢) شوقى عطا الله : نفس المرجع ،ص ٤٢-٤٣-٤٤ .

3- Roger Lockyer : Hababurg & Bourbon Europe P.31 .

تكون قد استنزفت مصادر قوة البلاد الاسلامية فى شمال افريقيا ،كذلك امتـــدت هذه الاهداف الصليبية الى نشر المسيحية بين سكان المناطق الواقعة خلف السواحل الايبيرية واستخدامهم بعد ذلك لتحقيق المشروعات الصليبية .

تطورت خطط الصليبية البرتغالية الى مدى اوسع من ذلك ،فكان التفكيـــر فى الوصول الى بلاد الحبشة المسيحية ، وهى مملكة ذاعت شهرتها وملأت الاسماع فى اوربا ولكن ظل موقعها غير محدود بالضبط (١) حتى زار الاحباش اوربا فـــى منتصف القرن الخامس عشـــــر ،اذ أشارت الوثائق البرتغالية انه فـــى سنة ٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م وصـــل جورج رسول يوحنا القس .(٢)

كان الغرض من الوصول الى الحبشة هو عقد حلف مع هذه المملكة المسيحية ليتعاونا فى تطويق بلاد المسلمين واحتلال مكة والمدينة ومحاولة استـــرداد بيت المقدس ،ويمكن بذلك ايضا الوصول الى بلاد المشرق التى تدر علـــى المسلمين فى الشرق ، المماليك فى مصر والشام والحجاز ، ارباحا طائلـــة من جراء احتكار السفن العربية نقل هذه البضائع حتى موانىء البحر المتوسط اضافة الى الضرائب التى تجبى عليها .(٣)

ومع نهاية القرن الخامس عشر الميـــلادى اصبحت البرتغـــال قلعة المسيحية الكاثوليكية فى شبه الجزيرة الايبيرية وان الاسلام كان بالنسبة للبرتغال كما رأينا كابوسا يرغبون فى ازاحته ، وهكذا طبع البرتغاليون علـــى التعصب وعدائهم للاسلام والعرب ،وبنزعتهم الصليبية التى جعلتهم لا يستولـــون على بلد اسلامى الا محو آثار المسلمين منه محوا ،وكانت البرتغال قد برزت على المسرح الصليبى بعد سلسلة من الحروب الصليبية شنتها على المسلمين فى شبه الجزيرة الايبيرية ، ما جعلها تتخذ من شن الحرب عليهم ومعاداتهم محـــورا لسياستهم العامة .(٤)

---

(١) شوقى عطا الله : مرجـــع سبق ذكـــره ،ص ٤٣ .

2- H.V.Livermore : A new History of Portugal P. 128 .

(٣) شوقى عطا الله : نفـــس المرجـــع ،ص ٤٣ .

(٤) غسان على رمال : مرجـــع سبق ذكـــره ،ص ١٢ .

اما بالنسبة لاسبانيا فقد توغلت سته حملات عسكرية ضخمة داخل مملكة غرناطة بين اعوام ٨٦٠-٨٦٢هـ/١٤٥٥-١٤٥٧م ، الا انها خاضت معارك لا تذكر ، ولم تحقق نتائج هامة واعتبر الملك هنرى الرابع ملك قشتالة الحرب الصليبية ذريعة مبدأية لجباية الاموال من الرعية ،وتحت الاشراف البابوى ،ومع كل ذلك لم يكن الحماس الحقيقى للحرب الصليبية متوفرا لدى البلاط الملكى ،ولا بين شعب قشتالة ، الذى كان قد اجبر فى عام ٨٦٩هـ/١٤٦٤م ، على مغادرة اراضيه باعداد غفيرة للاشتراك فى الحرب الصليبية ضد العثمانيين [1] اثر سقوط القسطنطنية اذ كانت الممالك المسيحية فى شبه الجزيرة الايبيرية فى هذه الفترة فى حالة من الخوف والفزع من هذه القوة القادمة من الشرق والتى لابد من أن يتصدى لها العالم المسيحى ، وهناك ايضا ممالك اسلامية فى شبه الجزيرة الايبيرية يجب ان تنتهى ،ويستردوا اراضيها .

وعندما اعتلى فرديناند وايزابيلا العرش ، واتحدت المملكتان كما اشرنا كانت فكرة الحرب الصليبية عندها قائمة على اختلاف انواعها الدينية والشعبية والعاطفية ، كلها تساهم فى تجديد القوى الحربية ضد غرناطة اكثر من غيره ،فى بلد مجتمعه وراء حكامه ،واندمج التاج مع الشعب فى انجاز يرفع اسم اسبانيا عاليا فى العالم المسيحى .[2]

وبعد ان تحررت اسبانيا من طاعون الحرب الاهلية ،وبعد ان استتب الوضع الداخلى ،بدأوا فى فتح مملكة غرناطة حيث استغرقوا فى ذلك عشرة سنوات من ٨٨٦-٨٩٧هـ/١٤٨١-١٤٩١م ، وبدأ الهجوم فى عام٨٨٧هـ/١٤٨٢م فسقطت أولا الحمه (AL Hama) وواصل المسيحيون فتوحاتهم الا انهم صدوا فى مدينة لوشه (Loja) فى نفس السنة .

وكان ابو عبد الله بن الاحمر قد خاض معركة طاحنة فى مدينة

1- J.H.Elliott: Imperial Spain P.34 .
2- IBID P.34 .

اللسانة (Lucena)سنة ٨٨٨هـ/١٤٨٣م ، وانتصر في تلك المعركة ، ولكنه قام بعد ذلك بمحاربة منافسه وخاله في نفس الوقت الزغل ،عندها انتهز المسيحيون الفرصة فاحتلوا مدينة لوشة (Loja)عام٨٩٢هـ/١٤٨٦م ،ومالقة (Malaga)٨٩٣هـ/١٤٨٧م ، ووادى آش (Guadix)٨٩٥هـ/١٤٨٩م ،ومدينة بسطة (Basa) في نفس السنة .(١)

وكانت العلامات المميزة لهذه الحرب الارض الجبلية الغير مناسبة لتحركات سلاح الفرسان وكان جونز الو دى قرطبة (Gonzala de Cordoba) قد اكتسب خبرة ثمينة في حروبه في ايطاليا وكانت هذه الحرب حرب حصار برز فيها دور المدفعية وسلاح المشاة (٢) ،ويجب ان لا ننسى الدور الاساسى الذى قام به البابا في مدينة روما من اجل حمل البلاد المسيحية قاطبة على وضع امكانياتها البشرية والمالية تحت تصرف ملوك اسبانيا من اجل ابعاد المسلمين عن بلاد الاندلس ومن اجل اخضاع بلاد الشمال الافريقى للحكم والدين المسيحى اخيرا ، فالبابا على رأس المسيحية قد اصدر أمره لكل المسيحيين بأن يستمروا في دفع الضريبة الصليبية (Crusada) لملوك اسبانيا من اجل الحرب ،وقد جمع القساوسة والرهبان اموالا باهظة في ذلك السبيل ،بل انهم باعوا ذخائر الكنائس وكنوزها الثمينة حتى يزودوا الجيوش المسيحية بالمال والعتاد .(٣)

وكانت حرب السنوات العشرة ٨٨٧-٨٩٧هـ/ ١٤٨٢-١٤٩٢ م ، والتى شنها الملكان الكاثوليكيان فرديناند وزوجته ايزابيلا هى طاعة للامر الصادر لهما من البابا في روما والذى سبق وان فرض على المسيحيين ضريبة الصليبية ، وبعد حروب ووقائع كانت سجالا وتغلبت العزيمة الاسبانية والقوة المسيحية على عوامل

1- J.M.Gamez: Aconcise History of Spain P.266.

2- J.H.Elloitt: Imperial Spain P.34 .

(٣) احمد توفيق المدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٨٠ .

الانهيار والاضمحلال التى سادت المسلمين فى غرناطة .(١)

كما كان سلاح المشاة الاسبانى يتكون الى حد ما من المرتزقة والمتطوعين الوافدين من جميع القارة الاوربية وجزء منه الحرس الوطنى المجند من داخل قشتالة والاندلس الذين امتازوا بقوة واسعة فى تحمل الحر والبرد ،جعلتهم جنودا مهيبين على ارض المعارك فىاوربا والعالم الجديد وفى حرب غرناطة حيثامتاز بالهجوم المفاجىء والمناوشات المستمرة محققا هذه الانجازات بفضل التدريب على القتال الحربى الفردى والذى أوغل فى الابداع فيه .(٢)

واعد المسيحيون خطة حربية هجومية لانهاء الوجود الاسلامى فى شبه الجزيرة الايبيرية ، وتضمنت المرحلة الاخيرة منالخطة قطع كل علاقة الاندلس بالعدوة الافريقية ،والتى كانت تمد المجاهدين فىمملكة غرناطة بكل وسائل الدفاع ،وذلك عنطريق الاستيلاء على الشواطىء الجنوبية ،وبالفعل تم تطويق ممنكة غرناطة عندما احتلوا مالقة (Malaga) والمنكب (المنيكار) والمرية كما تضمنت الخطة المسيحية على تشجيع الانقسامات الداخلية عند المسلمين وذلك بممالأة جانب من المتنازعين على جانب حتى انتهى الامر بانقسام المملكة الاسلامية الصغيرة الى شطرين ،الانحاءالشرقية فى وادى آش (Guadix) ويحكمها محمد الزغل والانحاء الغربية ويحكمها ابو عبد الله محمد بن على ابن الاحمر فى غرناطة ، وبذلك تمكن فرديناند من القضاء على الامارة الشرقية على انفراد قبل ان يتوجه بكل قوته نحو غرناطة .(٣)

واندفعت بعد ذلك الجيوش الاسبانية لتصفية آخر الممالك الاسلامية الاندلسية .

وكان السلطان المملوكىالاشرف قايتباى قد بعث بعدة رسائل موجهة الى

---

(١) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٤٣ .

2- J.H.Elliott: Imperial Spain P.P. 34 , 36 .

(٣) على حسون : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٨ .

البابوية فى عهد انوسنت الثامن والى فرديناند وايزابيلا ،يطالب فيها باجلاء المسيحيين عن مملكة غرناطة ، ولا يوءذى المسلمين ،وسارت السياسة الاسبانية فى طريقها المرسوم ،واكتفى كل من فرديناند وايزابيلا باجابة السلطان المملوكى بانهما لا يستطيعان ترك ارض الاجداد فى يد الاجانب ومع ذلك فانهما لا يفرقان بين رعاياهم فىالنواحى الدينية [١]،وكان الاسبان فى ذلك الوقت فى مستهل حياة وطنية جديدة ،فلم يكتفوا بتحرير شبه الجزيرة الايبيرية من الفاتحين القادمين من افريقيا والشرق ،ولكنهم القوا بانفسهم فى حماس عارم الىالعمليات التجارية والتوسع فى احتلال البلدان،وانتهوا بالضرورة الى احتلال سواحل افريقيا الشمالية ،تلك السواحل التى يبين التاريخ انها كانت دائما عرضة للاحتلال من كل شعب يتطلع الى التفوق والسيادة على غربى البحر المتوسط [٢] ، وهكذا لم يكن باستطاعة المماليك فى مصر والشام تقديم اى عون مادى لانقاذ الاندلس او استرداده ، مما جعل هذا العبء يقع على العثمانيين دون غيرهم .

كان تدخل الاسبان فى شمال افريقيا امتدادا للحرب مع المسلمين ،تلك الحرب التى يطلق عليها الاسبان حرب الإسترداد (Reconquista) ولم يكن الشمال الافريقى فى نظر الاسبان نقطة الوثوب لاحتلال اسبانيا فقط وانما كان ايضا السند العسكرى القوى للمسلمين – آخر عملية الاسترداد عدة قرون بالرغم مما كان عليه مسلمو اسبانيا من ضعف وتمزق [٣] ،وامتدت حروب الاسترداد وظلت فى شمال افريقيا قائمة حتى بعد وفاة فرديناند وايزابيلا التى تركت فى وصيتها ما يلى :

"... اننى ارجو الاميرة ابنتى (جوانا) ،والامير زوجها (فيليب)

---

(١) عبد القادر احمد اليوسف : علاقات بين الشرق والغرب ،ص ٢٥٦ .

(٢) اتورى روس : ليبيا منذ الفتح العربى حتى سنة ١٩١١ ،ص ١٣٩ .

(٣) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ،ص ١٣ .

، عبدالعزيز الشناوى : مرجع سبق ذكره ،جـ٢ ،ص ٩٠١.

وآمرهما باطاعة وصايا أمنا المقدسة طاعة تامة ،وان يكونا حماتهـــــــا والمدافعين عنها حسبما يقتضى واجبهما ، والا يكفا عن متابعة فتح افريقيـــة ومحاربة الكفار فى سبيل الايمان ... " .(١)

ولكن تلك الحروب فى الشمال الافريقى لم تستمر طويلا ،وبالتالى لم يكتـــب لها النجاح ، اذ ظهرت قوة جديدة فى المنطقة وقفت لحروب الاسترداد،وللمحاولات المسيحية وقفة صلبة ،وذهبت الى ابعد من ذلك اذ قامت بمحاولات جادة لاستـــرداد الاندلس ،كانت تلك القوة هى الدولة العثمانية .

...

---

(١) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكـــــــره ،ص ١٣ .

كان الفرق بين سقوط مرسيه اول معقل اسلامى واستسلام غرناطة ٢٢٦ سنة والتساؤلات حول سبب وجود هذه الفجوة التاريخية الكبيرة من خمود توقد للاحتلال الشمالى للاندلس ، فبعض المؤرخين يرى ان قشتالة لم تكن القوة الكافية للاستمرار فى التوغل فى منتصف القرن الثالث عشر ، اذ افتقدت الممالك الشمالية الى الوحدة التى تمكنها من استكمال احتلال الجنوب ، ويذكر البعض الآخر ان السبب الذى يكمن وراء ذلك فى الجزية التى كانت قشتالة تحصل عليها ، والرغبة فى المحافظة على تلك المملكة الاندلسية ، لانها كانت الطريق الوحيد لانتقال ذهب افريقيا الى شبه الجزيرة الايبيرية ، وهناك من يقول ان خمود القتال فى الجنوب الاندلسى يعود الى انتهاء فترة الحماس الدينى الذى وضح خلال الحملات الصليبية الاولى ، او ان الهجوم على غرناطة كان سيؤدى الى العودة لدق طبول الحرب فى المغرب ، وفتح صفحة جديدة من الحرب المتنقلة دائما عبر العدوة [(١)] ، وهناك بالطبع من يذكر بأن غرناطة كانت تملك من القوة ما يمكنها من وقف تقدم قشتالة [(٢)] ، ومما لا شك فيه كان للموقع الذى تمتعت به مملكة غرناطة اثر قوى فى تأخر سقوطها ، اذا تقع فى الزاوية الجنوبية لشبه الجزيرة الايبيرية ، التى قد تبدو منقطعة حيث البحر من الجنوب ، والعدو من الشمال لم يدعها تعيش طوال سنيها وحيدة ، بل كان المسلمون فى المغرب لا يتأخرون عن تقديم المساعدة لاخوانهم فى غرناطة ، ولطالما جاهدوا صفا واحدا لصد الخطر ، ولا يبخلون بتضحية ، استجابة لاخوة الدين ، ورغبة فى نصرتهم مجاهدين ، بالاضافة الى ذلك انه عندما قامت حروب الاسترداد فى شبه الجزيرة الايبيرية ، هاجر كثير من المسلمين الى غرناطة ، وكان هؤلاء لديهم خبرات واسعة فى صناعة الاسلحة ، علاوة على انهم كانوا رجال حرب للدفاع عن عقيدتهم فصمموا على الوقوف والاستعداد للتضحية ، مما زاد جيش غرناطة قوة على قوته [(٣)] ، كل تلك العوامل ساعدت مملكة غرناطة على الوقوف امام حروب الاسترداد هذه الفترة الطويلة ثم تجددت الحرب مع غرناطة فى اواخر القرن الخامس عشر ، خاصة بعد سقوط القسطنطينية ، فحثت الكنيسة فى روما مملكة قشتالة والممالك المسيحية الاخرى فى اوربا على التضامن لتحقيق انتصار

---

(١) العدوة هى الممالك الاسلامية فى المغرب العربى .
(٢) عادل بشتاوى : مرجع سبق ذكره ، ص ٩٢ - ٩٣ .
(٣) عبد الرحمن على الحجى : مرجع سبق ذكره ، ص ٥١٩ - ٥٢١ .

جديد على المسلمين فى الاندلس ، فقدمت الكنيسة في روما كل الدعم لقشتالة واراغون والبرتغال الذين كانوا يرون فى وجود مملكة غرناطة فى شبه الجزيرة الايبيرية خطرا عليهم ، خاصة اذا استعملها العثمانيون كرأس حربة للتوغل فى اوربا من ناحية الغرب بعد ان حققوا نجاحا كبيرا فى الشرق او على الاقل الخشية من اتفاق اهل غرناطة مع العثمانيين لنقل الحرب بين المشرق واوربا ، وضرب الجبهة الغربية للنفاذ الى الممالك الاوربية فى الشمال [1] ، ولنا هنا ان نتساءل ماذا كان يحدث لو صمدت غرناطة حتى انضمام الجزائر للدولة العثمانية ؟ربما ساعد ذلك الدولة العثمانية للقيام بدور هام ورائد بالنسبة للاندلس .

ازدادت ضراوة الهجوم الاسبانى استفحالا على الاندلسيين الذين فقدوا المساعدات من شمال افريقيا [2] وكتب العلماء المسلمون والوزراء لاستنهاض الهمم والعزم فى كل الاقاليم الاسلامية فكتب الكاتب الرئيسى أبو عبد الله بن زموك " اعلموا انا نذكر لكم ما لا يغيب عن اديانكم واحسابكم ، ان هذا الجهاد وليمة دعا الله عباده اليها ، وحضهم عليها ، فالايات فى المصاحف مسطورة ، والاحاديث مشهورة ،لبيع النفوس فيها من الرحمن ، فبذل المهج رغبة فى حصول ثواب الملك الديان ،ينزل الله فيها الملائكة المسومين . وتفرح الحور العين وتسبح الرحمة من رب العالمين ، ويباهى الله ملائكته بالمجاهدين ، وقد تضافرت على ذلك النصوص وكفى شرفا الفوز بمحبة الله فى قوله (ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص ،فينبغى فيه الاستغفار من سالف الذنوب ،وتطهير السرائر والقلوب ،واجتماع الأيدى والكلمة فى مرضات علام الغيوب " .

كما كتب ذو الوزارتين ابو عبد الله بن الخطيب فى الحث على الجهاد والترغيب خطابا جاء فيه " ايها الناس ،رحمكم الله ،اخوانكم المسلمون قد دهم العدو ـ قصمه الله ـ ساحتهم ،ورام الكفر ـ قبحه الله ـ استباحتهم ،وزحفت

---

(١) عادل بشتاوى : مرجع سبق ذكره ،ص ٩٣ ـ ٩٨ .
، عبد الرحمن الحجى : التاريخ الاندلسى ،ص ٥٥٠ .
(٢) محمد الهادى العامرى : تاريخ المغرب العربى فى سبعة قرون ،ص ١٨٥.

احزاب الطواغيت عليهم ومد الصليب ذراعيه اليهم ،وايد بكم بعزة الله اقوى وانتم الموءمنون اهل البر والتقوى ،وهو دينكم فانصروه ،وجواركم القريب فلا تخفروه ..... الخ ".(١)

واعلنت ايزابيلا ووزجها فرديناند الحرب على آخر الممالك الاسلامية فى شبه الجزيرة الايبيرية ، وكان احتمال استخدام غرناطة جسرا لعبور المسلمين لاوربا والتوغل فيها من ناحية الغرب ،بالاضافة الى توغلهم من ناحية الشرق قائما عندهما وخلال حرب غرناطة التى استمرت اكثر من عقد كامل من الزمن استعانت الملكة الكاثوليكية بقوات اوربية كثيرة لحرب المسلمين فى شبه الجزيرة الايبيرية ، فساهم الايطاليون ، وكذلك قناصة السير ادوارد ووفيل (Edward Woodville) فى حرب غرناطة بالاضافة الى دعم كنيسة روما الذى لم ينقطع (٢) ،كما ساهمت الدبلوماسية الاسبانية فى تحقيق الانتصار على غرناطة ، بالاضافة الى القوة العسكرية السابقة اذ كانت مملكة نصر غارقة فى منازعات داخلية ، فأستغلها فرديناند لصالحه ، فأخذ يوءلب بين الاسر الحاكمة ، حتى اشعل الحرب بينهم (٣) بعد ذلك واصل فرديناند زحفه حتى وصل الى اسوار غرناطة ، وهناك " اخذ فى افساد الزرع ودوخ الارض، وهدم القرى وامر ببناء موضع بالسور والحفير ، واحكم بناءه ، وكانوا يذكرون انه عزم على الانصراف فاذا به صرف الهمة الى الحصار والاقامة وصار يضيق على غرناطة .." (٤) ومن المعسكر الاسبانى (Santa) تقدمت الاعدادات الاسبانية بشكل ملحوظ ،واخذت المدفعية تقذف نيرانها على الاسوار ،فهبطت العزيمة فى المعسكر العربى تصاحبها الرغبة فى الاستسلام المشرف بدلا من القتال لذلك بدأت المفاوضات فى ذى الحجة ٨٩٦هـ/ اكتوبر ١٤٩١م وتم الاتفاق فى نهاية نوفمبر واستسلمت غرناطة فى ربيع الاول ٨٩٧هـ/يناير ١٤٩٢م(٤) وكانت هذه قد كلفت الحكومة الاسبانية الكثير من الاموال والنفقات اذ احتاج جلب المدافع شق وبناء الجسور واستقدام الخبراء الاجانب لادارة تلك المدافع ،فكثر اقتراض ايزابيلا من البابا ومن المموليين الايطاليين ، ولم تكن الحرب مع غرناطة بالسهولة التى تصورتها قبل اتخاذ قرار شن الحرب ضد آخر الممالك الاسلامية (٥)،وعندما

(١) شهاب الدين احمد المغربى: ازهار الرياض فى اخبار عياض،ج١،ص ٦٣-٦٥.
(٢) عادل بشتاوى : مرجع سبق ذكره ،ص ٢١٣ - ٢١٤ .
(٣) محمد الهادى العامرى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٨٥ - ١٨٦.
(٤) احمد بن محمد المغربى : نفح الطيب ،ج٤ ،ص ٥٢٤ .
4- J.H.Elliott: Empeirial Spai P.34 .
(٥) عادل بشتاوى : نفس المرجع ،ص ٩٨ - ٩٩ .

اختارت الملكة القشتالية ايزابيلا فتح باب الحرب مع غرناطة ، كانت تتصدى لسكان ماتزال مآسى النزوح عن الاوطان ماثلة فى عقولهم ، ومقاتلين يعرفون ان غرناطة ملاذهم الاخير بالاضافة الى ان اهل غرناطة لم يفقدوا الامل بأن المدد من خلف العدوه سيتوفر اذا ساءت الامور ووصلت مرحلة خطيرة ، مما زاد فى صلابتهم التى عززتها تحصينات عسكرية كبيرة وبراعة فائقة فى القتال ولكن توفر هذه العناصر المهمة لدى السكان فى غرناطة قابلها توفر امكانيات هائلة لايزابيلا وزوجها فرديناند سواء من ناحية الجيوش او الخبرات العسكرية او المبالغ التى وظفت للقضاء على غرناطة (١) التى خاف رجالها فضيحة النساء وانتهاك حرمة البنات ،وتشتيت الشمل ، فقرروا الاستسلام بعد مقاومة عنيفة للاسبان ، ورضوا ان يكونوا من رعايا الدولة الاسبانية مقابل اعترافهما بحرية دينهم واحترام عقائدهم ،وعوائدهم ،والمحافظة على اموالهم وممتلكاتهم (٢) ، اذ نصت معاهدة الاستسلام على " ... ان من شاء البقاء عنده اقام فى ظل الامان مكرما ، ومن اراد الخروج الى بر العدوه أنزل بأى بلاد شاء منها ،من غير ان يعطى كراء ولا مغرما ، واظهر للمسلمين العناية والاحترام ..." (٣)، كما نصت المعاهدة على تسليم القلاع والحصون والمدافع للسلطات الاسبانية ولكن الاسلحة الفردية تبقى فى حوزة الاندلسيين وان تظل لغتهم قائمة ،ويلبسون ملابسهم المعتادة .(٤)

دخل فرديناند وزوجته ايزابيلا غرناطة ، بعد توقيع وثيقة الاستسلام وسط موكب كبير بعد ثمانية قرون من الوجود الاسلامى ، وقدم آخر ملوك بنو الاحمر ابو عبدالله مفاتيح الحمراء (AL Hamra) الى الملكين الكاثوليكيين وارتفع الصليب والعلم الملكى على اعلى ابراج القصر ،وبعد

---

(١) عادل بشتاوى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٠٠ .
(٢) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٤٤ .
(٣) احمد بن محمد المغربى : مرجع سبق ذكره،جا ،ص ٦٧ .
(٤) عادل بشتاوى : نفس المرجع ،ص ١٠٦ .

ذلك بثلاثة شهوروفى حوالى ٨ جمادثان ٨٩٧هـ/١٧ ابريل ١٤٩٢م ،وبعد الانتهاء من حركة حروب الإسترداد وقع الاتفاق فى مدينة سانتا (Santa) مدينة المعسكر المسيحى والتى تبعد عن غرناطة بستة اميال على شروط مشروع الرحلة الاستكشافية التى قام بها كريستوفر كولومبوس والتى كانت بمثابة قربان شكر وتجديد نذر لقشتالة وهى الحرب ضد الكفار وكان سقوط غرناطة واكتشاف امريكا نهاية وبداية فى وقت واحد فقد انهى سقوط غرناطة حروب الاسترداد بينما شكل اكتشاف امريكا بداية مرحلة جديدة وهى مرحلة الاستعمار الكبير عبر البحار(١) اذ ظنت اسبانيا ان نهب العالم الجديد سيضمن لها موارد كافية بعد ان ادت الحرب المنظمة ضد المسلمين الى تعرضها لازمة حادة فى ادارتها والى اضطراب فى امورها المالية حتى اشرفت على الافلاس ، غير ان النشاط الاسلامى فى البحر من جهة والمنافسة مع الدول الغربية من جهة ثانية اثر على استفادة اسبانيا من هذه الموارد .(٢)

بدأت موجة الاضطهادات العنيفة ضد السكان بعد دخول فريدناند وايزابيلا مدينة غرناطة مباشرة ، فقد اصدرت السلطات الاسبانية اولى قراراتها فى هذا الشأن فى جمادثان٨٩٨هـ/مارس١٤٩٢م ، والذى يقضى بأن يغادر اليهودالذين لم يتنصروا اراضى قشتالة خلال اربعة شهور ، ويعاقب المتخلفون بالموت ولم ينج من ذلك حتى اليهود الذين اعلنوا تنصيرهم (٣) وقامت السلطات الاسبانية بسلب اليهود وقد قدر عدد المغادرين منهم حوالى ٨٠٠ ألف ،واستقر جماعة كبيرة منهم بأزمير ،وجماعة فىاستانبول ،والقسم الاكبر منهم هلكوا وعذبوا من قبل السلطات الاسبانية ومحاكم التفتيش .(٤)

لم يجن التاج الملكى فىالواقع من سقوط غرناطة والاجراءات السابقة الا بالقليل من الغنائم ، اذ نصت بعض شروط الاستسلام عليها ، اذ تولت

1- J.H.Elliott: Imperial Spain P.P.33 - 37 - 49 .
(٢) بسام العسيلى : الجزائر والحملات الصليبية ،ص ٥٧ .
(٣) عبد القادر احمد اليوسف : علاقات بين الشرق والغرب ،ص ٢٥٥ .
(٤) شكيب ارسلان : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٠٢ .

الهيئات الدينية الاسلامية عائدات بعض الممتلكات الموقوفة على الاغراض الدينية واعمال الخير ، بينما تم التنازل عن الضرائب المستحقة والمخصصة لمصاريف القصر الملكى الى الملك ابو عبد الله الذى حصل على ضيعة فى منطقة البيوراس (AL Piyorras) ، كما نهبت الجيوش المسيحية الزاحفة بعض الاراضى مما تسبب كل ذلك فى ضعف العائدات للبيت الملكى .[1]

ألف الملكان الكاثوليكيان فريدناند وايزابيلا حكومة من الاشخاص ذوى الخبرة والمقدرة ، وجعلوا سياستهم هى تكوين وحدة وطنية متحدة تحت سيطرة حكومة واحدة [2] ، اذ كانت تلك الحكومة مكونة من هوناندو دى زافرا (Hernando de Zafara) سكرتير وكاتب الملكان فريدناند وايزابيلا والكونت تنديلا (Tendilla) وهو احد اعضاء اسرة مندوزا (Mendoza) الذين كانوا على غرناطة منذ بداية القرن الخامس عشر ، والمعروف بحروبه ضد المسلمين وهوناندو دى تالافيرا (Hernando de Talavera) كبير الاساقفة فى غرناطة والذى ساهم بروحه واهتمامه بالدراسات العربية واضطر لاقامة الصلبان والمنابر فى الشوارع والميادين والكنائس [3] ، كما حرص تالافيرا على دوام احترام شروط وثيقة الاستسلام التى ضمنت حرية المسلمين بالتمسك بعقيدتهم ، كما تأثر بالانجازات العربية والثقافية واهتمامهم بالاعمال الخيرية ، ولم يلجأ الى استعمال القوة فى اعتناق المسيحية ، وكان قد اتبع سياسة الاندماج التدريجى وكان يقول فى ذلك سوف نتبنى اعمالهم الخيرية [4] ، حققت تلك السياسة التى اتبعها تالافيرا نجاحا يسترعى الانتباه الا انها تسببت فى قيام معارضة شديدة من زملائه ، الذين احتجوا عليه ببطء بنسبة المعتنقين ، وطالبوا فى اتباع المزيد من القوة لهذه السياسة .[5]

1- J.H.Elliott: Imperial Spain P.38 .

(٢) محمد قشتيليو : محنة الموريسكوس فى اسبانيا ، ص ١٧ .

(٣) محمد قشتيليو : المرجع السابق ، ص ١٩ – ٢٠ .

4- J.H.Elliott: IBID P.39 .

5- IBID P.40 .

طلب الملك ابو عبد الله بن الاحمر ان ينسحب مع ذويه الى بلاد المغرب فتحرج فريدناند وايزابيلا من ذلك حرجا كبيرا ، خشية ان يطلب مددا من الشمال الافريقى يأتى به لنجدة المسلمين واسترداد الاندلس ، الا ان الراهب خيمنيس اقنع الملكين الكاثوليكيين بأنه لا خطر البتة من وراء هذا الانسحاب الى المغرب لان حالة الخلاف والشقاق السائدة والمستحكمة الحلقات بالبلاد الافريقية الشمالية لن تسمح لاهلها البتة بالاقدام على مثل هذا العمل (١) ، ثم سمح فريدناند وايزابيلا للملك عبد الله بمغادرة البلاد ومعه ستة آلاف من المسلمين متجهين الى افريقيا (٢) فذهب غالبهم الى بلاد المغرب الاقصى والى تونس وطرابلس ، اما ملكها ابو عبد الله بن الاحمر فاستوطن فاس (٣) الذى كتب الى ملكها برسالة بليغة ،من انشاء الفقيه الاديب ابى عبد الله محمد بن عبد الله العربى العقيلى وسماه بالروض العاطر الانفاس فى التوسل الى المولى الامام سلطان فاس .

مولى الملوك ملوك العرب والعجم　　رعيا لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار انت لمن　　جار الزمان عليه جور منتقم (٤)

وفى خريف ٨٩٩هـ/١٤٩٣م ، توفى ابو عبد الله بن الاحمر،وبقيت بعض الاسر المالكة فى غرناطة الذين عينوا فى الادارة الملكية للحصول على رضائهم ،وبذل الملكان الكاثوليكيان قصارى جهدهم فى بناء ابراج مراقبة على السواحل

---

(١) احمد توفيق المدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٦٨ .
2- J.H.Elliott: Imperial Spain P. 39 .
(٣) اسماعيل سرهنك : مرجع سبق ذكره ،جا ،ص ٣١٥ .
(٤) شهاب الدين احمد بن محمد المقرى التلمسانى : مرجع سبق ذكره ،جا ،ص ٧٢ - ٧٣ .

الاسبانية بالاضافة الى تخصيص دوريات خفر السواحل ،لايقاف محاولات استرداد الاندلس ، واتصال غرب الشمال الافريقى باخوانهم الموجودين فى اسبانيا والذين رفضوا الانضمام الى الحكام الاسبان .(١)

انهت ايزابيلا وزوجها فريدناند عملية احتلال غرناطة ،واعادوا توزيع سكانها ،وسافروا الى قطالونيا للتفاهم مع فرنسا فى بعض المسائل السياسية وكلفوا الحكومة الثلاثية الجديدة ،والموءلفة من الاشخاص الذين سبق ذكرهم هرناندو دى زافرا (Hernanda de Zafara) ،والكونت تنديلا (Tendilla) وكبير الاساقفة هرناندوادى تالافيرا (Hernanda de Talavera) ،كلفوهم بمعاملة المسلمين معاملة توءدى الى ادخالهم فى المسيحية شيئا فشيئا وعمل كل مجهودات فى هذا السبيل الرئيسى الدينى (٢) ، فنظمت الكنيسة فرقا تبشيرية من رهبان وراهبات للقيام بنشر المسيحية ،اذ كانت الفكرة السائدة عندهم ان المسلمين سيدخلون فى الديانة المسيحية افواجا وبدون صعوبات (٣) كما اقتضت مهمة الحكومة الثلاثية ضمان الامن العام ،ودعم سيطرة التاج الاسبانى على المملكة المقهورة ، الا ان هذه المهمة كانت صعبة فى منطقة البوجاراس (Al(Pllgarras) التى كان يسكنها قطاع الطرق ، لذلك تم تعيين احد القواد على تلك المنطقة ليحقق فيها الامن والاستقرار (٤) ،وهكذا مضت اسبانيا فى سياستها تجاه مسلمى الاندلس ، للقضاء تدريجيا وبصورة جذرية على كل مظاهر الاسلام ذلك ان نشوة النصر التى اجتاحت اسبانيا قد الهبت العواطف وطغت على منطق العقل وهو منطق الذى احاطه رجال الكنيسة بقدسية تحكمت فى كل القرارات التى اصدرها رجال الدولة السياسيين ،واصبحت اسبانيا توءمن بان عليها واجب

1- J.H.Elliott : Imperial Spain P.39 .

(٢) محمد قشيتليو : مرجع سبق ذكره ، ص ١٩ .

(٣) محمد عبده حتامله : التنصير القسرى لمسلمين الاندلس ،ص ٧١ .

4- J.H.Elliott : IBID P. 39 .

تطهير ارضها من المسلمين والاسلام التى تخشى منه ومن شبحه ،خصوصا بعد نجاح العثمانيين السريع فى اوروبا وافريقا وآسيا [١] ،وشيوع خطتهم لاسترداد الاندلس .

مضت سبع سنوات ثقيلة واهل غرناطة يحاولون التأقلم مع هذا الواقع الجديد الذى فرضته سلطات الاحتلال الاسبانية ، منذ ان رفع العلم الاسبانى والصليب المسيحى فوق برج قصبة الحمراء فى ٨٩٨هـ/١٤٩٢م .

فأستولى نبلاء قشتالة على قسم كبير من اراضى غرناطة ،كما تحولت المساجد الى كنائس ،ومنع الآذان والوضوء علنا ، وبذلت الحكومة الاسبانية والكنيسة كل الجهود لاقناع المسلمين باعتناق النصرانية وقطع صلاتهم بتاريخهم وحضارتهم [٢] هذه الاعمال كلها مخالفة لاتفاقية الاستسلام ،وضعفت معنويات المسلمين ،وفقدوا الامل فىالحصول على مساعدات شمال افريقيا ،واخذ القشتاليون يزاحمون المسلمين على الارض ،ثم علىلقمة العيش ،وتردت الامور من سىء الى اسواء ،ثم اندلع الغضب دفعة واحدة ،وكان سبب اندلاعه الكاردينال خيمنيس رئيس اساقفةطليطلة الجديد، الذى وافق عليه البابا الاسكندر السادس ٩٠١هـ/١٤٩٥م ،بعد ترشيحه من ايزابيلا وفريدناند ، وكان منصب رئيس اساقفة طليطلة يشمل ايضا منصبين آخرين لا يقلان اهمية الاول مستشار قشتالة والثانى كبير اساقفة المملكة ،لذا فقد كان منصب خيمنيس الثالث فى الاهمية بعد فريدناند وايزابيلا .[٣]

جنحت الكنيسة وبتأثير من خيمينس الى سياسة العنف والمطاردة واذعنت السياسة الاسبانية لوحى الكنيسة ،ولم تذكر ما قطعت من عهود موءكدة للمسلمين باحترام دينهم وشعائرهم ، وحاولت السياسة الاسبانية من جانبها ان تسبغ على هذه التصرفات ثوب الحق والعدالة ، فأخذت فى تحرير العهود والنصوص التى تضمنتها معاهدة التسليم ،وتعديلها وتفسيرها بطريق التعسف والتحكم ،ثم

---

(١) عبدالجليل التميمى : رسالة من مسلمى غرناطة الىالسلطان سليمان القانونى ، المجلة التاريخية المغربية ،عدد(٢)،ص ٣٧ .

(٢) عادل سعيد بشتاوى : مرجع سبق ذكره،ص ١٠٩ .

(٣) عادل سعيد بشتاوى ٪ نفس المرجع ،ص ١٠٩ .

خرقها نصا نصا ، وسلب الحقوق والضمانات الممنوحة تباعا .(١)

كانت مشكلة قد واجهت الملكان الكاثوليكيان وبالاخص ايزابيلا بالنسبة للاندلسيين فى غرناطة ،فهى لا تريد ان تقدم على عمل ضد اهل غرناطة فتخرق بذلك المعاهدة فيعيرها ملوك اوروبا ، بأنها الملكة التى لا تستطيع الالتزام بقسم ادته وقت قبولها تسليم آخر المدن الاسلامية ،كما انها انتظرت وقت طويلا ريثما يتمكن الاسقف هرناندو دى تالافيرا (Hernanda de Talovera) من تنصير المسلمين ، ولكن دون جدوى ،فهى تملك غرناطة ولكنها لا تملك ثقة اهلها ولا ولائهم ، ولم يكن من السهل على متعصبة مثل ايزابيلا ان تقبل وجود شعب لا يدين بالكاثوليكية فى الممالك التى تحكمها ، ولا سيما وان لقبها ٩٠٠هـ/١٤٩٤م ، اصبح الملكة الكاثوليكية . وهى ايضا حققت هدفها عندما اضطهدت اليهود أولا ثم اجبرتهم على مغادرة البلاد فى وقت لاحق ، واذا عملت ذلك مع اليهود ، فليس هناك ما يمنع تطبيق نفس الاجراء مع المسلمين ،حتى لو جاء ذلك على حساب تفويض دعائم الاقتصاد الغرناطى وتشريد اهل تلك المملكة ،وهى ان خرقت المعاهدة لاسباب سياسية او اقتصادية استحقت لوم ملوك اوروبا ولكن لو استطاعت اجبار اهل غرناطة علىالقيام بعمل ما ضد الدولة ،فان من الممكن وقتها الغاء المعاهدة علىاساس ان اهل غرناطة كانوا البادئين بذلك ، ولو استطاعت خرق المعاهدة علىاساس دينى فليس هناك من يستطيع انتقادها فىارجاء المسيحية ، لانها ستحقق بخرق المعاهدة بموافقة كنيسة روما نصرا للمسيحية وهجوما اخيرا على المسلمين الذين يهددونامنالدولة وسلطة الكنيسة والدين المسيحى الكاثوليكى .(٢)

كان الملكان الكاثوليكيان يخشون فى البدايةعواقب التسرع فى تنفيذ سياسة القوة والعنف مع المسلمين لان الامن لم يكن قد توطد بعد فى المناطق

---

(١) عبد الله عنان : نهاية الاندلس ،ص ٣١٤ .

(٢) عادل سعيد بشتاوى : مرجع سبق ذكره ،ص ١١٠ .

المفتوحة ، ولان المسلمين لم ينزع سلاحهم تماما ، وقد يوءدى الضغط الى الثورة ، فتعود الحرب كما كانت ،ويتقدم المسلمون بالعون لاخوانهم الاندلسيين وانتهى الامر الى الخضوع لرأى الكنيسة ، واستدعى الكاردينال خيمنيس الى غرناطة ليعمل على تحقيق مهمة تنصير المسلمين فوفد عليها فى سنة ٩٠٥هـ/ شهر يوليه ١٤٩٩م،ودعا اسقفها دى تالافيرا (De Talavera) الى اتخاذ وسائل فعالة لتنصير المسلمين ، وامر بجمع فقهاء المدينة ودعاهم الى اعتناق المسيحية ، واغدق عليهم الهدايا فأقبل بعضهم على التنصير وتبعهم جماعة كبيرة من العامة واستعمل الوعد والوعيد والبذل والارغام فى تنصير بعض اعيان المسلمين [١]،وقد وصف صاحب نفح الطيب ذلك بقوله " ثم ان النصارى نكثوا العهد ونقضوا الشروط عروة عروة ،الى ان آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر سنة ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م بعد امور واسباب اعظمها واقواها عليهم انهم قالوا : ان القسيسين كتبوا على جميع من كان اسلم من النصارى ان يرجعوا قهرا للكفر ، ففعلوا ذلك [٢] .

لم يكتف الكاردينال خيمنيس بهذه الحركة الارهابية ،التى انتهت بتوقيع التنصير المغصوب على عشرات الالوف من المسلمين ،ولكنه قرنها بارتكاب عمل بربرى شائن ،اذ امر بجمع كل ما يستطيع جمعه من الكتب العربية من اهالى غرناطة وارباضها ونظمت اكداسا هائلة فى ميدان باب الرملة ،اعظم ساحات المدينة ،ومنها كثير من المصاحف البديعة الزخرف ،وآلاف من كتب الادب والعلوم المزخرفة بالذهب والفضة مثل موءلفات (AL Jafair) ،واضرمت النيران فيها جميعا ، وهكذا ذهبت ضحية هذا الاجراء الهمجى عشرات الالوف من الكتب العربية ، وهى خلاصة ما بقى من تراث التفكير الاسلامى فى الاندلس .[٣]

كان التعصب الدينى قد افقد خيمنيس القدرة على تصور اى مسلك آخر مع اهل غرناطة سوى الطريق المملوء بالتعذيب ، واجبار المسلمين على التعميد

---

(١) محمد عبد الله عنان : مرجع سبق ذكره،ص ٣١٥ .

(٢) احمد بن محمد المقرى التلمسانى : مرجع سبق ذكره ج ٤ ،ص ٥٢٧ .

(٣) محمد عبد الله عنان : نفس المرجع ،ص ٣١٦ .

ومحاولة سلخهم عن ماضيهم وحضارتهم ، كان ايضا لا يريد الاعتراف بأن سياسته في غرناطة اخفقت فيتنصير المسلمين ، أو انه لم ينجح الا في اقناع الاندلسيين بأنالاستمرار في تحمل احوال مثل تلك التى فرضها لايمكن ان يدوم ، وعبثا حاول تالافيرا (Talavera) والكونت تنديلا (Tendilla) اقناعه بالعدول عن سياسة الارهاب وتحذيره من مخاطرها في تأليب مشاعر اهل غرناطة ، ووصل الامر ذروته حين حرق خيمنيس كل ما تقع ايدى عماله من نسخ القرآنالكريم ، وبينما كان خيمنيس يرسل بعض جواسيسه الى البيازين لالتقاط اخبار اهلها وذات يوم بعث بثلاثة منهم الى الحى لسبب غير معروف ،فوقع صدام بينهم وبين بعض اهل غرناطة قتل على اثرها اثنان من العمال وفر الثالث وكانت تلك نقطة التحول [١] ، الا ان المطران هوناندو تالافيرا(Talavera) المعروف بالوداعة دخل ربض البيازين بالسكينة والانس برفقة عدد من حاشيته بدون سلاح ،واستفسر القوم عن شكواهم وتقبلها منهم وهدأ روعهمواعاد طائر الامن الى وكره وحجب الدماء يومئذ [٢] ،ووعدهم برفع شكوتهم لفرديناند وايزابيلا وفياشبيليه سرد الكونت تنديلا (Tendilla) للملكيين الكاثوليكيين ما حدث في غرناطة في ربض البيازين ، اما خيمنيس فقد ذكّر الملكة ايزابيلا بانها حاملة لقب الكاثوليكية ،ولا يمكن ان تقبل بوجود رعايا يدينون بدين غيرالمسيحية الكاثوليكية والا انتقدتها الكنيسة وملوك اوربا ، وابلغها كذلك ان الاندلسيين لا يمكن ان يستمروا في البقاء في قشتالة مسلمين في وسط مسيحيين وان الاندلسيين ما كانوا ليثوروا عليه لولا نجاحه في تنصير الكثيرين منهم ، فخشيت ايزابيلا ان يستفحل خطر الاندلسيين فيهددون امن الدولة واستقرارها واتباع اللين مع اهل غرناطة ، بعد انتفاضتهم في ربض البيازين .

اخذت ايزابيلا وزوجها فريدناند برأى خيمنيس ، فاما ان يقبل الاندلسيون بالتنصير او يجرى ترحيلهم الى العدوة .[٣]

---

(١) عادل سعيد بشتاوى : مرجع سبق ذكره ،ص ١١٣ .
(٢) لوثروب ستودارد: حاضر العالم الاسلامى ،ج ٢ ،ص ١٤ .
(٣) عادل سعيد بشتاوى : نفس المرجع ،ص ١١٦ .

قرر الملكان الكاثوليكيان تغيير نهج سياستها في شتى المجالات وانشآ لمتابعة ذلك محاكم التفتيش ،كما اصدروا امرا يقضى بمنع المسلمين من الدخول الى غرناطة حتى لا يختلط بالمسلمين الموجودين فيها فترتفع روحهم المعنوية (١) فخرج المسلمون رجالا ونساءا واطفالا هائمين على وجه الارض ،لا يحملون معهم الا الشئ القليل ،والتجأوا الى جبال البشرات (AL Pujarros) التى بقيت في ايدى المسلمين ولكنها معترفة بسلطان الاسبان ، بينما فضل الاخرون البقاء واصبحوا يعرفون باسم الموراكة او الموريسكيون (Los Moriscos) التى تعنى بقايا العرب المسلمين .(٢)

ثار الموريسكيون سنة ٩٠٥هـ /١٤٩٩م في جبال البشرات والتى تقع على منحدرات سيرانيفادا (Saerra Neveda) المزدحمة بالسكان ، مما جعل فردينانـد يتقدم بنفسه داخل المنطقة و سحق ذلك العصيان (٣) ٩٠٦هـ/١٥٠٠م ، بعد قتل الدوق الونزو دواغيلار القائد الاسبانى ،فازداد انتقام الاسبان من المسلمين ،فهجم كونت طنديلة على قوجار وهدم كونت سرين مسجدا على مسلمين التجأوا اليه برفقة نسائهم واطفالهم ، وامسك الملك فريدنانـد الطريق على الفارين من الجبال (٤) الذين اتجهوا باعداد كبيرة الى ممالك القرصنة في شمال افريقيا (٥) واشهر المدن التى نزل بها الغرناطيون مدينة شرشال ،فاعادوا بناء عدد من دورها وجددوا القلعة ، ووزعوا الاراضى بينهم ،ثم صنعوا كثيرا من السفن الملاحية ،واشتغلوا بصناعة الحرير ،بعد حصولهم هنالك اعدادا كبيرة من اشجار التوت الابيض والاسود ،فعاش الغرناطيون

---

(١) محمد عبده حتامله : مرجع سبق ذكره ،ص ٧٨ .

(٢) احمد توفيق المدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٥٠ .

؛ محمد قشيبليو : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٤ .

3- G.H.Elliott: Imperial Spain P.40 .

(٤) شكيب ارسلان : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٩٦ .

5- Paul Coles : The Ottoman Impeact on Europe P.156 .

فى رخاء دائم حتى اصبح عدد المنازل المقامة مائتين والف بيت [١] كما سكنوا مدينة تنس ومستغانم ومدينة الجزائر ودلس وبجاية وعنابة ،وقد وجد هوءلاء المسلمون المهاجرون فى الجزائر أرضا تشبه ارضهم فى شبه الجزيرة الايبيرية ، واهلا كأهلهم ،فاستوطنوا واسهموا فى الحياة الاجتماعية بادخال عنصرين رئيسيين ، الاول الكفاح ضد الاسبان فى البحر والثغور دفاعا عن النفس ،لاسترداد مملكتهم فى شبه الجزيرة الايبيرية ،والثانى نشر انماط حضارتهم بين الجزائريين [٢].

ان عملية اخماد ثورتى البيازين والبشرات السابقة ،كلفت خزينة الدولة فى عهد الملكين الكاثوليكيين مبالغ طائلة ، اذ شارك فى اخماد هاتين الثورتين نحو ١٣ ألف فارس وخمسين الف من المشاة والفى قطعة من المدفعية وبلغت الديون الاسبانية مبلغا كبيرا،ومن اجل هذه الثورات المتواصلة استقدم الملكان الكاثوليكيان الخبراء والعلماء من جميع انحاء اوربا ، وخاصة فرنسا وايطاليا والمانيا لادخال تحسينات على المدفعية ،وتحضير التجهيزات لصناعة المدافع والطلقات النارية والبارود وشتى انواع الاسلحة فى ذلك الوقت وجلبت الحكومة الاسبانية المواد من الخام من صقلية وبلاد الفلانديس والبرتغال وتولى هذه العمليات والاشراف عليها الفنون فرنسيسكو خيمنيس دى مدريد القائد الاعلى لسلاح المدفعية الذى قدم خدمات جليلة فى ثورة البشرات [٣] التى استمرت حتى ٩٠٦هـ/١٥٠٠م .

ان ما حدث فى غرناطة من محاولة تنصير للمسلمين حدث فى باقى البلاد والنواحى الاخرى الاسبانية ،بعد اخماد الثورتين السابقتين فى البيازين والبشرات ، وكذلك المرية (AL Meria) وبسطة (Baza) ،ووادى آشى (Guadix) ففى ٩٠٦هـ/١٥٠٠ عمت محاولات التنصير سائر انحاء مملكة غرناطة ، على ان هذه الحركة التى نظمت لتنصير بقية الامة الاندلسية ،والتى لم

---

(١) الحسن بن محمد الوزان : وصف افريقيا ،جـ٢ ،ص ٣٤ .

(٢) ابو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافى ،جـ١ ،ص ١٤٢ .

(٣) محمد عبده حتامله . مرجع سبق ذكره ،ص ١٠١ - ١٠٣ .

تدخر فيها اساليب الوعود والوعيد والاغراء والاكراه [١] كان الغرض منهـــا ان يقطع المسلمون صلتهم بالقوى الاسلامية الاخرى ولا سيما القوة العثمانيـــة الفتية ،والتى اخذ خطرها يزداد على نواحى اوروبا من اجل استرداد الاندلـــس

كان الاغراء بالتنصير يتخذ احيانا شكل هبات ومنح جماعية لبلـــــدة او منطقة باسرها ، كما حدث بالنسبة لاهل وادى الكرين (الاقليم) ولانخـــرون والبشرات ، فقد اصدر الملكان الكاثوليكيان مرسوما بابراء سائر اهالـــى النواحى المذكورة الذين تنصروا او سيتنصرون من جميع الحقوق والتعهـــدات المفروضة على الموريسكين لصالح العرش ورفعها عن منازلهم واراضيهم وسائـــر املاكهم المنقولة والثابتة وهبتها لهم والغاء ضريبة الرأس المفروضة عليهم لمدة ستة سنوات ، والغائهم للغرامة التى فرضت عليهم منجراء ثورتهم وقدرها خمسون الف دوقية ،بالاضافة الى منح وبراءات اخرى تضمنها المرسوم المشـــار اليه ، كما صدر مرسوم مماثل الى المسلمين القاطنين بحيهم المسمى الموراركة (Moreria) بمدينة بسطة (Boza) باعفاء الذين تنصروا منهـــم او يتنصرون ،من جميع الفروض والمغارم التى فرضت على الموريسكين ،وتحريرهم منها بالنسبةلانفسهم او منازلهم واموالهم الثابتة والمنقولة منايام التنصيـر والا يدخل احد منازلهم دون رغبتهم ومن فعل عوقب بغرامة فادحة ، وان يعفـــوا عن سائر الذنوب التى ارتكبت ضد خدمة العرش ،وان تحترم جميع العقـــــود والمحررات التى كتبت بالغربية ،وصادق عليها فقهاوءهم وقضاتهم ،وان يعامل المنتصرون منهم كسائر النصارى الاخرين فى بسطة (Boza) ،ولهـــم ان ينتقلوا وان يعيشوا فى اى مكان آخر من اراضى مملكةقشتالة دونقيـــد او عائق ،الى غير ذلك من المنح والامتيازات ، وصدر اخيرا مرسوما بالعفــو عن سكان حى المسلمين (Moreria) بغرناطة والقرى الملحقة بهـــا بالنسبة لجميع الذنوب والاخطاء التى ارتكبت حتى يوم تنصيرهم ، والا يتخـــذوا فى شأنها اى اجراء سواء ضد اشخاصهم او املاكهم .[٢]

---

(١) محمدعبدالله عنان : مرجع سبق ذكره،ص ٣١٩ .

(٢) محمد عبدالله عنان : نفس المرجـــع ،ص ٣١٩ – ٣٢٠ .

" وامتنع قوم من التنصر واعتزلوا الناس ،فلم ينفعهم ذلك ،وامتنعت قرى واماكن كذلك منها بلفيق وآندرش وغيرهما ،فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسبيا ... ثم بعد هذا كله كان من اظهر التنصر من المسلمين يعبد الله فى خفية ويصلى فشدد عليهم النصارى فىالبحث حتى انهم احرقوا منهم كثيرا بسبب ذلك ومنعوهم من حمل السكين الصغيرة فضلا عن غيرها منالحديد ،وقاموا فى بعض الجبال على النصارى مرارا ولم يقيض الله لهم ناصرا ... " ، ويصف الحالة تلك المقرى فى كتاب ازهارالرياض " .. فلو رأيتم ما صنع الكفر بالاسلام بالاندلس واهليه ،لكان كل مسلم يندبه يبكيه فقد عبث البلاءبرسومه ،وعض على اقماره ونجومه ولو حضرتم من جبر بالقتل على الاسلام ،وتوعد بالنكال والمهالك العظام ومن كان يعذب فى الله بأنواع العذاب ،ويدخل به من الشدة فى باب ويخرج من باب ،لانساكم مصرعه ،وساءكم حفظه ، وسيوف النصارى اذ ذاك على رؤوس الشرذمة القليلة من المسلمين مسلولة وافواه الذاهلين محلولة وهم يقولون : ليس لاحد بالتنصر ان يمطل ولا يلبث حينا ولا يهمل ،وهم يكابدون تلك الاهوال ،ويطلبون لطف الله فى كل حال .(١)

تردد صدى هذه المحنة التى نزلت بمسلمى الاندلس فى جميع انحاء العالم الاسلامى فذكر ابن اياس فى حوادث صفر سنة ٩٠٦هـ (اغسطس ١٥٠٠) عقب محنة التنصير "... وفيه جاءت الاخبار من جهة المغرب بأن الفرنج قد استولوا على غرناطة التى هى دار ملك الاندلس ،ووضعوا فيها السيف للمسلمين ،وقالوا من دخل فى ديننا تركناه ،ومن لم يدخل قتلناه ،فدخل فى دينهم جماعة كثيرة من المغاربة خوفا على انفسهم من القتل ثم ثار المسلمون ثانيا ،وانتصفوا عليهم بعض الشىء ،واستمر الحرب ثائرا بينهم .. والامر للهتعالى فى ذلك" (٢)

---

(١) شهاب الدين احمد بن محمد المقرى : مرجع سبق ذكره،جا ،ص ٧٠ - ٧١ .

(٢) محمد بن احمد بن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ،الكتاب ٦ ، ص ٦٦٦ .

كان استخدام الشدة من قبل المسيحيين ضد المسلمين معناه اضطرار عدد من المسلمين تحت الضغط الى التظاهر بقبول التعميد والدخول فى المسيحية ،خاصة امام هياج الرأى العام لغزاة الاندلس الجدد المتعصبين [1] وكان قبول ذلك ظاهريا اذ كان الموريسكيون اقوى الناس ايمانا ،متمسكين بعقيدتهم الاسلامية وعوائد اجدادهم القديمة سواء ما كان منها دينى او اجتماعى ،كما يعتبرهم المسيحيين اعداء لدينهم حتى لو تنصروا واصبحوا يشاركوهم فى عقيدتهم فكان تنصيرهم صوريا ولم يتخلقوا قط باخلاق النصارى سواء من هم يعيشون بين اظهرهم فى مدن مأهولة بالسكان وغالبيتهم نصارى قدماء ، ومن يعيشون داخل احياء خاصة بهم فى مدن النصارى فكان موقفهم من النصارى موقف تهكم واستهزاء بمعتقداتهم فما الكتب العربية والالخيمادية ،التى مازالت تتداول سرا بين ايديهم الا دليلا على تمسكهم بالاسلام وعوائده [2].

طلب الموريسكيون فى هذا الوقت العون والمساعدة من حكام المغرب ،ولكن هوءلاء كانوا منغمسين فى مشاكلهم الداخلية والخارجية مع نفس الاسبان والبرتغال الذين استولوا على بعض قواعد بحرية فى الشاطىء المغربى لتكون نقاط ارتكاز لهم فى البحر الابيض المتوسط ،لمواجهة الدولة العثمانية التى تتطلع لاسترداد الاندلس ،فلجأ الموريسكيون الى مداهنة النصارى واخفاء الاسلام وصاروا يمهدون السبيل لقرصنة المغاربة والعثمانيين فى الدخول والخروج الى اسبانيا وكانوا يقومون بعبادتهم الاسلامية سرا ، وكانت لهم الثقة فى العرافين يبعثون فيهم الامل ويبشرونهم بعودة مجدهم الغابر [3] ،بمساعدة القوة الناشئة العثمانيين ،والتى كانت استراتيجيتهم نشر الاسلام فى انحاء اوربا .

---

(١) جلال يحيى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٩ .

(٢) محمد قشيليو : مرجع سبق ذكره ،ص ٤٩ - ٥٠ .

(٣) محمد قشيليو : المرجع السابق ،ص ٢٥ - ٢٦ .

كان يضم المجتمع الاسبانى اقليةكبيرة من الاجانب الدخيلة ،مسيحيين بالاسم غير مندمجين ،اعتبرتهم الحكومة الاسبانية مهددين بصفة دائمة لامنها وحلفاء للقوى الاسلامية الجديدة فى البحر المتوسط ،وحيث ان اعدادا كبيرة من الموركسين يسكنون المناطق الساحلية الواسعة والبعيدةعن مركز الحكومة مع عدم وجود وسائلدفاعية لتلك السواحل الاسبانية الشرقية والجنوبية،ومعروف عن هوءلاء الموركسيين بانهم متعاطفين مع المسلمين فى افريقيا الشمالية كل ذلك زاد من مخاوف اسبانيا (١) .

لجأ الموركسيون الى قمم الجبال ،واتخذوها معاقل لهم ،وقواعد استراتيجية عسكرية ،يشنون منها على الاسبان غارات متعددة ، معتبرين هذه الغارات جهادا فى سبيل الله ضد من اغتصب اوطانهم وشردهم منها وظلوا يمارسون جهادهم بصبر وجلد وعزيمة قوية حتى اصبحوا قوة ذات وزن كبير غير انهم كانوا يتعرضون احيانا لمطاردة السلطات الاسبانية حتى اذا ما تم القبض على بعض افرادهم قدموا للمثول امام ديوان مجمع قضاة الايمان الكاثوليكى ،او محاكم التفتيش التى كانت توقع بهم اشد العقاب .

وامام تلك الممارسات الاسلامية كان موقف النصارى الاسبان العدائى يزداد حدة ضد هوءلاء الموريسكين ،لدرجة ان الملكين الكاثوليكيين اصدرا امرا فى غرناطة فى ٩٠٧هـ / ١٥٠١م يحرم على الموريسكيين ممارسة كل ما يمت الى عقيدتهم ولغتهم بصلة وهذا اضطرهم الى ترك العيش بالقرب من الاسبان والالتحاق باخوانهم فى روءوس الجبال ،ثم اجبروا نتيجة لثورتهم على ارتداء ما يرتديه الاسبان والتطبع بطابعهم ،وعلى ارسال ابنائهم الى قشتالة رهائن يقتلون اذا ثار آبائهم (٢) وهكذا استمرت اسبانيا فى محاولتها لتصفية المسلمين

1- John Lynch : Spain under the Habsburgs, Vol.1 P.94 .

(٢) محمد عبده حتاملة : مرجع سبق ذكره ،ص ٧٩ .

الذين ازداد خطرهم فى البشرات ، فأصدر الملكان الكاثوليكيان امرا ملكيا خلاصته " انه لما كان الله قد اختارهم لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة فانه يحظر وجود المسلمين فيها،فاذا كان بها بعضهم فانه عليهم ان يتصلوا بغيرهم خوفا من ان يتأخر تنصيرهم او بأولئك الذين نصروا لئلا يفسدوا ايمانهم ويعاقب المخالفون بالموت او مصادرة الاموال .(١)

ومع بداية سنة ٩٠٨هـ / ١٥٠٢ كان جميع من فى قشتالة وليون يعتبرون منصرين بموجب المرسوم الذى اصدرته الملكة ايزابيلا ،وخيرت فيه المسلمين بين الانضمام الى الكنيسة اوالارتحال الى الشمال الافريقى واضافت الكنيسة بذلك الى رعيتها حوالى نصف مليون منصر بالاسم وحولت مساجدهم الى كنائس او ازيلت ،ومنع الآذان والصلاة (٢)،أما من اراد البقاء على الاسلام فقد خرج بطريق البحر ،شريطة ترك ابنائه وبناته الذين لم يبلغوا سن الرشد ،وذلك حتى لا ينجبوا اولادا فى بلاد الاسلام يكونون خطرا على الاسبان ،كما اجبرت السلطات الاسبانية المسلمين الساكنين فى ليون وقشتالة مغادرة البلاد ،وحددوا لهم الطريق الذى يسلكونه للارض الاسلامية ،ولكن لم ينفذ هذا الامر لانهم قبلوا المسيحية خاصة اهالى اقيلا وسمورة ومدريد ووادى الحجارة وطليطلة ولكن هؤلاء ايضا كان دخولهم للمسيحية ظاهريا من اجل البقاء فى الوطن .(٣)

اعترف ملوك اسبانيا بحتمية الاستمرار في تطبيق هذا القانون فلاحقتهم الكنيسة عن طريق ديوان التحقيق ومحاكم التفتيش ، فصودرت املاك المسلمين وحرم عليهم التكلم باللغة العربية ،واجبروهم على ارتداء الالبسة الوطنية ومنعوهم من التردد على الحمامات ،وامروهم بفتح منازلهم ايام الحفلات وايام الجمعة والسبت ،وعدم التسمية باسماء عربية .(٤)

---

(١) محمد عبدالله عنان : مرجع سبق ذكره ص ٣٢٤ .
(٢) عادل سعيد بشتاوى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٣١ .
(٣) محمد قشيليو : مرجع سبق ذكره ،ص ٢١ .
(٤) عبد الجليل التميمى : مرجع سبق ذكره ،عدد (٣) ،ص ٣٧.

بذلك يظهر للعيان مدى قوة التعصب الكنسى ضد المسلمين ،فلو دققنا النظر فى محاكم التفتيش التى ظهرت فى شبه الجزيرة الايبرية ،والتى كانت فاتحة لسياسة القمع الهائلة التى وضعت لاستئصال الاسلام من الاندلس تلك المحاكم التى ذهب ضحيتها الآلاف من المسلمين ،علاوة على المخالفين للمذهب الكاثوليكى .

وانتهى بذلك امر المسلمين بالاندلس سياسيا ،واصبح امر البلاد بين الاسبان الذين اقفلوا الثغور بعد ذلك على من بقى من المسلمين ، واخذوا يتفننون فى انواع التعذيب واشتد الامر على المسلمين فى ذلك شدة لا توصف ولم يقتصر العدو على ذلك بل تتبع بدافع الحقد الدينى والسياسى معا اثر الاسلام والمسلمين حيثما كان ،واخذ يجوب البحار مهاجما لسواحل المغرب محدثا فيها النهب والدمار ،ومتحفظا لكل ما يظفر به من الاموال والانفس وامست بعض الاماكن من سواحل المغرب لعصابات من قراصنة الدول الاوروبية وبذلك تكون الحروب الصليبية قد انتقلت من المشرق الى المغرب [1].

من خلال ذلك تبين ان المسيحية وبتعليمات من الكنيسة فى روما قد حرصت على اسقاط غرناطة وشددت فى ذلك ، اذ ان الوجود الاسلامى فيها يشكل خطرا كبيرا على المسيحية ،خاصة وان الدولة العثمانية فى المشرق قد حققت نجاحا فى شرق وجنوب شرق القارة الاوروبية ، فهى تريد ان تطبق على اوروبا من الشرق والغرب ،فأرادت المسيحية ان تفوت ذلك على المسلمين ولا يمكن تحقيق ذلك الا باخراج المسلمين نهائيا من شبه الجزيرة الايبرية .

---

(١) عبد الرحمن بن محمد الجيلالى : تاريخ الجزائر العام ،ج٣ ، ص ٣٦ .

الفصل الثاني

(الفصـــــل الثانـــى)

الدولة العثمانية فى مفترق الطـــــــرق :

أ- اهمية التقدم شمالى الدانوب والدوران حول البحر الاسود .

ب - عوائق الزحف العثمانى فى وسط آوروبا .

جـ - استنجاد غرناطة بالدولة العثمانية .

د - وصول البرتغاليين الى المحيط الهندى - تهديد الحدود الجنوبية للعالم الاسلامى لاول مرة فى التاريخ .

هـ - تحول التجارة

...

قامت الدولة العثمانية على اساس اسلامى قوى ومتين ، وأخذت على نفسها عاتق نشر الاسلام وحماية المسلمين فى جميع انحاء المعمورة ، وقد اتبعت فى سبيل ذلك شتى انواع الطرق والاساليب ،ومنها الجهاد .

والمتتبع لطبيعة الدولة من حيث النمو والامتداد ،يجد الدولة فى امتدادها انها كانت تمتد تجاه اوروبا وذلك رغبة منها فى ضم القارة الاوربية للدولة حتى يصبح البحر المتوسط بحيرة اسلامية ، وعندما قامت حروب الاسترداد فى شبه الجزيرة الايبرية وذلك فى فترة لاحقة ،نجد ان الدولة العثمانية تشدد فى هجومها على الدول الاوربية لان خطتها كانت تقوم على اساس اختراق اوروبا من اقصى شرقها الى اقصى غربها لانقاذ الأندلس واسترداده وظلت الدولة العثمانية تتابع تنفيذ تلك الخطة على مدى قرون عديدة .

ففى عهد السلطان مراد الاول ،تركزت الفتوحات الإسلامية فى اقليم تراقيا ،وبلغت اوجها بفتح مدينة اورنة فى ٧٦٢هـ (١٣٦١م) ونظرا لاهمية موقعها الجغرافى ووجودها على ملتقى ثلاثة انهر واشرافها على طرق وممرات القوافل العسكرية ومركز انطلاق نحو توسع اوروبى افضل ،فقد جعلها السلطان مراد مقرا للقيادة العسكرية [1] وكانت اورنة تعتبر الحصن الرئيسى بين القسطنطنية والدانوب .

تحرك السلطان مراد الاول عبر وادى نهر ماريتزا واحتل فيلبه ،واجبر الامبراطور البيزنطى على قبول السيادة العثمانية [2] وتوالت الفتوحات حتى اصبحت القسطنطنية محاطة من ناحية اوروبا باملاك العثمانيين وانعزلت عن باقى الامارات المسيحية ،فاضطرب لهذا الوضع الملوك المسيحيون وطلبوا من البابا اوربانوس الخامس ان يتوسط لدى ملوك اوروبا الغربيين ليساعدهم

---

(١) محمد فريد بك المحامى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٢٩.

(٢) على حسون : مرجع سبق ذكره ،ص ٢١ .

فى محاربة المسلمين ،خوفا من امتداد فتوحاتهم الى ما وراء جبال البلقان فلبى البابا استغاثتهم وكتب لجميع الملوك بالتاهب لمحاربة المسلمين وحرضهم على محاربتهم محاربة دينية حفظا للدين المسيحى من الفتوحات الاسلامية . (١)

وعقد لازار ملك الصرب اتفاقية سنة ٧٩١هـ (١٣٨٨م) مع ملوك الافلاق وامراء دلماشيا ،وملك المجر وملك البلغار وتحزبوا جميعا لمحاربة السلطان اذ لم يرغبوا فى انتظار وصول المدد اليهم من اوربا ، وتقابلت الجيوش(٢) المسيحية والمسلمين فىسهول قوصرة (Cossora) وحصلت بين الطرفين معركة كبيرة ،انهزمت فيها جيوش المسيحيين ،وبهذه الهزيمة فقد الصربيون (٣) استقلالهم ، وكذلك البلغار (٤) وبلاد الروملل وآسيا الصغرى قبل ذلك (٥) واصبح بذلك نهر الدانوب الحد الشمالى للدولة العثمانية .

وفى اثناء انشغال السلطان بايزيد الاول فى الاناضول فى الفترة ٧٩٢ / ٧٩٥هـ (١٣٨٩/ ١٣٩٢م) هدد النفوذ العثمانى فى البلقان امام مقاومة المجر ،الافلاق (Wallochia) فى بلغاريا الدانوبية ودوبروجا مما وضع مملكة بلغاريا المضطربة فى موقف لا يحسد عليه .(٦)

وامام هذا الموقف البلقانى الصعب ،امر السلطان بايزيد الاول بمتابعة الحروب فى اوروبا ودعا بزحف عام على طول حدوده الشمالية والشمالية الغربية ووصلت غارات قواته السريعة الى حدود الاراضى الالمانية

---

(١) محمد فريد : مرجع سبق ذكره ،ص ١٣٠ .
(٢) على حسون : مرجع سبق ذكره ،ص ١٦ .
(٣) الصرب مملكة فى اوروبا يحدها شمالا النمسا والمجر ومقاطعة اسكلافرينا وبلاد رومانيا ويفصلهما عن بعضهما نهر الطونة" الدانوب" وشرقا ولاية البلغار وجنوبا ولاية سلانيك وغربا ولاية البوسنة العثمانية .
(٤) بلغاريا يحدها شمالا نهر الدانوب الذى يفصلها عن رومانيا وشرقا البحر الاسود وجنوبا جبال البلقان التى تفصلها عن بلاد الروملى ،ومن الجنوب الشرقى بردزرين ،ومن الشمال الغربى بلاد الصرب .
(٥) اسماعيل سرهنك : مرجع سبق ذكره ،ج١ ،ص ٤٩٢ .
(٦) ابراهيم شحاته حسن : اطوار العلاقات المغربية العثمانية ،ص ٩١.

وفى ١٣٩٣م (٧٩٦هـ) استكمل احتلال بلغاريا وزود قلاع الدانوب بحاميات قوية بعد تقوية تحصيناتها [١] .

كما دعا بايزيد جميع الامراء التابعين للبلقانيين بما فيهم البالپولوجى الى فيريا سنة ١٣٩٤م(٧٩٧هـ) لتجديد روابط الولاء ، وبعدها بدأت سلسلة عملياته العسكرية بحصار القسطنطنية [٢] عندها اورك امبراطور القسطنطنية الخطر ،وخاف من تقدم السلطان بايزيد مع شعوره بعدم مقدرة ملوك اوروبا الذين استجار بهم ان يتصدوا له ، ارسل جملة هدايا يستجلب بها رضا السلطان متعهدا بدفع جزية سنوية معينة ،وعجل بدفع جزية سنة مقدما ،ووافق بان يسكن المسلمون القسطنطنية وان يكون لهم بها مسجد وقاضى يحكم فى امورهم .[٣]

ثم قام بايزيد بحملته الكبرى عام ١٣٩٥م(٧٩٨هـ) التى وصل بها حتى سلانكمان على نهر الدانوب ، ودخل الافلاق (Wallachia) وهزم ملكها (مرسيا فى ارغيش (Argesh) ، ثم زحف السلطان بايزيد على نيقوبوليوس واعدم الملك البلغارى شيشمان بتهمة الخيانة وانحيازه للعدو .

وفى خلال هذه المعارك زالت عدة أسرات حاكمة ، ومن ثم اتجه بايزيد الى تكوين الدولة المركزية بدلاً من دولة الإمارات التابعة ، وبدا ذلك جليا بعد التخلص من بلغاريا كمملكة حاجزة حيث تعهدت الدولة العثمانية المسئولية المباشرة فى الدفاع عن منطقة الدانوب ضد المجر .[٤]

كان ذلك بمثابة تهديد جديد للمسيحية ،وقوبل ذلك باعداد حملة دولية صليبية تعتبر من اكبر التكتلات الصليبية التى واجهها العثمانيون فى القرن

---

(١) احمد عبدالرحيم مصطفى : مرجع سبق ذكره ،ص ٥٣ .
(٢) ابراهيم شحاته حسن : اطوار العلاقات المغربية العثمانية ،ص ٩١.
(٣) اسماعيل سرهنك : مرجع سبق ذكره ،جا ،ص ٤٩٥ — ٤٩٦ .
(٤) ابراهيم شحاته حسن : نفس المرجع ،ص ٩١.

الرابع عشر [١]،كما رمزت تلك الحملة الى ذروة الصراع بين العثمانيين والمجريين للإستيلاء على الدانوب السفلى ،كما ظهر اهتمام البندقية بهذا الصراع حتى انها استخدمت اسطولها لقطع الاتصال بين الأناضول والبلقان عبرالمضيق ، كما ظهر من هذه الحملة الصليبية الفاشلة ،انها كانت بالنسبة لفرسان غرب اوروبا مجرد مغامرة صليبية [٢] لقيت نهايتها عند مدينة نيقوبوليس (Nicopolis) على نهر الدانوب فى سبتمبر عام ١٣٩٦م(ذو الحجة ٧٩٩هـ) ومن اهم نتائجها توطيد اقدام العثمانيين فى البلقان [٣] كما رفعت ايضا وبشكل كبير من مكانة العثمانيين فى العالم الإسلامى ، وكان النصر العثمانى فى اوروبا هو فى الواقع بمثابة نصر للمسلمين اينما كانوا.

بعد ذلك ابطأ الزحف العثمانى فى القارة الاوروبية قرابة نصف قرن وذلك بسبب انشغال الدولة العثمانية مع تيمورلنك عام ١٤٠٢م(٨٠٥هـ)، ولكن لم يستمر ذلك طويلاً فقد تمكن العثمانيون من اعادة بناء الدولة ولم يأت عام ١٤١٥م(٨١٨هـ) حتى عادت الدولة الى وضعها السابق فى روميللى والاناضول .

غير ان هذا لم يتم دون عقبات ، فقد أثبتت الحروب الداخلية فى الاناضول والبلقان أن الامر يدعو الى أسلوب المصالحة أكثر من اسلوب القوة العسكرية مع القائمين على قبائل الاناضول ، أو على الاقل يدعو الى ايجاد التوازن بينهما ،وقد نجح السلاطين العثمانيين فى ذلك .

وقام السلطان مراد الثانى بمصالحة أمير القرمان ،وعقد هدنة مدتها خمس سنوات مع ملك المجر ،وأعاد الولايات التى كان قد أخذها تيمور ، ثم

---

(١) عمر عبد العزيز عمر : دراسات فى تاريخ العرب الحديث ،ص ٣٨ .
(٢) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ،ص ٩٢ .
(٣) عمر عبدالعزيز عمر : نفس المرجع ،ص ٣٨ .

استرد بلاد القرمان بعد وفاة اميرها (١) بعد ذلك اتجه نحو اوروبا وفتح مدينة كولمباز (Kucero) الواقعة على شاطئ الدانوب الأيمن ،واجبر ملك المجر على توقيع معاهدة يتخلى فيها عما يكون له من البلاد على شاطئ نهر الدانوب الايمن ، بحيث يكون هذا النهر فاصلاً بين العثمانيين والمجر . وفى ١٤٣٠م (٨٣٤هـ) أعاد السلطان فتح مدينة سلانيك ، ثم وجه اهتمامه الى آلبانيا وأدخلها تحت حكمه وفى ١٤٣٣م (٨٣٧هـ) اعترف امير الافلاق (فلاد) بسيادة الباب العالى تخلصا من الحرب (٢).

تغيرت الأوضاع فى أوروبا بعد وفاة ملك المجر سجسمند ٨٤١هـ/١٤٣٧م ، اذ ازدادت هجمات المجريين بقيادة حنا هنيادى على القوات العثمانية ،فتصدى فى البداية للمحاولات العثمانية للتوغل فى ترانسلفانيا ،ثم قاد هنيادى جيوش الحلف المسيحى الكبير الذى تكون فى ذلك الوقت لمواجهة العثمانيين لاخراجهم نهائيا من اوروبا والقضاء على فكرة الوصول للاندلس وكان الحلف المسيحى يتكون من بلاد المجر وبولندة والصرب وبلاد الافلاق (Wallachia) ودوقية برجانديا وجنوة والبندقية والبابوية والامبراطورية البيزنطية وبينما ابحر أسطول من السفن الايطالية والفلمنكية نحو مضيق الدردنيل وزحف هنيادى جنوباً على رأس الجيوش المسيحية ،فعبر نهر الدانوب ،وطرد العثمانيين من الصرب وهزمهم فى شمال نهر هايموس وجنوبه فاضطرت الدولة العثمانية الى طلب الصلح فعقد صلح سيزجردن(يونيه ١٤٤٤م) (ربيع الاول ٨٤٨هـ (٣) تنازل بموجبه السلطان عن بلاد الافلاق ،وأن يرد الى أمير الصرب مدائن سمندريه وان يهادن المجر مدة عشر سنوات ، الا أن المجريين لم يراعوا شروط الهدنة فاغاروا على بلاد البلغار ، فقاد السلطان جيشه لمحاربة المجر فوجدهم محاصرين لمدينة وارنة (Varna) الواقعة على البحر الأسود. واشتبك الجيشان فقتل ملك المجر لاد سلاس ،وهاجم العثمانيون معسكر المجر

---

(١) على حسون : مرجع سبق ذكره ،ص ١٩ .
(٢) محمد فريد : مرجع سبق ذكره ،ص ١٥٤ – ١٥٥ .
(٣) محمد عبدالمنعم الراقد : مرجع سبق ذكره ،ص ٨٨ .

واحتلوه بعد قتال شديد كان ذلك فى نوفمبر ١٤٤٤م (شعبان (٨٤٨هـ)[1] وحقق بذلك العثمانيين اهدافهم التى رغبوا فى تحقيقها فى المرة الاولى ٠

قاد هينادى عدة جيوش اوروبية فهاجم جنوده الروملى وبلاد الصرب وذلك ليعيد لنفسه ما فقد من الشرف فى وقعة دارنة ، فجمع السلطان مراد الثانى قواته والتقى مع هينادى فى وادى قوصره (Cassooro) (فى اكتوبر ١٤٤٨م) (فى رمضان ٨٥٢هـ) وكانت هذه الوقعة الثانية ٠ ثم انهزم هينادى وفر من ميدان القتال بعد ما لحقته خسائر كبيرة [2] ونتج عن ذلك ان خرجت بلاد المجر لمدة عشر سنوات على الاقل من قائمة الدول التى تستطيع القيام بعمل حربى هجومى ضد العثمانيين ٠[3]

وارتقى محمد الثانى سلطنة الدولة العثمانية عام ١٤٥١م (٨٥٥هـ) فرسم لنفسه خطة ، ليضم بها بقية المناطق فى الاناضول والبلقان ، فبعد سقوط القسطنطنية ١٤٥٣م (٨٥٧هـ) وجه محمد الفاتح همته الى تعزيز سلطته فى شمال شرقى شبه جزيرة البلقان والتى كان المجريون لايزالوا يتهددونها ، لهذا قرر القضاء على استقلال الصرب حتى يوفر لنفسه قاعدة ثابتة يستطيع منها محاربة المجريين ٠[4]

وكانت الخطة الاساسية للتقدم العسكرى طوال عهد محمد الثانى هى محاربة المسيحيين وذلك من اجل منع توحيد المقاومة القادمة من العالم الغربى وكذلك من اجل الحصول على اراضى جديدة واستمرار التقدم نحو الغرب ٠

وكان محمد الثانى قد استطاع ان يثير الشقاق بين الجمهوريات الايطالية وذلك بمنحها امتيازات تجارية جديدة فى دولته ٠ ففى عام ١٤٥٤م (٨٥٨هـ)

---

(١) محمد فريد : مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٧ – ١٥٨٠
(٢) اسماعيل سرهنك : مرجع سبق ذكره ، جا ، ص ٥٠٥ ٠
(٣) محمد عبدالمنعم : مرجع سبق ذكره ، ص ٨٩ ٠
(٤) احمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سبق ذكره ، ص ٧١ ٠

منحت البندقية حقا خاصا بمقتضاه تدفع ٢ ٪ رسوم جمركية على السلع التي تدخل او تباع في دولته وان يكون لها ممثلين تجاريين مقيمين في استانبول مقابل دفع جزية سنوية مقدارها ٢٠٠٠٠٠ مائتين الف دوكة ذهبية كما منحت جنوه منافستها الاولى حقوقا مماثلة في القرم (Crimea) وجزر بحر ايجه مقابل جزية .

وعرف السلطان محمد الفاتح وهو يفكر في المناطق التي يمكن ان يتوسع فيها مستقبلا ، عرف المغانم الهائلة المتاحة في الشمال والغرب والمناطق المطلة على شمال البحر الاسود والتي اصبحت تشكل فراغا سياسيا بعد انحلال القبائل الذهبية (Golden Horde Empine) والتي سيطرت مدة قرنين من الزمان على الاراضي الممتدة من اوكرانيا حتى وديان نهري الدون والفولجا .(١)

وكان فتح القسطنطنية دلالته السياسية لا العسكرية ،فمع ان محمد الثاني امكنه بناء اسطول قوى حاصر به المدينة ،واصبح بعد ذلك نواة القوة البحرية العثمانية ، الا انه كان واضحا انه يقابل دولة فت في عضدها السنون ومزقتها الخلافات المذهبية العقيمة ، اما الدلالة السياسية للفتح ،فهي انه أثبت ان روحا جديدة بدأت تجتاح العالم الاوروبي فقد انقضى عصر العصبية الدينية او على الاقل خفت حدته ولم يعد لرجال الدين سطوة في توجيه دفة السياسة الاوروبية ، وحل محل ذلك عصر جديد قائم على اساس آخر .(٢)

وابحر الاسطول العثماني في سنة ١٥٥٤م (٨٥٩هـ) في البحر الاسود ،واجبر جميع الحكومات على سواحله وهي مستعمرات جنوة ومملكة ترابزون والبغدان (Moldaria) على الاعتراف بالسلطة العثمانية (٣) وكان الهدف من ذلك

1- Stanford Show : History of the Ottoman Empire P. 62 .
(٢) محمد عبدالمنعم الراقد : مرجع سبق ذكره ،ص ٨٩ – ٩٠ .
3- Halil Inalcik : The Ottoman Empire P.27 .

تقوية علاقات الدولة مع التتار ،ومهما يكن من امر فان اهتمامات السلطان محمد الفاتح الاساسية تنصب على غرب البلقان ، حيث كانت من الناحية الحربية ضعيفة على الرغم من تمتعها بالحكم الذاتى ،اذ كانت تشكل قناة يمكن للهنغاريين او لاى حملة صليبية محتملة عبورها ، وبالمثل كان من الممكن نقل الحكام المستبدين من بيزنطة الى البندقية لتكون لهم قاعدة يقومون منها بمحاولة جديدة لطرد العثمانيين من اوروبا ،ولدرء هذه الاخطار قام محمد الثانى بعدد من العمليات فى الفترة من ١٤٥٤ - ١٤٦٣م (٨٦٠ - ٨٦٨هـ) لبسط حكمه المباشر على الدانوب وبحر ايجه وبذلك يقيم خطا عسكريا دفاعيا قويا .(١)

ادت حملتان فى ١٤٥٤ - ١٤٥٥م (٨٥٩- ٨٦٠هـ) الى تحطيم بلاد الصرب وقام العثمانيون باحتلال الجزء الجنوبى من البلاد وبذلك ضمنوا وللمرة الاولى الاتصال بمقدونيا ، كما غنموا السيطرة على مناجم الذهب والفضة فى (Norobord) الامر الذى وفر فيما بعد الكثير من المال اللازم للتوسع الاقتصادى للدولة العثمانية (٢) ،كما اصيب هونياد اثناء المعارك ثم توفى بعدها ،ارسل السلطان محمد الفاتح حملة سنة ١٤٥٨م واستغرق العمل فى ذلك مدة سنتين (٣) ووحد العثمانيون بعدها الانظمة المالية والتشريعية وادخل تغيير بسيط فى الادارة (٤)، وفى سنة ١٤٥٦م(٨٦١هـ) وبعد ان قبل أثرن الثالث (Aaron III) منذ سنتين الطاعة للدولة العثمانية منح السلطان تجار اللغدان (Moldovia) امتيار لتجارتهم ،اذ صرح لهم استعمال سفن التجار (Akkeman) والمتاجرة الحرة فى ادرنه وبورصه اسطنبول .

وكانت تجارة اكريمان (Akkremon) وكيليا (Kilia)

1- Stanford Show : History of the Ottoman Empire P.63 .
2- IBID P.63 .
(٣) محمد فريد بك المحامى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٦٨.
4- Stanford Show : IBID P.63 .

قد جلبت الازدهار لامارة البغدان (Moldovia) فى القرن الخامس عشر وكان الطريق التجارى القديم من كافا (Caffa) وكيليا (Kilia) الى بولندا يمر عبر البغدان ، وباءت محاولات بولندا للسيطرة على البغدان (Moldovia) ،وكيليا بالفشل ، اما بالنسبة للعثمانيين فان السيطرة على الميناءين وكافا ضرورة اقتصادية اكثر منها ضرورة سياسية .(١)

بعد ذلك حكم البغدان (ستيفان الاكبر Stephen the Great) (١٤٥٧ – ١٥٠٤م((٨٦٢ – ٩١٠هـ) فاستولى على ميناء الدانوب كيليا (Kilia) واخذ يتدخل فى الشئون السياسية للافلاق (Wallachia) كخطوة اولى لاخضاع البحر الاسود والقرم ، وكان صراعه مع العثمانيين فى ذلك الوقت قاصرا على المنافسة من اجل السيطرة على الامراء الضعاف فى الافلاق. وفى النهاية اعترف (Vladiva) بالعثمانيين مثل المجريين واعترف به اميرا على الافلاق (Wallachia) ووعده السلطان محمد سنة ١٤٦٠(٨٦٥هـ) بأن يبعد المغيرين العثمانيين ،طالما ستيفان لا يحاول توسيع املاكه ،وبتجمد الافلاق (Wallachia) استطاع محمد الثانى ان يلتفت للاناضول ، وبذلك اصبح ساحل البحر الاسود عدا طرابزون البيزنطية خاضعا تماما للسيطرة العثمانية .(٢)

تحالف (Vlad) فى سنة ١٤٦١م(٨٦٦هـ) مع المجريين وهاجم العثمانيين فى الدانوب ، ورد الفاتح فى السنة التالية بغزو الافلاق (Wallachia) وعزل (Vlad Drakul) وعين بدلا منه (Radul) وهكذا قلل السلطان العثمانى من التهديد المجرى .(٣)

1- Halil Inalcik : The Ottoman Empire P. 129 .
2- Stanford Show : History of Ottoman Empire P. 64 .
3- Halil Inalcik : IBID P.27 .

وفى هذا الوقت قام السلطان محمد الفاتح بفتح اجزاء من بلاد اليونان واقليم المورة (١) ولم يكن محمد الثانى مستعدا فى ذلك الوقت لاخضاع البوسنة اخضاعا تاما ولكنه كان يشجع المغيرين على شن هجمات خاطفة فى شمال نهر الدانوب داخل هنغاريا وجنوب النمسا وكذلك على طول سواحل دالماشيا و (Istria) .

وبحلول عام ١٤٦١م (٨٦٦هـ) كانت الرغبة الاساسية لدى محمد الثانى هى تسوية مشاكله فى اوروبا لكى يستطيع التركيز لوضع الاسس للسيطرة على الاناضول اذ انه بعد ان تم له اخضاع الصرب واليونان كانت البانيا فى الغرب فقط هى التى تسبب له متاعب حقيقية .(٢)

كانت كرمان قد بسطت نفوذها مرة اخرى فى وسط الاناضول كما اخذت فى اثارة القلاقل وتدبير الثورات ضد العثمانيين وكان نجاح العثمانيين فى البلقان ايضا يثير رعب البندقية ومثلها جنوه مما جعلهما مشجعان لتلك الطموحات فى الشرق حتى تقلل من التهديد العثمانى لها ، لذلك شعر محمد الثانى بالحاجة الملحة لاستكمال احكام سيطرته على طول ساحل البحر الاسود لكى يحبط اى تقدم يمكن ان يحرزه اعدائه بفعل التحريض الاوربى .

وكبداية فى ابريل ١٤٦١م (رجب ٨٦٦هـ) استخدم السلطان محمد الفاتح اسطوله والذى تم بناؤه حديثا ليربط ما بين الهجوم البرى والهجوم البحرى ، والتى اكتسحت بالترتيب على اقليم اماسرا (Amasra) ، ثم قندار (Candar) ثم اراضى التركمان نفسها واخيرا طرابزون البيزنطية .(٣)

كان نشاط البندقية مصدرا آخر للمتاعب الموجهة ضد العثمانيين ، حيث

---

(١) محمد فريد : مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٨ .

2- Stanford Show : History of Ottoman Empire P.63 .

3- IBID P.64 .

انه خوفا من التوسع العثمانى على طول سواحل الادرياتيك استطاعت البندقية ترغم سكاندريج (Scanderbeg) على انهاء تحالفه مع السلطان ويستأنف الهجمات على الحاميات العثمانية فى الشمال (فبراير ١٤٦٢ (جمادى الثانى ٨٦٧هـ) وتعاون ملك البوسنة الجديد ستيفان توماسفك (Tomasevic Stephen) (١٤٦١ – ١٤٦٣م) (٨٦٦ – ٨٦٨هـ) مع سكاندريج على التخلص من الخضوع لسيادة العثمانيين وقبول الحماية الهنغارية واحتلالها فى ١٤٦٢/ ٨٦٧هـ .

ورد محمد الثانى على ذلك بغزو البانيا وارغام سكاندريج على توقيع معاهدة سلام جديدة ، وان يوقف هجماته فى ٢٧ ابريل ١٤٦٣ ، وترك ذلك للسلطان حرية التعامل مع البوسنة التى قهرها خلال الفترة الباقية من الصيف بمساعدة كبيرة من الاهالى الذين كانوا قد خضعوا للاضطهاد اثناء الوجود الهنغارى .(١)

استغل البابا بيوس الثانى (Piusll) الموقف وضم البندقية وهنغاريا ضد العثما فى ١٢ سبتمبر ١٤٦٣/ ٩ محرم ٨٦٨ هـ ، فاذا قدر لهذه الحملة الصليبية الجديدة النجاح فان البندقية سوف تحصل على المورة والاراضى اليونانية على طول الادرياتيك ويمتد سكاندريج حدود دولة البانيا بالتوسع داخل مقدونيا وتتولى هنغاريا حكم بلغاريا والصرب والبوسنة والافلاق (Wallachia) ، وتعود القسطنطنية وما حولها الى الافراد الباقين على قيد الحياة من البيت الامبراطورى البيزنطى .

وبدأت الاعمال العدائية فعلا فى سبتمبر ١٤٦٣ (محرم ٨٦٨هـ) عندما استولت البندقية على عدد من جزر بحر ايجة واجزاء كبيرة من المورة(٢) ، كما اخذ البنادقة يبحثون عن حلفاء لهم فى الشرق ، وفى خريف ١٤٦٣م / ٨٦٨هـ فتحوا

1- Stanford Show : History of Ottoman Empire P.64 .
2- IBID P.65 .

باب المفاوضات مع أوزون حسن ، غريم العثمانيين فى الأناضول الشرقية .(١)

وبعد ذلك اخذ البابا بيوس الثانى (Pius //) يسعى فى تحريض الامم المسيحية على محاربة المسلمين حربا دينية (٢) وابحر اسطول البندقية متجها الىمدخل الدردنيل واستولى على ليمونس (Lemos) وتنيدوس (Tenedos) ١٤٦٤م (٨٦٩هـ) ،وبذلك حرم العثمانيون من ارسال الموءن للمورة ،وهدد بالهجوم على استانبول ، وردا على ذلك بدأت الترسانات الضخمة فىاستانبول ببناء اسطول كامل جديد بينماكان العمل يجرى فى انشاء قلعتين قويتين تواجه كل منهما الاخرى على الدردنيل لصد العدو (١٤٦٣ - ١٤٦٤م(٨٦٨ - ٨٦٩هـ) ثم قاد الصدر الاعظم حملة هائلة استعادت المورة وحطمت جيش البندقية (ربيع ١٤٦٤م) (٨٦٩هـ) ،وعندما علم السلطان بأمر الانتصارات على البندقية قاد جيشا آخر للبوسنة وطرد الهنغاريين وبدأ فى شن الغارات على هنغاريا .(٣)

وفى صيف ١٤٦٥م(٨٧٠هـ) قام السلطان بالحملة الثالثة ضد الصرب وكان الغرض منها هذه المرة الاستيلاء على بلغراد من الهنغاريين ، الا ان هذا المجهود لم يكتب له النجاح ايضا .(٤)

تحرك اسطول البندقية نحو شرق بحر ايجة سنة ١٤٦٩م(٨٧٤هـ) واستولوا على جزر ليمونس (Lemons) وامبروز(Imbros) وهاجموا بعنف السواحل الجنوبية للاناضول بالاضافة الى انزال الموءن لكارمان ،وردا على ذلك قام محمد الثانى فى الصيف التالى بقوة بحرية استولت على جزيرة نيقروبونت (Egriboz Negropont) وهى القاعدة الرئيسية لاسطول البندقية فى بحر ايجه ، وبينما كان البابا والبندقية يحاولان اعداد حملة صليبيةجديدة ،اخذ محمد الثانى يوطد الحكم العثمانى فى جنوب ووسط الاناضول بتوجيه عدد من الحملات اليها .(٥)

---

(١) 1- Halil Inalicik : The Ottoman Empier P. 28.

(٢) محمد فريد : مرجع سبق ذكره ،ص ١٧١ .

(٣) 3- Stanford Show : History of Ottoman Emprie P. 65 .

(٤) 4- IBID P.63 .

(٥) 5- IBID P.65 .

٩

كان اصرار هنغاريا على البقاء فى بلغراد ، وبناء العثمانيين لقلاع جديدة على طول نهر الدانوب اثناء دعمهم للغارات التى يشنها الاكنش (Akinci) على الاراضى الهنغارية نذيراً باقتراب صراع متجدد فى اوروبا فقد استطاع ماشياس كورفينوس (Mathias Corvinus) فى هنغاريا ان يحمل ستيفان الاكبر فى البغدان (Maldavia) على أن يتخلص من السيادة العثمانية ، وأن يبنى قوات عسكرية قوية تنافس الحكم العثمانى فى الافلاق (Wallachia) وأدت الطموحات الهنغارية فى مولدافيا (البغدان) للحرب مع ستيفان الذى انتصر بسهولة واستولى على قلاع كيليا (kilia) وابرايل (Ibrail) وظهر كقائد رئيسى فى المنطقة قادر على ان يركز جهوده ضد العثمانيين دون ان يقلق على موءخرة جيشة ، ثم قام ستيفان بغزو الافلاق (Wallachia) سنة ١٤٧١م (٨٧٦هـ) . (١)

وجاء تهديد آخر للحكم العثمانى من الاراضى المسكوفية ، التى كان اميرها ايفان الثالث (Ivan ///) قد تزوج صوفيا باليولوجاس (Paleologus) ونتيجة لهذا الزواج فقد اعتبر ايفان نفسه وكذلك الورثة الشرعيين للامبراطورية الرومانية الشرقية وحاول ان يجعل موسكو المركز الجديد للكنيسة الارثوزكسية (٢).

اما التهديد الثالث للسلطة العثمانية فقد جاء من لوثانيا (Lithuania) وبولندا (Poland) التى كان يحكمها (Casimir /V) ٨٥١ – ٨٩٨ هـ / ١٤٤٧ – ١٤٩٢م) ، وكانت املاكه تمتد حتى اوكرانيا (Ukrania) وتحد البغدان (Moladavia) الى الشمال عبر نهر الدنستر (Dniester) الى البحر الاسود شرقا ، لقد تحالفوا مع القبائل الذهبية التى كانت تحكم المناطق الشمالية ، وبينما كان منجيلى جيراى (Mengili Firay)

1- Stanford Show : History of Ottoman Empire P.67.
2- IBID P.67.

ملك تتار القرم سعيدا بقبول المساعدة على سادته العثمانيين ضد هذه التهديدات فانه لم يكن سعيدا بالأعمال التى كان يقوم بها محمد الثانى لنشر النفوذ العثمانى على الشواطئ الشمالية للبحر الأسود ، ومن ثم فقد بدأ يتعاون مع موسكو [1] ،على الرغم من تشابك المصالح فان ستيفان المولدافى ،وكذلك البولنديين واللوثانيين والمسكوفيين والقبائل الذهبية وحتى تتار القرم اتفقوا على القيام بعمل مشترك لمنع السيطرة العثمانية على البحر الأسود ، وردا على ذلك ذهب هاويم سليمان باشا من البانيا عن طريق الصرب الافلاق (Wallachia) وفى شتاء ١٤٧٥م (٨٨٠هـ) لينضم الى السلطان فى الهجوم على البغدان[2] الا انه بسبب جهل العثمانيين بطبيعة تلك البلاد لم يتمكنوا من النصر على البغدانيين ،بل عادوا دون تحقيق أهدافهم ، ونال ستيفان بذلك شهرة ولقبه البابا بحامى حمى النصرانية ،وكان السلطان محمد الفاتح قد افتتح قبل ذلك من البغدانيين كافا(Cafa) وميناء اقدكرمان [3] ،وحاول العثمانيون فيما بعد منع الايطاليين من دخول البحر الاسود .

صادف محمد الثانى نجاحا اكبر فى القرم اذ استغل فى بداية الأمر المنازعات الداخلية بين اسرة الهانتا (Hanate) لعزل (Mengili Giray) وتولية ابنه (Erminak Giray) مكانه [4] فأكرمه السلطان وعامله بما يليق بمكانته ، ثم نصبه السلطان خانا على بلاد القرم بالنيابة عنه وانعم عليه بالخلع السنية وبالتشريفات المخصوصة ثم تعاون (Erminak) مع حملة بحرية عثمانية فى الاستيلاء على ما تبقى من مستعمران جنوه على طول السواحل الشمالية للبحر الأسود واصبحت بعد ذلك القرم [5] ولاية ممتازة تابعة للدولة العثمانية سنة

1- Stanford Show: A History of Ottoman Empire P.68 .

2- IBID P.68 .

(٣) اسماعيل سرهنك : مرجع سبق ذكره،جا ،ص ٥١٦ .

4- Stanford Show : A History of Ottoman Empire P.68.

(٥) القرم هى شبه جزيرة فى جنوب المملكة الروسية باوروبا،يغمرها شرقا خليج بوتريد ومن الجهات الاخرى البحر الاسود .

١٤٧٥م (٨٨٠هـ) وانتقلت جميع المنافع التجارية التى كانت فى تلك الجهات الى يد العثمانيين .(١)

اعاد محمد الثانى منجيلى (Mengili) نتيجة لدخول كثير من كبار رجال القرم فى خدمة العثمانيين ،وكان من رأيهم أن منجيلى أقدر على قيادة التتار ضد اعدائهم فى الشمال ،وقد تقبل منجيلى بدوره السيادة العثمانية ووافق على ان يوفر المساعدات المالية والعسكرية اللازمة ،وهكذا تأكدت السيطرة العثمانية على تتار القرم واستمرت هذه السيطرة ثلاث قرون وهى توفر للسلاطين ليس فقط قاعدة اخرى للسيطرة على البحر الاسود ولكن ايضا الامداد المنتظم للمحاربين الاكفاء .(٢)

اعطت العمليات الناجحة فى شمال البحر الاسود للسلطان قدرا اكبر من المزايا الاستراتيجية والمتمثلة فى القدرة على مهاجمة ستيفان المولدافى فى شمال وجنوب البحر الاسود ، بينما كان تتار القرم يعملون على جذب اهتمام القبائل الذهبية ،واستطاع هجوم مشترك احتلال شواطئ (Bessarabia) والاستيلاء على اكريمان (Akkerman) محققا بذلك السيطرة على المدخل الجنوبى لنهر الدانوب ،وحاول استيفان تجنب معركة مفتوحة مع العثمانيين باتباع سياسة حرق الارض ولكنه نظرا لمساعدة الافلاق (Wallachia) قد جعلت من هذه السياسة لا قيمة لها ، فاضطر لمواجهة السلطان اخيرا فى (Valea Alba) فى ١٧ يوليو ١٤٧٦م (٢٣ ربيع الاول ٨٨١هـ) ، وسيطر محمد الثانى واقتحم البغدان (Moldavia) ولكن ستيفان استطاع الهرب ومواصلة الحكم بعد رجوع العثمانيين الى وطنه على انه فقد مكانته السابقة وكذلك قدرته على تهديد العثمانيين .(٣)

---

(١) اسماعيل سرهنك :مرجع سبق ذكره ،جا ،ص ٥١٦ .

2- Stanford Show: A History of Ottoman Empire P.68.

3- IBID P.68.

انتهت الحرب فى ولايات الدولة ،وفى شمال البحر الإسود فى وقت مناسب تماما ، ليتمكن فيه محمد الثانى من مواجهة التهديدات القادمة من الغرب اذ قام (Matheas Corrinus) بالهجوم على القلعة العثمانية فى سمندريا (Semendria) عام ١٤٧٦م (٨٨١هـ) مهددا بذلك كل الخط الدفاعى فى نهر الدانوب ولكن محمدالثانى وصل من البغدان واطاح بالهنغاريين بهجوم مباشر [١] ،ثم اجتاز اقليمى دالماشيا وكرداسبا[٢] ،ثم ركز على البندقية على امل انيجبرها لقبول صلح باستكمال غزو البانيا وبذلك يكسب موضع قوى لقدمه فى الادرياتيك ، وفى ١٤٧٧م حاصرت القوات العثمانية فى الادرياتيك ميناء (Lepanto) عاصمة (Scander Beg) وكرايا (Carya) القديمة وكلاهما كانت تحت سيطرة قواد من البانيا بمساعدة من البندقية .

ورد اسطول البندقية بغارات على شواطىء الاناضول الغربية ولكن ذلك توقف عندما ارسل محمد الثانى المغيرين من اهل البوسنة عدة مرات الى شمال ايطاليا محدثين دمارا هائلا فى الوديان المواجهة للبندقية ١٤٧٧ – ١٤٧٨م (٨٨٢–٨٨٣هـ) وفى نهاية ١٤٧٨م (٨٨٣هـ) كانت البانيا كلها تحت الحكم العثمانى المباشر [٣] ،و تم تنظيمها كولاية عثمانية دائمة ،واصبحت اقلونيا (Avlonia) ميناء دوليا تتركز فيه معظم التجارة من غرب اوروبا والدولة العثمانية .

انتقل العثمانيون ايضا الى الجبل الاسود (Montengro) التى كانت قد شيدت فى بداية القرن الخامس عشر اثر تمرد على الحكم الصربى فى اعالى جبال نهر زيتا (Zeta) التى تحميها مناطق ساحلية فى ساحل نهر دالماشيا الخاضعة للبندقية ،واستولى محمد الثانى على الجزء الجنوبى من البلاد .

1- Stanford Show : A History of Ottoman Empire P.68.

(٢) اسماعيل سرهنك : مرجع سبق ذكره ، جـ١ ، ص ٥١٦ .

3- Stanford Show : IBID P.P.68 - 69.

من الواضح ان البندقية كانت فيحالة تمزق بسبب فتوحات محمد الثانى وقد تم التوصل الى تسوية تعيد المزايا التجارية للبندقية فيالدولة العثمانية تاركة لها قوة كافية فى الادرياتيك للمحافظة على مواصلاتها البحرية وانتهت المفاوضات بتوقيع معاهدة صلح فى استانبول فى ٢٥ يونيو ١٤٧٩م (٣ ربيع الثانى ٨٨٤هـ) (١) ،تعهدت البندقية بدفع قدر من الذهب وتنازلوا عن مدينة كرويا عاصمة اسكندر بك للسلطان(٢)

وكانت هذه اول خطوة خطتها الدولة العثمانية للتدخل فى شئوون اوروبا اذ كانت جمهورية البنادقة حين ذاك اهم دول اوروبا لاسيما فى التجارة البحرية ،وما كان يعادلها فى ذلك الا جمهورية جنوا .(٣)

هكذا كان اهتمام السلطان محمد الفاتح للسيطرة على البحر الاسود حتى يوءمن ظهره ليستطيع ان يتقدم الى وسط اوروبا ثم يجتاز كل ذلك ليحقق هدف دولتهفتح اوروبا والوصول الى الاندلس ، وتتوالى المحاولات فى عهد خلفائه . ففى عهد السلطان بايزيد نجد هناك اصلاحات داخلية كبيرة ،لكن هذا لا يمنع السلطان مواصلة الاستراتيجية العثمانية الوصول للأندلس التى كانت تأن من المعاملة المسيحية فى هذا الوقت ،كما اوضحنا من قبل فقام السلطان بالضغط على الجبهة الشرقية فى اوروبا حتى يخفف عن المسلمين فى الاندلس ، وكانت الخطوة الاولى فى السياسة الحربية الجديدة لبايزيد ارسال المغيرين من الصرب والبوسنة على طول سواحل دالماشيا حتى راجوسا (Ragusa) ثم عبر الدانوب داخل تمسفار(Temesvar) والاراضى الهنغارية الاخرى ،وقد حققت تلك الغارات الكثير من اهدافها وادت بالتحديد الى فتح هوزيجوفينا (Herzegovina) عام ١٤٨٣م(٨٨٨هـ) ،ولكن ظلت المناطق الساحلية فى (Craina) فى يد البندقية .(٤)

1- Stanford Show : OP.CIT P.69.

(٢) اسماعيل سرهنك : مرجع سبقذكره ،جـ١ ،ص ٥١٧ .

(٣) محمد فريد : مرجع سبق ذكره ،ص ١٧٥ .

4- Stanford Show : IBID P.72 .

ثم اختار بايزيد الافلاق (Wallachia) لتكون اول ميدان لعملياته الحربية حيث كان ستيفان المولدافى اخذ يناوىء الدولة ومنها انشاء طرق مواصلات مباشرة حول البحر الاسود تربط بين اراضى الفتوحات العثمانية الجديدة فى القرم ،وكان بايزيد يشعر ايضا ان فتح البغدان (Moldavia) من جديد يعطيه ميزة استراتيجية عندما تتجدد الحرب مع هنغاريا وتمكنه من السيطرة على مداخل الدانوب ليوقف القراصنة المسيحيين الذين كانوا يدخلون البحر الاسود ،ثم يشنون الغارات على الملاحة والسواحل العثمانية .

كان ستيفان هو الذى اوجد الدافع لنشوب الحرب ،اذ انه بمجرد علمه بتمرد جيم قام بغزو الافلاق (Wallachia) ثم عبر الدانوب ،وقاد عددا من الغارات داخل بلغاريا ، مهددا لمكانة السلطان ونفوذه على اراضيه فى اوروبا ، ورد بايزيد على ذلك بارسال المغيرين الى البغدان (Moldavia) وقام بهجوم برى وبحرى فى وقت واحد .(١)

لم يخش السلطان بايزيد اى تدخل من جانب الهنغاريين حيث كان (Mathas Corvinus) لايزال مشغولا فى وسط اوروبا ،ودخل بايزيد البغدان بقوات من الاراضى المفتوحة فى الافلاق (Wallachia) واستولى على (Killia) على الدانوب فى ١٤يوليو ١٤٨٤م(١٠رجب ٨٨٩هـ) بينما استولت قوات تتار القرم على اكريمان (Akkerman) فى (Bessarabia) على نهر (Dniester) محققا بذلك السيطرة على شواطىء غرب البحر الاسود ومداخل نهرى الدانوب والدنيستر، بينما استغل قائد تتار القرم (Mevgili Giray) حملة مشتركة مع العثمانيين فى مولدافيا الإستيلاء على الساحل الشمالى الغربى للبحر الاسود من البولنديين واللوشنيين وفقدت مولدافيا وهنغاريا مركزها التجارى مع وسط وشمال اوروبا عن طريق البحر الاسود وبالتالى وقعت هذه

1- Stanford Show : OP.CIT , P. 72.

التجارة وكذلك رخاء الأراضى الممتدة عليها تحت السيطرة العثمانية ،واسرع ستيفان بالاعتراف بسيادة بايزيد ،وعاد السلطان بدون مزيد من الفتوحات ، وسرعان ما نقض ستيفان هذه الإتفاقات وحاول استعادة القلاع فى ١٤٨٤م(٨٨٩هـ) ومرة اخرى فى ١٤٨٦م (٨٩١هـ) ولكن دون جدوى ،وتم اعتراف هنغاريا وبولندا اخيرا بحكم بايزيد على المنطقة بمقتضى معاهدات جديدة ،وجعل النجاج فى مولدافيا العثمانيين على اتصال مباشر مع بولندا ولكن اقتحام تتار القرم للأراضى البولندية ،اجبر البولنديين على التركيز على التتار والامتناع عن اى صراع مباشر مع العثمانيين .(١)

نظرا للظروف الداخلية فى الدولة العثمانية ،رأى السلطان بايزيد ان يوقع معاهدة مع البندقية فى ٦ يناير ١٤٨٢م(٢٤ ذو القعدة ٨٨٧هـ) توقف بمقتضى ذلك دفع الجزية للسلطان وزادت امتيازات البندقية داخل نطاق الدولة العثمانية ورغم ذلك فإن المنافسات فى الإدرياتيك وبحر ايجه والمورة استمرت فى زعزعة العلاقات .

فالبندقية كانت بتشجيع من البابا تتوسع فى بسط سلطانها فى شمال ايطاليا مقابل التزامها بتقديم مساعدات ضد الدولة العثمانية ، وعلى الجانب العثمانى كان التوقف النسبى ضد المسيحيين عدة سنوات قد خلق بعض التوتر ، ولذلك حاول بايزيد استفزاز البندقية للحرب ففى ١٤٩١م(٨٩٧هـ) قام بطرد الوكلاء التجاريين التابعين للبندقية وفى ١٤٩٦م(٩٠٢هـ) اغلق الموانىء العثمانية امام تجار الحبوب البنادقة ، لا لعجز فى انتاج الحبوب ولكن فى الواقع من اجل زيادة الضغوط العثمانية ، وفى نفس العام احتلت القوات العثمانية القادمة من البانيا مدينة مونتجرو وهى محمية تابعة للبندقية ، كما استولى الاسطول العثمانى سنة ١٤٩٧م(٩٠٣هـ) على سفينة تابعة للبندقية وكانت تنقل الحجاج المسيحيين الى القدس .(٢)

1- Stanford Show : OP.CIT. P.73 .
2- IBID P.75 .

وردت البندقية على ذلك بابقاء اسطولها فى بحر ايجة ،وشجع ذلـــــك السلطان بايزيد فشيد اسطول جديد باشراف وقيادة كمال ريس ، الذى تزعـــم القراصنة فى غرب المتوسط ،وقام بشن غارات على سواحل فرنسا واسبانيـــا وعند اتمام السفن وضعت السفن الحربية الجديدة فى الخدمة وانضـــــــوى الآلاف من البحارة العثمانيين واليونانيين على طول السواحل تحت قيادته .

استطاع اسطول عثمانى كبير الاستيلاء على ليبانتو (Lepanto) سنة ١٤٩٩م (٩٠٥هـ) ووجه ضربة قاصمة للقوة البحرية البندقية فى الادرياتيـك وبحر ايجة ، ثم استولى اسطول بايزيد على الموانىء الكبرى التابعـــــة للبندقية فى شبه جزيرة المورة ، كما دمرت الغارات الشديدة الموجهة مـــن البوسنة كرواتيا (Croatia) ودالماشيا (Dolmita) وسقطـــت دورازو (Durazzo) صفر ٩٠٧هـ / اغسطس ١٥٠١م .

كانت البندقية مستعدة للصلح بسبب تكاليف الحرب الرهيبة ، اضافـــــة الى خسارتها لاسواقها فى شرق المتوسط ،ولطرقها التجارية المؤدية الـــى البحر الاسود ،وفى نفس الوقت ادت المشاكل الجديدة فى الشرق ،وعدم التأكد من كيفية الحاق الهزيمة النهائية بالبندقية الى موافقة بايزيد علـــى الصلح الذى تم توقيعه فى استانبول ١٤ ديسمبر ١٥٠٢هـ (١٢جمادى الثانى٩٠٨هـ) بتوسط بولنـــــــدا .(١)

كانت الحرب انتصارا عثمانيا كبيرا رغم احتفاظ البندقية بعدد مـــن الموانىء فى المورة والبانيا ، واستعادة امتيازاتها التجارية كقـــوة بحرية كبرى فى البحر الابيض المتوسط ، فالقواعد التى غنمتها من البندقيـــة هيأت لها مواقع استراتيجية يمكن استخدامها فى احراز المزيد من التقـــدم ليس فقط فى شرق البحر المتوسط ولكن ايضا فى غربه (٢) حتى تنقذ الاندلـــس

1- Stanford Show : OP.CIT P.75-76.

2- IBID P.67.

وكانت غرناطة فى هذا الوقت قد سقطت ، كما أخذ المسلمون فى الاندلس يعانون شتى الوان التعذيب والاهانة ،وأراد السلطان انقاذ الموقف هناك عن طريق البحر ، فاتخذ لذلك كل الوسائل والطرق . ولكن نظراً لظروف الدولة والتى سنتحدث عنها فى الفقرات التالية ،اعاقت السلطان من تقديم المساعدة الفعلية ولكن لفترة موءقتة اذ نجد أن الدولة العثمانية تحاول وباستمرار الاقتراب من الأندلس ، فالملاحظ على تقدم الدولة فىالميدان الاوربى ،يجد أن جهاد العثمانيين فىالقارة الاوربية كان متشعبا وفى كل مكان منها ،فهو شبه اكتساح عام للقارة ، وكان جهاد الدولة فى كل ناحية فى آسيا وفى اوروبا شرقها ووسطها وجنوبها ، كل ذلك من اجل تحقيق استراتيجية واحدة ،وهو جعل البحر المتوسط بحيرة اسلامية بما فيها ما يسمى تنفيذ خطة انقاذ الاندلس فى فترة حروب الاسترداد .

...

ان حدود الدولة العثمانية فى مطلع القرن السادس عشر كان يحدها من الشمال حصن بلغراد العظيم وهو مفتاح التقدم الى وسط أوروبا ،وفى اتجاه الشرق واصل العثمانيون فتوحاتهم التى شملت الافلاق والبغدان ،ووصلت الى اقصى مداها عندما فتحت شبه جزيرة القرم فى شمال البحر الاسود وفى اتجاه الشمال الغربى شملت الفتوحات العثمانية صربيا والبوسنة حتى وصلت الى الساحل الدلماشى وفى اتجاه الجنوب شارفت الممتلكات العثمانية جزيرة رودس الحصينة فى البحر الأبيض المتوسط وهو مفتاح التقدم الى الغرب ، اما حدودها الشرقية فقد اجتوت فى نطاقها ولايتى قره مان وطرابزنده ، كانت تلك الحدود التى وصلت اليها الدولة ، وأرادت ان تكتسح بعد ذلك وسط القارة الاوربية ، الا أنه قامت عدة عوائق امام العثمانيين أعاقت من تقدمهم وبالتالى الوصول الى الاندلس عن طريق البر ،فاضطرت الدولة بعد ذلك أن تنقل عملياتها الحربية الى الميدان البحرى .

ومن هذه العوائق القلاقل فى شرق ووسط الأناضول ، اذ انه بعد انهيار امبراطورية تيموريد(Timurid) أفاقت قبائل الخراف السوداء (Black Sheep) دولة كبيرة غرب ايران وشمال العراق ،بينما اقامت قبائل الخراف البيضاء (White Sheep) بقيادة اوزون حسن (Uzun Hasan) وبمساعدة بعض المماليك ملكهم الخاص فى غرب ايران وشرق الاناضول وكانت كارامان مرة اخرى تبسط نفوذها فى وسط الأناضول وهى تثير القلاقل وتدبر الثورات ضد العثمانيين ،كما أن النجاح الذى حققه العثمانيون فى البلقان اثار رعب البندقية وجنوة فشجعا بذلك الطموحات فى الشرق حتى يقللوا من التهديد العثمانى .(١)

وقاد محمد الثانى حملة كبرى متوجها الى الشرق ،واعلن فى البداية أن هدفها الأساسى هو قبائل الخراف البيضاء او المماليك الذين كانوا يحتلون

1- Stanford Show : OP.CIT , P. 64.

اراضى التركمان ولجادير (Dulgadir) الواقعة عند منابع الفرات ولكن عندما رفض بير احمد (Pir Ahmed) دعوة السلطان للانضمام الى الحملة ،قام محمد الثانى بغزو الجزء الغربى من كارامان المتمركز فى كونيا (Konya) ، وبدأ فى اول الامر ،وكان كارامان قد دمرت نهائيا ولكن بير احمد فر الى جبال طوروس ،وقام بتنظيم القبائل المحلية لمقاومة السلطان ، واستعاد معظم الاقاليم بمجرد ان عاد السلطان بمعالجة مشاكله فى اوروبا .(١)

بعد ذلك تبنى أوزون حسن سياسة اكثر عدوانية ، واصبحت مشكلة كارامان تهديدا خطيرا للسلطة العثمانية ، وأصبح أوزون حسن حاكم ايران والأناضول الشرقية ، عدوا ألد مثل تيمور فتحالف مع أهل البندقية ، وحيث انه كان قد اقام علاقات مع فرسان رودس وملك قبرص ،وبك الانيا ،كما اقام علاقات مباشرة مع البندقية ، وذلك بأن وعدهم بالزحف على ساحل البحر الأبيض المتوسط عبر جبال طوروس التى كانت تحت سيطرة القبائل التركية ، كما انزلت سفن البندقية قوة على هذا الساحل مزودة باسلحة نارية التى كان يرغبها أوزون حسن ، الا انهم اخفقوا فى العثور على رجال أوزون حسن .(٢)

ثم قدم أوزون حسن مساعدة عسكرية للصفويين الذين ابتكروا عمامة حمراء للرأس تطوى ١٢ مرة تذكارا للأئمة الشيعة الاثنا عشر يتخذها اتباعهم كعلامة مميزة وقد عرفوا فيما بعد باسم " الرؤوس الحمراء " وقد حاول خلفاء أوزون حسن كبح جماح الصفويين مما آدى الى انهيار دولتهم ايضا ، ولكن اسماعيل احد ابناء اخر الصفويين استطاع الهرب الى ايران ومعه سبعة من قبائل الرؤوس الحمراء مكنته من القضاء على صغار الأيرانيين الذين كانوا قد خلفوا قبائل الخراف البيضاء وآل تيمور ،واصبحت لهم السيطرة على البلاد كلها لمدة عقد من الزمان .

1- Stanford Show : OP.CIT P.65.
2- Halil Inalcik : The Ottoman Empire P.28.

ولما كان اسماعيل مصراً على استعادة نفوذ الصفويين فى الأراضى العثمانية فى شرق الأناضول ، فقد ارسل المئات من الدعاة الذين نجحوا فى نشر رسالة بين البدو الرحل وقد فسر العثمانيون تلك الرسالة الدينية المخالفة للتعاليم الاسلامية بمعناها الحقيقى ، وهو أنها تهديد سياسى كما كان تصرفهم متفقاً وهذا التفسير ، اذ انتفضوا لمواجهة الصفويين ليس فقط بسبب الخطر العسكرى ولكن ايضا لأن رسالتهم الدينية كانت تشكل تهديدا موجها بصفة اساسية للتعاليم الاسلامية .

واستمر دعاة الصفويين يمارسون نشاطاتهم بين تركمان الأناضول ،وخاصة فى الجنوب الغربى حيث كان اتباعهم يتميزون بالعنف ،واستطاع الشاه كولو (Kulu) وهو من الصفويين ان يستغل الغضب السائد بين التركمان ليتزعم تمردا هائلا فى الاناضول(Antalia) فى ربيع ١٥١١م(٩١٧هـ) كما حصل على تأييد الآلاف من الجنود العثمانيين الذين ارسلوا لاخماد التمرد وارسل كولو دعاته المقربين ، وذلك بعد ان اعتبر نفسه خليفة لاسماعيل فى جميع انحاء الاناضول ، وكان المتطرفون منهم يصفون زعيمهم بأنه " المهدى " الذى ارسله الله لانقاذ البشرية .

وبعد سقوط معظم جنوب شرق الأناضول فى ايدى المتمردين ارسل بايزيد جيشا بقيادة كبير الوزراء هاديم على باشا ،واستطاع العثمانيون ان يوقفوا المتمردين نهائيا بالقرب من قيصرية وذلك فى جمادى ثانى ٩١٧هـ/ اغسطس ١٥١١م وقتل الشاه كولو .(١)

وكان ظهور الدولة الصفوية كقوة خطيرة مناوئة للعثمانيين ،فالدولة الوحيدة التى برزت فى الشرق فى مطلع القرن السادس عشر كقوة يعمل حسابها كانت دولة الصفويين فى ايران بعد ان أخضعت كافة الاقاليم التى كانت تكون من قبل الامبراطورية التيمورية ،وظهرت على المسرح كقوة مضادة للدولة

1- Stanford Show : OP.CIT P. 78 .

العثمانية ، الا ان فرق المشاة للجيش الصفوى لم تكن قد تطورت ولم تكن قد تدربت على استخدام اى نوع من انواع الاسلحة الحديثة شأنها فى ذلك شأن القوات المملوكية [(١)] ومهما يكن من امر فان ظهور الصفويين فى المشرق كان عائقا لتقدم العثمانيين فى الغرب ،لان مجهود الدولة كان موزعا فى الشرق والغرب وبالتالى يقلل من قوة الهجوم تجاه التقدم فى وسط اوروبا ٠

وكان فشل الصليبيين فى المشرق ،واحتلال العثمانيين للقسطنطنية وتهديدهم لاوروبا الغربية والوسطى بخطر الاستيلاء والاكتساح ،وظهور سيادة العثمانيين البحرية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط ،بالاضافة الى النجاح الذى احرزته القوات المسيحية على المسلمين فى الاندلس دافعا بالاسبان والبرتغاليين على متابعة الغزو واكتساح الاسلام والمسلمين فى القارة الافريقية باذلين جهدا كبيرا لارضاء البابوية [(٢)] فأحتلت اسبانيا مراكزا عديدة فى الشمال الافريقى لتكون منطلق لها تهاجم بها العثمانيون ،اما البرتغاليون فأخذوا على عاتقهم احتلال نقاط ارتكاز لهم فى سواحل غرب افريقيا ليصلوا منها الى الاماكن المقدسة الاسلامية والوصول الى القدس تنفيذا للخطة الصليبية كما كانت البابوية تنتظر من ملوك اسبانيا والبرتغال اعلان حرب شاملة ضد المسلمين بافريقيا لا تتوقف الا بالقضاء على الاسلام بها [(٣)] ، ونشر المسيحية وكانت السيطرة عاملا تقليديا له دور حيوى فى مجالات الصراع السابقة بين الاسلام والمسيحية مع اختلاف واضح فى هذه الفترة ، وهو ان تلك السيطرة كثيرا ما حاولت الجبهة المسيحية تنفيذها عن طريق الشمال ابتداء من آسيا الصغرى ونهاية بسواحل المغرب العربى فى طنجة ، بحيث مثلت سواحل البحر المتوسط الذى يطل عليه العالم الاسلامى ثلاث جبهات ، ففى آسيا الصغرى كان العثمانيون يرمون بأنظارهم نحو الزحف على اوروبا ، اما المغرب العربى فقد توزعت جهوده ما بين الحفاظ على الاندلس وبين رد هجمات الاسبان والبرتغاليين عليه ، واخيرا جبهة المماليك فى مصر والشام ، اما فى هذه

---

(١) محمدعبد المنعم الراقد : مرجع سبق ذكره ،ص ١١٣٠

(٢) محمد العمروسى المطوى : الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب ،ص ٢٦١٠

(٣) محمد بو شارب : مقالة بعنوان وثيقة برتغالية جديدة تتعلق بواقعة الملجة ، مجلة كلية الاداب بفاس، عدد (٢، ٣) ،ص ٣٨٠٠

الفترة فقد حاق الخطر بجنوب العالم الاسلامي ، لهذا كان من الطبيعي ان يكون هناك نوع من التبديل والتغيير في حالة وقوع السيطرة وما جد في هذه الفترة عقب السيطرة هو ظهور خطة اقتصادية جديدة تبعا للهدف الذى من اجله خرج البرتغاليون.[1]

ولم يكن تهديد البرتغاليين للاماكن المقدسة الاسلامية محدودا بوصولهم الى البحر الاحمر ، بل ان هذا التهديد كان ضمن مشروعات برتغالية ضد العالم الاسلامى منذ مطلع العصر الحديث ذلك ان الافكار فى تلك الفترة كانت متجهة نحو البحث عن امبراطورية القديس يوحنا الخرافية ،والتعاون معه لجعل مصوع قاعدة لشن الحملات على مكة ، وبصرف النظر عما فى هذا المشروع من استحالة الا أنه يعرفنا على نقطتين هامتين وهما مدى الحقد الصليبى الذى كان يبيته البرتغاليون للمسلمين ،اضافة الى نقطة هامة اخرى وهى ان الخروج نحو بحار العرب الجنوبية قد اتسم بصفة صليبية اكثر منه صفة تجارية فى بدء انطلاق البرتغاليين [2].

واقتنع الامير هنرى بهذه الفكرة فى الاتصال بملك الحبشة المسيحى الذى تكاثرت الاخبار عن تحمسه للمسيحية [3]،واخذ فى وضع الخطة الاستراتيجية الكبرى التى تطوق جناح الاسلام [4]، فاذا ساير السواحل الافريقية ، واتصل بهذا الملك المسيحى ،فانه يسهل التعاقد والتحالف معه ضد المسلمين ، وبذلك يمكن استرجاع بيت المقدس عن طريق الشرق والجنوب بعد ان فشلت المحاولات عن طريق الغرب والشمال ، وبعد ان فقد الصليبيون الامال التى كانوا يعقدونها على المغول الذين صهرهم الاسلام فى بوتقته واصبحوا مسلمين .[5]

ونزل البرتغاليون الاراضى المغربية المطلة على سواحل الاطلسى ،وكان ذلك من العوامل التى مهدت الطريق فى سبيل استكشاف المجهول من سواحل غرب

---

(١) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ،ص ٢١٤-٢١٥.
(٢) غسان على رمال : نفس المرجع،ص ١٠٣-١٠٤.
(٣) محمد العمروسى المطوى . مرجع سبق ذكره ،ص ٢٦١.
(٤) ك.م. بانيكار : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٥ .
(٥) محمد العمروسى المطوى : نفس المرجع ،ص ٢٦٢ .

افريقيا حيث تم تقسيم رحلاتهم الكشفية إلى مرحلتين ارتبطت كل مرحلة في نهايتها بأهداف معينة تمكن البرتغاليون من تحقيقها [١] . ومن سواحل غرب افريقيا اتجه البرتغاليون نحو الداخل ،يستفسرون عن مملكة الحبشة ،ولم يجدوا الإجابة على ذلك فاضطروا الى الإلتفاف حول افريقيا عن طريق البحر .

وفي عام ١٤٥٤م (٨٥٨هـ) تلقى هنرى الملاح من البابا نيقولاس الخامس تفويضا بأن له الحق في جميع الكشوف التى يكتشفها حتى بلاد الهند وفيما يلى شذرات من ذلك المرسوم ذى الاهمية الكبرى ،وهو اول مرسوم يحدد الإحتكار البرتغالي ببلاد المشرق :-

(إن سرورنا العظيم اذ نعلم ان ولدنا هنرى امير البرتغال ،اذ يتوسم خطى والده العظيم الملك يوحنا ،واذ تلهمه الغيرة التى تملأ الانفس كجندى باسل من جنود المسيح ،قد دفع باسم الله إلى أقصى البلاد وأبعدها عن مجال علمنا ،كما أدخل بين أحضان الكاثوليكية ،القادرين من أعداء الله وأعداء المسيح مثل العرب والكفرة ... وسيستطيع في الوقت نفسه أن يدخل في الطاعة والخضوع بإذن من الملك جميع الوثنيين الذين لم تمسهم حتى الان يد الإسلام ويدخل اسم المسيح في نطاق علمهم " [٢].

وفي حوالى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى اصدر البابا كاليكستوس الثالث مرسوما بابويا ثانيا يؤكد المرسوم السابق وبذلك تمكن هنرى من الحصول على شئ كان يعد في القرن الخامس عشر حقاً قانونياً مطلقاً لا سبيل الى منازعته فيه ، فضلا عن إعلانه لغايته السياسية والدينية ،والشئ الوحيد الواضح في المرسوم البابوى والذى كان له أثر قوى في السياسة هو المزج بين الدافع الروحى الى فتح أراضي الوثنيين من أجل المسيح ،وبين الحمية المتعصبة بالدعوة الى توجيه الضربات إلى جذور الإسلام بمهاجمته من الخلف [٣].

---

(١) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٢٥.
(٢) ك.م.بانيكار: مرجع سبق ذكره ،ص ٢٧ .
، سليم طه التكريتى : المقاومة العربية فى الخليج العربى ،ص ٤٠ .
(٣) ك.م. بانيكار : نفس المرجع ،ص ٢٨ - ٢٩ .

وكان البرتغاليون أثناء كشوفهم للقارة الافريقية ، يبحثون عن التوابل والذهب ولكنهم ايضا كانوا ملهمين بالرغبة فى البحث حتى اليوم عن المجتمعات المسيحية المجهولة (١) فالغرض والهدف الأول من رحلات الاستكشاف هو نشر الدين وتحويل الوثنيين الى المسيحية ، ولما كان الدين فى أوروبا مرادف للحياة الإجتماعية ،فكان من المفروض ان يشمل التحويل الحياة الاجتماعية أيضاً حتى تشبه الحياة الاوروبية ،فى الأولى كان التدين بالمسيحية ومعرفة اللغة البرتغالية مؤهل الرجل الافريقى (٢) اما بالنسبة للثغور المغربية فكانوا ينظرون إليها بمنظار مخالف وهو القضاء على التجارة المغربية ،والقضاء على القرصنة ،ومنع غزو جديد للبرتغال ،والبحث عن اراضى جديدة .(٣)

وأراد ملك البرتغال يوحنا الثانى البحث عن القديس يوحنا فأرسل اثنين من أتباعه هما (Frey Antonia) , (Man of the House Manterio) وعندما وصلوا الى القدس التى رغبوا فى ان تكون نقطة انطلاق ، الا انهما لم يتمكنا من اكمال الرحلة ،وعاد الى لشبونة مخبرين الملك انه من الصعب تنفيذ هذه المهمة دون معرفة اللغة العربية (٤) .

وخرج بارثليموديار لإكتشاف المرحلة ما قبل الأخيرة من عبور رأس العواصف الذى أطلق عليه ملك البرتغال يوحنا الثانى رأس الرجاء الصالح تيمنا بالكشف الجديد (٥) ولعل التسمية أيضا تيمنا باستعادة الاماكن المقدسة المسيحية ،وعلى الرغم من كل المحاولات لم يتمكن البرتغاليون من الإتصال الفعلى مع مملكة القديس يوحنا المسيحية الا بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح (٦) .

ولما كانت الدولة العثمانية هى الدولة الإسلامية القائمة بالفتح فى اوروبا

1- Reger Locrev : Habsburg & Bourbon Europe P.30 .
2- Sir Goeorge Clark : Early modern Europe P.63 .
(٣) محمد بوشارب: مرجع سبق ذكره ، عدد(٣،٢) ،ص ٣٨٠ .
،عدد (٣،٢) ،ص ٣٨٠.
(٤) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ،ص ٨٥ .
(٥) فاروق عثمان اباظة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الاحمر ،ص ٣٥ .
(٦) نوال حمزة صيرفى : النفوذ البرتغالى فى الخليج ،ص ١٧٢ .

باسم الاسلام ،فقد رأى سلاطينها الالتفات الى الشرق والجنوب ،والاسراع بحماية الاماكن المقدسة الاسلامية بما فيها القدس ،ومن ثم رأى العثمانيون وجوب فتح مصر، الذى كان فى اعتبارهم الخطوة الاساسية لتكوين الجبهة الاسلامية.(١)

تخلفت مملكة اراغون عن قشتالة بعض الشىء فى مناهضة المسلمين وذلك بسبب انشغال ملكها بيدرو الثانى فى تنظيم شؤون مملكته ،وما ان استقر فى عرش مملكته حتى سير حملة الى جزر البليار ،ثم وجه عنايته بعد ذلك الى بلنسيه وحاصرها فأرسل اميرها ابو جميل زيان وزيره ابن الابار القضاعى الى ملك تونس الحفصى أبى زكريا يحيى الحفصى يستغيث به والقى بين يديه قصيدته التى مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله اندلسا ان السبيل الى مناجاتها درسا (٢)

وانهالت بعد ذلك قصائد الاندلسيين على الملوك الحفصيين ،يستفزون هممهم لاسترجاع الاندلس ومن بين تلك القصائد ،قصيدة لأبى زكريا يحيى الحفصى :

نادتك اندلس قلب نوأها واجعل طواغيت الصليب قدأها
صرخت بدعواتك العلية فأجبها من عاطفتك ما يقى حسبأها
واشدو بحباك جرد فيلك ازرها تردد على اعقابها ارزأها

الا ان الحفصيين كانوا غير قادرين على خوض معركة الدفاع عن الاندلس وانقاذها عسكريا ،وكان الشمال الافريقى يعانى من الانقسام بين حكامه وشعوبه (٣) لذلك كانت هذه الصيحات من الاندلسيين فى هذا الوقت تذهب سدى ،ولا تحقق اهدافها ولم يصل للاندلسيين اى اعانة مادية من قبل حكام الشمال الافريقى المسلمين تساعدهم لانقاذ الموقف المتدهور هناك (٤) .

اخذت بعد ذلك المدن الاسلامية تتحول تباعا الى مدن نصرانية واخذت الكثرة المسلمة تتحول بسرعة الى اقلية تعيش فى ظل الحكم الاسبانى فى ذلة وخضوع .(٥)

(١) نبيل رضوان : الدولة العثمانية وغربى الجزيرة العربية ،ص ١٢.
(٢) محمد عبد الله عنان : مرجع سبق ذكره ،ص ٩١ – ٩٢ .
(٣) محمد الهادى العامرى : مرجع سبق ذكره ،ص ٧٨–٧٩.
(٤) محمد الهادى العامرى : نفس المرجع ،ص ٧٩ .
(٥) محمد عبد الله عنان : نفس المرجع ،ص ٩٣ .

تطورت الاحداث فى شبه الجزيرة الايبيرية فى مطلع العصور الحديثة ،فأصبح اهتمام الاسبان ينحصر فى توحيد اراضيهم ،وانتزاع ما تبقى للمسلمين بها خصوصا بعد ما خضعت لسلطة واحدة بعد زواج ايزابيلا ملكة قشتالة وفريدناند ملك آراغون [١]،فاندفعت الممالك الاسبانية المتحدة قبيل سقوط غرناطة فى تصفية الوجود الاسلامى فى كل اسبانيا ،حتى يفرغوا انفسهم ويركزوا اهتمامهم على المملكة الاسلامية الوحيدة غرناطة ، التى كانت رمزا فقط للمملكة الاسلامية الذاهبة .[٢]

وفرضت اسبانيا اقسى الاجراءات التعسفية على المسلمين فى محاولة لتنصيرهم وتضييق الخناق عليهم حتى يرحلوا عن شبه الجزيرة الايبيرية .

نتيجة لذلك لجأ المسلمون ـ الموركسيون ـ الى القيام بثورات وانتفاضات فى اغلب المدن الاسبانية والتى يوجد بها اقلية مسلمة وخاصة غرناطة وبلنسيه واخمدت تلك الثورات بدون رحمة ولا شفقة من قبل السلطات الاسبانية التى اتخذت وسيلة لتعميق الكره والحقد للمسلمين ، ومن جهة اخرى كان من الطبيعى ان يرنوا الموركسيون بانظارهم الى ملوك المسلمين فى المشرق والمغرب لانجادهم ، وتكررت دعوات وفودهم ورسائلهم اليهم للعمل على انقاذهم مما يعانوه من ظلم ،وخاصة من قبل رجال الكنيسة ودواوين التحقيق التى عاشت فى الارض فسادا واحلت لنفسها كل انواع العقوبات وتسليطها عليهم [٣] ،ولما كانت الدولة العثمانية تتقدم فى اوروبا الشرقية فى هذا الوقت واحدثت تأثيرات على مصير الامراء الغربيين كل ذلك اعطى للعثمانيين اشعاعا وهيبة ،ومنحها وزنا سياسيا وعسكريا كبيرين على سائر اوروبا من اجل هذا وجه اهالى غرناطة سفارة الى استانبول فى منتصف سنة ٨٨٢هـ / ١٤٧٧م من اجل لفت نظر السلطان

---

(١) عبد الكريم كريم : المغرب فى عهد الدولة السعدية ،ص ١٠ .
(٢) محمد عبد الله عنان : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٢٩ .
(٣) عبد الجليل التميمى : مرجع سبق ذكره ،العدد (٣) ،ص ٣٨.

العثمانى محمد الفاتح الى حالة المسلمين بالاندلس طالبين تدخله لانقاذهم [١]
ولكن كان فى حكم الاستحالة ان يستجيب السلطان محمد الفاتح لهذه الاستغاثة [٢]
نظرا لانشغاله بالفتح فىالجبهة الاوروبية ٠

وكانت اخبار الاندلس قد وصلت الى المشرق فأرتج لها العالم الاسلامى [٣]
وبعث الملك الاشرف بوفود الى البابا وملوك النصرانية يذكرهم بأن النصارى
الذين هم تحت حمايته يتمتعون بالحرية ،فى حين أن أبناء دينه فى المدن
الاسبانية يعانون اشد انواع الظلم ، وقد هدد باتباع سياسة التنكيل والقصاص
تجاه رعايا المسيحيين ،اذا لم يكف ملك قشتالة وأراغون عن هذا الاعتداء وترحيل
المسلمين عن اراضيهم وعدم التعرض لهم ورد ما اخذ من أراضيهم [٤] ،ولم
يستجيب البابا والملكان الكاثولكيان لهذا التهديد من قبل الملك الاشرف
ومارسوا خطتهم فى تصفية الوجود الاسلامى فى الاندلس ، وجددت رسائل الاستنجاد
لدى السلطان العثمانى بايزيد الثانى الذى شهدت الدولة فىعهده استقرار
داخلى وتمر فى حالة بناء وتعزيز للفتوحات ،فوصلته هذه اذ جاء فى افتتاحيتها
" الحضرة العلية ،وصل الله سعادتها ،واعلى كلمتها ،ومهد اقطارها ،واعز
انصارها ،واذل عداتها ،حضرة مولانا ،وعمدة ديننا ودنيانا ، السلطان الملك
الناصر ،ناصر الدنيا والدين ،سلطان الاسلام والمسلمين ،قامع اعداء الله
الكافرين ،كهف الاسلام ،وناصر دين نبينا محمد عليه السلام ،محيى العدل،ومنصف
المظلوم ممن ظلم ،ملك العرب ،والعجم ،والترك والديلم ،ظل الله فى ارضه ،
القائم بسنته وفرضه ،ملك البرين وسلطان البحرين ،حامى الذمار ،وقامع
الكفار ،مولانا وعمدتنا،وكهفنا وغيثنا ،مولانا ابو يزيد ،لازال ملكه موفور
الانصار ،مقرونا بالانتصار ،مخلد المآثر والاثار ،مشهور المعالى والفخار ،
مستأثرا من الحسنات بما يضاعف الله به الاجر الجزيل ،فى الدار الآخرة،والثناء

---

(١) عبد الجليل التميمى : مرجع سبق ذكره ، العدد (٣) ،ص ٣٨٠

(٢) عبد العزيز الشناوى : مرجع سبق ذكره ،ج٢،ص ٩٠٢٠
(٣) عبد الجليل التميمى : نفس المرجع
(٤) الامير شكيب ارسلان : مرجع سبق ذكره ٠

الجميل ،والنصر فى هذه الدار ،ولا برحت عزماته العلية مختصة بفضائل الجهاد ، ومجرد على اعداء الدين من بأسها ،ما يروى صدور السحر والصفاح ،والسنة السلاح باذلة نفائس الذخائر فى المواطن التى تألف فيها الأخاير مفارقة الارواح للاجساد ،سالكة سبيل السابقين الفائزين برضا الله وطاعته يوم يقوم الاشهاد .» (١)

ووصلت رسالة جاء فيها بعد الدباجة قصيدة وصفت الحالة التى كان يعانى منها المسلمون ،وما تعرض له الشيوخ والنساء من هتك للاعراض وما يتعرض له المسلمين فى دينهم مطلعها :

سلام عليكم من عبيد تخلفوا بأندلس بالغرب فى ارض غربة
احاط بهم بحر من الردم زاخر وبحر عميق ذو ظلام ولجة

كانت هذه هى رسالة الاستنجاد التى بعث بها المسلمون فى الاندلس ،لانقاذ الموقف هناك (٢) وكان السلطان بايزيد يعانى من المشاكل التى تمنعه من ارسال المساعدات، بالاضافة الى مشكلة النزاع على العرش مع الامير جم ،وما اثار ذلك من مشاكل مع البابوية فى روما وبعض الدول الاوربية وهجوم البولنديين على مولدافيا والحروب فى ترانسلفانيا والمجر والبندقية وتكوين التحالف الصليبى الجديد ضد الدولة العثمانية من البابا يوليوس الثانى (// Jules) وجمهورية البندقية والمجر وفرنسا ،وما اسفر عنه هذا التحالف (٣) من توجيه القوة العثمانية لتلك المناطق ،ومع ذلك حاول السلطان بايزيد تقديم المساعدة

(١) شهاب الدين احمد بن محمد المقرى التلمسانى : ازهار الرياض فى اخبار عياض جا ،ص ١٠٨ – ١٠٩ .

2- Stanford Show : A History of Ottoman Empire P.76 .

(٣) عبد العزيز الشناوى : مرجع سبق ذكره ،ج٢ ، ص ٩٠٣ .

اذ تهاون مع السلطان المملوكى الأشرف لتوحيد الجهود من اجل مساعدة غرناطة ووقعوا اتفاقا بموجبه يرسل السلطان بايزيد اسطولا على سواحل صقلية بإعتبارها تابعة لمملكة اسبانيا ،وأن يجهز السلطان المملوكى حملات أخرى من ناحية افريقيا [١] وبالفعل ارسل السلطان بايزيد اسطولا عثمانيا تحول إلى الشواطئ الاسبانية ،وقد اعطى قيادته الى كمال رايس الذى جسم الرعب فى الاساطيل المسيحية فى أواخر القرن الخامس عشر [٢] ، كما شجع السلطان بايزيد القراصنة العثمانيين بابداء اهتمامه وعطفه عليهم ،وكان المجاهدين العثمانيون قد بدأو فى التحرك لنجدة اخوانهم المسلمين [٣] ،وفى نفس الوقت كانوا يغنمون الكثير من الغنائم السهلة الحصول من المسيحيين ،كذلك وصل عدد كبير من هوءلاء القراصنة المسلمين اثناء تشييد الاسطول العثمانى ،ودخلوا فى خدمته بعد ذلك اخذ العثمانيون يستخدمون قوتهم البحرية الجديدة فى غرب البحر المتوسط وبتشجيع من هوءلاء القراصنة [٤] .

كما بعث المورسكيون استغاثتهم الثالثة الى سلطان المماليك ،باعتبار وجود القدس تحت سيطرته والتى كان يعيش فيها مجموعة كبيرة من المسيحيين ،واوضحوا ما وصلت عليه حالتهم بعد سقوط غرناطة ،ودعوه ليتوسط لدى الملكين الكاثوليكيين حتى يحترما معاهدة الاستسلام ،فارسل سلطان المماليك قانصوه الغورى وفدا لاسبانيا ،وهدد بانه سيجبر النصارى المقيمين فى بلاده على الدخول فى الاسلام قسرا ،اذا لم تراعى المعاهدة ،فأوفدت اسبانيا سنة ١٥٠١م(٩٠٧هـ) لسفير بيدرو مارتير دى انقليريا رئيس كاتدرائية غرناطة الذى اقنع السلطان الغورى بأنهم يعاملون المورسيكون معاملة حسنة ،وان لهم نفس الحقوق والواجبات التى يتمتع بها الاسبان .[٥]

---

(١) عبد القادر احمد اليوسف : علاقات بين الشرق والغرب ،ص ٢٥٦ .
، الامير شكيب ارسلان : خلاصة تاريخ الاندلس ،ص ٢١٣ .
(٢) عبد الجليل التميمى : مرجع سبق ذكره (العدد ٢٣،٢٤) ،ص ١٩١.

(٣) احمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سبق ذكره ،ص ٧٤ .
4- Stanford Show : A History of Ottoman Empire P.76 .
(٥) محمد عبده حتامله : مرجع سبق ذكره ،ص ٩٩ – ١٠٠ .

كما بعثوا اول نداء بالاستغاثة الى المغاربة ،ذلك ان المغرب اقرب البلدان الاسلامية اليهم ،الا انهم لم يحظوا بأى جواب منهم ،فقد كان اهل المغرب فى وضع سىء ضعيف مفكك فلم يستطيعوا اجابة هذا النداء ونجدة الاندلس (١)،ونتيجة لهذا الوضع الذى كان يسود المغرب العربى ،فقد تشجع ملك اسبانيا فريدناند على تحقيق اطماعه يغزوها ،فاحتل عددا كبيرا من المراكز على السواحل المغربية وقد ترجم هذا الاحتلال عن هذه السياسة الاسبانية والتى استقطبت اهتمام القصر ورجال الدين والوزراء والجيش ،تلك السياسة الرامية الى توسيع نطاق محاربة الاسلام حتى ارض افريقيا ،وهى احدى الظواهر الاسبانية فى القرن السادس عشر وفى وسط هذه الظروف ظهر الاخوان عروج وخير الدين البحاران العثمانيان،الذين لعبوا دورا رئيسيا فى تعجيل الاحداث السياسية بالمغرب العربى خلال العقد الثانى من القرن السادس عشر وكانت حملاتهم فى البحر المتوسط وعلى السواحل الاسبانية لغرض مساعدة الموركسيين ،وكذلك الجزائريين الذين طلبوا منهما النجدة وهى ولا شك تعكس مدى نشاطهم .(٢)

واستقبل عروج فى الجزائر كمنقذ عندما طلب اليه المواطنون ان يعمل للقضاء على قلعة الاسبان بالجزائر ، ثم استولى على مليانة ومدية وتنس وتلمسان ،ونودى به سلطان على البلاد ،وخلفه فى ذلك اخوه خير الدين ، الذى ادرك ضعف موقفه ،وكانت تعوزه الذخيرة الحربية والاطار العسكرى وليست له صداقات لدى المواطنين ،وكان اهل تنس وشرشال والجزائر والقبائل فى كوكو يسعون جميعهم للافلات من قبضة خيرالدين (٣) فأدرك خير الدين ببعد نظره أنه لن يستطيع ان يجابه الموقف بقواه الخاصة ،ولن يتمكن من مجابهة الخطر الاسبانى ،فيجب عليه ان يعتمد على قوة الدولة العثمانية التى كانت فى اوج قوتها

---

(١) محمد عبده حتامله : التنصير القسرى لمسلمى الاندلس ،ص ٩١ .
(٢) عبدالجليل التميمى : اول رسالة من اهالى مدينة الجزائر الى السلطان سليم ، المجلة التاريخية المغربية ،عدد(٦) ص ١١٦ .
(٣) شارل اندرى جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ،ج٢ ،ص ٣٢٨ .

وشرعت فى بسط سيطرتها على المشرق الاسلامى وذلك للسيطرة على الجزائر والتغلب على الاسبان [1]،كما قرر الجزائريون فى نفس الوقت ،أن تكون بلدهم جزء من الدولة العثمانية المترامية الاطراف ،ورأى خير الدين ان يحكم الجزائر موءقتا ،الى ان يتخذ السلطان سليم الذى كان فى القاهرة قراره لتنظيمها،ولم يتأخر السلطان فى جوابه ،فقد اعلم خير الدين واهل الجزائر بقبول طلباتهم وانه قرر ان يشمل الجزائريين والموركسيين برعايته ،وتكون مشتركة مع الدولة العثمانية فى الجهاد ضد المسيحية [2] .

وارسل بعد ذلك محمد بن منصور بن على الحلبى باسم اهالى الجزائر رسالة الى السلطان سليم الاول يحيطه فيها بوضع المغرب العربى المحزن ،ويستنهضه لمساعدته :

" اننا ندعو بالسعادة والنصر لمقام السلطنة العلية ،دعاء يبلغها اقصى الامانى ،فان عبيدها بالجزائر يكتبون الى مقامها العالى معبرين ومعترفين لمقامكم العالى بالاجلال والتعظيم ابدا ،وان رسالتنا هذه لا تستطيع ان تستعرض كل الاسرار ،وان سعادة ايامكم هى فرحتنا ،ونحن لزمام اموركم وطاعتكم مستبشرون وعليكم لا محالة اعتمادنا ،مظاهرنا كباطننا مخلص لكم أولا وآخرا فقد اطعنا امركم وعبيدكم ليس لهم غير جنابكم يرفعون اليه غاية الاجلال والتقدير وليس لهم من قصد غير شريف مقامكم العالى .

لقد جرت حوادث جليلة ولها اخبار طويلة فى نصر الموءمنين وهزيمة اعداء الله ،ومفادها ان طائفة الطاغية لما استولت على بلاد الاندلس ،انتقلوا منها الى قلعة وهران للاعتداء على سائر البلاد . غير انه بعد استيلائهم على بجاية وطرابلس بقيت الجزائر (بين الكفار) كالنقطة فى وسط الدائرة ،وبقينا

---

(١) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٩ - ٣٠ .
(٢) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره،ص ١٩٧ .

لذلك حيارى متأسفين يحفنا الكفار من كل جانب ولكن تمسكنا بحبل الله المتين واتكلنا عليه . غير ان طائفة الطاغية شددت علينا الطلب هادفة ادخالنا تحت ذمته (سلطته) . وقد نظرنا فى الامر ورأينا ان المحن والشدائد تشتد وان الضرورة تقضى بحقن دماء انفسنا وخوفا على حريمنا واموالنا واولادنا من السبى والتفريق تصالحنا مع اهل التثليث وانا لله وانا اليه راجعون .

وبعد هذه المضايقة والحصار دخل الكفار الى وهران وبجاية وطرابلس وكان قصدهم ان يأتوا بسفنهم ويستولون علينا ويأسروننا ويشتتون شملنا فجأة . آنذاك قدم ناصر الدين وحامى المسلمين المجاهد فى سبيل الله اوروج باى مع شلة من الغزاة ، فقابلناه بالعز والاكرام واستقبلناه ، لاننا كنا فى خوف من (من عدونا) فخلصنا بفضل الله . واوروج باى المشار اليه جاءنا من تونس لانقاذ بجاية من يد الكفار وتأهيلها بالمسلمين . فلما وصل الى القلعة وحاصرها مع المجاهد الفقيه الصالح ابو العباس احمد بن قاضى زلزلوا اركانها وهدموا بنيانها ، وشاهد الكفار عندما دخل القلعة المسلمون وهاجموهم واستولوا عنوة على برج منها ، واختلال بنايتهم وقرب حتفهم هرب بعض الكفار الموجودين بالقلعة وقتل الباقون منهم .

لقد حارب المسلمون الكفار اناء الليل واطراف النهار من طلوع الشمس الى غروبها ، وعلى الرغم من ترك بعض من جماعة اوروج القتال ، بقى المشار اليه يقاتل الكفار مع جماعة قليلة ، وكان قد عزم على لقائنا غير انه وقع شهيدا فى حرب تلمسان رحمه الله . وقد حل مكانه اخوه المجاهد فى سبيل الله ابو التقى خير الدين وكان له خير خلف فقد دافع عنا ولم نعرف منه الا العدل والانصاف واتباع الشرع النبوى الشريف ، وهو ينظر الى مقامكم العالى بالتعظيم والاجلال ويكرس نفسه وماله للجهاد لرضاء رب العباد واعلاء كلمة الله ومناط آماله سلطنتكم العالية مظهراً اجلالها وتعظيمها . على ان محبتنا له خالصة ونحن معه ثابتون . وكيف لا نحبه وهو المستشر عن ساعد الجد والاقدام ، ويقود الجهاد معنا فى سبيل الله بنية خالصة وقلب صادق متفق وهاج ودليل واضح المنهاج ، ومفاد

كانت فكرة الوصول الى الهند ، تراود اوروبا منذ وقت طويل قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، وذلك حتى يردوا على قوة الاسلام ، وينهوا وساطة المسلمين من تجارة الهند ، وقامت عدة محاولات ، ومن ذلك تلك المحاولة التى قام بها اجولينو دى فيفالدو سنة ١٢٩١م لكشف طريق بحرى الى الهند ، فأبحر من جنوه عن طريق جبل طارق محاذيا للساحل الافريقى . وتمكن الجنويون بفضل تشجيع اسبانيا والبرتغال من الوصول الى المحيط الهندى بالدوران حول رأس الرجاء والوصول الى المحيط الهادى عبر القارة الامريكية .

كما اقترح الجنويون على الخان آرغون ملك فارس خطة يرمون فيها من ورائها الى تحويل تجارة الافاوية ، مع ملبار الى الخليج الفارسى ، ومن ثم تحمل برا الى موانى شرقى البحر المتوسط ، كما كانت الفكرة تقضى بأن يبنى الجنويون اسطولا على الخليج الفارسى يغلق البحر الاحمر فى وجه التجارة الهندية ، الا ان ذلك الاقتراح لم يتحقق [١] وتطورت بعد ذلك الاكتشافات ، وتوالت البعثات الاوروبية الى الشرق لمعرفة الاحوال التجارية والبحث عن مسيحيين ، فبعث ملك البرتغال الدوم جوار الثانى جندى وجاسوس بيردواكوفلهام ، ليكون سفيرا له لدى " البريسترجون" المسيحية فى الحبشة ، وفى ١٤٨٨م (٨٩٤هـ) وصل كوفلهام للهند وزار كلكتا .

وفى اواخر القرن الخامس عشر الميلادى انطلق فاسكو دى جاما من لشبونة بعد ان اوضح الملك يوحنا له اهداف الرحلة والتى تنحصر فى العمل على نشر المسيحية والحصول على ثروات الشرق ضاربا له المثل برخاء الجمهوريات الايطالية نتيجة ثروات الشرق [٢] ، ثم دار حول رأس الرجاء الصالح واحتفل بعيد رأس اول السنة على جزء من ساحل افريقيا الشرقى الذى حوله للمسيحية بطريقة مناسبة [٣] وفوجىء البرتغاليون عندما وصلوا الى خليج مدغشقر اذ بدت مخاوفهم

---

(١) ك.م. بانيكار : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠ .
(٢) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ، ص ٦٨ .
(٣) Roger Lockyer : Habsbourg & Boubon Europe , P. 33

هناك ،ولقى البحارةما لم يكن فى حسابهم حين خرجوا الى البحر ،فوجدوا مرافىء عامرة تطن كخلايا النحل ،ومدن ساحلية عامرة بالناس ،وفرحوا البحارة عندما وجدوا رجالا عبروا المحيط مرات عديدة ،ويعرفون دقائق مرافئها (١) .

واصل فاسكو دى جاما رحلته نحو المدن الساحلية لشرق افريقيا ،ولم يخاطر فى اجتياز المحيط الهندى وبدأ يبحث له عن دليل يقوده للهند ،فزار سوفالا وهنا سمع بوجود مرشد فى مالندى يقود سفنه ويعبر المحيط الهندى ،ومن مالندى استعان داجاما بالملاح احمد بن ماجد (٢) .

القى فاسكو دى جاما مرساه لاول مرة فى ميناء هندى ،ونعنى به كلكتا محققا بتلك الرحلة ثورة فى التجارة المنافسة لمصر والبندقية والدولة العثمانية (٣) واستقبل حاكم الاقليم الزاموريين البرتغاليين ،وقد دهش لمجىء البرتغاليين ،وعندما سألهم عن السبب فى مجيئهم اجاب فاسكو دى جاما بايجاز المسيحية ثم البهارات (٤) ،وخاب امل البرتغاليين فى وجود حكام مسيحيين فى الشرق ،ولكن عوضهم عن ذلك سياسة التسامح التى كان يسير عليها سلاطين المغول المسلمين فى الهند واستقروا فى الحال لتحويل بعض من سكان الهند الى المسيحية (٥) واخذ دى جاما يطبق بالقوة ادعاء مولاه انه سيد الملاحة ومولاها فكان يقطع الطريق دون اى تحذير على أية سفينة يلتقى بها فى طريقه ويدمرها (٦) اذ كانت سفينة فاسكو دى جاما محملة باكثر من عشرين مدفعا وكانت تعد قوة ضاربة فى ذلك الزمان (٧) وكان هذا التفوق البرتغالى الحربى عاملا اساسيا فى تطور موقفهم السريع اثناء تلك الفترة ، اذ كانت هذه الاسلحة

---

(١) باذل دافدسن : افريقيا تحت اضواء جديدة ،ص ٢٦٣ .

(٢) بدر الدين عباس الخصوصى : دراسات فى تاريخ الخليج العربى ،ص ١٣ .

(٣) S . B . Miles countries and Tribes of the persian Guly P.138

(٤) محمد مرسى ابو الليل : الهند تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها ،ص ١٧٧ .

(٥) RogerLocky:Habsburg &Bowbon Europe P. 36 .

(٦) ك.م. بانيكار : مرجع سبق ذكره ،ص ٤٠ .

(٧) باذل دافدسن : نفس المرجع ،ص ٣٧٠ .

لم تكن معروفة فى الهند فى ذلك الحين .[١]

ولما كانت رحلة دى جاما هذه رحلة ارتيادا واستكشافا ،فان همة اقتصر على التماس الاذن له بالتجارة فسمح الزاموريين البرتغاليين بذلك ،علاوة على عدم دفع الرسوم الجمركية ،ولاحظ دا جاما وجود العرب بالمدينة وكانت لهم حظوة فى بلاط الزاموريين [٢] ثم طلب دا جاما من حاكم كلكتا السماح بانزال اربعة او خمسة من رجاله للاستقرار فى المدينة ،غير انه فشل فى تحقيق تلك المطالب فاتجه بعد ذلك دى جاما الى كنانور وجوا ،وبعد جولة امام هذه المدن وغيرها من مدن ساحل المليبار شحن سفنه بنماذج من السلع الشرقية ،ومن ثم رحل الى لشبونة حيث وصلها فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى .

ولم يكن حكام مليبار مسلمين " ومع هذا فللمسلمين فيما بينهم حرمة وعزة لان اكثر عمادات بلادهم بهم " [٤] وكان المسلمون قد قدموا من مناطق مختلفة وتوطنوا هناك وقاموا باعمال التجارة ، حتى ان اليهود والنصارى المقيمين هناك ،يحسدون المسلمين نظرا لنشاطهم الدينى والتجارى من جهة ونظرا لقربهم الى حكام مليبار من جهة ثانية ،لذلك اخذوا يعادون المسلمين ولكنهم لم يستطيعوا ان يعملوا شيئا ،اذ اصبحت ممالك الدكن وكجارات المجاورة تابعة لسلاطين دهلى ،وقوى شأن الاسلام فى الدكن ،فأصبح حكامها سندا للمسلمين المليباريين مما جعل اليهود والنصارى يوءثرون الصمت وعدم اظهار المعاداة حتى وصول البرتغاليين الى المحيط الهندى ونزولهم ساحل المليبار .[٥]

وبعد عودة دا جاما باثنى عشر شهرا غادر بيدروكابرال (Pedro AL Vares Cabral) على رأس ثلاث عشرة سفينة مسلحة ،وبها الف وخمسمائة رجل ،وذلك

---

(١) فاروق عثمان اباظة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الاحمر ،ص ٣٦ .
(٢) ك.م. بانيكار : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٨ .
(٣) غسان على رمال :مرجع سبق ذكره ،ص ١٨١-١٨٢.
(٤) زين الدين المليبارى : تحفة المجاهدين ،ق١٢أ .
(٥) نصير احمد نور احمد : عصر اكبر سلطان الدولة المغلية الاسلامية فى الهند ص ٢٩٣ .

لتأسيس مراكز تجارية للبرتغال فى المحيط الهندى . وفى طريقه بالسواحل الجنوبية للاطلنطى ابحر الى الغرب ورسى على ساحل البرازيل ،وادعى ضمها الى سيده ملك البرتغال . ومن هناك اكمل طريقه للشرق . وفى مطلع القرن التالى وصل الى كلكتا وحاول تأسيس مركز تجارى (١)، وبدأ فى معاداة المسلمين فذكر لعمال الزامورين انه ينبغى منع المسلمين من مزاولة التجارة وان لا يتصلوا بالبلاد العربية ،والفوائد التى يمكن الحصول عليها منهم يستطيعوا الحصول عليها مضاعفة من قبل البرتغاليين ،الا ان النصارى بدأوا فى مضايقة المسلمين ،فأمر السامرى بمقاتلتهم ،فقتل منهم سبعين او ستين رجل من البرتغاليين ،وركب الناجون منهم مراكبهم هاربين،ورموا بمدفعيتهم المدينة ،وتوجهوا الى كوشى ،الذى كان حاكمها على خلاف مع السامرى فاستقبلهم حاكم كوشى وسمح لهم باقامة قلعة وهى اول قلعة بنوها فى الهند كما هدموا المسجد الكائن بالساحل (٢) بعد ذلك رجع كابرال (Cabral) الى البرتغال محملا معه شحنة من الفلفل والزنجبيل وغيره .(٣)

ناقش البلاط نتائج الرحلتين من خلال تقارير دى جاما التى اظهرت ما يلى

أولا : ان العرب الذين كانوا يسيطرون على السواحل التجارية قد تضايقوا من ارسالية التبشير المسيحى التى وصلت مع فاسكو دى جاما فى رحلته الاولى الى كلكتا .

ثانيا : وضع فاسكو دى جاما البلاط البرتغالى امام نقطة هامة وهى مسألة وجود العرب فى الهند ، الا انه لم تكن هناك انباء عن وجود العرب ،ولما كان البرتغاليون قد نجحوا فى تأسيس مراكز على ساحل افريقيا الغربى بسهولة نظرا لعدم وجود العرب الذين التقوا بهم فيما بعد فى سواحل المحيط الهندى فقد ادرك عمانول ان فرض السيطرة البرتغالية فى الهند يحتاج الى بذل مزيد من الجهد والتنسيق للمرحلة القادمة ،خاصة وانهم كانوا يعلمون علم اليقين بمدى شدة المراس للعرب وبأسهم ،ولا ينسون انهم ذاقوا الامرين مدة طويلة من الزمان حتى تم اخراج العرب من شبه الجزيرة الايبيرية .

1- Roger Lockyer : Habsburg & Bourbone P.33.

(٢) زين الدين المليبارى :مرجع سبق ذكره ،ق ١٤ أ .

3- Roger Lockyer : IBID P.33.

ثالثا: انه من المستطاع القيام بتجارة رابحة فى الهند وبالتالى امكانيـــــة تأسيس مستعمرة كبيرة فى الشرق .

رابعا : ان سفن العرب التجارية لا تستطيع مقاومة السفن البرتغالية الحديثـة والمزودة بالمدفعية [١] وهى السفينة التجارية المسلحة ،والتى لم تكن معروفة من قبل .

اما بالنسبة لبعثة كابرال (Cabral) فقد اظهرت ان البرتغاليين لا يستطيعوا ان يضعوا انفسهم فى طريق له قيمته بين الهند واوروبا الغربية بسبب عداء التجار ،وليس هناك اى مساعدة من اى امير مسيحى فحدث ذلك وقلب كل التوقعات والآمال المعقودة .[٢]

من اجل ذلك جهز ملك البرتغال حملة اقوى من الحملتين السابقتين،وحملها الاوامر بأن تنفذ بالقوة ادعاءه السيادة على البحار الهندية ،وعين فاسكو دا جاما على الحملة للمرة الثانية ،وكانت الحملة تتكون من خمس عشرة سفينة ،ست منها اعظم حجما واقوى عتادا من تلك التى بلغت المحيط الهندى من قبل [٣]،ورسا الاسطول عند موزمبيق ،وكان قد تبادل الرصاص مع اهلها فى رحلته الاولى ، ووقف على المرفأ يستعرض قوته ويهدد وينذر [٤] ثم وصل دا جاما الى كيلوا وطلب من سلطانها بقاءه فوق احدى سفنه الراسية فى الميناء وخرج اليه الامير ابراهيم الذى كان فوقتها يقوم بمهام السلطان ،فأبلغه دا جاما ان عليه ان يقبل حكم ملك البرتغال لبلاده كرها او طوعا ،فرفض الامير فقرر دا جاما الاحتفاظ به اسيرا فوق السفينة وعزم على حرق المدينة اذا اصر على رفضه فرضخ الامير ووافق على طلبات فاسكو دى جاما وقبل ان يدفع له جزية سنوية باعتباره خاضعا للحكم البرتغالى [٥] بعد ذلك وضع دا جاما جزء

---

(١) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ،ص ١٨٢-١٨٣ .

2- Roger Lockyer : Habsburg & Bourbone P. 34 .

(٣) ك.م. بانيكار : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٩ .

(٤) باذل دافدسن : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٦٩ .

(٥) سبنسر ترمنجهام : الاسلام فى شرق افريقيا ،ص ١٤ .

من اسطوله عند مدخل البحر الاحمر لاغلاقه بقيادة فنسنت سودر(Vincet)
ونتج عن ذلك تعرض السفن العربية لهجوم الاسطول البرتغالى فى مياه المحيط
الهندى (١) ،وخاصة السفن الغير مسلحة والتى تحمل حجاجا الى مكة .

ترك فاسكو دى جاما فنسنت سودر عند مدخل البحر الاحمر واتجه الى كانانو
وكوش ، واجتمع بحكامها لتنظيم اعمالهم التجارية فيها ، ومن هناك اتجه
الى كليكتا وباشر بتخريبها بمدفعية اسطوله انتقاما لمقتل وكلاء كبرال
التجاريين ،ثم اخذ فى اعتراض السفن الاسلامية المتجولة امام ساحل المليبار
وفى تلك الاثناء كان الزاموريين يسعى جاهدا للخلاص من ذلك الخطر فوقعت
معركة بحرية امام سواحل كوشى لم تأت بنتيجة تذكر للزاموريين بسبب ضعف
اسلحة سفنه وعدم تهيوءها للحروب بعيدا عن السواحل .(٢)

ويلاحظ على هذه الفترة اهتمام البرتغاليين بتعزيز اساطيلهم فى الشرق
بحيث كانت الوحدات البحرية تخرج تباعا دون انتظار ،فأبحر من لشبونة
الفونسو دى البوكرك فى ٦ فبراير سنة ١٥٠٣م (٢٤ شعبان ٩٠٨هـ) على رأس فرقة
من ثلاث سفن الى كوشى للمساعدة فى بناء قلعة ،وخلال اقامته فى الهند استفاد
من وقته فى جمع المعلومات لاكمال الخطط المستقبلية لملكه ولتوجيه دولته ،
فوضع امام الملك البرتغالى بعد عودته خططا،ومشاريع ضخمة للاستيلاء والسيادة
والتفوق البحرى ،وتهديد المسلمين والاسيويين عامة ،ويمكن القيام بها نظرا
للضعف الذى يسود تلك الجهات (٣) ،وبدا الخطر واضحا على الاماكن المقدسة
الاسلامية ،ويظهر ذلك من خلال رسالة الملك عمانويل ملك البرتغال المؤرخة
بعام ٩١١ - ١٥٠٥م للبابا يوليس الثانى حينما طلب منه البابا ايقاف الحملات
الى مياه الهند حتى تتحسن علاقات دول البحر المتوسط مع دولة المماليك
فكان جواب الملك عمانويل " انه ليس عازما على المضى فى قتل التجارة
المملوكية بل انه سيجاهد فى سبيل المسيحية حتى يجعل من مكة هدفا لمدافعه

---

(١) محمد عبدالمنعم الراقد: مرجع سبق ذكره ،ص ١٢٠.
(٢) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره،ص ١٨٨-١٨٩ .
3- S.B. Miles : The Countries and Tribes of the persian Gulf P. 140.

وجنوده " .

كما اكد للبابا ايضا ضرورة وحدة الدول الاوربية تحت زعامته وضم جهودهم الى جهوده لاستعادة الاراضى المسيحية المقدسة [1] فى القدس ،ولتأكيد ذلك هدد البرتغاليون جدة سنة ١٥٠٥م(٩١١هـ) ،وكان عمانويل قد اقسم ان يستولى على مكة وان يقوم بنبش قبر الرسول فى المدينة المنورة ، واهتز العالم الاسلامى لهذا الخطر القادم ،وخصوصا اليمن باعتباره يقع فىخط المواجهة الاول علىالحدود فى الجنوب .[2]

وفى عام ١٥٠٥م(٩١١هـ) عين الدوق الميدا (Francisco AL Meida) نائب للملك فىالهند بعد وفاة دا جاما فى نفس العام ،وعمل دالميدا على اقامة دعائم الحكم الاستعمارى البرتغالى فى ساحل ملبار وتوجيه الحملات الحربية الى الجهات المختلفة لفتح مجالات التجارة امام البرتغاليين فىالبحار الشرقية[3]، فاستولى دالميدا على مدينة سفالة (مدينة الذهب) ،ثم اتجه الى كيلوا بعد ذلك وقصفها فى ٢٢ يوليو ١٥٠٥م(١٨ صفر ٩١١هـ) ،ثم ارسل دالميدا الى الامير ابراهيم يسأله عن السبب فى عدم انتظام دفع الجزية ،وانزال العلم من فوق قصره ولم يعط الامير اجابة واضحة على الاسئلة ،فنزل البرتغاليون الى البر ، فهرب الامير عندما اقتربوا من قصره ومعه عدد كبير من اتباعه [4].

وكان فرانسسكوا الميدا يميل الى الاعتماد على القوة البحرية الى جانب الاحتفاظ بعدد من الحاميات فى البر ،لهذا نجده عندما وصل الى منصب نائب الملك فىالهند لميفكر فى الاستيلاء على عدن ضمن خططه ،لانه يرى ان سفالة القريبة من البحر الاحمر كفيل بان يقوم بمهمة عدن ،وكان يرى عوضا عن الاستيلاء عليها ضرورة شن غارات تخريبية عليها لسلبها لان ذلك معناه عدم وصول التوابل الى اراضى مصر المملوكية [5]،وكانت سفالة (Sofala) وقتها مازالت

(١) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ،ص ١٠٤ .
(٢) فاروق عثمان اباظة : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٦-٣٧.
3- S.B.Miles : The Countries and Tribes of the Persian Gulf p.140.
(٤) سبنسر ترمنجهام: مرجع سبق ذكره ،ص ١٤ .
(٥) غسان على رمال : نفس المرجع ،ص ١٩٩-٢٠٠.

مركزا لتجارة الذهب ولذلك اختار البرتغاليون اقرب مكان اليها وهو موزمبيق لكى تكون مركزا لحكمهم الاستعمارى الذى امتد الى مملكة مونومباتا فى روديسيا حيث توجد مناجم الذهب ومع ذلك لقى كثير من البرتغاليين حتفهم بسبب الامراض وغيرها اثناء البحث عن تلك المناجم ، الا انهم لم يتمكنوا من العثور عليها بسبب رفض الاهالى التعاون معهم (١) ولعل ذلك يفسر مدى اهتمام البرتغاليين بالمعدن النفيس لتغطية الحملات المسيحية ، ولتدعم موقفهم فى تهديد الاماكن المقدسة ، وفرض الحصار الاقتصادى على العالم الاسلامى .

تحركت حملة اخرى من لشبونة فى عام ١٥٠٦م (٩١٢هـ) بقيادة كل من تريستاودى كونها (Tristao de Cunha) والفونسو دى البوكرك وقد زودت هذه الحملة بتعليمات من قبل السلطات البرتغالية والتى تقضى بالاحتفاظ والتوسع فى المراكز البرية ، وكان البوكرك يميل الى هذه السياسة ، والتى كانت على النقيض من سياسة فرانسسكوا الميدا ، كما حمل البوكرك تفويضا سريا من الملك عمانويل البرتغالى ، لتولى مهام نائب الملك فى الهند بعد ثلاثة اعوام اى فى سنة ١٥٠٩م (٩١٥هـ) خلفا للدوق فرانسسكو دى الميدا ، الذى يجب ان يعود الى لشبونة (٢) .

كما صدرت التعليمات لدى كونها بالابحار الى سوقطرة والاستيلاء عليها وتشييد قلعة فيها لحماية المسيحيين التى من المفروض ان يسكنوا فيها ، لتكون مخزنا للأساطيل البرتغالية ومأوى لها لمواجهة الاسطول المملوكى والأسطول البندقى ولتتمكن البرتغال من حصار البحر الاحمر ، وبعد الانتهاء من بناء القلعة يتوجه دى كونها الى الهند ، ويترك البوكرك ليهاجم جدة وعدن ويعترض تجارة المسلمين (Moorish) .(٣)

من جهة اخرى ارسل دالميدا حملة سنة ١٥٠٦م (٩١٢هـ) الى سيلان والتى تنمو بالقرب منها اشجار القرفة (٤) اذ ادرك الميدا أنه على الرغم من تلك القوة

---

(١) سبنسر ترمنجهام : مرجع سبق ذكره ، ص ١٥ .

2- S.B.Miles : The Countries and Tribes of the Persian Gulf P. 141.

3- IBID P. 141.

4- Roger Lockyer : Habsburg & Bourbon P.35 .

البحرية الكبيرة التى كانت ،فانهم عجزوا عن وقف حركة الملاحة العربية فى المياه الهندية ،ولعل ذلك كان سببا فى توغل البرتغاليين الى مصادر تلك التجارة لمنع التجار العرب فى مزاولة نشاطهم .(١)

وتنفيذا لخطة البرتغاليين وصل تريستاو دى كونها فى منتصف ١٥٠٧م (٩١٣هـ) الى سوكو (Soko) ميناء سوقطرة وفرض دى كونها حصارا على المدينة ،ورفض السلطان ابراهيم ابن السلطان كيشين طلب البرتغاليين بالاستسلام ، فشن البرتغاليون هجومهم ،ودافع اهالى الجزيرة عن قلعتهم بثبات وعزم ،ولكن الاسلحة الحديثة كانت اقوى من ذلك العزم ،واستشهد سلطان المهره وعدد كبير من رجاله ،بعد ذلك اصلح البرتغاليون القلعة واطلق عليها اسم السانت توماس (ST. Thomas) وعين لقيادتها افونسو دى نورونها (Afonso de Noronha) (٢)

وبعد اكمال القلعة ،وبناء دير للفرنسيسكان لنشر المسيحية كان على دا كونها ان يمضى الى الهند بجزء من الاسطول تاركا البو كيرك بجزء آخر من الاسطول لمواصلة هجومه على عدن وجدة ومضايقة التجارة الاسلامية (٣) غير ان البو كرك ادرك ان الاسطول الصغير الذى خصصه دا كونها اضعف من ان يستولى به على عدن ،وفى الطريق نحو السواحل العربية نصب البوكرك امام عينيه ضرورة مهاجمة كيلهات ومسقط ،اذ تشكل هذه المنطقة الى جانب هرمز اهم الاسواق للخليج العربى والمخازن الاساسية له حيث تتركز التجارة الشرقية هناك (٤)،كما انه اذا تمكن من الاستيلاء عليها ،فسيعطيه ذلك السيطرة الكاملة على طريق الخليج وسيكون فى ذلك خدمة عظيمة أفضل من الحصار الموءقت للبحر الاحمر .(٥)

---

(١) بدر الدين عباس الخصوصى : دراسات فى تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر ص ١٤ .

2- S.B.Miles : The countries and Tribes of the Persian Gulf P.P.141-142.

(٣) فاروق عثمان اباظة : مرجع سبق ذكره ،ص ٤٠ .

، السير ارنولد ويلسون : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٠٤ .

(٤) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ،ص ١٩٧ .

(٥) السير ارنولد ويلسون : نفس المرجع ،ص ٢٠٥ .

بدأ البوكرك حملته فى اواخر ١٥٠٧م(٩١٣هـ) فى البحر بالتصدى للسفن العربية القادمة من البحر الاحمر ،فاجتاز باسطوله جزر كوريا موريا خارج رأس الحد فى عمان حيث وجد ثلاثين او اربعين سفينة صيد من هرمز واماكن اخرى فاحرقوا هذه السفن [١] بعد ذلك مر البوكرك من امام خورجيراما فدمر بعض سفنها ،وكان يقصد البوكرك بهذه الاعمال فى مهاجمة المدن الصغيرة والغير مهمة نشر الخوف بين صفوف سكان الخليج العربى وجنوب الجزيرة العربية ،حيث يقبل سكان بعض المدن والتى يرغب البوكرك فى احتلالها قبول تبعيتهم لملك البرتغال ،فى وقت كان يشعر فيها بنفاذ موءنه [٢]،ومن خور جيراما مضى البوكرك الى الشمال ،فألقى المراسى مقابل قليبهات ثم كليهات مستودع الشحن من الهند ،والمحمية لملك هرمز ،حيث اضرها ودمر معالمها [٣] اما مسقط والتى كانت من اهم الاهداف التى زحف من اجلها ، فقد وصلها بعد عدة ايام من غاراته على كيلهات وكوريات [٤] وخرج اليه " نيلان مسلمان " نيابة عن حاكم مسقط وتوسلا اليه الا يلحق اى اذى بالمدينة وعبرا عن رغبتهما فى ان يصبحوا تابعين لملك البرتغال ،وان يدفعوا الضرائب التى كانوا يدفعونها آنذاك لملك هرمز [٥] الا ان البوكرك غدر بهم وامر رجاله بنهب المدينة وتدمير السفن الراسية فى مينائها بالاضافة الى تعذيب الاهالى وقتل الكثير منهم .[٦]

عقب سقوط مسقط اتجه البوكرك نحو صحار فاستولى عليها ،واقر حاكمها فى مكانه باسم الملك عمانويل شريطة قيامه بدفع الاموال التى كان يدفعها من قبل لمملكة هرمز [٧] ،ومن صحار مضى الاسطول الى خورفكان(Fakkan)

---

(١) سليم طه التكريتى : مرجع سبق ذكره ،ص ٤٢ .
السير ارنولدت ويلسون : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٠٥ .
(٢) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ،ص ١٩٨ .
(٣) مديحة احمد درويش : سلطنة عمان فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ص ٢٧.
(٤) غسان على رمال : نفس المرجع ،ص ١٩٨.
(٥) السير ارنولدت ويلسون: نفس المرجع ،ص ٢٠٦ .
(٦) مديحة احمد درويش : نفس المرجع ،ص ٢٧.
(٧) قدرى قلعجى : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٦٥ .

فقاومه السكان ،فهوجمت المدينة واحرقت ،وقطعت اذان وانوف الاسرى ،ثم اتجه الاسطول الى رأس مسندم ثم مضى الى هرمز مباشرة [١] قاعدة الخليج وهدفه الرئيسى ،وبعد حرب قاسية انتصر البرتغاليون وتمكنوا من الاستيلاء عليها وضمها للتاج البرتغالى بعد ان فرض عليها شروط مجحفة بحق الهرمزيين ،ونتيجة لذلك سيطر البرتغاليون على تجارة الخليج [٢] وباستيلائهم على جزيرة سوقطرة ١٥٠٧م (٩١٣هـ) وعلى هرمز ١٥٠٨م (٩١٤هـ) قد اكتمل حصار البرتغاليين للتجارة الهندية ،وحصار المسلمين وتحطيم اقتصادهم .[٣]

طلب البوكرك تحديد مكان فى هرمز لبناء قلعة ،فعرضت عليه (قشم- طوروميك ونا باد) ، الا انه اختار رأس مورونا على الجزيرة نفسها ،فوضع اساس البرج الرئيسى واسرع فى بنائها ، بقصد الشروع بالذهاب الى البحر الاحمر ،لذلك اراد ان يتم البرج ،حتى تستطيع القوة البرتغالية ان تدافع عن نفسها بداخله الى ان يعود لهرمز .[٤]

كان الاسطول البرتغالى لازال موجودا فى هرمز فى حالة استياء وعدم قناعة مما ادى الى تمرد القباطنة فوصلته تعليمات من فرانسسكودالميدا نائب الملك البرتغالى فى الهند ،بالقدوم للهند فغادر البوكرك هرمز متوجها للهند فى نوفمبر ١٥٠٨م (فى شعبان ٩١٤هـ) .[٥]

كان المماليك هم اصحاب القوة الاسلامية التى قامت بالجهاد ضد البرتغاليين فى هذه الفترة ،على الرغم من شيخوختهم ،الا انه لم يكن هناك مجال للفرار او التأجيل ،فالعدو على ابواب البحار الجنوبية وقد اغلق منافذ التجارة ،كما

---

(١) السير ارنولدت ويلسون : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٠٨ .
(٢) مديحة احمد درويش : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٧ .
(٣) احمد عبدالرحيم مصطفى : فى اصول التاريخ العثمانى ،ص ٨٢ .
(٤) السير ارنولدت ويلسون : نفس المرجع ،ص ٢٠٩ - ٢١٠ .
(٥) بدر الدين عباس الخصوصى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٧ - ١٨ .

قام بالتهديد بالدخول فى البحر الاحمر حيث الاماكن الاسلامية المقدسة ،والقواعد العسكرية فى السويس ،كما اخذ السامرى حاكم مليبار فى طلب الاغاثة من قانصوة الغورى ،فى المبادرة بارسال قوات لمواجهة البرتغاليين ،فارسل قانصوه الغورى من امرائه الامير حسين الكردى فى ثلاثة عشر سفينة من نوع القرابين ،فوصل الى كوجرات ومنها خرج الى شيول ،وهناك تقابل مع البرتغاليين ،وانتصر حسين الكردى فى هذه المعركة سنة ١٥٠٨م واستطاع ان يستولى على احدى السفن البرتغالية واضطر القائد حسين الكردى ان يتجه بسفنه الى ديو بسبب الامطار وهناك وصلت اليه نحو اربعين سفينة صغيرة من السامرى ،وعندما علم البرتغاليون باستقرار حسين الكردى فى ديو ،خرجوا فى عشرين مركبا ،وباغتوا المماليك هناك واوقع البرتغاليون الهزيمة بالمماليك والمليباريين ،ورجع البرتغاليون الى كوشى،(١) وانسحب الامير حسين الكردى الى جدة ،اما السلطان الغورى فقد هزته الهزيمة ورأى ان احتياطيه من الاموال والسلاح يتناقص بالتدريج ،فى الوقت الذى تزداد فيه قوة البرتغاليين فى الهند وتتسع املاكهم وتنشط تجارتهم (٢) ،فطلب السلطان الغورى السلاح من السلطان العثمانى بايزيد الثانى ، الذى وعد بارسال مطلوبه هدية لانقاذ الاماكن الاسلامية المقدسة ،اذ اعتقد كلاهما أن البرتغاليين لن يهدأ لهم بال حتى يصلوا الى مكة والمدينة ،وبالفعل وصلت سفن المماليك الى الاسكندرية محملة المعونة العثمانية .(٣)

وتولى البوكرك منصب نائب الملك فى الهند سنة ١٥٠٩م(٩١٥هـ) ، الذى قام فورا بنقل المركز الرئيسى للبرتغاليين من كنانور على الطرف الجنوبى لشبه جزيرة الهند الى جوا ساحل مليبار المطل على بحر العرب ،فدل بذلك على سياسة البوكرك التوسعية نحو فارس وبلاد العرب (٤) والتى سيتبعها بعد قليل فى تطويق العالم الاسلامى من الجنوب ،وتوفير مراكز بحرية لهم فى داخل البحر الاحمر

---

(١) زين الدين المليبارى : مرجع سبق ذكره ،ق ١٦ب – ق ١٧ أ .
(٢) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ،ص ٩١.
(٣) بدر الدين الخصوصى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٨.
(٤) نعيم زكى فهمى : نفس المرجع ،ص ٩٢ .

لمهاجمة الحجاز ومصر واليمن .

وفى ١٥١٠م(٩١٦هـ) توجه البوكرك الى رأس جراد فوى المقابل لجزيرة سقطرة وانزل بعثة دينية برتغالية محاولة للوصول الى ملك الحبشة ،عوضا عن البعثات التى لم تكن قد وصلت من قبل ،وبانزاله تلك البعثة انقطعت اخبارها تماما عن البوكرك ،ومن المرجح ان البعثة كانت فريسة سهلة للقبائل الافريقية فى جنوب الحبشة .(١)

اخذ السلطان الغورى نتيجة لتوغل البرتغاليين فىالبحر الاحمر يوجه عنايته فى اعداد اسطول بحرى شان فى ميناء السويس لخوض معركة المصير التى سيترتب على نجاحها حل ازمته الاقتصادية ،هذا فضلا عناعداد الاساطيل القوية للدفاع عن سواحله الشمالية فى البحر المتوسط التى كانت تهددها هجمات فرسان القديس يوحنا فى رودس من جهة ،الى جانب تآمر البنادقة (٢) . وقام الامير حسينالكردى ببناء سور ضخم محصن فى جدة وطلب من حلفائه امراء الهنود المسلمين معونة مالية لبناء ذلك السور ، استجاب السلطان محمد محمود شاه سلطان كجرات ،وقد ذكر للامراء المسلمين فى تبرير هذا الطلب انه طالما ظل البرتغاليون اقوياء وباستطاعتهم دخول البحر الاحمر والوصول الى جدة ،فمعنى ذلك ان بامكانهم تدمير الاماكن الاسلامية فى مكةوالمدينة ،واعتقد امراء الهند المسلمون نفس الاعتقاد ،فمنحوا الامير حسين المعونات لبناء ذلك السور .(٣)

الا ان البوكرك توجه بانظاره الى الهند ،فكان امامه خياران ما بين كاليكتا وجوا ،الا انه نظرا للاحداث القديمة التى وقعت بين كاليكتا والبرتغاليين ،والتى تزعمت فيها كاليكتا حركة المقاومة ضدهم ، اضافة الى

---

(١) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ،ص ٩٣ .
(٢) فاروق عثمان اباظة : مرجع سبق ذكره ،ص ٤٢ .
(٣) نعيم زكى فهمى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٠٨.

اوامر الملك عمانويل بضرورة الاستيلاء عليها اتجهت انظار البوكرك اليها لذا خرجت من لشبونة حملة اخرى فيرناندو كوتينو (Fernando Coutinno) للمشاركة فى الاستيلاء على كاليكتا والقضاء على نفوذ الزاموريين ،وفى الوقت نفسه تدعيم الموقف فى المحيط الهندى خاصة بعد ما بلغت الملك عمانويل انباء الاستعدادات التى كان يقوم بها السلطان الغورى فى ميناء السويس والمساعدات العثمانية والاسلامية وهاجم البرتغاليون كاليكتا محاولة الاستيلاء عليها (١) فاحرقوا المسجد الجامع ودخلوا بيت السامرى زاعمين انهم تملكوها ،وكان السامرى غائبا لقيامه ببعض الحروب ، الا ان النبار حارب البرتغاليين واخرجوهم من كالكتا،قتلوا نحو خمسمائة برتغالى ،وركبوا سفنهم وغادروا كلكتا .(٢)

واتجه بعد ذلك البوكرك الى جوا (Goa) علىالساحل الغربى فى ولاية بيجابور عام ١٥٠١م وقد جعلها البرتغاليون عاصمة لمستعمراتهم فى الشرق ،ووضع البوكرك خطة الاختلاط بالهنود و مصاهرتهم ،واستخدموا فى الجيش البرتغالى جنودا من الهنود .(٣)

كان من الطبيعى ان يوءثر سقوط جوا بهذه الطريقةفيما جاورها من امارات الهند الغربية ،حيث قبلت كلكتا الصلح مع البرتغال بشرط اقامة حصن لهم على اراضيها ،اما مملكة الفيجايانكر ،فارسلوا وفدا للتهنئة على هذا الانجاز ، كما رحبوا باقامة حصن فىمدينة بهاتكل بشواطىء بلادهم الغربية (٤) اما اقليم جو جارات فقد البرتغاليون من استدراج سلطانهم الى احدى السفن البرتغالية بدعوى عقد اتفاق معه ،وهناك قتلوه غدرا ،وقاموا ببناء حصن فى ديو ،بعد ذلك غير البرتغاليون طريقة معاملتهم مع الهندوس ،وحرموا

---

(١) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٠٣ .
(٢) زين الدين المليبارى : مرجع سبق ذكره ،ق ١٧ ب .
(٣) محمد مرسى ابو الليل : الهند وتاريخها وتقاليدها وجغرافيتها ،ص ١٧٧ .
(٤) غسان على رمال : نفس المرجع ،ص ٢٠٤ .

عليهم عبادتهم ،ودمروا معابدهم ،وأقاموا محاكم التفتيش لمحاكمة الزنادقة والمرتدين ،وقد دفع ذلك الهندوس الى هجرة المستعمرات البرتغالية مما ألحق بها ضررا كبيرا .(١)

التفت البوكرك الى منطقة الملايو والمحيط الهادى ،وكان قسم كبير من تجارة الافاوية تجلب من الجزر الاندونيسية ،وكانت هذه التجارة اذا مرت من خلال مضيق ملقا (Malacca) ،وانطلقت فى عرض البحر حملها تجار العرب الى موانى البحر الاحمر ،ولم يكن فى الامكان السيطرة التامة على تجارة المحيط الهندى ما لم تتوطد الهيمنة على مضيق ملقا (٢) بالاضافة الى ان الاسعار فى ملقا لم تكن تزيد عن ربع سعر بيعها فى سواحل الهند ،وبلغ من شدة اهتمام البوكرك بها تكليفه لوبودى سكويرا بالاقتراب منها لجمع المعلومات متظاهرا بكونه تاجرا مسلما (٣) وكان لوبودى سكويرا قد بلغ ملقا من قبل بعدة سفن صغيرة ،وتلقى من سلطانها اذنا بالنزول الى البر والاتجار هناك كسائر الناس ،ولكن التجار العرب بمدينة ملقا الذين قاسوا الاهوال من نشاط البرتغاليين فى المياه الهندية والعربية ،حرصوا كل الحرص على ان يفسروا للسلطان مطامع البرتغاليين وشدة عداوتهم للاسلام ،فسحب السلطان اذنه السابق للبرتغاليين محذرا سكويرا بالعودة مرة اخرى (٤) .

وفى ٩١٧هـ/١٥١١م أخذ البوكيرك مجموعة كبيرة من السفن والجنود للهجوم على ملقا (Malacca) (٥) كما القى فى جنوده خطبة قال فيها " الخدمة الجليلة التى سنقدمها لله بطردنا العرب من هذه البلاد ،وباطفائنا

---

(١) محمد مرسى ابو الليل : مرجع سبق ذكره ،ص ١٧٨ .
(٢) ك.م. بانيكار : مرجع سبق ذكره ،ص ٤٧ .
(٣) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٠٥ .
(٤) ك.م. بانيكار : نفس المرجع ،ص ٤٧ .
5- Roger Lockyer : Habsburg &Bourbon Europe

شعلة اتباع محمد بحيث لا يندلع لها هنا بعد ذلك لهيب " . وبعد ذكر خدمة الله والمسيحية تحدث عن خدمة الملك حيث قال " وذلك لانى على يقين اننا لو انتزعنا تجارة ملقا هذه من ايديهم (اعنى المسلمين) لاصبحت كل من القاهرة ومكة اثرا بعد عين ولامتنعت عن البندقية كل تجارة التوابل ما لم يذهب تجارها الى البرتغال لشرائها من هناك "(١) وهاجم البوكرك مدينة ملقا من يوليو ١٥١١م(جمادى الاولى ٩١٧هـ) ، وبعد مقاومة عنيفة من سكانها ،تمكن البرتغاليون من الاستيلاء عليها ،وقاموا ببناء قلعة وكنيسة ،وكان الاستيلاء عليها بمثابة اكبر انجاز حققه البرتغاليون فى سبيل تحطيم السيطرة العربية التجارية ،ذلك أن استيلاء البرتغاليين على ملقا لم يكن يعنى انهم نجحوا فى السيطرة البرتغالية فقط على المحيط الهندى ،ولكنه كان يعنى ان المحيط الهادى قد اصبح مجالا لتوسع البرتغاليين ايضا ،وهم الذين حولوا الارخبيل كله ميدانا لصراعهم مع الاسلام والتجارة ءفاندفع دعاة النصرانية لنشر المسيحية ،الامر الذى دفع بالمسلمين لمقاومة هذا الزحف التنصيرى عن طريق نشر دعوة الاسلام فى ماليزيا و سومطرا ،وجاوا وهى المناطق التى هاجر اليها المسلمون من العرب والهنود الذين ظلوا يقاومون المنافسة الاوروبية (٢).

وبفتح ملقا اتم البوكرك بناء صرح الامبراطورية البرتغالية الاوروبية البحرية بآسيا ،وكان خروجه لتشييد امبراطورية تجارية تقوم على اساس مركز ممتاز لا سبيل الى تحديه بالمحيط الهندى ،وكانت الموانى الكبرى على الشاطىء الافريقى ،قد سقطت كلها آنفا تحت سيادة البرتغاليين ،ولكن لم يكن لهم قبل زمانه ببلاد الهند الا موطن قدم فى كوشى دون وجود اية نقاط منيعة فى اى مكان منها للبرتغال ممارسة سلطتها البحرية ،وبما انه تم ضم سومطره ،واصبح هناك سلطان سياسى فى هرمز ،وبعد استيلائهم على ملقا تأسس لهم نظام للهيمنة والضبط ظل ثابتا لا يتزعزع ما بقيت لقوة البرتغال البحرية بأوروبا قوة وعزم

---

(١) ك.م.بانيكار : مرجع سبق ذكره ،ص ٤٨ .

(٢) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٠٥-٢٠٦.

ولتهيئة الظروف الملائمة للنجاح فى تنفيذ هذه السياسة،كان من الضرورى قيــام قاعدة برية ببلاد الهند تقوم بدورالمحور المركزى لقوة البرتغال ،وكان فتــح جوا واستيطانها ،والتطور بها لتصبح مدينة وقصبة كبرى تضم جهازا كاملا للحكم هو الاساس الذى قامت عليه جميع خطط البوكرك .(١)

ادرك البوكيرك ان مركزه فى الهند لن يكون مرضيا الا اذا قوى خــط مواصلاته ،فوجه الى الدون عمانويل رسالة سنة ١٥١٢م(٩١٧هـ) قال فيها :" ان اعظم الشرور كلها بالنسبة الى جوا على كل حال الأراجيف المستمرة بأن الروم قادمون ،ان هذا مصدر عظيم للخطر على الهند ويسبب كثيرا من القلق والاضطرابات ما بين المواطنين والمسيحيين على حد سواء فيما بعد بهذه الملاحظات المخربة ،اعــرض لجلالتكم بكل احترام انه لن يكون هناك ثقة او سلام لرعايا جلالتكم فى هــذه الاجزاء ،الا بأن نذهب الى البحر الاحمر ونؤكد لهؤلاء الناس ان مخلوقــات اسمها الروم ليس لها وجود " (٢)، وبعد أن ارسل البوكيرك هذه الرسالة مباشرة غادر جوا ديجو فريدناند دى بيجا (Diego Fernandes de Bega) لهدم القلعة التى بناها البرتغاليون فى وقت سابق فى سوقطرة ،والذى برهن على عدم جدواها ،ثم توجه بيجا الى مسقط وهرمز لاخذ الضرائب (٣).

وكانت الجبشة فى هذه الفترة مهيأة لاى عمل صليبى ضد العالم الاسلامــى وليس معنى ذلك انها قد هيأت عدتها ،وانما كانت على استعداد لانتشترك فى اية عملية يستهدف منها الحاق الضرر بالمسلمين ،فأرسلت لذلك فى نهاية عــام ١٥١٢م(٩١٧هـ) ماثيو الذى وصل جوا بالهند ،وإستقبله نائب الملك الفونســو دى البوكرك ، الذى سر كثيرا لرؤية مبعوث من قبل القديس يوحنا ،وكانت مناسبة سعيدة للبوكرك الذى كان متلهفا لمعرفة الطريق الذى سلكه ماثيو للوصول اليــه وكذلك الاطلاع على كافة الاوضاع الخاصة بالحبشة ،وعندما عزم البوكرك علــى

---

(١) ك.م. بانيكار : مرجع سبق ذكره ،ص ٤٩ .
(٢) السير ارنولدت ويلسون : مرجع سبق ذكره،ص ٢١١ – ٢١٢ .
3- S.B.Miles : The Countries and Tribes of the Persian Gulf P.153.

الهجوم على البحر الاحمر اصطحب معه ماثيو [١].

وضع البوكرك نصب عينيه ان مهاجمة الاماكن المقدسة الاسلامية يستلزم انشاء قاعدة بحرية فى مدخل البحر الاحمر ،وحيث ان سوقطرة لا تمثل تلك القاعدة فكر البوكرك فى احتلال عدن ، المدخل الحقيقى للبحر الاحمر [٢] وهال البوكرك ذلك المركز الطبيعى الحصين ،فصمم على الهجوم عليه بواسطة تسلق جدرانه ولسوء حظه كان الماء ضحلا ،فاضطر الجنود للوصول الى الاسوار غوصاً ،وفى اثناء ذلك ابتلت ذخائرهم وكانت السلالم التى استخدموها للرقى قصيرة ،وذلك فشل هجوم البوكرك فشلا ذريعا ،فارتد متكبدا خسائر جمة فى الارواح والعتاد ،واضطر للاسراع الى جزيرة كمران للحصول على ماء للشرب وللحاجة الشديدة للطعام [٣] ومن قمران فكر البوكرك فى مهاجمة جدة ،وكانت تلك الفكرة بالنسبة للبوكرك حلم يود تنفيذه ،فقد عرف عنه انه كان يتمنى انجاز مشروعين من مشاريعه قبل موته المشروع الاول كان يحمل فى طابعه عاملا صليبيا وهو احتلال المدينة المنورة لينبش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ،ويسرق ما فيه ويجعله رهينة حتى يتخلى المسلمون عن الاماكن المقدسة فى القدس ، اما المشروع الثانى فقد كان اقتصاديا حيث كان يرغب فى تحويل مياه النيل الى البحر الاحمر ليحرم المصريين من الماء العذب ،ويخرب شبكة الرى التى كانت قائمة فيها آنذاك ،ولما كان المشروع الثانى يحتاج الى مهندسين وعمال يستلزم احضارهم من البرتغال لفترة طويلة ،فقد قرر البوكرك تنفيذ حلمه الاول وتأجيل الثانى ،وصمم على النزول فى ينبع بأربعمائة جندى للهجوم على المدينة المنورة ،غير ان الرياح حالت دون الوصول اليها فعاد الى كمران ،وعوض ذلك الفشل بشن حملات تخريبية ضد موانى البحر الاحمر [٤] فهاجم زيلع وبربره ،واستخدم هذه الموانى للاستيلاء على سفن العرب القادمة

---

(١) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ،ص ٩٣-٩٤ .

(٢) نوال حمزة صيرفى : مرجع سبق ذكره،ص ١٠٣ .

(٣) محمد عبد اللطيف البحراوى : مرجع سبق ذكره ،ص ٧٨ .

(٤) غسان على رمال : نفس المرجع ،ص ١٠٥-١٠٦.

من البحر الاحمر وتحطيمها .(١)

وارسل البوكيرك ماثيو الى لشبونة الذى قدم فى اواخر سنة ١٥١٣م(٩٨٩هـ)، رسالة من هيلانة ملكة الحبشة الى ملك البرتغال عمانويل ،وشكت هيلانة فى رسالتها الاخطار التى تهددها من ناحية مصر ودويلات الطراز الاسلامى ،واشارت ايضا الى ان تريستان داكنها وهو احد ضباط الملك فى الهند قد ارسل اليها رسوليين يسألها ان تمده بالطعام والرجال لتساعده فى نضاله ،وانها فى قضية كهذه لن تتوانى ابدا ،ولهذا فهى ترسل ماثيو الذى ا صدرت اليه الاوامر بأن يخبر القائد البرتغالى فى الهند بأن لها الرغبة والاستعداد ولتبذل له ما يريده من موءنة ورجال ،واضافت هيلانة بأنها على علم بأن السلطان المملوكى يجمع جيشا كبيرا يهاجم به البرتغاليين فى الهند ،ولهذا فلديها الرغبة فى ارسال عدد كبير من الجنود ليقدموا المساعدة عند باب المندب ويمكن ايضا لجنودها ان يصلوا الى الطور او جدة وانها ارسلت اليه كمقدمة ،واشارت الامبراطورة الى ان الجيوش البرتغالية اذا اتحدت مع الجيوش الحبشية فهما يكونان قوة كافية لان قوة الحبشة هى قوة برية ، ولكننا ليس لدينا قوات فى البحر ولكنكم انتم الذين تملكون قوة ضخمة فى البحر (٢) وكانت الحبشة من جانبها تتطلع الى مساعدة دولة مسيحية اوروبية لتعينها فى حروبها ضد الدويلات الاسلامية المجاورة لها وأهمها مملكة عادل ومملكة آفات ،وهما مملكتان اسلاميتان مجاورتان للحبشة وكانت الحروب بين هاتين الدولتين وبين الحبشة مستمرة طوال القرن الخامس عشر ،وكانت اغلب مراحلها الانتصار الساحق للمسلمين ،وهكذا دخل الصراع المحلى بين الحبشة والقوى الاسلامية فى البحر الاحمر وافريقيا الشرقية فى نطاق الصراع الهائل بين البرتغال والدول الاسلامية .(٣)

واحدثت زيارة ماثيو للبرتغال فرحا كبيرا فى نفوس البرتغاليين ، اذ تحقق حلمهم بروءية مبعوث خاص من القديس يوحنا ومعرفة اخباره ،وكان الرأى العام

---

(١) نوال حمزة صيرفى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٠٤ .
(٢) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ،ص ٩٤-٩٥.
(٣) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ،ص ١٢٤ - ١٢٥ .

يأمل فى تحويل الحبشة الى المذهب الكاثوليكى والتعاون مع الاحباش لانجاح اطماعهم الصليبية والاقتصادية فى البحر الاحمر والمحيط الهندى ،ووافق المجلس الاعلى البرتغالى على امداد الحبشة بمعونة عسكرية لمقاومة المسلمين ،كما جمع البرتغاليون من ماشيو معلومات كبيرة فيما يخص عقيدة الاحباش الارثوذكسية واوضاعها الاقتصادية والطرق المؤدية للحبشة (١) وكانت الملكة هيلين ملكة الحبشة تعمل من جانبها على سلخ كنيسة بلدها عن كنيسة مصر وربطها بكنيسة روما كجزء من الاتجاه العام فى ربط مصير الحبشة بالمسيحية الاوروبية ،وكان هذا امرا بعيد الاحتمال ،او انها كانت مناورة منها لتشجيع ملك البرتغال على التحالف ،وكانت البرتغال فى تحالفها مع الحبشة ،يحدوها وبشكل قوى الامل فى تحويل الحبشة الى المذهب الكاثوليكى .(٢)

وسط تلك الاجواء المعادية للاسلام ، اندفعت الحملات البرتغالية فى محاولة لتهديد الاماكن المقدسة الاسلامية داخل البحر الاحمر لاثارة المسلمين هناك ،وهو الامر الذى يؤكد ان اندفاع البرتغاليين نحو البحر الاحمر ، انما تؤكده عوامل صليبية اكثر منه اقتصادية ،واضحت الاماكن المقدسة هدفا من الاهداف العسكرية (٣) لذلك ارسل المماليك الاساطيل الحربية الى البحر الاحمر والمحيط الهندى ،باحكام سيطرتها على اليمن الذى يتحكم فى مدخل البحر الاحمر عن طريق باب المندب لتكون قاعدة لهم فى جنوب شبه الجزيرة العربية ،واخذ البرتغاليون فى المقابل توطيد قواعدهم الحصينة فى الهند واشتد ضغطهم على المسلمين هناك (٤)

استقبل البوكرك مبعوث من الشاه اسماعيل الذى يحرص على كسب صداقة البرتغاليين كما وصلت البوكرك اخبار غير سارة عن تحركات شيخ عدن ،وانباء

---

(١) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ،ص ٩٥ — ٩٦.
(٢) محمد انيس : مرجع سبق ذكره ،ص ١٢٥ .
(٣) غسان على رمال : نفس المرجع ،ص ٣٢٧.
(٤) نبيل رضوان : مرجع سبق ذكره ،ص ١٢.

عن وفاة الحاكم المحلى لهرمز ، الذى عارض بشدة بناء قلعة برتغالية فى الجزيرة لكل ذلك ارسل البوكرك حملة تحت قيادة ابن اخيه بيرو الذى اسر عدة سفن عربية متجهة الى البحر الاحمر . ووصل الى هرمز بعد ان زار سوقطرة ، وتفاوض بيرو مع ملك هرمز بشأن تسليم القلعة او دفع الجزية المستحقة الا انه أخفق فى تحقيق ذلك وقدم تقريره الى عمه البوكرك الذىعزم على المضى بنفسه نحو هرمز والبحر الاحمر فقام باستعدادات سريعة معلنا انه يفكر فى حملة على " مضايق ميكا ".[1]

وفى فبراير ١٥١٥م (محرم ٩٢١هـ) غادر البوكرك جوا على رأس الحملة نحو البحر الاحمر الا ان الاحوال فى الخليج العربى وخاصة هرمز جعلته يتوجه رأسا اليها وان يتخلى عن البحر الاحمر موءقتا ، وذلك بسبب نقض حاكم هرمز خوجة عطار بعض نصوص المعاهدة السابقة بينه وبين البرتغاليين برفضه دفع الجزية المقررة عليه ، على الرغم من اعترافه بالتبعية البرتغالية .

ضرب البوكرك حصاره على هرمز وحاول خوجة عطار التفاوض معه خوفا من تدمير المدينة ، وما ان بدأت تلك المفاوضات بين الطرفين حتى تجلت صورة اخرى من صور الحقد الصليبى ضد المسلمين ، عندما فاجأ البوكرك خوجة عطار بطعنة قتلته ، وامام هذا الموقف اضطر حاكم الجزيرة سيف الدين الخضوع للبرتغاليين ، الذين فرضوا عليه قبول الحماية البرتغالية مع السماح لهم بانشاء قلعة فى الجزيرة ، واخيرا دفعوا الجزية السنوية المقررة وعين بيرو (Pero) ابن اخ البوكرك حاكم برتغالى فى هرمز [2] فى هذا الوقت وصل مبعوث من الشاه اسماعيل الصفوى حاملا معه بعض المقترحات للتفاوض مع البرتغاليين بشأنها ، وقد انتهت المفاوضات الى توقيع اتفاقية هرمز ١٥١٥م (٩٢١هـ) التى اقرت بموجبها ملك هرمز حاكما عليها باسم سيده ملك البرتغال ، وتعهد البرتغاليون فى المقابل

---

(١) السير ارنولدت ويلسون : مرجع سبق ذكره ، ص ٢١٣ .
(٢) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٠٩ .
، سليم طه التكريتى : المقاومة العربية فى الخليج العربى ، ص ٤٧ .

بمساعدة الفرس على غزو كل من البحرين والقطيف ،كما تعهدوا بالوقوف الى جانب الفرس فى نزاعهم مع العثمانيين ،وكانت فارس قبلت التنازل عن هرمز للبرتغاليين بسبب الهزائم التى لحقت بها على يد العثمانيين فى اعقاب شالديران على امل ايجاد نوع من التفاهم والتعاون بينها وبين البرتغاليين لمواجهة العثمانيين الذين كانوا قد نجحوا فى الاستيلاء على عاصمتها تبريز وعلى امل قيام البرتغاليين بتزويد فارس بالسفن اللازمة لمد نفوذها نحو القطيف والبحرين على نحو ما ورد فى الاتفاقية المذكورة (١) بذلك اتم البوكرك تنفيذ نصف سياسته باغلاق الخليج الفارسى والسيطرة على مدخله (٢) ،عند ذلك قتل البوكيرك فى احدى المعارك البحرية ،وخلفه على الممتلكات البرتغالية لوبو سواريز ١٥١٥م(٩٢١هـ) ، الذى سار فى سياسته مخالفا لسلفه من حيث الشدة والعنف ولكنه كان اشره منه فى احتلاب ثروات البلاد واستغلالها ابشع استغلال ،ومع ذلك ظل البرتغاليون متحكمين فى الخليج .(٣)

ظل الامراء الهنود المسلمون يشجعون السلطان الغورى على ارسال حملة بحرية للهند للقضاء على النفوذ البرتغالى الذى اشتدت وطأته ،فأرسل الغورى حملة بحرية فى شهر اغسطس ١٥١٥(رجب ٩٢١هـ) ، التى عرفت حينذاك بحملة الهند وعين الريس سلمان العثمانى قائدا للاسطول على ان يتولى قيادة الحملة الامير حسين الكردى نائب جدة بمجرد وصولها الى هناك ،غير انه لم يقدر لهذه الحملة ان تصل الى هدفها النهائى فى الهند ،واجبرتها الظروف التى واجهتها امام السواحل اليمنية بالاضافة الى الظروف الاخرى على التوقف عند عدن .(٤)

نتيجة لذلك غادر سواريز جوا ١٥١٦م(٩٢٢هـ) الى البحر الاحمر للبحث عن الاسطول المملوكى السابق ولدى وصوله عدن رأى قائد المدينة نفسه ألا قبل له

---

(١) بدر الدين عباس الخصوصى : مرجع سبق ذكره ص ٢٠ – ٢١ .

(٢) محمدعبد اللطيف البحراوى : مرجع سبق ذكره ،ص ٧٨ .

(٣) قدرى قلعجى : مرجع سبق ذكره ، ص

(٤) فاروق عثمان اباظة : مرجع سبق ذكره ،ص ٤٢–٤٣ .

بالبرتغاليين ،فعرض عليه مفاتيح القلعة ،ورفض سواريز ذلك ،على امل ان يأخذ المدينة فى يوم اكثر ملائمة ،ومضى الى داخل البحر الاحمر ،ولم يجد أثرا للاسطول المملوكى ،ولدى رجوعه احتل زيلغ الا انه غادرها ،على امل أن يأخذ عدن غير انه قد تحصنت هذه المرة قلاعها وزودت بالرجال ولم يفلح فى السيطرة عليها وبناء على ذلك غادر سواريز الى بربرة (Barbara) وهنا تحطمت اغلب سفنه بفعل الرياح (١) وغادر الى جوا مرة اخرى ،بعد ذلك ركز البرتغاليون فى مراقبة نشاط الاسطول المصرى فى البحر الاحمر وضرورة تحطيم ميناء جدة وتوثيق الروابط مع ملك الحبشة المسيحى ،رحل سواريز من جوا عام ١٥١٧م (٩٢٣هـ) ، وعندما وصل امام عدن لم يهاجمها بعد فشله فى الحملة السابقة ١٥١٦م (٩٢٢هـ) ، بل طالب حاكمها بعض الامدادات اللازمة للحملة وبعض المرشدين لتوصيله الى جدة ثم ابحر سواريز باسطوله الى باب المندب فى مارس عام ١٥١٧م (ربيع الاول ٩٢٣هـ) حتى وصل الى جدة ،وكان قد وصل اليها قبل ذلك بقليل الريس سليمان الرومى والامير حسين بعد فشلهما امام عدن وساد بينهما خلاف خطير (٢) فتحير من ذلك المسلمون ،" وخافوا خوفا شديدا وكان الامير سلمان ومعه مائتان من العساكر وعدد من الغربان التى جهزها الغورى الى مليبار لحربهم متروكة فيها فرماهم اهلها بالمدافع من البر فاصابت بعض مراكبهم ،فرفعوا شراعهم وارسو فوق العلم خوفا من المدافع ،ثم شردوا فأرسل الامير سلمان وراءهم سنبوقين فيهما ثلاثون رجلا فأخذوا منهم غربانا صغيرا فى كمران وفيه اثنا عشر نفرا ووصلوا بهم الى جدة". (٣)

فى هذه الاثناء انتهى حكم الدولة المملوكية سنة ١٥١٧م (٩٢٣هـ) ،وانتقلت مسئولية الدفاع عن الاراضى المقدسة الاسلامية الى سلاطين الدولة العثمانية وحماية الاماكن المقدسة فى الحجاز واستعادة طرق التجارة يتحتم على الدولة العثمانية ان تقضى على الخطر البرتغالى ،وعلى هذا الاساس شرع العثمانيون فى

---

(١) السير ارنولدت ويلسون :مرجع سبق ذكره ،ص ٢١٧.
(٢) محمد عبد اللطيف البحراوى : مرجع سبق ذكره ،ص ٧٩ .
، فاروق عثمان اباظة : مرجع سبق ذكره ،ص ٤٦ .
(٣) زين الدين المليبارى : مرجع سبق ذكره ،ق ٢٢ أ- ق ٢٢ب .

بسط سلطانهم على البحر الاحمر وذلك بضم الحجاز واليمن ،وجانبه الافريقى بضم سواكن ومصوع وهرر [١] وهذا ما نلاحظه فى الفصل الخامس .

---

(١) نبيل رضوان : مرجع سبق ذكره ،ص ١٢ .

كانت تجارة البحر الاسود متوسعة فيالمواد الغذائية مثل القمح والسمك والزيت والملح ، اذ تصدر تلك المواد الى الجزر الايطالية ،وكانت تحمل هذه التجارة بواسطة سفن البندقية (١) ،وكانت السفن المعدة لنقل هذه التجارة من النوع الاوروبي الشمالي ،والذى طور باضافة سارى آخر او على اشرعة مربعة ومثلثة الشكل وهذا ادى بدوره الى توسع الاوروبيين بتجارتهم ، اذ كانت حمولتها من ستين الى سبعين طنا ،ومنها طورت السفينة الشراعية الضخمة والتى تحمل حتى الألف طن (٢)، من هنا بدأت الجمهوريات الايطالية تتغلغل فى داخل الحياة الاقتصادية لمناطق اوروبا الجنوبية الشرقية من خلال المستعمرات المكتسبة فى البحر الاسود مثل كافا او جزر مثل قبرص ،وكانت تلك التجارة تدار بواسطة طبقة امتلاكية من اهل ايطاليا ،كما ان الجمهوريات الايطالية آنشأت مجمعات تجارية هامة خارجة عن نطاق السلطات القانونية للبلاد (٣)،لذلك اغلقت الدولةالعثمانية مجال النشاط التجارى فى وجه الايطاليين ،عندما استولت الدولة على موانئ البحر الاسود الشمالية كافا وازوف ثم كيليكا واكيرمان وساعدها فى ذلك سيطرتها على الدردنيل (٤) . كما انالصلات الثقافية بينالعثمانيين والسكان المسلمين لمناطق شمال البحر الاسود ساعدت على تنشيط الارتباطات التجارية والاقتصادية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر وقامت الدولة العثمانية بانشاء علاقات تجارية مع روسيا ، شجعها فى ذلك العلاقات الطيبة بين خانات الكريميا والسلاطين العثمانيين والتى كانت حتى الثلاثينات من ١٥٠٠م(٩٠٦هـ) (٥) ،زاد اهتمام العثمانيين بالبحر الاسود ليتخذوا من موائنه اماكن آمنة لصناعة السفن ففتحوا طرابزنده وسينوت شرقا ،وكانت التجارة فيتلك الارجاء بيد تجار جنوه ،فتحولت تدريجيا الى العثمانيين ،وهنا ادرك العثمانيون بعد تشبيت اقدامهم فى تلك المناطق والمضايق ما للقوة البحرية من اهمية لاسيما ان جمهورية البندقية

1- Halil Inalcik : The Ottoman Empire the Classic Age P.129 .
2- Roger Lockyr: Habsburg & Bourbone Europe P.28 .
3- Paul Coles : The Ottoman Impact on EuropeP.P. 131-132 .
4- Halil Inalcik : IBID Age P.129 .
5- IBID P.131 .

كانت لهم بالمرصاد فى شرقى البحر المتوسط ، اذ كانت لا تزال محتفظة بعدد من الموانى فى المورة والبانيا ، لذلك وجهت الدولة عنايتها بالاسطول ، واستولوا على جزر بحر ايجة واحدة تلو الاخرى ، وخاصة ما كان قريبا منها من مدخل المضايق ، ومازال العثمانيون يستعينون ببنائى البندقية [(١)] التى سارعت الى عقد معاهدة دفاعية هجومية سنة ١٤٧٩م (٨٨٤هـ) مع السلطان العثمانى الذى انتزع منها جزيرة يوبويا " نجربونت " وألبانيا بأكملها ، وارغم البندقية على دفع مبلغ كبير لقاء الاذن لها بالاتجار فى الاراضى العثمانية ، وهكذا اصبحت معظم تجارة بلاد اليونان وجنوب بحر ايجة فى ايدى العثمانيين ، كما امكنت السيطرة على البحر الاسود وسينوب وترابيزون [(٢)] ، كما تحكم العثمانيون فى الطرق الرئيسية لشبه جزيرة البلقان وبالتالى تحكموا فى تجارتها [(٣)] ، وبهذا استندت الدولة العثمانية الى ممتلكاتها الاوروبية للمواجهة مع الصليبية فى البحار الجنوبية .

كانت الاناضول تمثل الطريق العام للتجارة الشرقية الغربية ، وتمكن بعض التجار من الجمهوريات الايطالية من مقابلة القوافل من الشرق الاقصى وايران فى باياس (Payas) فى الجنوب ، وطرابزون (Trebzond) فى الشمال كما سافر هوءلاء التجار الى سيواس (Sivas) وكونيا (Konya) ، كما ان هناك طريقا تجاريا قديما يربط تبريز فى ايران بكونيا عبر ارزروم (Erzurum) وارزنكان (Erzincan) وسيواس (Siras) ، ولم تقم الاناضول بربط اوروبا بالشرق فحسب ، بل كانت ايضا نقطة عبور لتجارة الشمال والجنوب بين خانات القبائل الذهبية فى اوروبا الشرقية والاراضى العربية ، وكانت التوابل والسكر واقمشة متنوعة من الجنوب تستبدل بالفراء من الشمال ، وقام الايطاليون بنقل هذه البضائع بحرا ، فى حين يقوم التجار المسلمون بنقلها برا الى كونيا وسيواس ، او من حلب الى قيسيرى وسيواس وسينوب (Sinop) وسمسون (Samsun) ، واصبحت المدن الوسطى للاناضول مراكز تجارية هامة ، الا انه مع سقوط امبراطورية الانحانيين

---

(١) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ، ص ١١٨ .

(٢) احمدعبدالرحيم مصطفى : مرجع سبق ذكره ، ص ٧٢ .

(٣) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ، ص ٨٤ .

(Ilkhanid) فى ايران فى القرن الرابع عشر ،ونهوض الدولة العثمانية فىالاناضول ، انتقل الثقل السياسى والتجارى الى الاناضول الغربية وسبب ذلك تغييرا فى نمط طرق التجارة واصبحت بروسه (Bursa) المركز التجارى والسياسى للدولة العثمانية ،حتى كانت اهم مدينة تجارية فى الاناضول ومستودع بضائع التجارة الشرقية والغربية ،كما ارتبطت المراكز التجارية الاخرى فى الاناضول مثل بلاتيا (Palatia) والتولووجو (AL Tolougo) ،وايفزيس (Ephesus) وسيمرنا (Smyrna)أو(أزمير) ببروسة ،فوصلت القوافل الايرانية الى هذه الموانى عبر بروسه [١] وعندما سيطرت الدولة العثمانية على هذا الطريق عندما توسعت الدولة شرقا ،لم تعد قوافل الفرس تتبع الطرق فى تريزون وفضلت الطريق البرى الى بروسه ،واصبحت المدن اماسيا (Amasya) وتوكات (Tokat) الواقعة على ذلك الطريق البرى ذات اهمية اقتصادية وتجارية فى الاناضول بعد بروسة ،وكانت تجارة الحرير الفارسى ركيزة تنمية وازدهار بروسة ،بعد ذلك تطورت صناعة الحرير الاوروبى،الا انه زاد اهمية بروسة فأصبحت السوق الدولية لخامات الحرير وعندما توسعت الدولة العثمانية جنوب الاناضول ، انتعش الطريقالبرى القديم من حلب الى القسطنطنية ،وكانت اشهر البضائع الهندية والعربية تسلك الطريق المذكور [٢]،وساعدت تجارة البحر الاسود والبلقان والاناضول الدولة العثمانية فى مواصلة فتوحاتها فى اوروبا من اجل استرداد الاندلس ،وكانت التجارة السابقة عاملا مهما فى تطور البحرية العثمانية وتأهيلها لضرب الاساطيل المسيحية الايطالية .

وكانت الاراضى الفارسيةمعبرا آخر من معابر التجارة ،فقد وصل الى الهند التجار الايطاليون وعرف الاوروبيون اين تنتج التوابل ،بالاضافة الى معرفة اسعارها ،وكانت معرفة الطريق السابق من قبل الايطاليين الغرض منه ،حتى

1- Halil Inalcik: OP.CIT P. 121 .
2- IBID P. 124 .

اذا قطع عليهم الطريق الثانى واغلقت دونهم الاسواق الهندية لوجود دولة اسلامية معادية وللحروب التى لا تنقطع ببلاد المشرق ،تجلى لديهم تماما عظم الغرض التى تنتظر اية دولة تستطيع ان تجد سبيلا جديدا لبلاد الهند .

اقترح الجنوبيون على صاحب فارس خطة يهدفون من ورائها الى تحويل تجارة التوابل مع ملبار الى الخليج الفارسى ومن ثم تحمل برا الى موانئ شرق البحر المتوسط ،وحيث تمكن الجنوبيون من الحلول محل البنادقة ،وكانت الفكرة تقضى بأن يبنى الجنوبيون اسطولا على الخليج الفارسى يغلق البحر الاحمر فى وجه التجارة الهندية ،على ان ذلك الاقتراح لم يتحقق ،ولكن جنوه لم تكف ابدا عن الشخوص ببصرها نحو الهند .(١)

وكانت السفن التجارية تسلك طريق البحر الاحمر والخليج الفارسى الى موانئ الشام ومصر على البحر المتوسط فتجمعت فى اسواقها البضائع الشرقية والغربية ،ودفع عبء نقل وتوزيع هذه البضائع على عاتق التجار العرب ،وتجار الجمهوريات الايطالية (٢)،وهكذا يتضح ان العثمانيين كانوا يخوضون صراعا اقتصاديا الى جانب الصراع من اجل الاسلام ضد الروح الصليبية .

وظل البحر الاحمر على مدى العصور عاملا فعالا لربط البلاد المحيطة به وكان طريقا للملاحة فيها ووسيلة للتبادل التجارى ،فانتفع كل قطر بما يوجد لدى الآخر ،وساعد ذلك على ازدهار الحالة الاقتصادية ،وحينما تقدمت صناعة السفن وبدأت المواصلات مع الهند والصين وبقية بلدان الشرق الاقصى ازدادت اهمية هذا البحر ،فقد ساعدت حركة الملاحة لمراكب الصين فى بحار الجنوب على ازدياد تدفق بضائع الشرق الاقصى الى عدن والبحر الاحمر لانها قديما لم تكن تتجاوز فى ابحارها غربا الشاطئ الجنوبى الشرقى للهند (٣)،وتولى اهالى

---

(١) ك.م. بانيكار : مرجع سبق ذكره،ص ٢١ – ٢٣ .

(٢) نوال حمزة صيرفى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٠١ .

، نعيم زكى فهمى : طرق التجارةالدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ،ص ٣٧-٣٨.

(٣) اجيه يونان جرجس : البحر الاحمر ومضايقه بين الحق العربى والصراع العالمى،ص ٢٧.

مسقط واليمن تلك التجارة ،الذين حافظوا على المعاملة والمواصلات المفيدة المثمرة سنوات بعيدة (١) .

ولم يقتصر دور البحر الاحمر والتجار المسلمين على توصيل تجارة ومنتجات هذه المناطق الى المشرق فحسب بل اصبح الممر التجارى ،لتمويل العالم الاوروبى بكل ما يلزمه من هذه التجارة ،وتلك المنتجات . وبالتالى اثر ذلك على بلاد الشرق الاوسط وأهالى المنطقة ،الذين جنوا ثروات طائلة سواء من دور تاجر البحار نفسه او خلال دورالممر التجارى والوسيط (دور المكوس والرسوم الجمركية) فظهر الازدهار فى هذه المنطقة واثر ذلك بالتالى فى العلوم والفنون والاداب ،بل انها اصبحت اكثر مناطق العالم ازدهارا ورفاهية .(٢)

كانت السواحل المغربية المواجهة للاطلسى مناطق غنية بالاسماك ،وهذا ما يحتاجه الاوربيون بالاضافة لكميات الذهب التى تجلبها القوافل المغربية من مناطق افريقية مجهولة تقع جنوبى المغرب ،وكان لهذا المعدن النفيس اغراء خاص بالنسبة للاوروبيين سواء بالنسبة فى اقتنائه او لاهميته فى التبادل الاقتصادى(٣) لذلك ازدهرت المناطق الشمالية لافريقيا من جراء تلك التجارة ،واثر بدوره على الحياة الاقتصادية للسكان .

وقامت عدة مراكز تجارية رئيسية فى غرب افريقيا منها ارجيوم(Arguim) ميناء(Mina) ،وكانت هذه المراكز عامرة بالتجار والوسطاء التجاريين ،وقدم اليها سكان القرى المجاورة ،واصبحت مزدهرة .(٤)

ادرك الاوربيون فى هذه الفترة بأن سيطرة المسلمين على طرق التجارة فى

1- S.B.Miles : Countries and Tribes of Persion Gulf P. 138 .

(٢) اجيه يونان جرجس : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٧.

(٣) ب . ج . روجرز : تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية حتى عام ١٩٠٠،ص ٣٨ .

4- H.V. Livermore : A New History of Portu Gulf P. 136 .

البحر الاسود والاناضول والخليج الفارسى والبحر الاحمر والشمال الافريقى هى سرقوة المسلمين ومن هذا المنطلق كان اندفاع البرتغاليين والاسبان كل فى طريق حسب توجيهات البابوية ،وان كان لهذا الاندفاع الشديد اهداف فان من بين تلك الاهداف ما ادى الى انتقال المواجهة من البر الى البحر كأسلوب من اساليب المواجهة بين العالم الاسلامى والعالم المسيحى .

وظهر خطر البابوية ،عندما اصدر البابا اوامره الى جميع البلاد المسيحية الاوروبية ان تضع كل امكانياتها البشرية والمالية تحت تصرف ملوك اسبانيا من اجل اخضاع بلاد الشمال الافريقى للحكم والدين المسيحى ،بحيث صبغت الحروب الاسبانية فى افريقيا بالصبغة الصليبية الحقيقية ،لدرجة ان الكنيسة الاسبانية ارادت فى كثير من الاحيان اعتبار هذه المعركة خاصة بها ،ونحن عندما نقول ان تحويل التجارة كعامل اقتصادى لهدم العالم الاسلامى فالقصد هنا ان هذا فى حد ذاته عامل دينى ،لان هدم الاقتصاد الاسلامى معناه هدم لقوة المماليك والعثمانيين اصحاب السلطة على الطرق التجارية وعنصر حيويتهم حتى يتمكنوا فيما بعد من التغلغل الى داخل المشرق العربى ،والحصول على المنتجات الاستوائية والشرقية دون الحاجة الى وساطة المسلمين .(١)

وقامت حركة الاستكشافات البحرية فى غرب اوروبا ،ونجحت هذه الحركة فى العثور على طريق حول رأس الرجاء الصالح (٢) وبدأت البرتغال فى تنفيذ خططها لتحويل التجارة الشرقية ،كما اخذت فى وضع الاستراتيجية لذلك ،واقتضت تلك الخطة اقامة قواعد فى المحيط الهندى وهنا اختلفت فيها الاراء :

هل تكون فى تلك القواعد البحرية لتعزيز الاساطيل المنتشرة على طول الخط التجارى من الهند الى لشبونة ، او يلجئون الى قواعد برية معززة بحاميات عسكرية .

---

(١) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٠-٢١ .
(٢) اجيه يونان جرجس : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٧ - ٢٨ .

ثانيا : سد مداخل الخليج الفارسي عن طريق اقامة نقط ارتكاز فى تلك المداخل لمنع التجارة ومن ثم مهاجمة البحار الداخلية .
ثالثا : اقامة قواعد على سواحل افريقيا الشرقية لتأمين ذلك الطريق التجاري الطويل الى لشبونة .(١)

واستولى البرتغاليون على سوقطرة وجوا وهرمز بعد ذلك ،ثم سيطروا على سفالة وموزمبيق وهاجموا زيلع وبربره لكى يتم تحويل الطريق التجارى تماما الى رأس الرجاء الصالح (٢) واتبعوا لتحقيق ذلك وسيلتين ،فالاولى عن طريق اعتراض السفن الاسلامية بكافة انواعها فى عرض البحر سواء كانت متجهة الى البحر الاحمر او الخليج او خارجة منها . اما الوسيلة الثانية فكانت عن طريق تخصيص دوريات مسلحة للتجول امام تلك المداخل السابقة الذكر (٣) ولم يكتف البرتغاليون بذلك وانما اخترقوا مناطق تصدير التوابل ،لتؤكد سيادتهم على منابعها فكانت القرفة تنمو فى سيلان فاستولوا عليها ،اما بالنسبة للمواد الاخرى مثل الفلفل الذى تزرعه جاوا (Jawa) وسومطرة ،والثوم الذى يقدر بثمن باهظ عن بقية التوابل كان يجمع فى مولكس (Molucus) ، اما منتجات برينو (Borneo) فكان جوز الهند ومشتقاته وكل المنتجات السابقة تصل من تلك المناطق عن طريق البحر عبر مضيق ملقا (Malakka) الذى يفصل شبه جزيرة ملايو عن سومطره (٤) ،لذلك قاموا باحتلال تلك المناطق ابتداء من ملقا.

ولما كانت المكاسب لا تحقق عن طريق جلب بضائع الغرب وشراء البضائع الشرقية بالمقابل وذلك لان التجار الآسيويين كانوا يدركون جيدا كيفية استغلال التاجر الذى يأتى من بعيد ويكون فى عجلة للعودة الى بلده ،فكانوا يشترون بأبخس الاسعار ويبيعون له بضائع باعلى الاسعار ،فطن البرتغاليون لهذه الحقيقة

---

(١) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ،ص ١٨٠-١٨١ .
(٢) نوال حمزة صيرفى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٠٤ .
(٣) غسان على رمال : نفس المرجع ،ص ٢١٦ .
4- Roger Lockyer : Habsburg & Bourbon Europe P. 62 .

فأقاموا مخازن على الشواطئ لتخزين بضاعتهم حتى تحين الفرصة للبيع باسعار مناسبة (١) ،ومنحت الحكومة البرتغالية تصاريح للسفن الاسلامية ،وكان البرتغاليون فى بداية الامر يراعون هذا التصريح فلا يتعرضون للسفن التى تحمله ،ثم تطور الامر واصبحت المراكب البرتغالية تمارس اعمال القرصنة فى البحار ،ولم يعد التصريح الا اجراء شكلى فما ان تخرج السفن الاسلامية الى عرض البحر حتى يهاجمونها حتى لو كانوا حاملين تصاريح (٢) واجبر البرتغاليون التجار المسلمين على الاتجاه الى هرمز ودفع الضرائب على تجارتهم ،وعلى الرغم من ان تحركات التجار العرب وتنقلاتهم بين موانئ المحيط الهندى اصبحت محفوفة بالمخاطر . الا أن البرتغاليين تعمدوا وبصورة مركزة على محاولة قفل كافة الابواب امام التجار العرب والاستيلاء على كافة المراكز التجارية التى يلجأون اليها ،كما احسوا بوطأة البرتغاليين الذين عمدوا الى محاولة دفع المسلمين الى بحارهم الداخلية واغلاقه عليهم ،والدليل على ذلك ان البرتغاليين عندما وصلوا الى كاليكتنا وبدأوا فى اعتراض السفن الاسلامية امام السواحل الهندية هاجر معظم التجار العرب والافارقة متجهين الي ملقا وسيلان لنشر الاسلام ،التى ما لبثت ان تعرضت للغزو البرتغالى .(٣)

عندما علمت البندقية بأن البرتغاليين افلحوا فى الدوران حول رأس الرجاء الصالح وتعطلت السفن الاسلامية فى الوصول للبحر المتوسط ،فكروا فى فتح قناة عبر برزخ السويس ولكن هذا لن يحيى تجارتهم ،حتى بالمنافسة مع رأس الرجاء الصالح ،لان الطرق البرية عبر البحر الاحمر والخليج الفارسى سيتحكم عليها البرتغاليين ولن يسمح للبنادقة او لغيرهم بتنفيذ ذلك . (٤)

1- Sir George Clark : Early Modern Europe P.62 .

(٢) نوال حمزة صيرفى : مرجع سبق ذكره ،ص ٩٩ .

(٣) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ،ص ٢١١-٢١٧.

4- Sir George Clark : IBID P. 74 .

ازداد خوف البنادقة من انيفقدوا دور الوساطة التجارية الذى كان يلعبونه فيما يتعلق بالتجارة الشرقية ،واخذوا فى حث المماليك فىالقاهرة على القيام بجهد مشترك ضد البرتغاليين الذين شكلوا خطرا على مستقبل المدن الايطالية كما طالبوا بخفض المكوس التجارية (١) المفروضة على البضائع الشرقية .

وكانت مصر قد اصيبت بضربة اقتصادية شديدة نتيجة اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وحرمانها من تجارة الشرق الغنية (٢) ،فتوقفت العوائد والرسوم الضخمة التى كانت تجنيها الخزانة المملوكية من موانئ مصر والشام والحجاز (٣) ،وبدأ الفقر يخيم على المنطقة ،واثر على مستوى المعيشة فانصرف الناس عن العلوم والفنون الى البحث عن قوت يومهم ، اذ انه من المعروف أن العرب قد نجحوا نجاحا بالغا مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادى فى فنون الملاحة والنقل البحرى فى بحارهم الجنوبية ،وكان ذلك كفيلا بأن يقودهم نحو نهضة كبيرة وقوية ،كما اخذت السفن الايطالية تقل منالوصول الى موانئ مصر والشام ،واخذت توجه انظارها الى لشبونة وخربت الكثير منالطرق التجارية البرية والتى زاعت شهرتها الافاق ،بما كانت عليه من طرق معبدة وحراسة دائمة وخدمات متوفرة ،وتوقفت القوافل البرية التى كانت تغدو بينالشرقين الادنى والاقصى ،وانحصرت التجارة الداخلية فى نطاق ضيق واصبحت لا تتعدى حد الاستهلاك (٤) واصيبت موانئ السويس والاسكندرية والبصرةوطرابلس لبنان وكلها مراكز للتجارة مع الخليج العربى فى الصميم ،كما ان المشاكل المالية والاقتصادية المترتبة على الضغط البرتغالى جعلت منالصعب بالنسبة للمماليك ان يبنوا اسطولا بجهودهم الخاصة لمواجهة البرتغاليين (٥) كما تغيرت الظروف العامة فى المنطقة ،فى الوقت الذى لم يجد فيه الفلاح مناصا من العمل فى هذه الظروف الصعبة ،حاول

1- John Lynch : Spain under the Habsburge Val .2 P. 83 .

(٢) محمد عبد اللطيف البحراوى : مرجع سبق ذكره ،ص ٨٦ .

(٣) فاروق عثمان اباظة : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٨.

(٤) جلال يحيى : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٥ .

، غسان على رمال : ، مرجع سبق ذكره ،ص ٣٣٢-٣٣٣ .

(٥) احمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سبق ذكره ،ص ٨٢ .

الحكام والمسيطرون ان يحافظوا على مستوى معيشتهم ولم يجدوا سوى الارض والفلاح امامهم وسيلة للحصول على ما يلزمهم من موارد فزاد العبء اضعافا مضاعفة على الفلاح ،ولم تسمح له الظروف بالتحرك او التململ ،واستمر فىفقره وعجزه عن مواجهة الامراض والاوبئة وانقطعت صلته بالعالم ،وبدأوا رحلة على طريق التخلف والخضوع للتحكم وللاقطاع والاستغلال .(١)

قرر السلطان الغورى نتيجة لذلك ارسال بعثة برئاسة الاسقف ماوروس دى سان برناديو (Mourus Disan Bernadina) رئيس دير جبل صهيون بيت المقدس ومعه راهبان الى ملوك اوروبا وبابا روما للوقوف على الاحوال السياسية بصفة عامة ،وحث البابا علىاقناع البرتغاليين بوقف اعمالهم العدوانية ضد مصالح السلطان فىالهند ،ووصل ماوروس الى البندقية فى ١٥٠٤م(٩١٠هـ) ومعه خطابات للدوق لطلب مساعدات حربية للسلطان المملوكى لمقاومة البرتغاليين فى مياه الهند وطلب كذلك منحه خطابات توصية الى ملكى اسبانيا والبرتغالوالبابا وعقد السناتو جلسة خاصة حضرها الاسقف ماوروس ،الذى عرض طلب السلطان المعونة الحربية والتأييد الادبى لدى البابا وملكى اسبانيا والبرتغال لوقف تعرض البرتغاليين للمصالح السلطانية فىالهند او ارسال اسلحةللسلطان لمقاومة البرتغاليين فى حالة فشل المفاوضات لوقت اعتداءاتهم ،واعلن ماوروس كذلك استياء السلطان فى موقف الملك القطالونى من المسلمين فى الاندلس والمضاربة فىالشمال الافريقى ،واجبارهم على ترك دينهم او الموت ،ورد السناتو على مبعوث السلطان بأن الاضرار التى لحقت السلطان قد اصابت البندقية ،واعتذر عن الكتابة للبابا ولملك البرتغال حتى لا تتهم البندقية بمساعدة المسلمين (٢) وكانت البندقية قد هداها تفكيرها فى هذا الوقت الى مشروع تجارى جديد يدور حول استخدام الطريق البرى من ايران الى تركيا ،وارسلت البندقية بعثة دبلوماسية الى ايران لمفاوضة الشاه حول هذا المشروع ،لكن الدولة العثمانية قبضت على هوءلاء الرسل وهم فى طريقهم الى ايران .(٣)

(١) جلال يحيى : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٥ .
(٢) نعيم زكى فهمى : مرجع سبق ذكره ،ص ٧٧-٧٨ .
(٣) محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى ،ص ١٢٣ .

واصل مانيوس رحلته وقابل البابا فى روما الذى انزعج من تهديدات السلطان للمسيحيين والاماكن المقدسة المسيحية واسرع بارسال ماثيوس ومرافقيه الى فردناند الخامس ملك قطالونيا وعمانويل ملك البرتغال ،وهناك اوضح الاسقف لهما مضمون مهمته ،فارسل عمانويل خطابا للبابا يطمئنه ،وان لا يلقى بالا لتهديدات السلطان لانه ليست لديه القوة الكافية لتنفيذ هذه التهديدات ،كما انه لا يستطيع القيام بأى عمل تعسفى ضد المسيحيين فى بلاده او ضد الاماكن المقدسة المسيحية لانه يجنى من ورائها رسوما طائلة فى مواسم الحج ،واضاف انه فى حالة تنفيذ السلطان تهديداته فان الاسطول البرتغالى سيدخل البحر الاحمر ويهاجم الاماكن المقدسة الاسلامية كاجراء مضاد وفى نهاية الرسالة طلب من البابا التأييد الدينى والاوروبى فى صراعه مع المماليك . (١)

اتبع البرتغاليون بعد ذلك من قواعدهم المكتسبة بافريقيا الشرقية وآسيا سياسة متأنية ،وفى المدى القصير سياسة ناجحة للغاية فى ازالة جميع المصالح الاسلامية من تجارة التوابل ،وكتب معاصر مبتهج برتغالى " ضيق الخناق على محمد فلا يستطيع أن يتقدم الى الامام بل يفر بقدر استطاعته ... ،والحقيقة ان محمد سوف يدمر ،ولا يستطيع ان يفر عن ذلك ...... " (٢) .

تدفقت التجارة الشرقية على لشبونة العاصمة البرتغالية ،وطاف مبعوثيهم فى اسواق اوروبا لاستمالة شركاتها التجارية الى لشبونة ،وتنازلوا عن الكثير من ارباحهم وعن الرسوم الجمركية تشجيعا لوصول تجار اوروبا الى اسواقهم وخطوا خطوة لتدعيم مركزهم التجارى فى شمال اوروبا بتوزيع المنتجات الشرقية بأنفسهم وخاصة فى الاراضى الالمانية وبنفس الاسعار امعانا فى هدم تجارة مصر .(٣)

ادرك البرتغاليون جدوى فصل البندقية عن دولة المماليك فى سبيل ضرب

---

(١) نعيم زكى فهمى : مرجع سبق ذكره ص ٧٨ .

2- Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P.107 .

(٣) نعيم زكى فهمى : نفس المرجع ،ص ٧٢ .

اقتصادها ،خاصة وانها لم تكن تتورع عن تقديم اى عون يحتاجه المماليك[١]،
فأرسلوا وفداً للبندقية ،يعرض على حكومة الدوج وهيئة التجار لتسهيل حصولهم على حاجتهم من التوابل والسلع الشرقية من اسواق لشبونة على ان يقوم البنادقة بتوزيعها بأنفسهم فى اسواق اوروبا كما كانوا يفعلون ،بدلا من اصرارهم على ارتياد اسواق مصر المرتفعة الاسعار والتى بدأ ينضب معينها ،ولكن كبرياء البندقية وعظمتها منعاها من الاستجابة لهذا النداء ،حتى لا توقع بنفسها صك تبعيتها التجارية للبرتغال ولكنها فى الوقت نفسه لم تغفل ارسال مبعوثيها الى لشبونة لجمع المعلومات الكافية عن رحلات الهند المباشرة ومواعيد مغادرتها وقدومها ،ومراقبة مشروعات البرتغاليين المستقبلية ،ومعلومات عن طبيعة الطريق الجديد .[٢]

من خلال ذلك اتضحت اهداف البرتغال الاقتصادية ،وبصورة ادق ضد مصر من خلال ما دار من مناقشات بين البنادقة والبرتغاليين ،حددوا فيه اهداف بلادهم الاقتصادية ضد مصر والتى تتلخص فى النقاط التالية :
أولا : الضرب على ايدى التجار العرب والمصريين والاقلال من ثروتهم وبالتالى حتى يتمكنوا فى الانتقام منهم سياسيا ودينيا ،ثانيا : فتح باب جديد لثراء البرتغال وسيطرتها على الشرق وتجارته ، ومن هنا نرى ان الروح الكاثوليكية كانت تسيطر على كافة المشاريع البرتغالية فى المشرق الاسلامى ، لان المذهب الكاثوليكى هو اقدم المذاهب المسيحية الاوروبية ،والذى حمل الراية التقليدية فى حقد الاوربيين على الاسلام ،وباعتبار البرتغاليين انهم انفردوا بالامر فى المشرق ،فقد ظهر عليهم ذلك الحقد الدفين من خلال ما قاموا به من مجازر ومذابح اينما حلوا .[٣]

وازدادت البضائع الشرقية فى البرتغال ،وقام اتصال مباشر مع المنتجين للتوابل ،وافتتحت اسواق جديدة للبضائع الاوروبية وكانت المبادلات التجارية

---

(١) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٢٠ .
(٢) نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ،ص ٧٢ .
(٣) غسان على رمال : نفس المرجع ،ص ٢٢٠-٢٢١.

مدفوعة بالذهب الخالص والفضة ، التى بدورها ساعدت على امتداد التجارة مع الشرق [1] كما تدفقت بضائع الارض الجديدة واخذت القوة الاقتصادية دفعة كبيرة ،ومن اهم تلك الاشياء التبغ والبطاطس ،بالاضافة الى السكر وفوق كل ذلك كانت هناك بضائع اثرت تأثيرا مباشرا على الحياة الاقتصادية مثل المعادن النفيسة [2] تضخمت الارباح لدى البرتغاليين نتيجة لتدفق البضائع الشرقية وبضائع الارض الجديدة فى الامريكتين بالاضافة الى التدابير الاقتصادية التى اقيمت ضد العالم الاسلامى كل ذلك ادى الى قيام نشاط رأسمالى كبير ،بالاضافة الى قيام البيوت المالية والمجتمع المالى بدلا من المجتمع الزراعى والاقطاعى ولعل ذلك موءشرا واضحا لقيام العصور الحديثة وانتهاء العصور الوسطى ليس ذلك فى البرتغال وحده وانما يضاف اليها غرب اوروبا .

وافتتح الملك البرتغالى مستودعات تجارية تمونها لشبونة ،ومن ثم تقوم بتوزيعها على كافة الدول الاوروبية ومن اهم تلك المستودعات هى أنثورب فى الاراضى المنخفضة و انتورب اشتهرت ، بمهمة توزيع التوابل على السواحل الشمالية لاوروبا ، وبلغ من ثراء البيوت المالية بها ان عمدت الى مد البرتغال بالاموال اللازمة لاعداد الحملات الى الهند ، اما انفرس فقد اشتهرت بانها اكبر مركز تجارى فى اوروبا ،ذلك ان لشبونة كانت تعتبر المخزن الرئيسى ، اما انفرس فكانت بالنسبة للبرتغاليين السوق الرئيسية لتوزيع تلك الاطنان الكبيرة التى كانت تصل الى ارصفة ميناء لشبونة .

قامت الحكومة البرتغالية لتدعيم الخطة الاقتصادية بوضع نظام دقيق لتجارتهم ،فكانت هناك حكومة دول الهند وهيئات مكلفة بالادارة الاقتصادية فى لشبونة ، التى كانت تشرف على تحديد الاسعار للسلع المصدرة واصبحت تجارة بعض السلع خاصة بالتوابل احتكار لملك البرتغال ،ولا يحق لاحد المتاجرة بها دون تصريح برتغالى بعد دفع الضرائب ،حيث تصل الى لشبونة ومنها توزع

1- H.G.Koenigs Berger and Georg Mosse : Europe In the Sixteen Century P. 46 .

2- Sir George Clark : Early Modern Europe P. 74 .

الى اوروبا .(١)

انتهى نتيجة لذلك دور رجال البندقية والعرب كموردين للسوق الاوروبى على الرغم من خبرتهم الطويلة وامتلاكهم لطريق قصير فى البحر الاحمر والخليج الفارسى ،فاعتقد الخبراء فى البداية ان التوابل ستتلف اثناء الرحلة الطويلة حول رأس الرجاء الصالح ، الا أن البرتغاليين الذين تورطوا فى حروب بحرية لا آخر لها مع العرب فى المحيط الهندى وجدوا ان ما فوق روؤسهم يتصاعد وفى النهاية تحول النصر الى حقائق صعبة من الكفاءة البحرية والتجارية .(٢)

امتدت الامبراطورية البرتغالية ،واستقرت فى الارض التى امتلكها فاستهلكت الثروة التى جمعوها ،فقد عانى الملك البرتغالى من ذلك ،اذ كان مسئولا عن دفع مرتبات الجنود والموظفين الاداريين وموظفى الجمارك والمحاسبين والذين يشكلون اساس هيئة الموظفين البرتغالية ،وكانت اعباؤهم جسيمة مما اضطر الملك البرتغالى الى تخفيض مرتباتهم ولكن هذا شجع الموظفين البرتغاليين على الاشتغال فى تجارة السوق السوداء فتستروا على التهريب حتى يوفروا العملة لهم ،ومع الايام الاولى كان الثراء الشخصى الهدف الرئيسى للذين يديرون دفة الامبراطورية ولا يستطيع التاج ان يفرض بطريقة عملية سلطتة على الموظفين المخفضة رواتبهم والمنتشرين على نصف العالم (٣) ،وبصفة عامة كان لتحول التجارة عبر رأس الرجاء الصالح اثره الفعال فى ازدهار امم وانهيار امم ،والواقع انه كان ازدهار لاوروبا التى انتقلت من العصور الوسطى الى الحديثة ،وكان ازدهارها فاق العالم الاسلامى قبيل تحول التجارة عبر رأس الرجاء الصالح ، ففى السابق كانت سلع الهند تأخذ طريقها عبر الخليج الفارسى والبحر الاحمر ،وما ان تصل الى موانىء الدولة المملوكية فى مصر والشام حتى تكون السلع قد بيعت باضعاف سعرها من مصدرها ،واصبح الفرق هنا ان البرتغاليين هم اول من تلقى ارباح وصول

---

(١) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٢١-٢٢٢.

2- H.G.Koenigs Berger and George .L.Mosse : Europe in the sixteenth Century P.47 .

3- Roger Lockyer : Habsburg & Bourbon Europe P.38 .

التجارة الى موانيهم ومن ثم قاموا بتوزيعها فى اوروبا بأسعار مخفضة اقل كثيرا من اسعارها خلال العصر المملوكى .

بهذا العرض استكشفنا ان الدولة العثمانية كانت فى هذا العصر من تاريخها فعلا فى مفترق الطرق ،وبدا لنا حجم التحولات والاخطار الطائلة التى تعرض لها العالم الاسلامى وخاصة على حدوده الجنوبية ، وكان على العثمانيين ان يضعوا خططهم لاسترداد الاندلس ،خلال ذلك الخضم من التطورات التاريخية التى انتقل فيها التوازن الدولى من البر الى البحر .

...

الفصل الثالث

(الفصـــــــل الثالـــث)

" شارل الخامس والامبراطورية الرومانية المقدســـة "

أ ـ الاستعمار الاسبانى فى امريكا الوسطى والجنوبية ـ تدفق الفضـــة على اسبانيا .

ب ـ اثر ظهور البروتستنتية فى شمال اوروبا .

النشاط الكاثوليكى المضاد ـ الروح الصليبية .

ج ـ الجيوب الصليبية على الساحل الافريقى العربى الشمالى .

د ـ اهداف شارل الخامس الصليبية فى الحوض الغربى للبحر المتوسط .

****

كانت جنوة قد استولت على مدينة جيجل فىاواسط القرن الرابع عشر،ووضعت بها حامية ،وجعلت منها مركزا للتبادل التجارى بين ايطاليا وافريقيا ،ثم تضاءل اهمية المركز التجارى شيئا فشيئا ،وتغلب اهل البلاد على الحامية .(١)

بدأ السباق البحرى (الجهادى ـ القرصنى) بعد ذلك على السواحل المغربية وقد تغلق اساسا بالمقاومة الاسلامية المغربية بالاندلس ،حتى انه كان احد الاسباب التى وقفت وراء احتلال البرتغال لسبته (٢)،وكانت مدينة سبتة تتحكم فى المضيق كمركز لاغاثة دول الاسلام بالاندلس ،كما كانت من الناحية التجارية المركز الاول فى هذا المضيق تؤمه سفن التجارة من اجل المرافىء الاسلامية الشرقية والاندلسية وغيرها فكان الاستيلاء عليها يسيل لعاب البرتغال الطامعين فى الاسواق الخارجية ،ثم بدأت اساطيل البرتغال تحاول تحقيق تلك الاهداف ،فتوجهت صوب سبتة التى اشتبكت مع رجالها فى حرب مستميتة ،سقطت بعدها المدينة بين ايديهم ،ورفعوا بها علمهم وتركوا بها حامية ،وكما هو معهود فى البرتغال فى اقامة التحصينات الفولاذية فى مواقعها من البلاد التى تتعرض لاحتلالها ،فقد اقاموا تحصينات دفاعية فى سبتة اثر احتلالهم لهما .(٣)

كان احتلال البرتغاليين لهذا الموقع الاستراتيجى الهام امرا بالغ الخطورة للمسلمين ،لان احتلال البرتغاليين لهذه المدينة كان من بين الاسباب التى اعاقت سكان شمالى افريقية عن تعزيز القوات الاسلامية فى الاندلس عن طريق بوغاز جبل طارق ،ولذلك حرص البرتغاليون والاسبانيون من بعدهم على الاحتفاظ بهذا الموقع ثم احتل البرتغاليون مدينة طنجة فى غربى سبتة لاحكام الحصار حول المعبر الجنوبى لشبه جزيرة ايبيريا عن طريق بوغاز جبل طارق .(٤)

---

(١) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٦٦ .
(٢) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره،ص ٢٦٥ .
(٣) محمد بن تاويت : تاريخ سبتة ،ص ١٧٥ ـ ١٧٦ ـ ١٧٩ .
(٤) عبد العزيز الشناوى : مرجع سبق ذكره ،جـ٢ ، ص ٩٠٠ .

ازدادت حركة النزول البرتغالى عنفا ،فجهز الملك البرتغالى الاوفونش الخامس اسطولا كبيرا ونزل بالقصر الصغير بين سبتة وطنجة [(١)] ثم استقل البرتغاليون الاضطرابات الداخلية فى المغرب وتمكنوا من اخذ اصيلا عنوة معززين بأربعماية وسبع وسبعين سفينة وثلاثين ألف رجل واضطر محمد الشيخ الوطاس الى عقد اتفاق يقضى باقامة هدنة مدتها عشرون سنة تقضى بعدم الهجوم على المراكز البرتغالية المحصنة وتلقب ملك البرتغال بعد ذلك بلقب :

(Rei de Portugal Ados Al Garves Daqueuse dalem mor en A fric)

ولم يتمكن السلطان الوطاس رغم حزمه من بسط نفوذه الا على جهة فاس ،اذ خرج على طاعته البربر فى الجبال واصحاب الطرق الدينية فى الجنوب ،ولم ينفك البرتغاليون يواصلون زحفهم بلا انقطاع رغم ما اظهرته الزوايا من حماس فى مقاومة الكفار ،واعترف القشتاليون للبرتغاليين بمقتضى اتفاقية بحقهم المطلق على ساحل افريقيا المواجه للجزر الخضراء " جزر كناريا بما فيه مملكة فاس ،كما مكنوهم من احتكار التجارة ورغم فشلهم الذريع فى الاستيلاء على جزيرة لكوس (Loukkos) فانهم تمكنوا من تحصين مراكزهم الاربعة فى سبتة والقصر الصغير وطنجة واصيلا [(٢)] ، وهكذا نجحت البرتغال فى التطور بهذه العلاقات من معالم الصفحة التاريخية (الجهادية – الصليبية) الى معالم الجاذبية الاستعمارية فى معاملاتها التجارية والسياسية مع شيوخ القبائل والسلطات المغربية وظهرت معالم هذه السياسة واضحة عندما عقدت الاتفاقية السابقة مع محمد الوطاس ،كما طبقت البرتغال وبنجاح ذلك الاسلوب من المعاملات فى الجنوب المغربى ،واتخذت من علاقاتها التجارية بالقبائل حول ازمور واسفى واكادير مدخلا اساسيا لفرض حمايتها السياسية والعسكرية على شيوخ هذه القبائل ،ومن ثم مقدمة للتوسع فى سلسلة جيوبها الاستعمارية فى هذه المدن الساحلية . [(٣)]

ازداد انحلال دول شمال افريقيا وتفاقم الامر اثر الخلافات بين الجزائر والمغرب وتونس وبين سكان الجبال والسهول ،وبين السكان الاصليين والوافدين

---

(١) محمد العمروسى المطوى : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٦٣ .
(٢) شارل اندرى جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ،جـ٢ ،ص ٢٥٤ – ٢٥٥ .
(٣) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ،ص ١٢٠ .

الجدد من الاندلس ،وفي الواقع كانت شمال افريقيا ارضا غير مناسبة للحرب ،كما ان سكانها كانوا غير ملمين بوسائل قشتالة الحديثة ،فاستغل الاسبان تلك الخلافات الداخلية وامكانياتها في الاخذ بنصيبهم في الشمال الافريقي .(١)

كانت هناك عوامل اخرى دفعت الحكومة الاسبانية الى تأسيس جيوب صليبية على سواحل شمال افريقيا ،ونتيجة ازدياد الروح الوطنية بين الاسبان بعد ان تمكنوا من القضاء على الدويلات العربية في الاندلس واخراج العرب منها ورغبة الاسبان في مطاردتهم للتنكيل بهم ومطاردة معتنقي الاسلام اينما وجدوا علاوة على ذلك فان الاسبان ورثوا الحضارة العربية ،التي كانت قائمة في بلادهم وعرفوا التكتيك العربي بعملهم في السفن العربية وبسبب ذلك تمكنوا من اكتشاف امريكا وادى هذا الى شعور الاسبان بالقوة والسيادة ،كما رغب الاسبان في احتلال قواعد في الشمال الافريقي لامتلاك الموانى والاسواق التي يستطيعون منها احتكار تجارة المعادن النفيسة والتوابل التي ترد اليها عن طريق القوافل من وسط افريقيا ،ولمزاحمة المدن الايطالية جنوة والبندقية والتي استغلت واحتكرت التجارة بين الشرق والغرب مدة طويلة .(٢)

توفرت لدى الاسبان ومن قبلهم البرتغاليين الاسباب الكافية لمحاولة مد نفوذهم الى المغرب وقد عزز من هذا الاتجاه الاوضاع الداخلية في البلاد ،اذ كان الحكام في تلك البلاد في حالة من الضعف والعجز لا تسمح لهم بمقاومة تذكر للتعديات البرتغالية والاسبانية .(٣)

جهزت اسبانيا بضغوط من الكنيسة ،وتشجيع من الراهب خيمنيس اسقف طليطلة جيشها واسطولها لغزو المغرب العربي ،وبادر البابا باصدار قرارا يعطي به الولاية لملكي اسبانيا على كامل الارض التي يفتحانها بهذا الغرب ،كما سبق

1- J.H.Elliott: Imperial Spain P. 41 .

(٢) حسن سليمان محمود : ليبيا بين الماضي والحاضر ،ص ١٥٩ .

(٣) ب . ج . روجرز : تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية حتى عام ١٩٠٠،ص ٣٨.

وان اصدر البابا نفسه اسكندر الرابع عهدا يبارك به الصليبية الاسبانية بافريقيا ،عندما بدأ التفكير الجدى فى احتلال المغرب العربى [١] كما سمح البابا بمداومة جباية الضرائب لتغطية تكاليف تلك الحرب .[٢]

تم الاتفاق بين اسبانيا والبرتغال على تقسيم شمال افريقيا وذلك بمقتضى معاهدة توردى سيلاس والتى قسمت بمقتضاها المغرب الى منطقتين الاولى تقع شرق حجر باديس ويتولى الاسبان فيها بمهمة الاستيلاء عليها ،والثانية تقع غرب هذه النقطة وقد تركت للبرتغال [٣] ،وكانت تلك المعاهدة قد طبقت فيها النظرية الاستعمارية وهى ان كل طرف لا ينازع الطرف الاخر فى وصوله للهند وهى من سمات العصور الحديثة .

كان الملوك الكاثوليك يبعثون بالمسافرين الموالين لهم لدراسة سواحل الشمال الافريقى واستهوتهم مليلة فاقنعوا البرتغاليين الذين خصتهم المعاهدة السابقة بكامل مملكة فاس بالتخلى عنها لقائدهم ،وبعد استقرار الامور فى اسبانيا احتلها دوق مدينة شذونة (Sidonia) بدون اية مقاومة ،ومن هناك تتبع الاسبان تفاقم الصراع بين الوطاسيين والاشراف السعديين .[٤]

اهملت اسبانيا الجبهة الجديدة ضد الاسلام فى الشمال الافريقى لفترة موءقتة واكتفت فى البداية بالاستيلاء على مليلة وكان الاسبان قد خافوا ان يعيد عليهم المسلمون الكرة من جديد ،ويستردوا مجدهم السابق ،وكان خوفهم على الاخص ان تمتد يد المساعدة الاسلامية من الشمال الافريقى لاولئك المسلمين المقاومين الذين قوض الاسبان سلطاتهم ،ولجأوا الى جبال البشرات بدينهم وايمانهم وعزمهم يزودون عن الاسلام بسلاحهم حتى الموت .[٥]

---

(١) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٨٠ – ٨١ .
2- J.H.Elliott: Imperial Spain P. 41 .
(٣) محمد بن عبدالسلام ابن عبود : تاريخ المغرب ،ج٢ ،ص ١٥ .
، صلاح العقاد : المغرب العربى ،ص ١٥ – ١٦ .
(٤) شارل اندرى جوليان : مرجع سبق ذكره ،ج٢ ،ص ٢٥٥ .
(٥) احمد توفيق مدنى : نفس المرجع ،ص ٨٤ – ٨٥ .

قامت الانتفاضة الاولى للمسلمين فى منطقة البوشرات ،وبمجرد قيامها تيقنت اسبانيا بالخطر الداهم عبر شمال افريقيا واشعل ذلك الشعور الدينى الى قيام حماس الاوروبيين ونشأة متطلبات جديدة لاقامة حرب صليبية ضد الاسلام ،وساند الاساقفة الدينيين الملكة هذا الشعور، الا انه لم تتخذ اية خطوة ايجابية حتى وفاة ايزابيلا ولم يبق سوى تنفيذ وصيتها الاخيرة الى زوجها وهى ان يكرس جهوده فى فتح افريقيا وعلى ما اسمته حرب الايمان ضد العرب .(١)

توالت الهجمات المسيحية على الشمال الافريقى وصارت الحالة تدعو الى اليأس فكانت فى اشد الحاجة للانقاذ لاسيما وقد تجددت الدعوة فى اوروبا الى اتحاد المسيحية لتجديد الحرب الصليبية وتنفيذ وصية ايزابيلا .(٢)

قامت حكومة مدريد بأول محاولة لتنفيذ تلك الوصية واختير ميناء المرسى الكبير فى غرب الجزائر لنزول اولى هذه الحملات الاسبانية ،ويبدوا ان اختيار هذا الميناء كان ردا على غارة قام بها بحارته على شاطئ بلنسية (٣)،علاوة على ذلك اهمية الميناء التجارية ،اذ كان من عادة سفن البندقية ان تلجأ الى المرسى الكبير عند تلبد الجو ،وترسل بضائعها فى قوارب الى وهران واذا كان الجو صحوا قصدت ساحل وهران مباشرة (٤) كما يعتبر ميناء المرسى الكبير قاعدة استراتيجية لها اهميتها فى عملية تسهيل الهجوم على وهران من قبل الاسبان .(٥)

ابحرت الحملة الاسبانية من مالقة ٧ ربيع الاول ٩٠٩هـ / ٣ سبتمبر ١٥٠٥م ، متوجهة نحو الشاطئ الجنوبى للبحر المتوسط ورست تجاه المرسى الكبير الذى احتلته فى ١٤ ربيع الاول / ٩ سبتمبر ،ثم كانت بعدئذ معركة قرية مسرغين

1- J.H.Elliott: Imperial Spain P.P. 41 - 42 .

(٢) محمد الهادى العامرى : تاريخ المغرب العربى فى سبعة قرون ،ص ١٨٦.

(٣) صلاح العقاد : مرجع سبق ذكره،ص ١٧ .

(٤) الحسن بن محمد الوزان : وصف افريقيا ،جـ٢ ،ص ٣١ .

5- J.HElliott: Imperial Spain P. 42.

الواقعة على بعد خمسة عشر كيلو متر من وهران ،وانهزم الجيش الاسبانى ،وفر الى المرسى الكبير ومعتصمين بأسواره ،ثم توالت الحروب والهزائم الاسبانية على السواحل المغربية [١]،واتجه اهتمام الحكومة الاسبانية وعلى رأسها القائد (Cisneros) الى الاوضاع الداخلية والحروب الايطالية .[٢]

وجه فرديناند الكاثوليكى ملك الارغوان اهتمامه الى الحروب الايطالية لان مسألة افريقيا كانت تحتل المرتبة الثانية بالنسبة له وعندما ظهر الكساد على الشئون الايطالية بعد ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م ،كان على فرديناند ان يتدخل وبشكل حازم فى افريقيا ولكن بعد دراسة حساب وضعية الخزينة والتى لا تسمح بتدخلات حربية لا مغنم منها ،لذلك لم تكن السياسة الافريقية مستقلة بذاتها ،ولا يمكن فهمها بدون ربطها بسياسة اسبانيا العامة .[٣]

كانت سواحل اسبانيا عرضة لغزوات المسلمين ،والتى كانت تنطلق بصفة خاصة من وهران والجزائر وبجاية ،ولذلك كانت تخرج المراكب الاسبانية تغزو سواحل افريقيا الشمالية وتنهبها ،وكان احتلال الشمال الافريقى قد بدا شيئا ضروريا للاسبان ،تدعو اليه اسباب سياسية واقتصادية ،وفى نفس الوقت اسباب دينية .[٤]

تولى بيدرو نافارو (Pedro Navarro) قيادة الاساطيل الاسبانية فقام بالاستيلاء على حجر باديس (Penon de Velez) الواقعة فى سواحل المغرب الاقصى سنة ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م ،وفى العام التالى هاجم وهران ونجح [٥] فى اقتحام اسوارها بسهولة لخيانة القائدين المسئولين عن حراسة وهران ،ثم قام الاسبان بارتكاب اعمال وحشية اشرف عليها الكاردينال خيمنيس اسقف طليطلة بنفسه فقتل اربعة آلاف واسر ضعف العدد ،وقام بتحويل مسجدين الى كنائس وعين دون دييجو قائدا عاما لمدينة وهران والمرسى الكبير ومملكة تلمسان ويدل ذلك على ان الاسبان كانوا مصممين على احتلال تلمسان ،ولكن النفقات الكثيرة حالت دون

---

(١) عبد الرحمن الجيلانى : تاريخ الجزائر العام ،ج٢ ،ص٢٠٣ .

(٢) 2- J.H.Elliott: Imperial Spain P. 42 .

(٣) شارل اندرى جوليان : مرجع سبق ذكره ،ج٢ ،ص ٣٢٤ .

(٤) اتورى روس : ليبيا منذ الفتح العربى حتى ١٩١١م ،ص ١٣٩ - ١٤٠ .

(٥) جلال يحيى: "مرجع سبق ذكره ،ص ١٥ .

توسيع دائرة الاحتلال (١)،وكانت الدولة الزيانية فى تلمسان قد بلغت ارذل العمر حيث لم يعد نفوذها يتجاوز اطراف المدينة ،بينما تكونت امارة قبلية متعددة فى شرق المغرب الاوسط وجنوبه ،لا تهتم بغير التطاحن فيما بينها ،لذلك لم يجد الاسبانيون صعوبة فى الاستيلاء على اهم الموانى المرسى الكبير ووهران ومن بعدها تنس وبجاية والجزائر ومستغانم (٢) ،وكان سقوط المرسى الكبير ووهران خسارة عظمى لمملكة تلمسان ،حتى ان الشعب طرد الملك ابا حمود وعينوا احد اعمامه واعمام ابيه ابى عبد الله المدعو ابا زيان ،ولم يعد تجار البندقية يقصدون وهران لكونها مليئة بالجنود الاسبان ،فطلب منهم اهل تلمسان أن يأتوا الى هنين . (٣)

انطلقت السنة العلماء والشعراء بتوجيه الدعوة الى الولاة والرؤساء وامراء القبائل لانقاذ وهران من هذا الاحتلال الغاشم والعودة باللائمة على مشايعى الاسبان من بنى عامر الذين ساعدوا فى الاحتلال الاسبانى وهذه قصيدة الشيخ ابى العباس احمد بن القاضى تخبر بذلك :

فمن مبلغ عنى قبائل عامر ... ولا سيما من قد ثوى تحت كافر
وكل كمى من صناديد راشد ... يتيجانهم مع رأسها عبد قادر
وجيرانهم في الغرب من كل ماجد ... طويل القنا اهل الوفاء والمغافر
وطلحة والاحلاف فى غرب هذه ... وشيخ سويد بل وكل مفاخر
وشيخ بنى يعقوب والكمى الفتى ... بكل قبيل مولع بالعساكر
ويا معشر الاسلام فى كل موطن ... وفى كل ناد سالف ومعاصر
ويا سادة العربان من آل هاشم ... وغيرهم بالله ما صبر صابر ؟
ويا معشر الاتراك يا كل عالم ... وكل ولى حافظ لك وآمر
اناشدكم بالله ما عذر جمعكم ... لدى الله فى وهران امر الخنازر..الخ (٤)

وهكذا تتجدد الاستغاثة مرة اخرى بالدولة العثمانية القائمة

---

(١) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٠ .
(٢) محمد حجى : الحركة الفكرية بالمغرب فى عهد السعديين ،ج١ ،ص ٣٨ .
(٣) الحسن بن محمد الوزان : مرجع سبق ذكره ،ج٢ ،ص ٩ .
(٤) عبد الرحمن محمد بن الجيلالى : مرجع سبق ذكره ،ج٢ ،ص ٢٠٤ .

بالفتوحات الاسلامية لانقاذ معقل آخر من المعاقل الاسلامية ،وفى هذا الوقت كانت الدولة تواجه الخطر الصفوى فى الشرق ،علاوة على ذلك تريد ان تؤمن ظهرها فى الدانوب ،وتعزز فتوحاتها فى شرق اوربا .

تسبب احتلال ساحل افريقيا فى عامى ٩١٥ - ٩١٦ هـ / ١٥٠٩ - ١٥١٠م فى زيادة الخلافات بين فرديناند وسينروس (Cisneros) فى التوغل داخل افريقيا حتى مشارف الصحراء الكبرى وتأسيس دولة اسبانية موريتانية فى افريقيا بدافع من روح الحرب الصليبية ،ومن ناحية اخرى لم يبد الملك الكاثوليكى اهتماما كافيا للمسألة الافريقية ،واخذ فى الاعتبار القيام باعمال حربية لحماية ايطاليا وقطع سينروس (Cineros) كل اتصالاته مع الملك،وانسحب الى جامعة الكالا (Al Cala) سنة ٩١٥هـ/١٥٠٩م ،وسيطرت بعد ذلك سياسة فرديناند حتى نهاية حكمه .(١)

اخذ الاسبانيون فى ارهاق الجزائريين والتضييق عليهم بفرض الضرائب الباهظة على مكاسبهم التى تأتيهم عن طريق البحر ،كما فعلوا كذلك بسائر السواحل الجزائرية فضاق الجزائريون بهؤلاء الاسبان ذرعا وسئموا من هذه الاهانة والذل (٢) ولكن لم تكن لديهم المقدرة للمقاومة .

قام الجزائريون بتسليح انفسهم واغاروا على الجزر الاسبانية ميورقة ومنورقة ووصلوا بغاراتهم الشواطئ الاسبانية نفسها ،لذلك ارسل الملك الكاثوليكى اسطولا كبيرا لحصار الجزائر ،فشيدوا قلعة كبيرة فى جزيرة مقابلة تماما لمدينة الجزائر وكلف القائد بيدرو نافارو احد قواده بتشييد برج (Penon) ويقوم بقذف المدينة بالمدفعية ،فاضطر اهل الجزائر بايفاد سفارة الى اسبانيا تطلب الهدنة مقابل بعض الخراج ،فقبل الملك

1- J.H.Elliott: Imperial Spain P. 42 .

(٢) عبد الرحمن بن محمد الجيلالى : مرجع سبق ذكره،جـ٣ ،ص ٣٩ .

الكاثوليكى ذلك ،وعاشوا فى السلم بضعة اشهر [1] .

كان البجائيون اناسا طيبين يميلون الى المرح والموسيقى لاسيما الامراء منهم الذين لم يشهروا الحرب على احد ،وقد ظهر ضعفهم واضحا عندما جاءهم الكونت بيدرو نافارو ببعض سفن النقل فى ٢٣ رمضان٩١٥هـ/٥ يناير ١٥١٠م ،فروا الى الجبال المجاورة حاملين معهم كل ما يملكون دون ان يبدوا مقاومة ،واخذ الكونت بيدروا نافارو المدينة ،وشيد قلعة اسبانية فى موقع هام ،كما حصن القلعة القديمة المجاورة للبحر .[2]

احدث سقوط بجاية فى البلاد الاسلامية اسى عميق لقرب العهد بين سقوطها وبين نكبة وهران وساد القسم الشرقى من البلاد نوع من الهلع والخوف وبادر السلطان الحفصى بتونس ابو عبد الله عم المتوكل باسترضاء الملك الاسبانى والتقرب اليه واعلن تبعيته لاسبانيا ،كما فعل ملك تلمسان فى السابق عندما سقطت وهران وتعهد بدفع جزية سنوية للملك الاسبانى ،كما تمكن الملك عبد الله ملك بجاية الشرعى والذى سبق وان خلع من مغادرة سجنه ،وسار به البعض الى انصاره ثم قابل بيدرو نافارو واعلن الولاء لاسبانيا ،وقرر بيدرو نافارو انيقسم صف المسلمين وان يضرب بعضهم ببعض بمساعدة الملك عبد الله ،فهاجم المسلمين فى بعض المعاقل وتمكن الاسبان من المسلمين [3] ،ثم قام الاسبان بنهب بجاية ونقل جميع النفائس والمغانم الى اسبانيا فى ثلاثين مركب ،كما هدموا منار قصر اللوءلوء الذىيعتبر من اعظم آيات فن المعمار الجزائرى ،وحطموا قصر الكوكب والمسجد الجامع .[4]

صارت بجاية مدينة خالية من سكانها الاصليين ولا يوجد بها الا رجال الحامية الاسبانية والمبعدين من اسبانيا والغير مرغوب فيهم ،الى جانب الملك عبد الله

---

(١) الحسن بن محمد الوزان : مرجع سبق ذكره،جـ٢ ،ص ٣٨ .

(٢) الحسن بن محمد الوزان : نفس المرجع ،جـ٢ ،ص ٥١ .

(٣) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٢٦ ــ ١٢٩ .

(٤) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٠ .

الذى لا يملك من الملك الا اللقب ،ويتولى امر الحاكم العام ،وبجانبه ممثل العدالة القاضى الاسبانى (Al Cade) وهو اشبه بمعاون الحاكم ،وهناك المشرف على الادارة المحلية المسمى الفيدور (Al Vudor) ومن مهام وظيفته تسلم الغنائم والاسلاب التى توءخذ اثناء الغارات على المسلمين والارسال بها الى التاج الاسبانى كما اعلن الملك الاسبانى حمايته للتجارة الاسبانية مع بجاية وفرض ضريبة مقدارها ٥٠ ٪ على الاقمشة الصوفية المستوردة من بجاية اذا لم تكن صادرة الى مرسى برشلونة ،كما اعلن الملك الكاثوليكى انه يجب ان تكتفى بجاية بمواردها الاقتصادية وان لا تتلقى اى اعانة مالية من اسبانيا ،سواء لدفع اجور الجيش او مرتبات الموظفين او للقيام باعمال دفاعية فكانت تلك الموارد عبارة عن الجزية والاتاوات التى فرضها الاسبان على امراء وشيوخ المسلمين ،وكانت تلك الموارد تكفى من الناحية النظرية لقيام الادارة المحلية بما هو مطلوب منها ولكن من الناحية العملية كان الامر مخالفا للواقع اذ ان المسلمين لم يكونوا يقبلون التعهد بدفع الجزية الا من اجل التخلص من الضيق وبصفة موءقتة ،فاشتدت الضائقة بالاسبان الى درجة فادحة .(١)

صارت اسبانيا اثر تلك العمليات سيدة الموقف دون منازع ،فيما بين بجاية شرقا ووهران غربا وصخرة الجزائر وسطا ثم ان القيادة الاسبانية والتى كانت تنفذ برنامجا دقيقا من اجل الاستيلاء على المدن الساحلية قد اخذت تضيق الدائرة فاحتلت مدينة عنابة وسلك الاسبان نفس الطريق فى السلب والنهب وانتهاك الحرمات ثم ترك بها حامية لحراستها .(٢)

وهكذا تمكن الاسبان خلال بضعة سنوات من السيطرة على النقاط الرئيسية من سواحل المغرب الاوسط وكان بامكانهم الاعتماد عليها للسيطرة على المغرب الاوسط كله مستغلين حالة الضعف والتمزق السائدة فيه ،لكنهم لم يفعلوا وظل احتلالهم ناقصا مقصورا على السواحل .(٣)

---

(١) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٣٦ – ١٣٨ .
(٢) احمد توفيق مدنى : نفس المرجع ،ص ١٤١ .
(٣) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ،ص ٢١ .

لم تكن مطامع الإسبان لتقف عند حد عنابة وما حولها من المدن الساحلية بل كانت ترغب فى ان تمتد سيطرتها الىابعد من ذلك الى مملكة بنى حفص ،فسار بدرو نافارو بعد ان وطد اموره فى مدينة بجاية وما حولها على رأس اسطول يرتاد الساحل التونسى لكى يجد نقط الضعف الذى تمكنه من النزول والتى يتخذ منها مركز لعملياته المقبلة ،لكن سكان مملكة بنى حفص التونسية كانوا قد اخذوا فى تعمير الثغور الساحلية وحراستها ، بعد ان انهالت نكبات وهران وبجاية فغير بدرونا فارو من خطته ورأى احتلال مدينة طرابلس الغرب ثم يتقدم نحو الشمال على الاراضى التونسية والذى يكون بين طرفى كلابة ،وكان اهل طرابلس يتصفون بالكفاح والصلابة .(١)

اتجه الاسطول الاسبانى الى جزيرة غوزو (Gozo) بمالطا ،وانضم اليه بعض المالطيين بصفة مرشدين ،ذلك لمعرفتهم بطرابلس وتولى الارشاد والبحرى المرشد المالطى جوليا نوأبيلا (Guiliono Abela) ،وكانت الحملة مكونة من ستين سفينة وحوالى مثلها مراكب شراعية ،وفى مالطا انضم اليها خمسة سفن مالطية مسلحة تسليحا جيدا ، وكان عدد الجنود حوالى خمسة عشر ألف جندى اسبانى وثلاثة آلاف ايطالى ،ومجموعة من المغامرين .(٢)

رسا الاسطول الاسبانى فى ميناء طرابلس ،ورتب الكونت بيدرو نافارو جيشه ثم فتح نيران مدافعه على المدينة ،وتمكن الاسبان من احتلالها ،ودخلوا الجامع الكبير فقتلوا فيه اكثر من الفى شخص ثم هاجموا القصر حيث اسروا والى المدينة وبعض الزعماء .(٣)

اثار احتلال طرابلس بهجة خاصة فى ايطاليا ،ودعا مندوب البلاط البابوى فى بولونيا فرانشيسكو اليدوس (Francessco Alidosi) المسيحيين الى

---

(١) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٤٣ - ١٤٤ .
(٢) اتورى روسى : ليبيا منذ الفتح العربى حتى سنة ١٩١١م ،ص ١٤٠ - ١٤١ .
(٣) حسن سليمان محمود : مرجع سبق ذكره ،ص ١٦١ .

تنظيم مظاهرة كبيرة تعبيرا عن فرحتهم وبهجتهم ،كما تبادل دوق البندقية التهانى مع ملك اسبانيا ،وفى روما نظم موكب دينى احتفالا بسقوط طرابلس ،وكان استقبال هذا النبأ عظيما يتناسب مع ما كانت تتمتع به طرابلس من سمعة باعتبارها مدينة غنية وقوية بحصونها ،وقد شجع ذلك ملوك اسبانيا على ان يدفعوا بحملاتهم نحو افريقيا ،ويبدو ان الحماس قد سرى الى الملك الكاثوليكى نفسه ،فرغب ان ينهض بنفسه الى قيادة حملة تهدف الى توسيع رقعة انتصاراته (١)

استاء المسلمون لسقوط طرابلس وقابله الطرابلسيون المقيمون فى الاسكندرية بعمل عدائى ضد الاسبان .(٢)

ورغبة فى ضمان استمرار السيطرة الاسبانية على طرابلس واتخاذها قاعدة للعمليات الحربية القادمة فى افريقيا نهض الكونت على الفور الى حملة ضد جزيرة جربة وبعد ان استلم دعما قوامه ثلاثة آلاف رجل بقيادة ديجو دى فيرا (Diego de Vera) غادر طرابلس فى ٢٢ جمادى الاولى ٩١٦هـ / ٢٨ اغسطس ١٥١٠م على رأس حملته وترك لحماية طرابلس والدفاع عنها حامية مكونة من ثلاثة آلاف رجل بقيادة الكولونيل سامايتجو (Samanyego) وبالومبينو (Palumbino) وقد حمل الكونت بدرونافارو معه اثنى عشر الف جندى ولحقت فى جربة سبعة عشر سفينة اسبانية بقيادة دون غارسيا دى توليدو (Garcia de Taledo) وعلى ظهرها ثلاثة آلاف رجل ،وجرت المعركة فى جو شديد الحرارة وانتهت الى كارثة حين اخذت القوات المسيحية تتهافت فى فوضى وتشتت على احدى الابار .(٣)

لم تضعف هزيمة جربة من شأن الانتصارات الاسبانية ، اذ ظلت المراسى التى لم تعرف الاحتلال خائفة من ان ينالها ما نال المرسى الكبير ووهران وبجاية وطرابلس ،وعرضت تنس دلس وشرشال ومستغانم دفع الاتاوة (٣)، كما عرض الوفد الجزائرى ٩١٧هـ - ١٥١١م ،على مجلس سرقسطة (Saragossa) تسليم اكبر جزر الجزائريين الصخرية للاسبان حتى يقيموا عليها معقلا يحرس تجارتهم ويضمن حرية مواصلاتهم البحرية ،ويجعل مدينة الجزائر نفسها تحت رحمة مدافعهم .(٤)

---

(١) حسن سليمان محمود : مرجع سبق ذكره ،ص ١٦١ .
(٢) اتورى روسى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٤٨ .
(٣) شارل آندرى جوليان : مرجع سبق ذكره ،ج٢ ،ص ٣٢٤ .
(٤) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٢٧ .

وهكذا وضعت اسبانيا لنفسها موضع قدم فى افريقيا ،كانت عبارة عن نقط ارتكاز امامية منعزلة للدفاع عن سواحلها الخاصة ،كما شيدت سلسلة من القلاع على طول الساحل الشمالى لافريقيا ،ولكن تحول الاحداث فى ايطاليا جعلت فرديناند يهمل فى تمديد دفاعاته الافريقية والاستيلاء على الاجزاء الداخلية للمغرب وهذه الفرصة التى فقدها لم تتكرر مرة اخرى (١) ولجأ الاسبان بعد ذلك الى الخمول ،واكتفوا بالاستيلاء على الشريط الساحلى الضيق مما تسبب في قيام القرصنة البربرية انطلاقا من القواعد المقامة على امتداد الساحل (٢) ،وعاشت القلاع والحصون الاسبانية فى حالة حصار طوال فترة الاحتلال الاسبانى ،وكانت حياة الجند شاقة جدا لانهم كانوا لا يجدون دائما ما يسد الرمق ،ولا يتقاضون مرتباتهم بانتظام ،ولجأوا الى نهب مواشى القبائل الرحل ،وبلغ يأس الجنود مبلغا جعلهم يفكرون فى ان يتحولوا الى مسلمين .(٣)

وهكذا حرص الاسبان على إخضاع سواحل شمال افريقيا ،لتتم لهم السيادة على الحوض الغربى للبحر المتوسط ،ولكى يقارعوا الاساطيل العثمانية التى صارت لها السيادة فى حوضه الشرقى (٤) ،وحتى يدافعوا عن سواحلهم من المجاهدين المسلمين الذين حرصوا على امداد اخوانهم فى الاندلس ،واستمر الامر كذلك حتى مجىء شارل الخامس الى عرش الامبراطورية الرومانية المقدسة ورأى فىوجود الجيوب الصليبية فى الشمال الافريقى حماية للحدود الجنوبية لامبراطوريته ،لذلك سارت سياسته على نفس النهج السابق ،لتحقيق اهدافه ،وهذا ما نلاحظه فى الفقرة التالية .

1- John Lynch : Spain under the Habsburgs Vol.1 P.93 .
2- J.H.Elliott: OP.CIT P.42 .
(٣) شارل آندرى جوليان : مرجع سبق ذكره ،جـ٢ ،ص ٣٢٥ .
(٤) محمد العمروسى المطوى : مرجع سبق ذكره ص ٢٦٦ .

شهدت سواحل غرب البحر المتوسط فى اواخر القرن الخامس عشر الميلادى صراعا اسلاميا صليبيا اتسم بطابع جديد ،حيث انتقلت المواجهة من البر الى البحر ،ونتج عنه قيام الطرفين بشن الغارات البحرية كل ضد الاخر ،وهو ما عرف عند الاوربيين باسم القرصنة ،والواقع ان ما كان يقوم به المسلمون لا يمكن ان نسميه بالقرصنة ،وانما بحركة الجهاد الاسلامى الذى تتطلبه الاوضاع الجديدة هناك ،ونتيجة لاضطراب العلاقات البحرية والتجارية المنظمة بين دول المغرب والدويلات المسيحية ،كذلك رغبة الاسبان فى تحرير انفسهم من خوفهم من فتح جديد للاندلس ،ومن هنا فانه لا يمكن تفسير ما قام به المسلمون الا انه رد فعل لما قام به سكان شبه الجزيرة الايبيرية من اضطهادهم واجبارهم على قبول التعميد والدخول فى المسيحية ،الامر الذى قوبل بالمقاومة من قبل مسلمى شبه الجزيرة الايبيرية واضطرت اعداد كبيرة منهم الى الهروب بدينهم .

وكانت الاوضاع فى غرب البحر المتوسط ملائمة لنشاط حركة الجهاد الاسلامى ،لان اسبانيا كانت ترى ان اهم ما يربط ممتلكاتها الساحلية هو ضرورة وجود عدد من الاستحكامات والقواعد البحرية الساحلية حتى تتمكن من التحرك والسيطرة ،الامر الذى أدى الى قيام المجاهدين فى شمال افريقيا بمهاجمة موانىء السواحل الاسبانية باستمرار والحاق الضرر بسفنها واقتصادها ،كذلك كان جبل طارق يمثل نقطة التقاء تجارة البحر المتوسط وتجارة بحر الشمال بحيث كان ميدانا هاما لتكثيف حركة الجهاد وقد تمكن هوءلاء المجاهدون فى بعض السنوات من اقفال طريق الملاحة فى جبل طارق ومنعوا سفن جنوة من الوصول الى الاراضى المنخفضة فى شمال غرب اوروبا ،وقد تكونت نتيجة لذلك مجموعة من المراكز البحرية الاسلامية امتدت من جربة الى مراكش ،شملت تونس ،بنزرت ،بجاية ،الجزائر ،وهران سلا، الرباط ،وجهزت كل مجموعة اسطولا خاصا بها للتجول فى البحر المتوسط ،حيث وجهوا اهتمامهم نحو تخريب ممتلكات العدو ،وسبى ما استطاعوا من رجال ونساء ومد يد العون والمساندة للمنكوبين من مسلمى

الاندلس [1] ،الذين ما ان استقر بهم المقام بعد ذلك فى المدن الافريقية حتى اخذوا يعملون على الانتقام من الاسبان الذين اخرجوهم من ديارهم [2] بتجهيز سفن القراصنة لمهاجمة السفن والسواحل الاسبانية .[3]

وكان المغرب فى هذه الفترة يعيش وضعية تفكك سياسى ،بلغ حدا من التدهور والانحلال لم يصل اليه قط قبل ذلك ،فالدول القائمة فيه شاخت واخذ زمام الامور يفلت من يدها تاركا المجال فسيحا للفتن الداخلية والباب مفتوحا للهجمات الخارجية ،وزاد من سوء حظ هذه البلاد انها تردت فى هذا الدرك السحيق ،فى وقت كان الغرب المسيحى يعيش نهضة كبيرة فى المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية ،وقد فتحت له الكشوف الجغرافية آفاقا واسعة فى امريكا ،والشرقين الاوسط والاقصى ،وجعلت الثروات الطائلة تتكدس بين يديه ، الامر الذى اغرى الدولتين المسيحيتين فى شبه الجزيرة الايبيرية بالانقضاض على افريقيا الواقعة فى طريق المستعمرات الجديدة ،خاصة المغرب الكبير الذى مازال رجال الكنيسة ،والملوك المتعصبون يدعون الى اكتساحه والقضاء على سكانه [4] ولتحقيق ذلك يجب استعمال جند كثيف يعيش على البلاد المحتلة ،فيخفف عن اسبانيا بذلك غائلة الخصاصة ومن المغرب العربى يقع الاتصال برا بافريقيا الوسطى وقد شاع يومئذ وذاع عنها انها بلاد التبر ،وان خيراتها لا تنضب لها معين ، زد على ذلك ان الاستيلاء على سواحل المغرب العربى يقضى القضاء المبرم على القرصنة الاسلامية التى نشأت على ضفافه ،والتى كانت تقابل العدوان بالعدوان وتستعيد لهوءلاء المنكوبين من مسلمى الاندلس بعض ما اخذ منهم ظلما وعدوانا .

ان التمكن من احتلال المغرب العربى ،يجعل الحوض الغربى من البحر المتوسط بحرا اسبانيا بحتا ،خاصة وانها كانت تملك الساحل الجنوبى

---

(١) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٩-٤٠.
(٢) محمد العمروسى المطوى : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٦٢.
3- Stanford Show : OP.CIT P. 96.
(٤) عبد الرحمان تشانجى : المسألة التونسية والسياسة العثمانية ،ص ٢٥-٢٦.
، محمد حجى : الحركة الفكرية بالمغرب فى عهد السعديين ،ج ١ ،ص ٣٧ .

الغربى من ايطاليا ،وتملك اهم الجزر التى فيه صقلية ،وسردينيا ،كورسيكا، الباليار ،فهى بذلك تستطيع تشكيل وحدة اقتصادية قوامها الاتصال المباشر بين شمال البحر المتوسط وجنوبه فى الحوض الغربى منه ،وتحمى بذلك سياسة (بحرنا) الرومية [١] ،وبدت تلك الحروب حربا صليبية ،لكن بأهداف واسلوب جديدين ،فوجدت تلك الحرب تشجيعا من الدوائر التجارية الناشئة فى غرب اوروبا والتى كانت تهدف الى السيطرة على التجارة العالمية وطرق ووسائل نقلها واشتركت رغبات رجال المال والاعمال الاوروبية الناشئة مع آمال الكنيسة فى السيطرة على الشواطئ الافريقية ثم النفاذ الى داخلها حيث يمكن للحركات التبشيرية ان تؤدى دورها فىخدمة المسيحية فى نفس الوقت الذى يمكن فيه تحقيق الاهداف التجارية .[٢]

ركزت اسبانيا والبرتغال حملتهم الصليبية فى عنف على المسلمين واخذت تقتفى آثار مسلمى المغرب فى حرب صليبية صاخبة مبيدة فى الجزائر والمغرب وتونس وتوغلت البرتغال فى المغرب ولم يجد مقاومة تذكر لانهيار المغرب فى هوة سحيقة من التفكك حتى ان بعضهم توسط فى فداء الاسرى وحاول ان يعقد معاهدة مع البرتغال مقابل المحافظة على حياتهم وممتلكاتهم فى هذه الحرب الصليبية الغاشمة .[٣]

تطورت الاوضاع فى اسبانيا وردد ملكها فرديناند فى آخر حياته القول بأن حلمه تحقيق السلام فىاوروبا والانطلاق بحملة صليبية كبيرة لاحتلال مصر التى كانت من اهم المراكز للقوة الاسلامية فى تلك الفترة ثم الاتجاه بعد قهر مصر الى القدس لاحتلالها هى الاخرى ،ولطالما حشد فرديناند الجيوش واكثر من بناء السفن لايهام الناس بأنه يريد غزو الساحل المغربى قبل ان يعدل عن رأيه فى اللحظة الاخيرة ويوجه جيوشه وسفنه لمقاتلة الفرنسيين فى ايطاليا، [٤]

---

(١) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٨٨-٨٩.

(٢) محمد عبدالمنعم الراقد : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٣٦.

(٣) محمد الهادى العامرى : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٢١.

(٤) عادل سعيد بشتاوى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٣٢ .

كانت تلك الاحداث تسير فى الوقت الذى كانت فيه الدولة العثمانية تدعـــم نفوذها البحرى فىشرقى البحر المتوسط لتنفيذ الجزء الثانى من خطتها لاسترداد الاندلـــس .

كان عام ٩٢٥هـ / ١٥١٩م بداية حلقة جديدة فى تاريخ العالم اكـــدت استمرار التقدم والتفوق العثمانى ،وفى تلك السنة كان كلا من شارل وفرنسوا مرشحين لوراثة الامبراطورية الرومانية المقدسة ،وكلاهما وعد باستخدام جميع القوى فى مناهضة العثمانيين ،وقد رأى الناخبون فى شارل انه انسب مـن فرانسوا فى تحقيق هذا الهدف مما تسبب فى اندلاع الحرب بين الملكيين المسيحيين واثناء هذه الحرب امكن للسلطان العثمانى سليمان القانونى ان يستولى على بلغراد بوابة وسط اوروبا وتبعها بالاستيلاء على رودس مفتاح شرق البحر المتوسط من ايدى فرسان القديس يوحنا [١] ،وبذلك ضمن السلطان سليمان الحصول على قاعدة يستطيع ان يوجه منها عملياته مباشرة ضد شـارل الخامس ،وحتى يكون الهجوم اكثر دقة كان لدى السلطان قائد له اهمية كبرى هو خير الدين باربروسا باعتباره تابعا للسلطان ،وباسم الاسلام وجه خيـر الدين كفاحه فى غرب البحر المتوسط حيث كان القائد لقـوة جديدة .[٢]

اراد شارل تأمين الجناح الايمن للامبراطورية الرومانية المقدسة ،وكان يعتبر طرابلس الغرب احدى عمينيه على العالم الاسلامى اذ كانت تعطى بعض الحماية الصقلية الاسبانية وللملاحة المسيحية فى وسط اوروبا ،كما احتاج شارل ان يربط املاكه فى ايطاليا باسبانيا [٣] ،وحتى يوءمن ذلك أبدى الامبراطور شـارل الخامس ترحيبه بطلب الوفد الذى بعثه رئيس فرسان القديس يوحنا بمنحهـم جزيرة مالطا ،بشرط ان تتولى المنظمة ـ فرسان القديس يوحنا ـ مهمة الدفاع

---

(١) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبـــق ذكـــره ،ص ٢٢٧.

2- John Lynch : Spain under the Hsbsburgs Vol .1 P.93 .

(٣) جون رايت : تاريخ ليبيا منذ اقدم العصور ،ص ٩٠.

عن قلعة طرابلس ومدينتها .

ترددت المنظمة فى قبول العرض بالحاق طرابلس ضمن سيطرتها ، الامـر الذى كان شرطا ثقيلا مقرونا بمنح مالطا ، وقد نصح المبعوثون الذين زاروا طرابلس سنة ٩٣١هـ/١٥٢٤م رئيس فرسان القديس يوحنا ، بعدم قبول هذه المهمة الثقيلة ، ومع ذلك فقد كان لابد من الاذعان لارادة الامبراطور ، وعدم اضاعة الفرصة التى تهيىء للمنظمة تنظيما يتلاءم مع تقاليدها واهدافها وقد استغرقت المفاوضات مدة طويلة حتى امكن الاتفاق النهائى ، وذلك لتوالى بعض الاحداث التى اذهلت شارل الخامس وصرفته عن التفكير فى طرابلس ، وهى الحروب الايطالية ، واخيرا وقع الامبراطور مرسوم التنازل عن طرابلس لفرسان القديس يوحنا فى كاستيل فرانكو بولو نبيترى (Costel Franco Bolognese) (1)

من خلال ذلك تتضح عدم مقدرة الامبراطور شارل الخامس فى تأمين الجناح الأيمن لامبراطوريته اذ مضى فى هذا الوقت لتدارك الاوضاع فى ايطاليا ، ووسط أوروبا نتيجة ظهور البروتستنتية وأزدياد نشاطها ، كما أن الهجوم الاسلامى فى وسط اوروبا وشمال افريقيا قد خفف نشاطه وذلك للالتفات الى الخطر البرتغالى القادم من الجنوب ، الذى ازدادت حدته على الاماكن المقدسة الاسلامية اذ بدأت البرتغال فى احتلال المراكز الاستراتيجية فى البحار الجنوبية للوصول الى مكة والمدينة ثم القدس ، وهنا كان مفترق الطرق بالنسبة للدولة العثمانية التى أخذت تؤمن الاماكن المقدسة بدروع واقية ، وتضع الخطط لذلك والامبراطورية الرومانية المقدسة التى انشغلت بالاصلاح الدينى ثم الحروب الدينية ، ولكن لفترة موقتة ، اذ أن الدولة العثمانية لم تلبث ان تعود لنشاطها فى البحر المتوسط لتنفيذ سياستها لاسترداد الأندلس .

---

(١) اتورى روسى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٨ - ١٦٠ .
، كان فرسان القديس يوحنا قبل ذلك قد نقلوا مقر قيادتهم ومركز نشاطهم الصليبى الى جزيرة رودس بعد طردهم مع فلول الصليبيين فى عهد دولة المماليك البحرية ، بعد ذلك طردهم السلطان سليمان القانونى عندما استولى على جزيرة رودس سنة ١٥٢٢م ." ٩٢٩هـ .

احتد النزاع الدينى فى اسبانيا وازداد شراسة ،ولما كانت المملكة الاسبانية تضم عدداً من السكان الموريسكيين الذين تعرضوا فى عهد قريب لمهانات عديدة نتيجة لحروب الاسترداد المسيحية ،وحيث أن الحكومة الاسبانية كانت متحفزة من أن المد العثمانى فى وسط اوروبا والشمال الافريقى الذى سوف يشجع الاقلية الاسلامية الموجودة فى اسبانيا الى التحول من الاستياء الى التمرد العلنى ،لذلك اسرع شارل فى العمل ضد العثمانيين المتقدمين (١)، فأصدر أوامره فى ١٦ جمادى الاولى ٩٣١هـ / ١٢ مارس ١٥٢٤م بتنصير الموريسكيين وعهد لتنفيذ ذلك للمفتشين ،كما أمر بتحويل المساجد الى معابد نصرانية واخذ العشر من المسلمين والذى كان يدفع للمساجد وحوله للكنيسة ،وأخذ المفتشون فى مضايقة الموريسكيين بكثرة الرقابة ،وسوء المعاملة ،ثم اجبر الموريسكيون على مغادرة احيائهم الخاصة بهم الى المدن الكبرى حتى يضمن انصهارهم فى بوتقة المجتمع المسيحى والكنيسة (٢) وليفتت اجتماعاتهم حتى يسهل مقاومتهم .

دعم شارل الخامس نشاط محاكم التفتيش فى هولندا للقضاء على البروتستنت ،نظرا لأن المحاكم تلك كانت تعتبر امتدادا طبيعيا لسلطة شارل كما كانت كذلك ايام الملوك السابقين ،وفى البداية كان شارل لا يعير اهتماما كبيرا لتلك المحاكم باعتبار ظروف تربيته البعيدة كل البعد عن التعصب الكاثوليكى ،الا انه عندما شعر بخطر المسلمين فى اسبانيا ،وتقدم البروتستنة فى المانيا واحتمال تأثير ذلك على الدخل الهائل الذى كان يحصل عليه من الضرائب الباهظة التى فرضها على الهولنديين ، اهتم شارل بالمحاكم التفتيشية وشجعها على زيادة نشاطها (٣) وظلت اسبانيا قوة محاربة فى القرن السادس عشر بمدى اكبر من أية دولة أوروبية ،وقاومت الموريسكيين فى حروب طويلة

1- Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P.126 .

(٢) محمد قشتيليو : مرجع سبق ذكره ،ص ٥٨ .

(٣) عادل سعيد بشتاوى : مرجع سبق ذكره،ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

وكانت اسبانيا تعتبر شن الحملات على الوثنيين والمسلمين والمخالفين للكاثوليكية مهنة نشطة وتقليداً مقدساً [1]، وكان شارل الخامس من رجال الدولة الموصوفين بالعناد، وكان يميل للحماس الصليبى ولم يضع استراتيجية واقعية الا بعد وصوله لخبرة طويلة وحادة من الحرب الفاشلة ضد العثمانيين فى بداية القرن السادس عشر، وكانت الاستراتيجية هو نظام التحصين الذى اكتسبه شارل من اخيه فرديناند عندما حصن هنغاريا. [2]

دعمت الدولة العثمانية قبضتها فى شبه جزيرة البلقان وسوريا ومصر والتحموا مع القوى الاسلامية فى الشمال الافريقى، وبرزوا كقوة بحرية مهاجمة، نتيجة لذلك صارت ايطاليا معرضة وبصورة متزايدة للهجمات الاسلامية، وفى الوقت نفسه تم ادماج الكثير من شبه جزيرة نابولى وصقلية وجنوا وميلانو فى النظام الامبراطورى الاسبانى، ومع الصراع بين الدولة العثمانية والأسرة الهابسبرجية فى البحر المتوسط، وضعت ايطاليا فى الخط الأمامى من العمليات الحربية، وصارت البندقية وانكونا ومسينا ونابولى وجنوا النقاط الأكثر حساسية للاتصال الاوروبى بالعالم العثمانى.

وبالدبلوماسية الحذرة، استطاعت البندقية أن تفلت من آثار الحروب الايطالية المدمرة، وظلت مستقلة عن الممتلكات الداخلية الواقعة خلف جبال الألب. [3]

وكانت البندقية بشكل خاص عرضة للفتح العثمانى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ولمواجهة تلك الأزمة احتاجت البندقية موارد ادارية وبشرية لادارة تجارتها الواقعة تحت السيطرة العثمانية

1- Paul Coles : OP.CIT P. 125 .
2- IBID P. 100 .
3- IBID P. 131 .

وكانت حكومة البندقية أكثر الحكومات الايطالية عقلانية ،وفى نفس الوقت متقدمة بدرجة كبيرة فى تقنيات التجارة والنقل والحرب البحرية والدبلوماسية والجاسوسية ،وكانت استجابة مقاومة البندقية للضغط العثمانى ماكرة ومركبة وكان نمو القوة العثمانية يشكل مشكلة خطيرة لحكومة البندقية ،ومع ذلك استغل البنادقة قدرتهم لخدمة العثمانيين مرارا وتكرارا فى سبيل الاعتراف بممتلكاتهم ،وضمان أمن تجارتهم ،وعلى سبيل المثال عندما اقترح السلطان العثمانى سليمان القانونى الهجوم على املاك شارل الخامس فى ايطاليا ٩٤٠هـ (١٥٣٣م ،كان السلطان قلقا للحصول على معلومات الاجراءات الدفاعية الاسبانية ،وعندما استقبل سفير البندقية فى القسطنطنية بادرة بهذه الكلمات " أكتب فورا الى سيدك أنه يمكن الكشف عن ما تفعله الأسماك فى قاع البحر وايضا يمكن لنا معرفة الاسطول الذى تعده اسبانيا فى موانيها "[1] وبذلك اثبت البنادقة بأنهم يخدمون أى جهة فى سبيل تحقيق مصالحهم الاقتصادية ولا ينبغى لأى قوة أن تعتمد عليهم .

من ناحية أخرى كانت جنوة تعتبر المفتاح الاستراتيجى لايطاليا وذلك بالنسبة لفرنسا واسبانيا لذلك كانت تقع دائما تحت حماية احدى تلك القوات العظمى ، وكانت كلتا الدولتين فرنسا أو أسبانيا معرضتين للضغط العثمانى ،لذلك كانتا فى اغلب الاوقات متصادقتين تحت الزعامة الاسبانية الهابسبرجية ولو على مضض لمقاومة الضغط العثمانى فى القرن السادس عشر.[2]

كان شارل الخامس حتى أوائل الثلاثينات من القرن السادس عشر لا يستطيع الرد على الهجمات البحرية الاسلامية ،وذلك لضعف الامكانيات البحرية والحربية لديه ،وعدم الحصول على تعاون من أراجون وكتالونيا ،وهو شرط أساس للتفوق البحرى الاسبانى فى غرب البحر المتوسط [3] فلما حصل

1- Paul Coles : OP.CIT P.131,132,133.
2- IBID P.131 .
3- John Lynch : OP.CIT Val .1 P.97 .

شارل الخامس على مساعدات بحرية من جنوا بعد ان تحالف معها حديثا ،ظهرت قيمة تلك الامدادات والمساعدات فى نجاح الاسطول الاسبانى فى خليج كورنث عام ٩٣٩هـ / ١٥٣٢م ، حيث كان قادرا على الاستيلاء على ميناء باتراس (Patras) ،واستولى على كورون (Coron) فى جزيرة موريا (Morea) ولكن كان ذلك الاستيلاء موءقتا ،وكان لتلك الحملة تأثير فى تحويل اهتمام السلطان وتخفيف الضغط على الجبهة الشرقية فى النمسا ، كما ركز السلطان على الشمال الافريقى اذ عين خير الدين بربروسا قائدا عاما للاسطول العثمانى بجانب لقب البيلربكيه فى الجزائر ،وبدأ سليمان ينشد تحالفا أكثر تقربا مع فرنسا للسيطرة على البحر المتوسط .(١)

اقام اندريا دوريا روابط ثابتة واساسية بين بلدة جنوة واسبانيا التى كانت فى حاجة ماسة الى سفن حربية لتتولى عبء الدفاع البحرى من العثمانيين ، مما أدى الى اتاحة الفرصة للمقاولة البحرية ،وكانت البحرية الايطالية بقيادة اندريا دوريا ضمانا لسيادة شارل الخامس فى شبه الجزيرة الايبرية والايطالية ، كما كانت وسيلة للدفاع الأول عن العالم المسيحى من الهجمات الاسلامية ،وكان نواة هذا الاسطول الجنوى السفن المسطحة المملوكة لشخص اندريا دوريا والموءجرة لاسبانيا ، اذ كان متعهدا بحريا فى ذلك الوقت وكان ابحار السفن المسطحة قد غطت سطح البحر المتوسط ،ومتنفسا للجهود حرب البحر المتوسط ضد العثمانيين السنوات الوسطى من القرن السادس عشر وهى الفترة الحرجة بالنسبة لاسبانيا وكان اندريا دوريا مسئولا عن تنظيم الرحلات البحرية بين اسبانيا وايطاليا ،كما قام بامداد السفن بالبحاريين ومرافقة تلك السفن لحمايتها ،وكان تأمين السفن قد ظهرت أهميته عندما كان دور دوريا كرجل مرور ،منظم الحركة والمراقبة من بالاماس (Palmas) الى سافونا (Savona) ،ومن جنوه الى برشلونة ومن جنوه الى ايغوس مورتيس (Aigues Mortes) الى برشلونة ومن جنوه الى

1- John Lynch : OP.CIT ; Vol .1 P.95 .

اسبيزا (Spezia) الى الجزائر ومن برشلونة الى سافونا وجنوا وكان نقل الوحدات العسكرية الاسبانية مهمة اخرى شاقة تقوم بها سفن دوريا المسطحة .(١)

كان مجهودا كبيرا من شارل الخامس ومن اسبانيا . لولا نمو القوة البحرية العثمانية وتهديدها الذى اقترب من سواحل نابولى وصقلية بل واسبانيا نفسها ،ولقطع تلك الجبهة البحرية الاسلامية فى البحر المتوسط قرر شارل تشييد قاعدة اسبانية بين الجزائر والقسطنطنية ،وبالفعل كان تحقيق ذلك فى تونس ، الا أنه لم يتابع ذلك النجاح لعدم امتلاكه للقوة البحرية اللازمة لذلك ،مما اتاح المجال لخير الدين باربروسا فى تنظيم غارات جديدة ضد جزر البليار وساحل فالينسيا وسواحل ايطاليا الجنوبية حاول شارل أن ينظم هجوما على العثمانيين بواسطة انجاز حلف مسيحى مع البابوية والبندقية ،ولكن لم يكتمل ذلك الحلف وتفككت العصبة ،بعد أن تحالفت البندقية مع الدولة العثمانية٩٤٧هـ/١٥٤٠م ،والتى فضلت مصالحها التجارية لدى الدولة العثمانية ،وبدون اسطول البندقية فان العصبة المسيحية لا تستطيع مواجهة البحرية العثمانية ،فقرر شارل أن يركز جميع مصادره وموارده المتاحة فى الغرب ليهزم القبضة القوية للدولة العثمانية فى الجزائر وبذلك يستكمل برنامجه فى تأمين الجناح الايمن لامبراطوريته ، وقاد شارل بنفسه حملة على الشمال الافريقى هدفها الجزائر فى ٩٤٨هـ (١٥٤١م) ، الا أنه لم يحقق هدفه ،وانسحب مرة آخرى لاسبانيا وكان ذلك آخر محاولاته ،لأن موقف شارل فى البحر المتوسط قد تدهور بسرعة بعد أن تجددت الحرب مع فرنسا ، وقدمت الدولة العثمانية لحليفتها فرنسا خدمة كبيرة ،كما أن السفن ذات المجاديف الفرنسية دعمت وعززت البحرية العثمانية ، وتعاون خير الدين باربروسا فى حصار نيس عام ٩٤٧هـ/١٥٤٤م ثم سيطر العثمانيون على طرابلس وكانت قاعدة آخرى لها آهميتها ،كما سقطت مراكز اخرى فى الشمال الافريقى ،واستمر السلطان فى ارسال اساطيله

1- Paul Coles : OP.CIT , P.P. 142-143.

القوية للهجوم على مراكز بحرية فى سواحل البحر المتوسط ،وهكذا لم تتـــح الفرصة لشارل الخامس للدفاع عن الطريق البحرى للامبراطورية الرومانيـــة المقدسة وبالتالى لم يستطع انجاز حملته الكبيرة ضد القسطنطنية ،والتى كانت حلمه فى سنوات صغره ، كما أتضح عدم مقدرة شارل على تقديم مصالح مباشـرة لاسبانيا ، لأن القوة البحرية السائدة فى ذلك العصر لا تعتمد على حمـــلات تعد بسرعة ،بل تعتمد على مجهود شاق فى البناء والتجنيد والتدريـــب وهذا البرنامج لم يتعهده شارل .(١)

1- John Lynch : OP.CIT Vol.1 P.P. 96-97.

الفصل الرابع

(الفصل الرابع)

" الجهاد البحرى الاسلامى فى الحوض الغربى للبحر المتوسـط "

أ ـ صدى حروب الاسترداد فى العالم الاسلامى .

ب ـ قيام نظام بيلربك فى الجزائر ٩٥٤هـ (١٥١٨م) .

جـ ـ دور الحفصيين فى تونس ،وبنى وطاس والسعديين فى مراكش .

...

كان الجهاد البحري في شمال افريقيا قد لفت انظار اوربا المسيحية ولا سيما مجاهدى الجزائر الذين وجهوا نشاطهم ضد السفن الاوروبية وسببوا الكثير من المتاعب للدول الأوروبية المواجهة للبحر المتوسط ونقلوا معهم الكثير من الأسرى الى موانى شمال افريقيا ، مما شغل الكثير من المؤسسات الدينية والسياسية لافتكاك هؤلاء الأسرى .

وتعود اصول الجهاد البحري الجزائري الى منتصف القرن الرابع عشر بسبب الأزمة السياسية والاقتصادية التى عصفت بالمغرب الأوسط [١]، والتى كان من أهم عواملها هجرة قبائل بنى هلال وسليم ، علاوة على ذلك هجرة مسلمى الاندلس الى شمال افريقيا واستقرارهم فى الموانى واسهامهم فى تمويل سفن المجاهدين وتشجيعها بدافع الربح من جهة وبدافع الانتقام ممن طردوهم من موطنهم من جهة آخرى [٢]، واتخاذهم مواقع الدفاع عن وطنهم الجديد ، وبنائهم السفن والمعدات الحربية للجهاد ضد الأسبان فى البحر والاستيلاء على ما يمكن أن يقع فى أيديهم من أسطول العدو .[٣]

بدأ سكان موانى شمال افريقيا بدورهم يشنون حربا بحرية ضد السفن والموانى الاسبانية ، وكان المسلمون الذين اجبرتهم ظروفهم على البقاء فى اسبانيا واجبروا على التظاهر بتغيير دينهم ، يتصلون سرا برجال البحر المسلمين ويمدونهم بالمعلومات اللازمة ليقوموا بهجماتهم دون ان يتعرضوا للأخطار .[٤]

ترامت الى مسامع المسلمين فى شمال افريقيا الانتصارات الباهرة التى أحرزتها الدولة العثمانية فى ذلك الوقت فى القارة الاوروبية وآسيا ، وما تخللها من نجاح السلطان محمد الفاتح فى فتح القسطنطنية

---

(١) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ، ص ٨٩ - ٩٠ .

(٢) محمد خير فارس : نفس المرجع ، ص ١٦ .

(٣) أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافى ، ج١ ، ص ١٣٦.

(٤) محمد خير فارس : نفس المرجع ، ص ١٧ .

فأشرأبت الأعناق اليه والى خلفائه [١]، وكانت نظرة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها الى الدولة العثمانية على أنها دولة الاسلام الكبرى يستظلون بظلها الظليل ،و نظروا الى السلطان العثمانى وهو يخوض الحروب تباعا ضد الدول الأوروبية على أنه الأمل المرتجى فى اعادة مجد الاسلام الغابر ،فكانت عواطف المسلمين وآمالهم متعلقة بالدولة العثمانية والسلطان العثمانى [٢] ، ولم تكن العاطفة القومية قد وجدت فى نفوس الشعوب الاسلامية فى هذا الوقت المبكر من العصور الحديثة .

واصل المجاهدون المسلمون فى غرب البحر المتوسط ومعظمهم من أرغموا على الرحيل عن الأندلس تحديهم للسفن والسواحل المسيحية ،وكانت القرصنة اسلامية ومسيحية تسود الحياة البحرية فى العصور السابقة وان لم تعرقل التجارة [٣] ،وفى أواخر القرن الخامس عشر وضع المهاجرون الأندلسيون أساس مدينة تطوان الجديدة ،ثم اشتبكوا فى حرب مع البرتغال من ناحية سبتة واسروا عساكر لهم وأتوا بالأسرى واستعملوهم فى بناء مدينتهم التى سيستقرون بها نهائيا .[٤]

كان المجاهدون العثمانيون طلائع الدولة العثمانية على سواحل شمال افريقيا ،وقد هيأوا الظروف لتحرير كل البقاع التى تمتد من الجزائر حتى طرابلس ،ويمكن تحديد ذلك بنهاية القرن الخامس عشر ،بمعنى أنه اعتبار من نزوح المسلمين عن الأندلس بدأ التدخل العثمانى فى غرب حوض البحر المتوسط ،بل أن مسلمى افريقيا الذين صاروا مهددين بتزايد القوة الاسبانية قد بعثوا يستدعون العثمانيين الى ثغورهم وطلبوا نجدة السلطان فى القسطنطنية [٥]، وفى أوائل القرن السادس عشر وضع حد للتسامح المتبادل

---

(١) عبدالعزيزالشناوى : مرجع سبق ذكره ،جـ٢،ص٩٠١، ٩٠٢ .
(٢) فائق بكر صواف : مرجع سبق ذكره ص ٢٣ .
(٣) احمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سبق ذكره ،ص ٩٢ .
(٤) محمد بن تاويت : تاريخ سبتة ،ص ١٨٠ .
(٥) اتورى روسى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٥٥ .

بين المسلمين والمسيحيين فى مجال التجارة والقرصنة ،وذلك نتيجة لطرد المسلمين من الأندلس وتحول الشعور فى داخل الدولة العثمانية نتيجة ذلك الطرد • والاضطهاد الدينى ،فظهرت القوة البحرية العثمانية فى البحر المتوسط ، وأسس المسلمون المنفيون من اسبانيا مستوطنات على طول سواحل شمالى افريقيا وعقدوا العزم على الانتقام من مضطهديهم ،وذلك بالاغارة على سواحل اسبانيا ومهاجمة السفن المسيحية وبخاصة فى مضيق جبل طارق ،والمنطقة البحرية المحيطة بجزيرة مالطة ،وما لبثوا أن حصلوا على مساندة العثمانيين عززت وزادت من حدة الغارات السابقة ،ومن خلال سنوات كانت أغلبية الموانى الممتدة من جزيرة جربة فى الشرق الى سالى فى الغرب تضم قراصنة اثاروا الرعب فى قلوب أوروبا المسيحية • (١)

كان بزوغ العثمانيين فى الواقع قد اعطى الاسلام القوة القائدة فى العالم ،اذ لم تكن مراكش ولا الجزائر ولا تونس ولا مصر تملك القوة الهجومية الحيوية ،وعندما ضغطت الجيوش الاسلامية بانتصاراتها أبواب فينا ،والقوة المحمدية الذى عاد نشاطها وتحدت أوروبا فى مضيق جبل طارق بدا بسهولة أن العالم الغربى المسيحى قد قبض عليه بين النقطتين بهجوم متلاقى من الشرق والغرب ،وأن أوروبا لا يمكن أن تنقذ نفسها الا بمقاومة متحدة (٢)،وكان هذا مستحيلا ،الامر الذى يتيح للدولة العثمانية أن تحقق أهدافها فى البحر المتوسط وأن تجعل منه بحيرة اسلامية ،بالاضافة الى تحويل القارة الأوروبية المسيحية للاسلام •

زادت اسبانيا فى أوائل القرن السادس عشر من اجراءاتها القمعية على المسلمين فى الاندلس وتطايرت الاخبار بما يلقاه المسلمون من الذل فى هذه البلاد ،ولم يقتصر الاسبان على ذلك بل أخذوا يجوبون البحار ،ويرسون على سواحل بلاد المسلمين فيخطفون من يظفرون به منهم وينهبون سفنهم

---

(١) احمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سبق ذكره ،ص ٩٢ •

2- A.J. Grant : A History of Europe from 1494-1610 P.P. 209-210 .

ويخربون مدنهم ،وصارت حركة متبادلة بين المجاهدين المسلمين والقراصنة المسيحيين ،ولم يكن الى السلم سبيل بين الجانبين على هذه الحال ،وصار النهوض لانقاذ المسلمين فى اسبانيا واجبا شرعيا يتحتم على كل مسلم أن يقوم به ،وصار لزاما على الدول الاسلامية أن تقابل اعتداءات أساطيل الاسبان (١)، وتقوى الطابع الدينى فى ذلك الهجوم المتبادل بين المسلمين والمسيحيين (٢) وتحولت السفن الاسلامية المسيحية التى كانت تعمل فى شرق البحر المتوسط الى غربه حيث الجهاد تحول الى هذه الناحية نتيجة لاضطهاد المسلمين فى الاندلس والاعتداء على الأراضى الاسلامية فى شمال افريقيا التى مهدت الى بسط النفوذ العثمانى على المنطقة (٣) .

عاصرت مشروعات الدولة العثمانية فى البحر المتوسط ظهور حركة عامة بين رجال البحر من أبناء المغرب العربى تستهدف فى العمل على حماية موانيهم وسواحلهم ،وتأمين وصول المهاجرين المسلمين من شبه الجزيرة الايبرية وقام رؤساء البحر المغاربة بدورهم كاملا ،وساعدوا على الاحتفاظ باستقلال أقاليم المغرب العربى (٤) ،كان من بين المجاهدين العثمانيين الذين ظهروا فى البحر المتوسط عروج وأخيه خير الدين أبناء يعقوب بن يوسف الذى تزوج من احدى بنات النصارى فى جزيرة مدلي ببحر الأرخيل فبعد أن فتحها السلطان محمد الفاتح أستأذن بقايا الفاتحين المجاهدين السلطان محمد الفاتح بالسماح لهم بالزواج من النصرانيات ،فسمح لهم السلطان بذلك،وكان من ضمن هؤلاء العسكر يعقوب بن يوسف ،وأنجب أربعة أبناء هم اسحاق وعروج وخسرف وخير الدين ومحمد الياس (٥) ،وتذكر بعض الروايات أن يعقوب بن يوسف كان متزوجا من سيدة اندلسية أنجبت له أولاده الأربعة ،وأن الدم الاندلسى جرى فى عروق عروج وخير الدين عن طريق والدتهم ،وقادهم ذلك للجهاد فى الحوض

---

(١) حسين مؤنس : الشرق الاسلامى فى العصر الحديث ،ص ٢٩٢ .

(٢) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ،ص ٩٠ .

3- Stanford Show : OP.CIT P.96 .

(٤) محمد عبد المنعم الراقد : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٣٧ .

(٥) عبد القادر ابن عمر بن محمد: سيرة خيرالدين باشا ق١-أ، ارجمنت كوران،السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسى ،ص ٢١ .

الغربى من البحر المتوسط ،حيث كانت دولة المسلمين تذل وتهان ،وحيث كان المستضعفون من الرجال والنساء يحاولون الفرار بدينهم وبشرفهم من ذلك الجحيم الأليم فيقعون غالبا بين أيدى القراصنة الاسبان الذين يستعبدونهم ويغزون بهم اسواق الرقيق (١).

سافر عروج وأخوه الياس الى طرابلس الشام وعند عودته وقع قتال كبير مع فرسان القديس يوحنا بالقرب من جزيرة رودس ،وقتل الياس بينما وقع فى الأسر عروج وسجن فى الجزيرة المذكورة (٢) ، اضطر عروج لمغادرة الأرخبيل برفقة أخويه بعد أن تخلص من ذلك الأسر ،واختار غرب المتوسط ميدانا لنشاطه وذاع صيته بين المسلمين لما أشتهر به من هجوم على مراكب المسيحيين وخاصة الاسبانية منها ،وبفضل ما حققه من انقاذ لآلاف المسلمين فىالاندلس ونقلهم الى شمال افريقيا .(٣)

ألقت الريح بعروج فى جزيرة جربة من ناحية المغرب ،وأودع فيها بعض الامتعة ،ثم هاجم المسيحيين فى أراضيهم وغنم وسبى سبيا كبيرا ثم دخل مدينة تونس ووجه الى سلطانها الحفصى هدية نفيسة بما أحتوت عليه من غنائم ونفائس الأموال ،ووقعت فى السلطان الحفصى أحسن موقع ،وأستأذنه عروج أن يقيم فى بعض مراسى بلاده ،فأذن له وأشترط عليه أن يعطيه خمس الغنائم التى تحصل بيده من المسيحيين فرضي عروج بذلك .(٤)

كانت الدولة الحفصية فى هذا الوقت تعيش آخر رمق فى حياتها ، اذ استولى الاسبان على عدة جهات من الساحل الافريقى ،كما كانت الجزائر

---

(١) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٥٦ – ١٥٧.
(٢) عبد القادر بن عمر بن محمد : مرجع سبق ذكره ،ق ٢–أ .
(٣) شارل أندرى جوليان : مرجع سبق ذكره ،ج٢ ،ص ٣٢٦ .
(٤) عبد القادر بن عمر بن محمد : نفس المرجع ،ق ٧–أ .

غير قادرة على مقاومة الأسبان [١]،ولذلك رأى السلطان الحفصى أبو عبد الله محمد أن يجعل مما يدفعه عروج وأخيه خسروف من خمس الغنائم موردا ثريا لخزانة الدولة التى كانت تعانى من الأفلاس ،بالاضافة لحماية الدين والدولة فأقطعهما مرفأ حلق الواد يتخذان منه قاعدة لمحاربة من يحارب الاسلام .[٢]

ظهر الأخوان عروج وخسروف من حلق الواد بتونس كقوة اسلامية جديدة وكان هذا هو الخيط الأول فى علاقات العثمانيين بالمغرب التى سرعان ما تعددت خيوطها [٣] ،وانطلقا من هناك الى ناحية الأندلس ينصران الاسلام ،ويمعنوا فى اسطول المسيحيين تقويضا وأسرى ،هنالك أطلق النصارى لقب بربروس أى ذى اللحية الشقراء على كل الأخوين الذين صاروا مصدر الرعب والفزع فى البلاد المسيحية المتاخمة وفى بحارها ،كما اقترح فضلاء الأندلسيين والمغاربة على خسروف أن يغير اسمه وأطلقوا عليه منذ تلك الساعة اسم خير الدين [٤] ،ولعل السبب فى تغيير الاسم أن الروح السائدة فى ذلك الوقت هو الجهاد ،وتغيير الاسم لخير الدين تيمنا بذلك ،علاوة على ذلك الانتصارات الساحقة التى حققها الأخوان .

خرج الأخوان عروج وخير الدين من مقرهما الجديد حلق الواد غازيين فى سبيل الله ناحية بلاد النصارى فغنموا مركبا للمسيحيين وشحنوها بالرجال المجاهدين وبعد ثلاثة أيام ،استطاعوا أن يأسروا مركبا آخر وأستمروا فى سفرهم وجهادهم ذلك حتى غنموا مركبا آخر ،وتجول الأخوان و عاشوا فى بلاد الكفار مدة عشرين يوما ،ثم رجعوا الى تونس ،مسرورين بما منحهما الله سبحانه وتعالى من هذه الغنائم فسر ذلك سلطان تونس سرورا عظيما وحصل بيد المجاهدين أموالا كثيرة .[٥]

---

(١) محمد بيرم التونسى : صفوة الاعتبار ،جـ٤ ،ص ٧ .
(٢) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٥٨ .
(٣) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ،ص ١١٩.
(٤) احمد توفيق مدنى : نفس المرجع ، ص ١٥٨ .
(٥) عبد القادر بن محمد بن عمر : مرجع سبق ذكره ،ق ٨-أ .

جهز عروج وخير الدين بعد ذلك ثلاث مراكب ،وخرجوا من حلق الواد ، فالتفوا فى عرض البحر من ناحية نابولى بسفينة حربية متجهة الى اسبانيا وعلى ظهرها ثلاثمائة جندى ،وكانت السفينة أقوى من السفن الاسلامية من حيث الحجم وقوة المدفعية ،واندفع الأخوان فى محاولة منهم للاستيلاء على السفينة وهاجماها عدة مرات حتى تمكنوا منها ،ورجع خير الدين الى تونس بتلك الغنيمة العظمى وبقى عروج فى البحر .(١)

ملأت اقطار المغرب العربى وبلاد الأندلس أخبار عروج وخير الدين،وصارا فى مدينة حلق الواد يمثلان قوة اسلامية عظيمة ،تتوجه نحوها الانظار (٢)، لتخليص أراضيهم من الوجود الاسبانى ،غادرت عمارة عروج وخير الدين مرسى حلق الواد سنة ٩١٨هـ (١٥١٢م) ،وتوجهت نحو بجاية ، الا آن أسطولا اسبانيا موءلفا من خمس عشرة سفينة كان راسيا على مرسى بجاية ،فأعترض فى طريق أسطول المسلمين أمام المدينة ،وفكر الزعيمان بحيلة ،فتظاهروا بالانسحاب أمام الأسطول الاسبانى الذى تتبع العمارة الاسلامية ،حتى اقترب من مرمى مدفعيتها وعندئذ كر عليه المسلمون ،وهاجموا بعنف الأسطول الاسبانى ،فأستولى عروج على احدى السفن الاسبانية وغرقت أخرى وأنهزمت بقية السفن (٣)،بعد ذلك قرر عروج مهاجمة بجاية عن طريق البر ،فأخذ فى استأصال الاسبان قتلا ، حتى أقترب من أحواز المدينة ،فرمى الاسبان عروج فأصيب فى ذراعه وأشتدالامر عليه بسبب الألم ،فحمله المجاهدون الى أخيه خير الدين ،وقرر الأطباء قطع يديه ،وساعدهم خير الدين على ذلك ، (٤) مفضلا حياة أخيه عن موته فقطعوا يديه .(٤)

---

(١) عبد القادر بن محمد بن عمر : .مرجع سبق ذكره ،ق ٨ـأ .
، احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٥٩ .
(٢) احمد توفيق مدنى : نفس المرجع ،ص ١٦٣ .
(٣) عبد القادر بن محمد بن عمر : مرجع سبق ذكره ،ق ١٠ـب .
، شارل اندرى جوليان : مرجع سبق ذكره ،جـ٢ ،ص ٣٢٦ .
(٤) محمد خير الدين فارسى : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٤ .

اخذ خيرالدين بربروسا فى العمل على الجهاد ،فبادر بانقاذ المسلمين فى غرناطة ،والذين يعبدون الله خفية ،ولا يجهرون بالآذان ،وظل خير الدين يعمل فى الجهاد نحو ثلاثة آشهر ،وآنقذ بعض المسلمين من الاندلس وآستطاع آن يغنم من آحوازها كثيرا ،ومن تلك الغنائم سفينة صغيرة كانت محملة بالأموال وباقى السفن الستة آستطاعت الهرب من آمام خير الدين ،وشكا الفارون للملك فرديناند ما حل بهم وما لاقوه من خير الدين ،وآوضحوا آن خير الدين يقطع عليهم البحر ،وتشاورا فيما بينهم فى التخلص منه ،وآثناء ذلك ،توجه خير الدين الى ميورقة وهاجمها .(١)

ظهرت آولى الاشارات الى وجود السفن العثمانية سنة ٩١٨هـ (١٥١٢م) ، وآخذت تهدد طرابلس التى لم يمض على احتلالها من قبل الاسبان سوى زمن قليل حين بدآ نشاط الأخوين بارباروسا (٢) ،رآى عروج آن محاصرة بجاية ليس بالامر السهل ،كما فكر آن وجوده بتونس يبعده عن آرض المعركة فصمم على فتح مدينة جيجل التى تقع على بعد ١٠٢ كيلو متر غربى بجاية ،وانقاذها من يد الاستعمار ،وذلك حتى يتخذ منها نقطة انطلاق نحو بجاية ،ويجمع بها رجاله وسلاحه ويجعلها مركز تجمع للمجاهدين (٣) ،الذين صمموا على تطهير الشمال الافريقى من براثن الاستعمار ،حتى يمدوا نفوذهم بعد ذلك نحو الأندلس لاسترداده .

وكانت مدينة جيجل من آوائل المدن التى سقطت بيد المستعمرين الجنوبيين الذين جعلوها مركزا تجاريا عظيما (٤) ،كما احتفظ قصر جيجل بعد ذلك بحريته ،بالرغم من محاولات ملوك بجاية وتونس احتلاله ،لأنه يستحيل حصاره .(٥)

---

(١) عبد القادر بن محمد بن عمر : مرجع سبق ذكره ،ق ١٠ب .
(٢) اتورى روسى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٥٦ .
(٣) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٦٥ .
(٤) عبد الرحمن بن محمد الجيلالى : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٦٨ .
(٥) الحسن بن محمد الوزان : مرجع سبقذكره ،جـ٢ ،ص ٥٢ .

رسا الأخوان عروج وخير الدين فى السواحل الجزائرية لقضاء بعض المهمات ،فأتصل بهما أهالى تلك النواحى ملتمسين منهما دفع الاجانب عنهم وانقاذ ثغورهم من تسلطهم عليها ،فلبى الأخوان ندائهم وكان أول ما شرعوا فى انقاذه من البلاد الجزائرية هو مدينة جيجل فاحتلوها سنة ٩٢٠هـ (١٥١٤م) [١] بمساعدة الامير ابن القاضى ،وفرض عروج على أهالى جيجل زكاة عشر الحبوب والثمار مما هو معمول به [٢] ،وبفتح مدينة جيجل تم لعروج هدفه المزدوج فى انقاذ مدينة اسلامية ، وكانت أول مدينة ينقذها على ساحل البلاد ،التى صارت فيما بعد تدعى ضمن البلاد الجزائرية ،والاستقرار بمركز منيع من ناحية البر والبحر ،كما أنه يساعد المجاهدين على حرية المناورة من اجل تطهير البلاد من الاحتلال الاجنبى ،وهكذا استقر عروج مبجلا مكرما بين جماعة المسلمين فى جيجل ،وكثرت الاتصالات هنالك بينه وبين مختلف وفود المسلمين من المغرب الأوسط واستمر يعالج فى مقره الجديد ذلك الجرح البليغ الذى أصابه من جراء بتر يديه [٣] ،واخذ عروج متابعة الأحوال فى المغرب الأوسط حيث كان الصراع على اشده بين سلاطين بلاد القبائل من بنى عباس وآل القاضى سلاطين كوكو، وبدأ يمد القبائل المجاورة لجيجل التى كانت تعانى المجاعة بالحبوب فحصل على شعبية كبيرة بين هذه القبائل ،كما أنه بدأ يتدخل فى الصراع بين زعمائها ،وقد تعزز موقفه بتدخله فى الوقت المناسب لصالح بنى عباس المنتصرين [٤] ،كما ألتف المسلمون من ناحية جيجل والجبال المحيطة بعروج ورأوا من ايمانه بالله وآخلاقه ما جعلهم يبايعونه آميرا ،وعاهدوه على السير وراءه الى ميادين الجهاد من أجل انقاذ المدن الاسلامية والأندلس وتمكن عروج بذلك من انشاء جيش منظم ،وآحسن تشكيله فى كتائب متعدده ،ودربه على استعمال الأسلحة الجديدة للرماية والتى كانت متقدمة فى هذا المجال واخذ رجال الدين والعلماء يستنفرون الناس الى الجهاد فى سبيل الله ،وعمت الدعوة ارجاء البلاد، كما استمر خير الدين فى جمع السفن التى غنمها من

---

(١) عبد الرحمن الجيلالى : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٦٨ .
(٢) الحسن بن محمدالوزان : مرجع سبق ذكره،جـ٢ ،ص ٥٤ .
(٣) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٦٦ - ١٦٧ .
(٤) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٥ .

المسيحيين ،وأرسلها للأندلس ملبيا أصوات الاستغاثة التى جاءت ،حيث المستضعفون من الرجال والنساء والولدان ، الذين نكث الاسبان بعهودهم ،وتنكروا للمواثيق .(١)

كان من حسن سياسة عروج وخير الدين ،وانقيادهما للمبادىء الاسلامية السامية التى خرجا مجاهدين فى سبيل الله من أجل تحقيقها ،أنهما ما كادا يفتحان مدينة جيجل ويستقران فيها ،ويستحوذان على نفائس الاموال والبضائع التى ادخرها اهل جنوة المعادين للمسلمين ،علاوة على الغنائم التى حصلوا عليها من السفن المسيحية التى كانت تجوب البحر المتوسط بعد الهجوم عليها فى وسط البحر أو فى السواحل الاسبانية – حتى بادر عروج وخير الدين الى اعداد هدية عظيمة من نفائس الأموال التى غنموها من المسيحيين وأرسلوها الى السلطان الأعظم سليم فى استانبول ،كما بعثوا الى كل واحد من خاصته هدية تليق بمكانتهم ،وذلك برفقة محى الدين رئيس الذى وصل الى تونس ،فأستحسن السلطان العثمانى سليم وخاصته هذه الهدايا ،وبالغوا فى الثناء على عروج وخير الدين ،ودعوا لهما بالتأييد والنصر على اعداء الله الكفرة ،واجابهما السلطان سليم بخطاب تضمن الدعاء لهما والشكر على هديتهما ،ووجه اليهما صحبة محى الدين بسفينتين مدججة بالسلاح والرجال المجاهدين (٢) أراد السلطان سليم الذى كان منشغلا فى هذه الفترة بالشرق حيث الفرس والمماليك كانوا قد بدأوا فى خلق المشاكل فى المنطقة ،أراد أن يشجع عروج وخير الدين ،فى المضى فى تطهير شمال افريقيا من الوجود الاجنبى حتى يتحقق لهم بعد ذلك استرداد الأندلس ،والتى توافق استراتيجية الدولة العثمانية ،ومما لا شك فيه أن رد السلطان العثمانى كان له أكبر الأثر فى نفوس المجاهدين اذ شعروا بمشاركة الدولة العثمانية وعلى رأسها السلطان وجدانيا وعمليا ،فكانت دفعة قوية لهم نحو تحقيق المزيد من الانتصارات على المسيحيين .

---

(١) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٦٧ .

(٢) عبد القادر بن محمد بن عمر : مرجع سبق ذكره ،ق ١٤ أ .

كان عروج وأخوه خير الدين قد عزما على السفر الى سبتة ومنهـــا الى الأندلس وذلك فى عشرة سفن فوصلا ناحية بجاية ،ورسوا فى بعض المراســى هناك ،فسمع بقدومهما أهل تلك الناحية من العلماء والمشايخ ،وبعثوا الــى عروج وخير الدين خطابا يشكروهم على ما يسر الله لهما من غزواتهمـــا الكبيرة ،وفتوحاتهما الشهيرة وأردفوا قائلين أن الله تعالى تكفل بنصرهـم حيثما توجهوا ،لم تنكسر لهم راية قط فى الجهاد ،فكيف يتركان المسلميـن فى يد العدو الكافر ،فلا يعبدون الله الا فى الخفاء ،ولا يقدرون على اشهـار دينهم ،وتضرع أهل بجاية غاية التضرع فى ذلك الخطاب واستشفعوا لهم بالنبى صلى الله عليه وسلم ،وعندما وصل الخطاب لعروج وخير الدين دخلتهم الحميـة لدين الاسلام فاقتربوا من ساحل بجاية ،وكان بالقرب منها قلعة سبـق وأن شيدها الأسبان فاحتلها المجاهدون ،ودخل عروج وخير الدين بأسطولهمـا الوادى الكبير ،وحملا من هناك على الاسبان حملة شعواء ،أستأصلا فيهـا الاسبان قتلا وأسرا واستمرت المعركة عدة أيام ،أنتصر فيها المجاهدون بقيادة عروج وخير الدين وأنضم اليهم رجال الجزائر المتطوعة وبلغت نحو عشرين ألف مقاتل ،فأخذ الاسبان فى استعمال الحيلة ،وتمكنوا من حصار المجاهدين نحـو أربعة وعشرين يوما ،صبر خلالها المسلمون للدفاع عن وطنهم ،فنفذ عنهـم البارود فلجأ عروج وخير الدين الى طلب المعونة من سلطان تونس ،فأمتنـع وأظهر عداوته للمجاهدين ،كما وصلت الامدادات الى الاسبان من مختلف الأنحاء فتقوى العدو ضد المجاهدين ،فأضطروا الى الانسحاب ومعهم نحو ستمائة أسيـر وقبل أن ينصرف عروج أحرق بيده نحو اثنتى عشر سفينة تابعة لهم خشيـة أن يستعملها العدو فيما بعد ،اذ تعذر على المجاهدين ارجاع السفن وذلـك بسبب نضوب ماء الوادى الكبير فصعب سحب السفن .(١)

كان السلطان العثمانى سليم مشغولا فى هذه الفترة كما ذكرت بحروبه مع الفرس ،لكن لا يعنى هذا أن حركة الجهاد الاسلامى فى البحر المتوسط قـد

---

(١) عبد القادر بن محمد بن عمر : مرجع سبق ذكره ،ق ١٤ب ،١٥ أ ،
الحسن بن محمد الوزان : مرجع سبق ذكره ،جـ٢ ،ص ٣٨ – ٣٩ ،
عبد الرحمن بن محمد الجيلالى : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٧ – ٣٨ .

توقفت ،بل على العكس فقد ازدادت نشاطا ،لان ذلك العصر هو عصر الجهاد . والمجاهدون المسلمون آخذوا يجوبون البحر المتوسط بسفنهم لمحاربة السفن المسيحية والاستيلاء عليها ، كما شجع روءوساء البحر العثمانيون المجاهدين على مواصلة حركة الجهاد ضد المسيحيين بل وشاركوهم ذلك ،فوصل الى تونس محى الدين رايس الذى سبق وأن أوصل هدية عروج وخير الدين الى استانبول ومعه رئس جليل من روءساء السلطان يدعى قرط أوغلى وصالح الدين ريس فى أربعة عشر مركبا ،بغرض الجهاد ،ومشاركة خير الدين جهاده ،وكان خير الدين قد انتشر خبر جهاده فى بلاد الاسلام ،وهاجمت هذه القوة سفن المسيحيين واستطاعت أن تغنم أربعين سفينة ،أثنى عشر منها تابعة لجنوة، وذهب قرط أوغلى بتلك المغانم الى تونس لمقابلة خير الدين [١] وهو سبب مجيئة اليها ،والتشاور فى أمور الجهاد ،ووضع الخطط الاستراتيجية لذلك، وهنا تتجسد قوة التلاحم بين المسلمين ، لتنفيذ غرض واحد هو محاربة المسيحيين فى حوض البحر المتوسط وتطهير الشمال الافريقى من الوجود الاسبانى ،ليتحقق هدف المسلمين فى استرداد الأندلس ،فالعقيدة واحدة ،وبالتالى الهدف واحد .

بعث أهل الجزائر الى عروج أثناء اقامته فى جيجل خطابا ،يشكون فيه سوء حالهم ،بعد أن بنى الاسبان قلعتين أمام المدينة ، أضرت بهم ،وضيقت الخناق عليهم ،ورجوا عروج أن يخلص الجزائريين من ذلك ،وأنهم لم تعدلديهم قوة واستعداد لتحمل تلك المضايقات ،وعندما سمع عروج ذلك أدركته حمية الاسلام وتحركت فى قلبه نخوة الجهاد ،فقرر التوجه الى الجزائر .

كان خير الدين فى هذا الوقت بعيدا عن جيجل ،فأوصى عروج أهلها بأنه اذا قدم خير الدين يهيأ له مدد من الغزاة يستعين بهم على جهاد أهل تلك القلعة فى الجزائر ،وبعد مضى فترة من الزمن ،رجع خير الدين الى جيجل ،فاستقبله أهلها ،وأبلغوه وصية أخيه ،فأعد خير الدين مائتين وثمانون

---

(١) عبد القادر بن محمد بن عمر : مرجع سبق ذكره ، ق١٥أ ،ق ١٥ب .

رجلا بكامل أسلحتهم وأرسلهم لأخيه فى الجزائر ،ففرح بذلك عروج وأكرمهم ووسع فى جرايته عليهم .(١)

سار عروج أولا نحو مدينة شرشال فأحتلها ،ثم تقدم نحو مدينة الجزائر فأنقذها من الاسبان ،ثم حاول القضاء على الحصن المسمى بينون (Penon)(٢) الا أنه أخفق فى ذلك ،وعملت الدسائس عملها ،فأنقلب ضده حاكم الجزائر وتآمر مع الاسبان ،فصمم عروج على الانتقام من حاكم الجزائر سالم التومى فقضى عليه ،وأعلن نفسه رئيسا ،ولم يواجه من ذلك أى معارضة من قبل الأهالى وذلك لما يجمع بينهم جميعا من أخوة الاسلام ،ورابطة الدفاع عن الاراضى الاسلامية ،وهرب يحيى بن سالم التومى الى وهران مستنجدا بالاسبان وفى ١٨ رجب ٩٢٢هـ (١٨ أغسطس ١٥١٦م) ،وبينما ضربات عروج القوية تدك حصن الصخرة الاسبانى بعث القائد الاسبانى ديقو دو فيرا (Diego de Vera) برسالة الى يحيى بن سالم التومى قال فيها :" .. أيها الشريف الشجاع والسيد الأمين ،ان مولانا الملك وقداسة الكاردينال والى المملكة الاسبانية بلغتهما أنباء موت أبيك الصادق الأمين ..... وللأخذ بالثأر ومعاقبة المجرمين فان الأمر صدر لجمع أسطول وجيش عظيم ،ولهذا تهيأ وأستعد لمساعدتنا عندما نصل الى مدينة الجزائر حتى نقضى على الأتراك ومن تبعهم الذين كانوا سببا فى قتل أبيك وحتى لا ينجوا أحدهم من البر ،أما من ناحية البحر فسأكفيك شرهم ولن يستطيعوا هروبا دون أن ألاحقهم ولو فروا الى اسطنبول .. " (٣)

أبحرت العمارة الاسبانية نحو الجزائر فى أواخر رمضان ٩٢٢هـ/سبتمبر ١٥١٦م بقيادة ديقو دو فيرا (Diego de Vera)،مكونة من خمس وثلاثين سفينة وعلى ظهرها ثمانية آلاف رجل مع ما يلزمهم من سلاح ومدافع وذخيرة ونزلت الساحل حيث كان عروج والمجاهدين الملتفين حوله واثقين من أنفسهم ،وأخذ كل من الجانبين ينفذ خططه بعناية ودقة ،ودارت المعركة

---

(١) محمد أمين : فتوحات خيرالدين باشا ،ق ٤٥أ .

، احمد جواد موللى: الزهرة النيرة في بيان ما جرى حين أغارت على الجزائر جنوس الكفرة ،ق٣أ ،٣ب .

(٢) البينون مصطلح يطلق على الجزر الساحلية والرؤوس الداخلة فى البحر اعتاد الاسبان أن يقيموا عليها قلاعا حصينة تهدد سكان الساحل وتمنع فى نفس الوقت وصول سفن المسلمين .

(٣) عبدالرحمن بن محمد الجيلالى : مرجع سبق ذكره ،ج٣،ص ٤٠-٤١ .

ولم تدم الا أياما قليلة ، اذ أندفع المسلمون على الاسبان ، وهم يصيحون صيحات الجهاد ، ويحاربون بذكر الله ، فما كاد الأعراب المحيطون بالمدينة يسمعون نفير الجهاد وأصوات التهليل والتكبير حتى أقدموا على ميدان المعركة فى جموع متتالية يشدون آزر المسلمين ، ويمعنون فى جهاد العدو الذى أختل نظامه وحاولوا الانسحاب الى أسطولهم بينما أمعن المسلمين فيهم قتلا وأسرا .(١)

فى هذا الوقت وصل اسحاق الأخ الأكبر لعروج وخير الدين من بلاد الروم الى تونس ، وذلك ليقنع خيرالدين بالقدوم الى بلاد الروم ، ولم يوافق خيرالدين على الذهاب ، وأقنع أخاه اسحاق بالبقاء معهم . وأرسل خير الدين أخاه اسحاق الى الجزائر مع أربعة سفن وأمر الجنود بالسمع والطاعة ، فوصل اسحاق مع سفنه الى الجزائر ، وقابل أخاه عروج الذى فرح بقدومه ، وبقى خيرالدين فى تونس لمقابلة العلماء فى فصل الشتاء (٢)، بينما سافر قرط أوغلى ومصلح دين ريس الى مصر لمشاركة السلطان سليم فى الاستيلاء عليها وأخذها من السلطان الغورى .(٣)

بدأ المجاهدون المسلمون فى الجزائر من هذا التاريخ ، ومن خلال وجودهم داخل المغرب العربى الكبير فى تأسيس نظام فى غرب البحر المتوسط (٤) أخذت على عاتقها استرداد المدن التى سبق وأن سقطت فى يد الاسبان ، ثم استرداد الأندلس وانقاذ المسلمين هناك .

كان هدف عروج وخير الدين أن يطهرا الشمال الافريقى من الاحتلال الأجنبى ، وأن يقوضا على ذلك الاحتلال فى وهران والمرسى الكبير أولا ، وبنظرة دقيقة أدرك الأخوان أن تلك المنطقة تشكل خطرا بالوجود الأسبانى الذى تسرب

---

(١) احمد توفيق مدنى مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٠-١٨٣ ، جلال يحيى : مرجع سبق ذكره ص ٢٢ .
، محمد أمين : مرجع سبق ذكره ، ق ٤٨ ب .
(٢) احمد جواد مولى : مرجع سبق ذكره ، ق ٣آ ، ٣ ـ ب .
(٣) عبدالقادر بن محمد بن عمر: مرجع سبق ذكره ، ق ١١٦آ ، ١٦ب .
(٤) عبد الرحمان تسانجى : المسألة التونسية والسياسة العثمانية ، ص ٢٦ .

الى مملكة بنى زيان ،ومن وراء الاسبان ومملكة بنى زيان يوجد الخطر الداهم البرتغالى والغزو الذى لم تتمكن مملكة بنى وطاس المرينية من ردعه (١) كل ذلك كان عائقا يقف فى وجه الأخوين بربروسا لتنفيذ خطتهما فى استرداد الاندلس وانقاذ المسلمين فيها ،لذلك كانت الخطوة التالية بعد تدعيم الموقف فى الجزائر هو الغرب لمواجهة النفوذ الاسبانى والبرتغالى ليتسنى لهم استرداد الأندلس ،واقامة ولاية بحرية قوية تابعة للعثمانيين هذا المشروع لو تحقق لأغلق البحار كلها فى وجه الاوروبيين ٠

شرع عروج وخير الدين من أجل تحقيق تلك الأهداف فى التوسع على حساب الامارات المجاورة ،فأستولوا على تنيجة بعد أن هرب حاكمها الى الصحراء ثم استحوذا على مليانة (٢) وخضع أهلها لهم وفرضوا عليهم الضرائب (٣)،ثم استولوا على بلاد القبائل ،ونصب عروج عليها أخاه خير الدين على أن يكون مركزه ولسى ،وساعد عروج فى السيطرة على تلك النواحى هو ما كان قائما بين زعماء بنى عباس وأهل جبل كوكو من تنازع واختلاف على السيادة لتلك النواحى (٤) ،ثم هاجم عروج بجيش موءلف من ألف تركى وفرق من المجاهدين الاندلسيين والجزائريين ملبين داعى الوحدة والجهاد الاسلامى المتأجج فى قلوب المسلمين وحكم عروج تنس فى ٩٢٣هـ (١٥١٧م) وقتل حاكمها الموالى للاسبان ،بعد ذلك رأى عروج أن يقسم المملكة اداريا الى منطقتين وذلك حتى يسهل عليه السيطرة على البلاد،والاضطلاع بأمورها ،منطقة شرقية يشرف عليها خيرالدين ومقرها ولسى ،وأخرى غربية يشرف عليها عروج بنفسه ومقرها الجزائر الميناء ،لذلك غادر خير الدين مدينة تنس ،واتجه نحو دلسى فأفتتحها دون مقاومة تذكر وانتصب بها ممثلا للحكومة الجديدة (٥)

---

(١) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٨٧ ٠

(٢) عبد الرحمن الجيلالى : مرجع سبق ذكره ،ج٣ ،ص ٤٢ ٠

(٣) الحسن بن محمد الوزان : مرجع سبق ذكره ،ج٢ ،ص ٣٥ ٠

(٤) عبد الرحمن الجيلالى : نفس المرجع ،ج٣ ،ص ٤٢ ٠

(٥) احمد توفيق مدنى : نفس المرجع ،ص ١٨٥ – ١٨٦ ٠

وبرفقته جنوده الذين شاركوه الجهاد ،وقرر لهم مرتبات وذلك ليستعين بهم على ما تبقى من النواحى كما عين خير الدين فى بعض المواطن نوابا عنه ، كان عددهم أربعة نواب .(١)

كان عروج فى حاجة الى صبغة شرعية لامتلاكه الامصار والاراضى التى فتحها ،لذلك ربط تلك الفتوحات باسم الدولة العثمانية ،فصار يغزو باسمها وكانت الدولة العثمانية حريصة على مثل هذا العمل بل وتشجعه لتحقيق أهدافها فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ، أما الاسبان وأحلافهم فقد هالهم الأمر وأستعدوا للقيام بعمل أكبر ،للتصدى لذلك (٢) اذ أن الجهاد الذى مارسه العثمانيون منذ تأسيس دولتهم نوعان : جهاد بحرى ،وجهاد برى فالجهاد الأول كان فى البحر لا يعرف حدودا سوى حدود الغلبة والهزيمة فهو حرب بكل معنى الكلمة ،كان العثمانيون خلاله يجوبون البحر المتوسط والمحيط الاطلسى وبحر الشمال لفرض حصار حول الأندلس ، ووصلوا بمغامراتهم ومطارداتهم لاعدائهم الى شواطئ افريقيا الغربية وجزر الكنارى وشواطئ انكلترا ،وكان هذا الجهاد موجها ضد كل الدول المسيحية التى لا تعقد معاهدة صداقة مع الجزائر ويقتضى ذلك مطاردة سفن العدو فى البحر والاستيلاء عليها بما فيها من غنائم وأخذها الى الجزائر .(٣)

كانت تلمسان مسرحا للتنافس على الحكم بين أفراد الأسرة الحاكمة من بنو زيان ،فتنافس أبو حمر الثالث وأبن أخيه أبو زيان أحمد ،فأتجه الأول الى الأسبان مستنجدا بهم ليساعدوه فى الوصول الى الحكم ،مما أدى الى ذهاب أبو زيان أحمد الى عروج وذلك لنجدته ،وانقاذ البلاد من التدخل الاسبانى الذى اضر بحياة السكان (٤) .

---

(١) عبد القادر محمد بن عمر : مرجع سبق ذكره ،ق ١٨ أ .
(٢) محمد العمروسى المطوى : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٦٨-٢٦٩.
(٣) أبو القاسم سعد الله : مرجع سبق ذكره،جا ،ص ١٩٤ .
(٤) شوقى عطا الله : مرجع سبق ذكره ،ص ٨٥ .

اندفع عروج نحو تلمسان وقطع عدة مراحل لنجدة أبو زيان أحمد فأخذ طريقه الى تلمسان بين الهضاب الداخلية ،وذلك حتى لا يصطدم بالاسبان من ناحية وهران ،فيصدوه عن تلمسان ،أو يقطعوا عنه خط الرجعة وعندما وصل الى قلعة بنى راشد " هوارة " [١] أتخذها مركزا لحماية مواصلاته ،وترك فيها أخاه اسحاق على رأس فرقة من الجنود ليحفظ موءخرته وخط تراجعه ،كما أمرهم بالتضييق على الاسبان فى وهران ،وعرقلة أعمالهم وتحركاتهم العسكرية وحتى لا يعوقوا سيره نحو تلمسان [٢] وعندما اقترب عروج من أحواز تلمسان تدفق أهلها عليه من كل ناحية ،وتلقوه بالطاعة والخدمة ،فلما رأى سلطانها ذلك ،أدرك أنه لا طاقة له لحربه ففر منها بعد أن جمع كل ما وصلت اليه يداه من ذخائر وأموال ،ودخل عروج تلمسان [٣] بكل سهولة .

أجلس عروج على كرسى تلمسان السلطان أبو زيان ،بدلا من عمه أبو حمو الثالث ،الذى سبق وأن اغتصب الحكم ،ثم حاول عروج أن يوفق بين رغبته فى توحيد البلاد تحت ادارة مركزية قوية فى مدينة الجزائر والاستعداد العام لمواجهة الاسبان ،وتخليص البلاد من مضايقتهم ،وبين بقاء الحكم لبنى زيان على ناحية تلمسان ،ضمن دولة الجزائر ،لكن التوفيق بين عمليتى الجمع والفرقة أمر صعب ايجاده فلم يستقر الوضع بتلمسان آلا قليلا ،فعادت الاضطرابات والفتن والدسائس ،وشجعها الاسبان من جهة والطامعون فى العرش من جهة أخرى ،وتولى السلطان أبو زيان وأشياع عمه أبو حمو معا [٤]،كان ذلك بينما كان عروج قد توجه الى المغرب فوصل وجده واخضع بنى يزناسن وشرع فى اجراء مباحثات مع الوطاسيين فى فاس للتعاون معهم ضد الاسبان [٥]،

---

(١) هوارة أو قلعة بنى راشد : هى قلعة صغيرة من ولاية وهران تبعد عن معسكر بنحو ٢٥ كم وعن مستغانم ٥٥كم وتعتبر من أغنى البلاد زراعيا يعتمد عليها الاسبان فى ذلك .

(٢) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٨٧ – ١٨٨ .

(٣) عبد القادر بن محمد بن عمر : مرجع سبق ذكره ،ق ١٨ب .

(٤) احمد توفيق مدنى : نفس المرجع،ص ١٨٨ – ١٨٩ .

(٥) محمدخير فارس : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٦ – ٢٧ .

وعندما عاد الى تلمسان قتل أبا زيان الذى سبق وأن نصبه عليها ،بينما توجه أبوحمو الثالث الى وهران ،واجتاز البحر الى اسبانيا لمقابلة ملكها شارل ،متوسلا اليه أن يعينه على أهل تلمسان وعروج [١] ،فأصدر أوامره الى حاكم مدينة وهران بأن يستعمل كل امكانياته لارجاع أبو حمو الثالث الى عرش تلمسان ،وابعاد خطر التوسع التركى عن أنقاض مملكة بنى زيان ،وأمده بجيش كبير وعتاد فخرج أبو حمو على رأس جموع من الأعراب ومعه فرقة من الجيش الاسبانى ،فداهموا أول الأمر قلعة بنى راشد ،حيث رابض اسحاق شقيق عروج ،ونازلوها بقوة وعنف وتمكنوا منها بعد دفاع عظيم ولم يستسلم لهم اسحاق [٢] على الرغم من الحصار الذى فرض عليهم والذى دام ستة أشهر ،بعد ذلك اضطر الاسبان الى ضرب القلعة بالمدافع فأحدثت فجوة فيها ،وأراد الاسبان النفاذ منها ،لكن منعهم من ذلك طائفة من الغزاة ،وأشترط اسحاق لتسليم القلعة أن يخرج كافة المسلمين بجميع أشيائهم وأمتعتهم ،فوقع الاتفاق على ذلك ،وعندما خرج المسلمون نقض الاسبان شروطهم وقام قتال شديد قتل أثناءه اسحاق وأستمرت البقية فى القتال حتى استشهدوا جميعا ،فأستولى على القلعة أبو حمو الثالث ثم توجه هو ومن معه من العرب والاسبان الى تلمسان فحاصرها ،وخرج اليه عروج وجماعته فلم يزل يقاتله حتى استشهد وكذلك جماعته الذين قاتلوا حتى استشهدوا [٣] وذلك بالقرب من الوادى المالح على مقربة من مدينة وجدة كان ذلك فى جماد أول ٩٢٤هـ/مايو١٥١٨م ،فسر لقتله الاسبان ،واحتزوا رأسه وأخذوه معهم الى بلادهم وطافوا به الشوارع وحصل ارتياح كبير لدى الاوساط الاسبانية ،التى رأت الفرصة سانحة لاطفاء ما يتأجج فى صدرها من نار طلب الثأر من سكان شمال افريقيا المسلمين منذ امتداد حكمهم للاندلس فى العصور السابقة .[٤]

---

(١) الحسن بن محمد الوزان : مرجع سبق ذكره ،ج٢ ،ص ٩ .
(٢) أحمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٨٩ - ١٩٠ .
(٣) عبد القادر بن عمر بن محمد : مرجع سبق ذكره ،ق١٩أ،١٩ب.
(٤) عبد الرحمن الجيلالى : مرجع سبق ذكره ،ج٣ ،ص ٤٤ .

أعاد الاسبان أبا حمو الثالث ملكا على تلمسان ،على أن يكون حليفهم وقطع على نفسه عهودا ،وهى أن يوءدى للأسبان أتاوة حددت ب ١٢٠٠٠ مثقال من الذهب و ١٢ فرس و ٦ صقور اناث ،وظل ملتزما بذلك طوال حياته ،وعندما آل الحكم الى أخيه عبد الله بعد وفاته ،أمتنع عن آداء ما كان يدفعه أبو حمو للاسبان ،وذلك ثقة منه فى مساندة السلطان العثمانى .(١)

من خلال ذلك كله آتضح لنا صدى حروب الاسترداد المسيحية لدى المسلمين الذين أصبغوا على حروبهم مع المسيحيين روح الجهاد ،الذى ساد العصر كله ،وهناك تجمع مجاهدون من جميع أنحاء العالم الاسلامى ،وصمموا على استرداد المناطق التى آحتلها المسيحيون فى الشمال الافريقى ،وذلك تمهيدا لارجاع الحكم الاسلامى الى الاندلس ،ووافق ذلك هدف الدولة العثمانية التى قدمت العون للمجاهدين بل وشجعتهم بكل الوسائل لتحقيق أهدافهم على الرغم من مشاغلها فى الجبهة الشرقية والاوروبية ،والمتاعب التى كان يسببها الفرس ،وترقب الخطر البرتغالى القادم من الجنوب .

---

(١) الحسن بن محمد الوزان ،مرجع سبق ذكره ،ج٢ ،ص ١٠ .

تشجعت الحكومة الاسبانية فى الوقوف أمام الجبهة الاسلامية بقيادة خير الدين بربروسا ،ورغبت فى القضاء على تلك القوة الاسلامية والروح الجهادية التى ظهرت بها ،والتى أخذت تهدد الاستراتيجية الاسبانية فى الحوض الغربى للبحر المتوسط والشمال الافريقى ،لتحقيق أهداف الدولة العثمانية فى تلك المنطقة والتى تعتبر مقدمة لاسترداد الاندلس .

جمع شارل ملك اسبانيا جيوشه ،وأخذ فى تجهيز السفن ،لتوجيه ضربة قاضية للمسلمين فى الجزائر فوصلت تلك الحملة الى وهران واستكملت عدتها هناك ،ثم توجهت الى الجزائر ،هذا بينما أخذ حاكم تلمسان يستعد لمواجهة خير الدين الذى أوعز لسكان الجزائر بأن يستقبلوه أحسن الاستقبال وألا يظهروا له عداوتهم ،وبالفعل أستقبل أهالى الجزائر حاكم تلمسان بحفاوة بالغة ،حسب تعليمات خير الدين بربروسا ،ورست السفن الاسبانية على ساحل الجزائر ،كما بعث الاسبان برسالة لخير الدين ،اذ طلبوا منه الجزائر ،واذا لم يتنازل خير الدين عنها ،فسيصيبه ما حل بأخويه عروج واسحاق فى تلمسان ،وما آل أمرهما اليه من الاهانة والقتل (١) وأجابهم خير الدين على ذلك أن أخويه اللذين استشهدا فى سبيل الله أحياء عند ربهم يرزقون ،وعندما علم القائد الاسبانى بموقف خير الدين ،تحركت حميته وبدأ فى انزال جنوده على الساحل ،وتم ذلك فى يومين ،بينما نظم خير الدين جنوده ،ووضع خطة حربية لذلك ،وبدأت المعركة التى استمرت يوما واحدا ، اذ أخلص المسلمون فيها نياتهم وهجموا على المسيحيين ،وبعناية الله انتصر المجاهدون ،على الاسبان الذين هربوا الى سفنهم ومن خلفهم المسلمين، وأسروا أعدادا كبيرة من الاسبان وعاد حاكم تلمسان الى ولايته .(٢)

كان وجود الأسرى مشكلة للمسلمين ،فأقترح أهل الجزائر على خيرالدين بأن يقوم هوءلاء الاسرى بعمل ،خاصة وأن القلعة الاسبانية ليست بعيدة عن

---

(١) محمد أمين : مرجع سبق ذكره ،ق ٦٢ب .
(٢) احمد جواد مولى : مرجع سبق ذكره ،ق ٨أ ،١٠ ب .
، محمد أمين : نفس المرجع ،ق ٩٠أ ،٩٠ب .

معسكر المسلمين ،فأصدر خير الدين أوامره بانشاء ثلاثة سجون لايوائهم الا أن بعض الاسرى حاولوا الفرار الى القلعة بعد أن قتلوا الحراس المسلمين وعندما سمع المسلمون بذلك قاموا بقتل القتلة ، وقامت المفاوضات بين خير الدين والاسبان لافتداء هوءلاء الاسرى بمبالغ كبيرة من الاموال ،فرفض خيرالدين ذلك واستمع لرأى بعض العلماء المسلمين ،الذين أفتوا بقتلهم جميعا،لانهم عندما يعودون لاسبانيا ،فانهم سيعودون الى الجزائر خاصة وانهم القادة الاسبان ،فنفذ خير الدين ما جاء فى فتوة هوءلاء العلماء معلقا على ذلك بقوله : " أنا فعلت ذلك امتثالا للفتوى لأنه من أمتثل للشرع فأن الله سيجزيه خير الجزاء " ،و أحدث خبر مقتل الأسرى حزنا عميقا فى الاوساط الاسبانية .(١)

عزم خير الدين بربروسا على السفر الى اقليم الروم بغرض الغزو ومواصلة الجهاد ،فجمع أعيان أهل الجزائر من المشايخ والعلماء ،وأوضح لهم عزمه على السفر الى السلطان العثمانى ،بعد أن أمن بلاد الجزائروصار لديهم جنود مجاهدون كما وصل أعداد كبيرة من الاندلسيين علاوة على الاسلحة الأمر الذى يقوم به الجهاد ،وأن المسيحيين قد صدوا عن الجزائر ، وصاروا لا يطمعون فيها بعد ذلك ،وأنه عندما قدم الى الجزائر لم يكن لدى الجزائريين مدفع واحد ،وصار لديهم بعد ذلك أربعمائة مدفع ،وعلى الجزائريين اختيار واحد منهم يكون من خيارهم ليكون أميرا عليهم ،بعد أن انتهت المهمة التى جاء من أجلها .(٢)

ناشد علماء الجزائر خير الدين وقالوا له أيها الأمير يتعين جلوسك فى هذه المدينة بغرض حراستها ،ولا رخصة لك فى الذهاب عن الجزائريين وتركهم عرضة للعدو الكافر ،واذا كنت تخشى أن يكون لك أجر فى الجهاد ببلاد الروم ،فان هنالك كثير من يقوم بهم غيرك ،والمصلحة التامة هى اقامتك فى مدينة الجزائر من اجل حمايتها ،فلما أكثر العلماء الكلام على خير

---

(١) احمد جواد موللى : مرجع سبق ذكره ،١١أ ،١٣ب .

(٢) عبد القادر بن عمر بن محمد : مرجع سبق ذكره ،ق ٢٣ب .

الدين أجابهم بأنه يشعر بالغربة فى الجزائر ، اذ أنه من جزيرة مدللــــى، وأنهم رأوا موقف سلطان تلمسان السابق ،وكيف جلب الاسبان على المسلميـــن لـولا عناية الله وكفاهم شرهم وردهم على أعقابهم ،ورجع سلطان تلمســـان الى بلاده بخيبة وخسرة ،بالاضافة الى موقف سلطان تونس الحفصى ، الذى لـم يقدم يد العون والمساعدة فى جهاد العدو ،وذكر لهم خير الدين بأنه لـــم يغتصب الجزائر من يد واحد منهما ،وانما استولى عليها بعناية اللـــه وخلصها من براثن العدو وكذلك كان أخوه عروج ،وكان على سلطان تلمســـان وتونس أن يكونوا يد واحدة مع المجاهدين فى الدفاع عن الاسلام والأراضـى الاسلامية ،وجهاد أعداء الله .(١)

أقترح خيرالدين بربروسا على الجزائريين لحماية مدينتهم ،بـــأن يمدوا يد الطاعة للسلطان العثمانى واذا فعلوا ذلك ، فان السلطان العثمانى سوف يمدهم بالمال والرجال وجميع ما يحتاجون اليه من آلات الجهاد ،ولا يكون ذلك الا بالدعاء فى الخطبة له وضرب السكة باسمه ،فرضى الجزائريون بذلـــك واستحسنوا رأيه .

أمر خير الدين سكان الجزائر أن يكتبوا على لسانهم رسالة للسلطـان العثمانى يخبرونه بغرض طاعتهم اليه ،وأنهم من جملة من يقام فيهـــــم أحكامه ،ويكتب خير الدين بدوره خطابا مثل خطابهم ،ففعلوا ذلك ،وعيـــن خير الدين أربع سفن للسفر الى حضرة السلطان وعلى رأسها رجل من خواصـه اسمه الحاج حسين ،ووجه صحبتهم هدية عظيمة للسلطان سليم ،ومن ذلك أربعـة قواد من الأسرى المسيحيين ،فقبل السلطان سليم الهدية ،وأمر بانزال الوفـد واجراء النفقة عليهم ،وعندما عزموا على العودة وجه صحبتهم خطابـــــا وسنجقا الى أهل الجزائر بقبول ما كتبوا اليه ،وانهم ممن تشملهم عنايتـه وتحرسهم رعايته (٢) ،فأرسل السلطان سليم ألفى جندى من قوة سلاح المدفعيـة

---

(١) عبد القادر ابن عمر بن محمد : مرجع سبق ذكره ،ق ٢٣أ .
(٢) عبد القادر ابن عمر بن محمد : نفـــس المرجـع ،ق ٢٣ب،٢٤أ.

العثمانية ،وكانت المدفعية (طوب) العثمانية أقوى مدفعية فى ذلك الوقت ومن أقوى اسلحة الجيش العثمانى [١]، كما أرسل أربعة آلاف من المتطوعة للجهاد وجند الانكشارية ،وجاء معهم كثير من المهاجرين الاتراك ،ومن هوءلاء الجنود والمهاجرين تكون الأوجاق أو قوة الجزائر الحربية [٢]،وذلك بعد أن أعطى السلطان سليم للذين يذهبون الى الجزائر كمتطوعين امتيازات الانكشارية [٣] ،تشجيعا لهم على الانضمام الى كتائب المجاهدين ،وقد أقبل سكان الاناضول على السفر الى الجزائر والتطوع فى عمليات الجهاد ،كما بادر بمنح خير الدين لقب بيلربك الجزائر ٩٢٤هـ / ١٥١٨م وهو من أعظم ألقاب الدولة العثمانية .[٤]

وكان من مدلولات بيلربيكيه [٥] الجزائر أن الدولة العثمانية جعلت الجزائر قاعدة حربية ،لتزحف منها الى الاندلس لاستردادها ،من خلال ذلك فقد أعتبرت الجزائر ولاية ممتازة ،واعتبرت قاعدة الحكم العثمانى فى شمال افريقيا ،وفى غرب البحر المتوسط وآشرفت على اخضاع باقى شمال افريقيا للسلطة العثمانية وظلت هى المسئولة عن توجيهات الحكم فى طرابلس وتونس [٦]، ان منح خير الدين لقب بيلربك الجزائر أى أمير الأمراء،وهو من أرفع المناصب فى الدولة ،والتى تخول صاحبها

---

(١) عبد العزيز الشناوى : مرجع سبق ذكره جـ٢ ،ص ٩١١ .

(٢) عبد الرحمن الجيلالى : مرجع سبق ذكره ،جـ٣ ،ص ٤٦ .

(٣) ارجمنت كوران : السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسى للجزائر ص ٢٢ .

(٤) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٠ .

(٥) والبيلربيكية فى الدولة العثمانية نظام ادارى ،وتعتبر قاعدة ارتكاز لزحف يتلوها ،ومثال ذلك كانت بغداد بيلربيكية سنة ٩٤١هـ/١٥٣٤م ،ثم صارت البصرة بعد ذلك سنة ٩٥٣هـ / ١٥٤٦م.

(٦) محمد خير فارس : نفس المرجع ،ص ٥٦ .

اختصاصات ادارية واسعة ،كما تجعله قائدا أعلى للقوات المسلحة فى اقليمه ممثلا للسلطان ،دليل على أهمية المواجهة بين الاسلام والمسيحية للسيطرة على البحر المتوسط اذا كانت الأحداث فى غربى البحر المتوسط تتطلب وجود شخصية فى الجزائر ،كما كانت تقتضى وجود تعاون وثيق بين السلطنة ونوابها فى الجزائر ،ذلك أن ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية جرى فى الوقت الذى أتحدت فيه مملكة اسبانيا مع الامبراطورية الرومانية المقدسة بتاج واحد حمله ملك اسبانيا باسم شارل الخامس (١) ،فكان معنى هذا ارتباط موقف اسبانيا بموقف الامبراطور المعادى للدولة العثمانية (٢)، اذ أن السلطان سليم أثناء وجوده بالقاهرة قد أدرك أهمية الجزائر بالنسبة للجهاد ،وأدرك مدى المسئولية التى أضطلع بحملها (٣)،لذلك سعى فى تدعيم وجود الدولة هناك .

عندما سمع أهل طرابلس بانضمام الجزائر الى الدولة العثمانية سنة ٩٢٤هـ (١٥١٨م) ،وشاهدوا الدعم السخى من الدولة وبعد أن عجزوا فى التخلص من الوجود المسيحى فى طرابلس ،بسبب ضعف امكانياتهم الحربية والبشرية وقلة مواردهم المالية ،رأوا أن ينهجوا نهج أهل الجزائر (٤)، فبعثوا فى ٩٢٥هـ (١٥١٩م) وفدا الى استانبول يطلب المساعدة لتخليص بلادهم من الوجود المسيحى ،فأستجاب السلطان العثمانى لمطالبهم ،وأمر باسناد امارة طرابلس الىمراد آغا ،وذلك لمعرفته باللغة العربية ،وبرفقته جنود عثمانيين ،وأقام مراد ادارة فى تاجوراء باسم الدولة العثمانية ، وشيد حصنا ليكون مركز امامى فيما بين طرابلس وتاجوراء ،وبذل جهود كبيرة فى مقاومة فرسان القديس يوحنا ، الذين يتلقون دعما كبيرا من اسبانيا .(٥)

---

(١) عبدالعزيز الشناوى : مرجع سبق ذكره جـ٢ ،ص ٩١١ .

(٢) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ، ص ٥٨ .

(٣) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٩٨ .

(٤) عبد العزيزالشناوى : نفس المرجع ،جـ٢،ص٩٢٨- ص ٩٢٩ .

(٥) عزيز سامح : الاتراك العثمانيون فى افريقيا الشمالية ،ص ٢٢ - ٢٣ ، نجم الدين غالب : مدينة طرابلس عبر التاريخ ،ص ٩١ .

لم يكن بذلك امتداد نفوذ الدولة العثمانية لكل من تونس والجزائر بواسطة غزو عسكرى ،بل جاء تدخل الدولة نتيجة لاشتداد الصراع بين الاسلام والمسيحية فى الحوض الغربى للبحر المتوسط فى أوائل القرن السادس عشر (١) ونتيجة لطلب الأهالى فى تلك المناطق ، الذين رغبوا فى ربط مصيرهم بالدولة العثمانية ،لوحدة الهدف فأمتلأت القلاع والثكنات العسكرية والسفن ، وخاضوا حروب الجهاد (٢) بكل قوة واقتدار ،كما ساهم سكان تلك المناطق من طرابلس الى مراكش مع الدولة العثمانية بالخبراء الفنيين والبحارة (٣)، وبدت تلك الحروب غاية فى القوة تجسدت فيها كل ملامح التلاحم الاسلامى.

ان اهم مميزات الوجود العثمانى فى الشمال الافريقى بوجه عام والجزائر بوجه خاص هى استمرارية فكرة الجهاد ضد المسيحية بالمعنى التقليدى للكلمة ،وبالمعنى الذى آمن به العثمانيون منذ نشأة امارتهم ثم دولتهم ،ومنذ أن صاروا جنودا على حدود الدولة الاسلامية يغيروا على بيزنطة فيستشهدوا أو ينتصروا • هذا المعنى للجهاد وهو الذى جاء به العثمانيون للجزائر أيضا ،فهو اذا من تقاليدهم العريقة ،وقد أنضم اليه جهاد الاندلسيين ،وأهل شمال افريقيا ،وهم ايضا كانوا يستعملون الجهاد وفى معناه الذى ورثوه عن أجدادهم (٤)،لذا كانت أهمية الدولة العثمانية أنها تجربة فريدة وجريئة فى تطبيق النظم الاسلامية ،وعلى الأخص فى معاملة أهل الذمة فى العصور الحديثة (٥) ،من هذا المنطلق أخذ المسلمون فى الاندلس يسترحمون من الدولة العثمانية القائمة بالاسلام مساعدتهم على الاسبان ووافق ذلك الوقت وفاة السلطان سليم ٩٢٥هـ (١٥٢٠م) ،وجلوس السلطان سليمان القانونى على العرش ،ولما عرضوا عليه الاسترحام المذكور رق قلبه لحال المسلمين ووعد بارسال حملة عسكرية لمساعدتهم وتخليصهم من

---

(١) صلاح العقاد : مرجع سبق ذكره ،ص ١٩ •

(٢) أبو القاسم سعد الله : مرجع سبق ذكره ،جا ،ص ١٣٥ •

3- Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P.89 .

(٤) أبو القاسم سعد الله : نفس المرجع ،جا ،ص ١٣٩ •

(٥) محمد البحراوى : التاريخ المعاصر •• مجلة الدارة ،العدد(٢) ،السنة ١١، ص ٨١ •

الضيق .(١)

كان التحاق الجزائر بالباب العالى باعثا قويا لاضطراب الأمور فيها فقد كان على خير الدين أن يحارب فى جبهتين ، الجبهة الخارجية ،وتتمثل فى ذلك الصراع العنيف مع الدول الأوروبية عامة واسبانيا التى ساد الفزع فيها ،عند اعلان انضمام الجزائر للمجموعة الاسلامية العثمانية ،ومن ثم وصول الخطر الاسلامى العثمانى الى هذا الجزء الغربى من البحر المتوسط لاسترداد الاندلس ،والذى يعتبره الاسبان بحكم استيلائهم على أهم المدن الساحلية الجزائرية وعلى جزره الكبرى ومعظم السواحل الايطالية بحرا اسبانيا صميما (٢)،وهناك الجبهة الداخلية التى تتمثل فى محاولة توحيد بلاد المغرب تحت حكمه ،الا أنه تعرض فى هذا السبيل لموءمرات الحفصيين بتونس ،وبنى زيان فى تلمسان ،علاوة على امارات القبائل الصغيرة (٣)،وذلك خشية امتداد القوة العثمانية الى بلادهم ،ونشر جناح السلطنة على كامل بلاد المغرب العربى ،فأجتهد الحفصيون الزيانيون يومئذ فى العمل على قطع العلاقة بين الجزائر واستانبول ،وسعوا فى ايقاد الفتن والثورات الوطنية ضد السلطة العثمانية ،وأنفقت فى سبيل ذلك أموال طائلة ،وفيهم من أستعان بملوك الاسبان وملوك المغرب الأقصى .(٤)

تضايق سلطان تونس من خيرالدين ،فوجه الى سلطان تلمسان أبو عبد الله الزيانى خطابا يقول فيه أنظر الى مملكة الأتراك كيف استقرت بالجزائر ،وأن خير الدين دانت له القلعة ،واتصلت بالمملكة أعوانه ،وأنه أى خير الدين قد فتح عمالة الجزائر بطائفة قليلة من الجنود الذين كانوا يغزون معه فى البحر وأما الآن فان الامدادات وجميع ما يحتاج اليه تأتيه

---

(١) اسماعيل سرهنك : مرجع سبق ذكره ،جا ،ص ٣٦١ .
(٢) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٠٥ .
(٣) صلاح العقاد : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٢ .
(٤) عبد الرحمن الجيلالى : مرجع سبق ذكره ،ج٣ ،ص ٤٧ .

من السلطان العثمانى فى البحر ،وهو يتفرع لى ولك ويسلبنا ملك أبائنا وأجدادنا باقتدار ،وقبل أن تتسع تلك الفجوة ،يجب أن نكون يد واحدة (١).

كان لسلطان تلمسان أبو عبد الله الزيانى أخوان وكانا قد هربا الى صاحب فاس وظلا هناك حتى طلبهما أخوهما ،ورجعا اليه بعد أن تعهد أبو عبد الله بضمان سلامتهم (٢)، وعندما أقترب الأخوان من نواحى تلمسان توهما من أخيهما شرا ، ففر أحدهما الى وهران والآخر دخل فى عمالة خير الدين فأستعطفه بمساعدته على أخيه ،ووافقه خير الدين على ذلك ،فبعث الى شيوخ القبائل خطابا يدعوهم فيه الى خلع صاحب تلمسان أبى عبد الله وبيعة أخيه مسعود ،فأجابته كافة القبائل الى ذلك ،وأجتمع نحو عشرين ألف رجل مع مسعود ،وبعث اليهم خير الدين بطائفة من الجنود ،فذهب مسعود وبمن معه من رجال القبائل والجنود التى وجهها اليه خير الدين الى تلمسان ،فهرب أبو عبد الله ودخلها مسعود ،وأقام بها حكمه تحت اشراف خير الدين .

عندما عاد جنود خير الدين الى الجزائر ،طمع مسعود وحدثته نفسه بالاستقلال بتلمسان ،والخروج عن طاعة خير الدين ،فبعث الى الاسبان فى وهران خطابا طلب فيه أن يكونوا يد واحدة فى حرب العثمانيين بقيادة خير الدين فعلم بذلك خير الدين فوجه اليه خطابا يلومه على ما فعل ،ويحذره عاقبة أمره ،ويقول له فيه أنك ان تماديت على موالاة الاسبان ،والانحياز اليهم فلابد أن انتقم منك غاية الانتقام ،وأجعلك حديثا بين الأنام فأنظر لنفسك ،وجدد اسلامك وتب الى الله عز وجل من هذا الذنب العظيم فان الله يقبل التوبة عن عباده ويعفوا عن السيئات ،وكان خير الدين نفسه فى نفس الوقت الذى بعث فيه الخطاب المذكور أخذ فى الاستعداد لمواجهته اذا لم يستجب لذلك التحذير .(٣)

---

(١) عبد القادر ابن عمر بن محمد : مرجع سبق ذكره ،ق ٢٤ب ، ٢٥أ .

(٢) محمد أمين : مرجع سبق ذكره ،ق ٧٩ب ، ٨٠ أ .

(٣) عبد القادر بن عمر بن محمد : نفس المرجع ،ق ٢٥ب ، ٢٦أ .

سمع أبو عبدالله الزيانى بالاحداث السابقة ،فطمع بملك تلمسان مرة اخرى ،فبعث الى رجل صالح من صلحاء ذلك الوقت ،ليتشفع به لدى خير الدين ومن جملة ما قاله أبو عبد الله ان خلصنى خير الدين وردنى الى ملكى أكون عبدا من عبيده يتصرف بى كيف يشاء ،وأنا أعلن توبتى الى الله من مخالفته والخروج عن أمره ،فتوجه ذلك الرجل الصالح الى خير الدين فى الجزائر بغرض الشفاعة لأبو عبد الله ،وقبل خير الدين تلك الوساطة من قبل ذلك الرجل ، وبعث خير الدين لأبو عبد الله بالحضور اليه بالجزائر ،للتفاوض معه فى أمر تلمسان ،فأجابه بخطاب أنه لا يستطيع الحضور للجزائر ، خوفا من ترصد أخيه مسعود فى الطريق ،واذا رغب خير الدين أن يحصل على هدفه بخصوص تلمسان ،فعليه القدوم الى مستغانم فبعد فتحها يتم التفاوض على تلمسان .

جهز خيرالدين ثمان وعشرين سفينة بجميع ما تحتاج اليه من العدة والعدد ،كما جهز جنود من ناحية البر ،وذلك لحصار مستغانم برا وبحرا ففتحها وخلصها من مسعود ،وعندما استقرت الأوضاع خرج أبو عبد الله من وهران ،وعندما سمع ذلك خير الدين سر بهذا النبأ ،بينما أتجهت سفن خير الدين والتى ساعدت فى حصار مستغانم الى الاندلس لانقاذ المسلمين هناك ومساعدتهم فى العبور للجزائر ،كما أتجهت القوة البرية الى قلعة بنى راشد وخلصتها من مسعود ،ثم توجهت الى تلمسان وصحبتهم عبد الله الزيانى (١)

حاصرت قوة خيرالدين تلمسان وضيقوا عليها الخناق ،ثم تم فتحها وفر مسعود الى بلاد القبائل ،وعينوا مولاى عبد الله وأعادوه الى العرش الزيانى تحت اشراف خير الدين ،ثم اغارت قوة عثمانية على القبيلة التى تواجد فيها مسعود ،وأستطاعوا القبض عليه وسلموه لأخيه عبد الله ،الذى أودعه السجن حتى توفى فيه .(٢)

---

(١) عبد القادر ابن عمر بن محمد : مرجع سبق ذكره ،٢٦ب ،٢٧أ .
(٢) محمد أمين : مرجع سبق ذكره ،ق ٩٢أ ،٩٢ب .

أسس أحمد بن القاضى امارة بجبل كوكو،وعندما تولى خير الدين أمر البلاد أقر أمارته وأستقر ابن القاضى بجبل كوكو (سوق الاربعاء) من بلاد زواده ،الا أن السلطان الحفصى اجتهد فى التفريق بين احمد بن القاضى وخيرالدين ،فرفض ابن القاضى سيطرة الحكم العثمانى ،وقام بمناهضة حكمهم فى النواحى الشرقية من الجزائر ،وساعده فى ذلك الحفصيون (١) الذين جهزوا عدتهم لمواجهة العثمانيين ،وعندما سمع ذلك خير الدين وجه قواته الى الناحية الشرقية بناحية تيفليست يمليل ،فأنهزم الحفصيون ،وحاصرهم العثمانيون فى احدى الجبال ،فتقدم احمد بن القاضى وأظهر صداقته واخلاصه للعثمانيين ،وأشار عليهم بالصعود للجبل لاستئصال الحفصيين ،وهناك وعندما وجد العثمانيون الحفصيين بمكان ضيق فى الجبل أرادوا الهجوم على الحفصيين للقضاء عليهم الا أن ابن القاضى وثب على العثمانيين وغلبهم ثم اخذ ابن القاضى فى الاستيلاء على النواحى الشرقية ،ولم يبق لخير الدين سوى مدينة الجزائر ،فتقدم اليها ابن القاضى بجنود كبيرة وحاصرها حتى ضاق أهل الجزائر بذلك الحصار الذى أجهدهم كثيرا ٠

دخل فصل الشتاء ،وأراد ابن القاضى رفع الحصار والعودة الى موطنه فمنعه من ذلك العرب الذين معه من نواحى الجزائر قائلين له أنا كنا مع العثمانيين فى أمان وعافية ولم نر منهم الا الخير فراودتنا عن ذلك وغررتنا حتى تحولنا عن طاعتهم وقاتلناهم ،فاذا عدت الى حال سبيلك فسوف يقتلوننا ،ولم يزالوا به حتى منعوه من الذهاب ،فتحير ابن القاضى عند ذلك ورأى مصالحة خير الدين ، فبعث أكابر قومه ومشائخهم الى خير الدين يطلبون منه العفو والصفح ،وكان خير الدين رجلا حليما ،وقبل منهم سياسة منه وهو يعلم ما يكيده ابن القاضى ،وشرط خير الدين أن يردوا اليه جميع الأسرى العثمانيين ،ويدفع ابن القاضى جزية سنوية فرضى ابن القاضى وجماعته بذلك ،وسلم لخير الدين جميع الأسرى ،كما دفع جزءا من الجزية ٠

---

(١) عبد الرحمن الجيلالى : مرجع سبق ذكره ،ج٣ ،ص ٤٨ ٠

جهز ابن القاضى حملة أخرى لشقيقه ،ورغب فى ارسالها للجزائر الا ان خير الدين سمع بتلك الاستعدادات فبادر عليهم ،ووجه جنوده اليهم بالقرب من الجزائر ،وأنتصر العثمانيون ،وفر شقيق ابن القاضى من المعركة (١) وكانت فى النواحى الشرقية بعض القلاع والمدن ،سبق وأن أستولى عليها ابن القاضى ووضع فيها رجاله ،وبعد أن استقر خير الدين رغب فى تخليص تلك المدن والقلاع من يد أبن القاضى ،فجهز حملة بقيادة قرة حسن الذى أستطاع تحقيق تلك الأهداف وخلص جميع القلاع منيد ابن القاضى وعينه خير الدين بيكا على النواحى الشرقية ،وعندما شاهد ابن القاضى ذلك ،لم يستطع ان يقاوم النفوذ العثمانى ،فأخذ فى اشعال الفتنة بين خير الدين وقره حسن ،وبعث خطابا الى الأخير ذكر فيه أنه قام بمجهود كبير حتى أستطاع أن يفتح تلك النواحى ،وصارت ملكا له ،فمن الأجدر أن أن يستقل عن خير الدين ويصير ملكا ويجبى الضرائب لنفسه بدلا من ارسالها لخير الدين ،فسولت نفس قره حسن على الخروج عن طاعة خير الدين ،وصارت النواحى الشرقية بين احمد ابن القاضى وقره حسن .(٢)

لم يكتف ابن القاضى بذلك ،بل دعى أعيان أهل الجزائر للوثوب على خير الدين والخروج عن طاعة الدولة العثمانية فأضطربت الأوضاع فى الجزائر وانقسم الجزائريون على أنفسهم بين موءيد ومعارض ،وحدثت فيه القلاقل والفتن مما جعل خير الدين أن يترك العاصمة ويخرج منها الى جيجل .(٣)

كان لذلك العصيان من قبل بنو زيان فى تلمسان ،وابن القاضى فى النواحى الشرقية ،ودور الحفصيين فى ايقاد الفتنة بين القوى الجزائرية ودعوة تلك القوى للخروج عن طاعة الدولة العثمانية ،جميع تلك العوامل كان لها تأثير كبير فى اعاقة توطيد نفوذ الدولة فى الشمال الافريقى

---

(١) عبد القادر ابن عمر بن محمد : مرجع سبق ذكره ،٢٨أ،٢٨ب،٢٩أ .

(٢) محمد أمين : مرجع سبق ذكره ،ق ٩٣ ب .

(٣) عبد الرحمن الجيلالى : مرجع سبق ذكره ،ج٣ ،ص ٤٨ .

التى جعلت من بيلربكية الجزائر قاعدة ارتكاز لتتقدم منها نحو الاندلس فتأخر تحقيق ذلك الهدف ،وساعد فى ذلك التأخير أن الدولة كانت قادمة على تغيير جديد فى اسلوبها ، اذ جلس على عرش الدولة السلطان سليمان القانونى بعد وفاة والده السلطان سليم ٩٢٧هـ (١٥٢٠م) ،فأنشغل السلطان سليمان بأمور الدولة ،فهناك الشئون الداخلية التى لم يتشبع السلطان بمعرفتها ،علاوة على ذلك الجبهات الحربية والموزعة على القارات الثلاث كل ذلك يحتاج لوقت لرسم خطة جديدة تسير عليها الدولة ،لتحقق طموحاتها وعندما انتهى السلطان من رسم سياسة الدولة فان جميع الامور عادت الى طبيعتها شأن كل حاكم أو سلطان جديد ٠

استقر خيرالدين بربروسا فى جيجل للفترة ما بين ٩٢٨-٩٣٢هـ (١٥٢١-١٥٢٥م) ،وذلك حتى تنتهى الدولة من تنظيماتها ،لتواصل امداداتها العسكرية للجزائر ، التى كان خيرالدين فى حاجة لها ،علاوة على ذلك فانه كان يرغب فى اعادة تنظيم القوات العثمانية المتواجدة معه فى هذا الوقت وريثما تصل الامدادات فقد استأنف من جيجل نشاطه فى الجهاد فشرع فى مهاجمة سواحل البحر المتوسط الغربية (١) ،كما أخذ فى مهاجمة السفن المسيحية فى عرض البحر المتوسط ،وصد هجوما مسيحيا على تونس ،وفى هذا الوقت وصل سنان ريس الذى قام من جزيرة جربة وبمعاونة خيرالدين بالهجوم على السفن المسيحية ،فغنم المسلمين كثيرا ،واجتمعت الأعوان على خير الدين ،وضاق البحر على المسيحيين ،فأخذ فى انقاذ المسلمين بالاندلس ،بأن حملهم على ظهر سفنه الى الشمال الافريقى (٢) ،وكان خيرالدين قد سمع أصوات الاستغاثة اليائسة ، فلبى نداءها وصار يجوب البحر على رأس سفنه حتى بلغ السواحل الاسبانية التى التجأ اليها المسلمون ،ولم يجروء اسطول اسبانيا على صده ،فأخذ خير الدين يحمل على سفنه أكبر عدد ممكن من أولئك المستضعفين الفارين بدينهم ،بل أنه كان يترك أكبر عدد من بحارته

---

(١) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٢ ٠
(٢) عبد القادر ابن عمر بن محمد : مرجع سبق ذكره ،ق ٣٣ب،٣٤آ ٠

الجزائريين فوق الأرض الأسبانية لكى يحمل مكانهم عددا من اللاجئين ،حتى اذا ما وصلوا الى بر الأمان فوق ساحل الجزائر ،عاد الى اسبانيا ليأتى بغيرهم ،وكرر ذلك عدة مرات ،حتى أنقذ أعدادا كبيرة اشتد بهم ساعد المسلمين .[(١)]

كان خير الدين يرغب فى توحيد بلاد الشمال الافريقى تحت اسم الدولة العثمانية ،حتى تنطلق منها الدولة لاسترداد الأندلس ،فأستولى على مدينة القل ٩٢٨هـ/١٥٢١وعنابة ٩٢٩هـ/١٥٢٢وقسطنية،وأستعان بعد ذلك بسلطان بنى عباس لطرد قبائل الكوكو من الجزائر ،بعد أن ساءت سمعتهم بين الناس ،واحتل المتجة ٩٣٢هـ (١٥٢٥م) [(٢)] وتبين للاهالى من خلال سياسة ابن القاضى مدى القسوة ، التى أوغرت عليه قلوب الجزائريين ،لذلك عندما دخل خير الدين مدينة الجزائر سنة ٩٣٢هـ (١٥٢٥م) بناء على طلب من أهلها فان أهل المدينة احتفلوا برجوعه احتفالا عظيما [(٣)] بينما قام رجال ابن القاضى بقتل زعيمهم وحملوا رأسه الى خير الدين علامة على خضوعهم .[(٤)]

رأى خير الدين أن يذهب الى قرة حسن ، الذى انحاز بمن معه الى مدينة شرشال واتفق مع الاسبان على أخذ الجزائر ،وعندما وصلها خير الدين انضم اليه جنود قرة حسن بعد أن طلبوا من خيرالدين العفو فعفا عنهم ، ثم احضر قرة حسن امامه ووبخه ثم أمر بقتله ،واستقر الأمن بعد ذلك فى الناحية الشرقية [(٥)] ووطد فيها نفوذ الدولة العثمانية ثم أتجه الى مدينة الجزائر .

كان أبو عبد الله الزيانى سلطان تلمسان قد سولت له نفسه على

---

(١) أحمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .
(٢) شارل اندرى جوليان : مرجع سبق ذكره ،جـ٢ ،ص ٣٢٩ .
(٣) عبد الرحمن الجيلالى : مرجع سبق ذكره ،جـ٣ ،ص ٤٩ .
(٤) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٢ .
(٥) عبد القادر ابن عمر بن محمد : مرجع سبق ذكره ،ق ٣٦آ ،٣٦ب .

الخروج عن طاعة الدولة العثمانية وذلك أثناء انحسار حكم خير الدين الى جيجل ،فحول الخطبة له ،وضرب السكة باسمه ،ونقض العهد الذى أخذه خير الدين عليه ،وامتنع عن ارسال ما هو مقرر عليه من اعانات سنوية للمجاهدين .

بعث خير الدين خطابا الى سلطان تلمسان يحذره من مغبة خروجه على الدولة العثمانية ،وانحيازه للاسبان فى وهران ،ونصحه بالعودة الى عهده ووعده ، وأن ترجع الخطبة وتضرب السكة باسم السلطان العثمانى الا أن أبا عبد الله الزيانى لم يستجب للنصائح التى وجهها خير الدين ،بل جمع أعيان البلاد من بنى عبدالواد ،وذكر لهم بأنه لم يكن دخيلا على حكم تلمسان ،بل هو أحق من خيرالدين الدخيل على البلاد ،فجهز جيشا وتوجه للجزائر لمواجهة خير الدين ،ووقع بينهم قتال كبير ،كانت الكرة فيه على جيش تلمسان ،وهرب أبو عبد الله الزيانى ،وعندما أحس بعدم مقدرته فى مواجهة خيرالدين ،عاد مرة أخرى للمداهنة ،فبعث الى خير الدين أعيان مملكته يلتمسون منه الصفح والعفو ،ايعدونه بحمل ما هو مقرر على صاحب تلمسان لرسم الجهاد ،ويضاعفون الخراج الذى كانوا يدفعونه بالاضافة الى هدايا أخرى يوجهونها اليه كل سنة ،فرضى خير الدين بذلك ،وعاد للجزائر [(١)] ،فكر خير الدين بربروسا بعد أن وطد دعائم الدولة العثمانية فى أنحاء الجزائر ،فى الحصن الذى شيده الاسبان أمام مدينة الجزائر وكان هذا الحصن قد بالغ الاسبان فى تشييده وتحصينه وكان كافة المسيحيين يمدونه بالاموال ، اذ فرضوا له نوعا من الضرائب ،لغرض العون ضد المسلمين ،كما أرسلوا لذلك الحصن جميع أنواع السلاح وآلات الحرب والمدافع فتضايق الجزائريون من ذلك الحصن وهذا الاجراء .

أخذ خير الدين فى شراء ما يحتاج اليه من مدافع ،وعندما أكتمل استعداده أمر بقذف المدفعية عليه بكل كثافة وصمد الاسبان فى قلعتهم

---

(١) عبد القادر ابن عمر بن محمد : مرجع سبق ذكره ،ق ٣٦ب،٣٧أ،٣٧ب.

وحاولوا المقاومة ،وقذفوا بدورهم مدينة الجزائر ،فهدمت بعض المنازل وأجزاء من الجامع الكبير ،واستمر تبادل اطلاق النار عدة أيام استولى بعدها خير الدين على ذلك الحصن [١]،من ناحية أخرى لم تصل الأخبار لملك اسبانيا بهزيمة جنوده واستسلام القلعة ،فأرسل بدوره سفينة امدادات عسكرية لمساندة القلعة ضد المسلمين ،وعندما وصلت السفينة أمام الجزائر قررت العودة الى اسبانيا اذ لم تجد آثرا للوجود الاسبانى هناك ،فهاجم أسطول خير الدين تلك السفينة وأستولى عليها .[٢]

شيد خيرالدين بربروسا كآسرة أمواج وذلك لتأمين ميناء الجزائر تربط أطلال القلعة والجزيرة بالساحل وبذلك أوجد ميناء حصينا أستعمله المجاهدون كملجأ لهم فى حالة سوء الجو ،والهجوم البحرى من قبل السفن المسيحية . [٣]

ان موقع ميناء الجزائر بين صقلية والمدخل الغربى للبحر المتوسط جعلته مكان مراقبة الطرق المتجهه مباشرة الى جبل طارق تجاه غربى البحر المتوسط والى جنوب اسبانيا فى اتجاه جنوب ايطاليا أو صقلية وكذلك التصدى لمن تحدثه نفسه باستعمالها ،مما جعل العثمانيون يتخذون من هذا الميناء الحربى الذى يمتاز بموقعه أكثر مما يمتاز بمرساه قاعدة محصنة وملجأ لاسطولهم .[٤] وصار ميناء الجزائر منذ ٩٣٦هـ (١٥٢٩م) عاصمة كبرى للمغرب الاوسط بل ولكل شمال افريقيا العثمانية [٥] وظلت الجزائر طيلة الحكم العثمانى قوة بحرية يتركز نشاطها وموردها الرئيسيان على البحر ،كما أدخل العثمانيون مفهوم الحدود السياسية فى شمال افريقيا ،ورسموا

---

(١) عبد القادر ابن عمر بن محمد : مرجع سبق ذكره ،ق ١٣٨أ ،١٣٨ب .
(٢) محمد أمين : مرجع سبق ذكره ،ق ١٢٨ب ،١٢٩أ .
(٣) آرجمنت كوران : مرجع سبق ذكره ص ٢٢ .
(٤) شارل آندرى جوليان : مرجع سبق ذكره ،ج٢ ،ص ٣٣٠ .
(٥) عبد العزيز الشناوى : مرجع سبق ذكره ج٢ ،ص ٩١٣ .

للجزائر حدودها الحالية التي لم تتغير منذ ذلك الوقت.[١]

نجح خير الدين بربروسا نجاحا كبيرا في انشاء هيكل بيلربكية قوية في الجزائر بفضل المساعدات العسكرية التي كان يتلقاها من السلطان سليمان القانوني والتي مكنته من توجيه ضربات قوية على السواحل الاسبانية وكانت جهوده مثمرة في انقاذ آلاف المسلمين من اسبانيا، فقد قام ٩٣٦هـ، (١٥٢٩م) بتوجيه ست وثلاثين سفنية خلال سبع رحلات الى السواحل الاسبانية لنقل سبعين ألف مسلم، وغدا خير الدين الحارس الأمامي للدولة العثمانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط [٢]، وبفضل مساعدات الدولة العسكرية، وموارد خزينة الجزائر المتنوعة من ضرائب وسبي ومغانم والزكاة والعشر والجزية والفيء والخراج وما يقوم به الحكام ورؤساء القبائل والعشائر من دفع العوائد والهدايا المتنوعة من الاموال والبضائع والخمس من المغانم البحرية المختلفة وغيرها، وكان مجموع ما يصل للخزينة العامة من ولايات الجزائر أربعمائة وثمان وستون ألف دورو [٣]، ثم عكف خير الدين في تنظيم الجزائر اداريا، وذلك لتنظيم أمور الدولة العثمانية وتوطيد نفوذها، فجعل للجزائر مجلسين استشاريين الى جانب البيلربك وهما مجلس الشورى والديوان، وكان البيلربك يمارس نفوذه على باشوات تونس وطرابلس وظل على ولائه التام للباب العالي [٤]، كما كان البيلربك يسيطر على القوتين العسكريتين الانكشارية (القوات البرية) وطائفة الرؤساء البحرية [٥].

غادر خير الدين سنة ٩٣٨هـ (١٥٣١م) الجزائر على رأس عدد من السفن ورسى بتطوان والعرائش، وتزودت ببعض المؤن والعتاد خاصة القمح، اذ كان

---

(١) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره، ص ٥٥ .

2- John Lynch : OP.CIT Vol.2 P.95 .

، عبدالعزيزالشناوي : مرجع سبق ذكره، ج٢، ص٩١٤.

(٣) عبد الرحمن الجيلالي : مرجع سبق ذكره، ج٣، ص ٢٠ – ٢٢.
الدورو قطعة فضية وزنها ٢٠ غرام .

(٤) شارل آندري جوليان : مرجع سبق ذكره، ج٢، ص ٣٤٠ .

(٥) محمد خير فارس : نفس المرجع، ص ٥٧ .

قد عم الجزائر جفاف ،فقدم أبناء المنطقة لأبناء ملتهم ذلك العون[١] ،ثم بعث خير الدين فى السنة التالية سفيرا الى ملك فاس احمد الوطاس ،يبلغه بأنه على استعداد للقدوم بمراكبه الحربية ،لمهاجمة أى موقع مسيحى يرغبه كما طلب خير الدين من الملك الوطاس بعض ملح البارود ،وأمنت طلبات خير الدين بسرعة ،وشاعت الأخبار بأن خير الدين وأحمد الوطاس سوف يهاجمون سبتة فأسرع الملك البرتغالى جان الثالث بارسال القوافل المحملة بالذخائر الى مضيق جبل طارق ،وباشر استعداداته اللازمة هناك ،كما أوفد فى نفس الوقت القائد دون جورج دى نورنها (Don Gorge De Nornha) الى ملقا (Malaga) لتجميع الجيوش وتسليح السفن ،وأبلغ دون لوبى هورنادو (Don Lope Hurtodo) ،بأنه يتمنى طرد خير الدين بربروسا من الجزائر ،وأنه اذا رغبت اسبانيا فى ذلك فان البرتغال مستعدة للمشاركة [٢].

اخذت سياسة التعاون العثمانى الوطاسى توءتى ثمارها ،خاصة بعد أن نجح القائد العثمانى العطار فى تحرير غصاصة ، وطرد الاسبان منها ثم عندما حاصر الوطاسيون مليلة ،وصار موقف الاسبان حرجا للغاية اذ أن السفن الاسبانية المتجهة اليها كانت معرضة لخطر المسلمين فى غصاصة كان ذلك الموقف فى صالح الدولة العثمانية التى أخذت فى التمركز فى الساحل الشمالى الافريقى ،واتخذت من تلك المراكز قواعد لمحاربة أعدائهم واذا استمر العثمانيون فى سياستهم تلك ،فانه لا محالة من أن يبسطوا نفوذهم على المغرب بأكمله ،ولن يلبثوا أن يتعاونوا مع السعديين ،لأن عملية الجهاد ومحاربة أعداء المسلمين تعد صفة مشتركة بين الطرفين .[٣]

أقلق ذلك التعاون والاتصالات التى قامت بين خيرالدين بربروسا ،واحمد الوطاسى علاوة على النجاح الذى حققه خير الدين فى الجزائر ،وموارده المالية

---

(١) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ،ص ١٣٦.

، عبد الكريم كريم : مرجع سبق ذكره ،ص ٥٥ .

2- Soucs Inediles de L Historire de Moroc . Espagne Tom .1 P.41.

(٣) عبد الكريم كريم : نفس المرجع ،ص ٥٥ .

الثابتة ،والدعم العثمانى ،وتخليصه لحصن الجزائر ، أقلق ذلك كله الاسبان وانزعجوا لتلك الانجازات ،فتآمروا يومئذ مع فرنسا وجنوه على مهاجمة خير الدين فى الجزائر وانهاء الوجود العثمانى ،فوجهوا حملة بحرية بقيادة اندريا دوريا ، الذى تحاشى الاشتباك مع خير الدينبربروسا ،وحاول الاستيلاء على شرشال ،لكنه فشل فى تحقيق ذلك .(١)

كتب أسقف طليطلة – صاحب النفوذ المطلق باسبانيا – للامبراطور شارل الخامس عن مرسى هنين بالجزائر:–

" ... لقد أكد لنا الذين يعرفون البلاد ، أن لمدينة هنين ومرساها أهمية بالغة ،فهنين بلدة محصنة ذات أسوار منيعة ،ولها قلعة عظيمة ،ولا تبعد عن تلمسان الا ١٢ مرحلة ،وهذا أمر له أهميته العظمى بالنسبة للحركة التجارية ، التى يمكن أن نتداولها مع العرب ،كما أن امتلاكنا لمدينة هنين يساعدنا بالاخص ،على ابقاء ملك تلمسان تحت قبضة أيدينا ،فهو لن يفكر فى مهاجمتها ، عندما يرانا قد تمكنا من البلاد داخل حدودنا الجديدة " .

أصدر شارل الخامس نتيجة لذلك أوامره للقائد الاسبانى دون الفارو دوبازان (Don AL Varo Bazan) ،بمهاجمة مرسى هنين واحتلالها ، اذ كان الامبراطور شارل الخامس ،يرغب فى تطويق مملكة الجزائر الجديدة من شرقها وغربها ،بسياج من الحصار ،ويفرض سلطانه بقوة على بنى حفص بتونس وعلى بنى زيان بتلمسان ، الذين كانوا آخذين فى الانقراض والاضمحلال .

وقف الاسطول الاسبانى المؤلف من احد عشرة سفينةوناقلتين أمام

---

(١) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٢٨ .

المرسى الذى لم تكن به قوة كافية للدفاع ،فأنزل الجيش الذى به من اسبانيا ،والفرقة التى أخذها من وهران وأحتل القائد الاسبانى المدينة وتحصن بها ،بعد دفاع من قبل أبنائها .(١)

مما لا شك فيه أن اسبانيا كانت اكثر الدول الاوروبية تضررا بما يحققه خير الدين من نجاح فى الشمال الافريقى ،وكانت اسبانيا كما هو معروف فى ذلك الوقت ضمن الامبراطورية الرومانية المقدسة ،والتى كان على رأسها شارل الخامس الذى تعهد على نفسه بالدفاع عن أوروبا المسيحية ضد التقدم العثمانى نحو شرق ووسط أوروبا ،لذا يمكن القول بأن الصراع بين شارل الخامس وبين بيلربكية الجزائر كان بمثابة فتح جبهة حربية جديدة ضد الدولة العثمانية فى الشمال الافريقى ،لذلك لم يكتف شارل بالهجوم المفاجىء على سواحل الجزائر ،بل أرسل مبعوثا للتجسس فى شمال افريقيا سنة ٩٤٠هـ (١٥٣٣م) وهو الضابط (أوشوا دوسلا) الذى طاف بأنحاء تونس وهناك وجد استعداد الحفصيين للتعاون مع شارل الخامس ،وحذر من امتداد النفوذ العثمانى على تونس ،وذكر أن هذا الاستيلاء سيسهل على العثمانيين السيطرة على افريقيا (٢) ،ثم يتجهون بعد ذلك لاسترداد الأندلس ،وهذا ما يخشاه العالم المسيحى .

كانت سياسة المملكة الحفصية فى تونس تسير نحو انحطاط مستمر ،كان السلطان الحفصى الحسن بن محمد بن الحسن قد أساء السيرة فى البلاد وقتل عددا من اخوته ،فاضطربت الاحوال فى تونس وخرج البعض عن طاعة السلطان الحفصى ،وكان أخو الحسن المسمى بالامير الرشيد قد هرب من أخيه خوفا من القتل ولجأ عند العرب فى البادية ،ثم ذهب الى خير الدين فى الجزائر وطلب منه الحماية والعون ضد أخيه (٣) فمنحه ذلك خيرالدين ، الذى كان

---

(١) أحمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .
(٢) صلاح العقاد : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٢ .
(٣) اسماعيل سرهنك : مرجع سبق ذكره ،جا ،ص ٤١٩ .

مركزا اهتمامه على تونس بسبب ضعف الحفصيين والخلافات الداخلية التي مزقت الاسرة الحفصية ،كما كان لتونس في نظره أهمية استراتيجية كبيرة لاشرافها على المضيق الصقلي بحيث تسمح له السيطرة عليها في تهديد وقطع المواصلات بين حوضى المتوسط الشرقي والغربي [١] بالاضافة الى رغبة خير الدين في توحيد بلاد المغرب تحت حكم الدولة العثمانية ليتمكنوا من استرداد الاندلس .

عزم السلطان سليمان القانوني بعد أن استولى على بلغراد ، السفر بسائر جنوده الى اسبانيا للاستيلاء عليها ،وبدا للسلطان سليمان ،أنه لابد له من رجل يعتمد عليه في دخول تلك البلاد على أن يكون عالما بأحوالها فوقع اختياره على خير الدين لما يعرفه عنه من شجاعة واقدام ،وكثرة هجومه على تلك النواحي ،وما فتحه من بلاد العرب في الشمال الافريقي وكيف أقر الحكم العثماني فيها ،فوجه اليه خطابا يطلبه فيه الى حضرته ويأمره باستنابة بعض من يأمنه بالجزائر ،وأن لم يجد من يصلح لذلك ،يبعث اليه السلطان نائبا ،وبعث ذلك الخطاب مع رجل يدعى سنان جاوشي ،فوصل الجزائر ،وأوصل خطاب السلطان الى خير الدين فقبله ووضعه فوق رأسه ولما قرأه وعلم ما فيه نصب ديوانا عظيما ، وأحضر كافة العلماء والمشايخ وأعيان أهل البلد ،وقرأ عليهم خطاب السلطان ، الذي وجهه اليهم وأعلمهم انه لا يمكنه التخلف عن أمره ،وعندما سمع اندريا دوريا بما عزم السلطان عليه من فتح اسبانيا واستقدام خير الدين من الجزائر لذلك ، أراد أن يشغل خير الدين من سفره الى حضرة السلطان [٢] ،واشاع بين الاسرى المسيحيين في الجزائر ،عن عزم الحكومة الاسبانية في الهجوم على الجزائر ،وتخليصهم من الاسر ،ففرح الاسرى الاسبان لذلك الخبر وتمردوا على خير الدين ، الذي رأى أن من المصلحة العامة اعدام أولئك الاسرى ليأمن غائلتهم ،ثم قام بتقوية الاستحكامات في الجزائر وزاد من عدد القلاع مظهرا أتم الطاعة

---

(١) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٣ .

(٢) عبد القادر ابن عمر بن محمد : مرجع سبق ذكره ،ق٤٨أ ،٤٨ب .

للسلطـــــــان .[١]

عزم خيرالدين على السفر الى استانبول ٩٤٠هـ (١٥٣٣م) ،وعين مكانـه حسن آغا الطوشى ،وكان رجلا عاقلا وصالحا ،صاحب علم واسع .[٢]

أبحر خير الدين شرقا فى البحر المتوسط وبرفقته أربع وأربعيـــن سفنية وهزم فى طريقه فرقة من أسطول آل هابسبرج بالقرب مـــن المورة [٣]،واستمر خير الدين فى رحلته ووصل الى مدينة بيروازن ،وفـرح أهالى المدينة لمقدمه وكانوا خائفين من هجوم اندريا دوريا ، الذى ابتعـد عندما سمع بمقدم خيرالدين ،ثم واصل خير الدين سفره ،ورست مراكبه فـــى قلعة اوارين " اناوارنيه " ،فصادف هنالك آسطولا للسلطان سليمان القانونـى وفرحوا لذلك ،ثم خرجوا جميعا حتى وصلوا الى قرون،ثم كتب خير الديـــن الى السلطان يعلمه بوصوله ويستأذنه بالقدوم على حضرته ،فوجه اليـــه السلطان خطابا يستحثه بالقدوم عليه [٤] ، اقلع خير الدين من قـــرون ولم يزل مسافرا حتى وصل الى استانبول ورسا بها ورموا بالمدافع كما هـــى العادة فى ذلك ،ومثل خير الدين بحضرة السلطان ووقف بين يديه ،فأمر بـأن يخلع عليه وعلى خواص أصحابه الجرايات الوافرة ،وأنزلهم بقصر منقصـــور الملك وفوض اليه النظر فى دار صناعة السفن [٥]،ومنحه لقب قبودان باشـــا وزير بحرية - حتى تظل له السلطة الكاملة لمساندة النظام فى الجزائـــر لتحقيق هدف الدولة فى استعادة الاندلس .

---

(١) اسماعيل سرهنك : مرجع سبق ذكره ،جا ،ص ٣٦١ .
(٢) محمد أمين : مصدر سبق ذكره ،ق ٢٧٠أ ،٢٧٠ب .
(٣) 3- Stanford Show : OP.CIT , P.97 .
(٤) محمد أمين : نفس المرجـــع ،ق ١٨٩أ ،١٩٠أ .
(٥) عبد القادر ابن عمر بن محمد : مصدر سبق ذكره ،ق٥١أ،٥١ب .

كان الصدر الاعظم فى ذلك الوقت بمدينة حلب ،فسمع بقدوم خيرالدين على السلطان وقد كانت أنباء غزواته ونكايته بالمسيحيين تصل اليه ،فأشتاق الى لقاء خير الدين ، فوجه خطابا للسلطان يلتمس منه أن يوجه اليه خير الدين لمقابلته فأرسل السلطان الى خير الدين مخبرا عن رغبة الصدر الاعظم فأجابه خير الدين بالموافقة ،وسافر خير الدين متوجها الى حلب ، واحتفل الصدر الاعظم بمقدم خير الدين فى حلب وأنزله فى بعض القصور المهيبة ،وفى اليوم الثانى من وصول خير الدين ،وصل مبعوث من قبل السلطان ومعه خلعة وأمر مقتضاه أن خير الدين من وزراء السلطان ،ويلبس الخلعة فنصب الديوان الأعظم وألبسوه خلعة الوزارة ،وأركب على فرس مرصع بأنواع اليواقيت ،وركاب من الذهب الخالص ،ولجام مثله ،وسار الديوان أمامه الى القصر المعد لتوليه ،وجلس بعد ذلك خير الدين بحذاء الصدرالأعظم وأقام عنده ثلاث ليال ،ثم أن خير الدين أستأذن الصدر الاعظم فى العودة الى استانبول ،فأذن له فى ذلك ،وجهز بجميع ما يحتاج اليه من آلات السفر وخرج منحلب خروج الملوك فدخل الى مدينة قونيه وزارها ،ثم سافر الى بورصة ومنها توجه الىمدانية ومنها الى استانبول ونزل بقصره المعروف باسمه ، وعندما علم السلطان بقدومه احضره بين يديه ثم أن السلطان اشار اليه والى نائب الصدر الاعظم أن يتقدما اليه ،فقبل خير الدين يده ،ومسح السلطان بيده على رأسه ،وجعل فى عمامته سرهوجا من الذهب تكريمالشأنه وخرج من عند السلطان الى القصر الذى أعد له ،واشتغل بالنظر فى أمر دار الصناعة كما رسم له السلطان (١) ،بمساعدة بحارته ،وذلك ليجعل منهم نواة الاسطول العثمانى الجديد ،فى نفس الوقت كان السلطان يقوم فيه بحملته فى أذربيجان وفتح العراق .(٢)

خرج خير الدين بربروسا بأسطوله الجديد من الدردنيل متجها نحو

---

(١) عبد القادر ابن عمر بن محمد : مصدر سبق ذكره ،ق٥٢أ ،٥٢ب .
، ارجمنت كوران : مصدر سبقذكره ،ص ٢٢ .

2- Stanford Show : OP.CIT P.97 .

سواحل ايطاليا الجنوبية ،فأستطاع أن يأسر الكثير منها ،وأغار على مدنها وسواحلها ،ثم اتجه نحو جزيرة صقلية ،فأسترجع كورون وليبانتو[(١)] ،كان السلطان سليمان قد تشاور مع خير الدين بربروسا بأهمية تونس وضرورة دخولها فى اطار استراتيجية الدولة العثمانية ،لتحقيق هدفها نحو استرداد الاندلس ،وتأتى أهمية تونس بالنسبة للدولة من حيث موقعها الجغرافى اذ تقع فى منتصف الساحل الشمالى لافريقيا ،وتوسطها بين الجزائر وطرابلس ،ولقربها من ايطاليا التى تعتبر احد جناحى الامبراطورية الرومانية المقدسة ،بينما يمثل الجناح الآخر اسبانيا ،علاوة على ذلك مجاورتها لجزيرة مالطة مقر فرسان القديس يوحنا حلفاء الامبراطور شارل الخامس ،وأشد الطوائف المسيحية عداوة للمسلمين ، ثم الامكانيات الهائلة التى تتيحها موانىء تونس فى التحكم فى المواصلات البحرية فى البحر المتوسط ،وهكذا تضافرت تلك العوامل على اضفاء الاهمية العسكرية على تونس .[(٢)]

كانت المرحلة التالية بالنسبة لخير الدين بعد هجومه على السواحل الجنوبية لايطاليا وجزيرة صقلية هى تونس ،وذلك لتنفيذ خطة الدولة ،والتى تقتضى تطهير شمال افريقيا من الاسبان كمقدمة لاستعادة الاندلس ،اذ سبق وأن اشار خير الدين بربروسا على السلطان سليمان القانونى فى خطابه للسلطان الذى بعثه قبيل استدعاء السلطان له فى ٩٤٠هـ (١٥٣٣م) ، اذ قال فيه " ... أن هدفى اذا قدر لى شرف الاشتراك هو طرد الاسبان فى أقصر وقت من افريقيا ،ومن الممكن أن تسمع بعد ذلك أن المغاربة قد أغاروا على الاسبان من جديد ليستعيدوا مملكة قرطاجنة ،وأن تونس قد أصبحت تحت سلطانك أننى لا أبغى من وراء ذلك أن أحول بينك وبين توجيه قواتك ناحية المشرق كلا ... لأن هذا لن يحتاج لكل ما تملك من قوات ولا سيما أن حروبك فى آسيا أو افريقيا تعتمد أكثر ما تعتمد على قوات برية ،أما هذا الجزء الثالث من العالم فان كل ما اطلبه هو جزء من اسطولك ،وسيكون ذلك كافيا ،لان هذا الجزء يجب أن يخضع لسلطانك أيضا ... "[(٣)]

---

(١) حسن سليمان محمود : مرجع سبق ذكره ،ص ١٦٦ .
، احمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سبق ذكره ،ص ٩٣ .
(٢) عبد العزيز الشناوى : مرجع سبق ذكره جـ٢ ،ص ٩١٥ - ٩١٦ .
(٣) محمد عبد اللطيف البحراوى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٢٧ .

وصل الاسطول العثماني تحت قيادة خير الدين الى السواحل التونسية فعرج على مدينة عنابة ،وتزود ببعض الامدادات ،ثم تقدم نحو بنزرت ،ثم اتجه الى حلق الواد ، اذ تمكن منهما بدون صعوبة [١] ،واستقبل خير الدين من قبل الخطباء والعلماء ،وأكرموه وتوجهوا الى تونس في نفس الوقت هرب السلطان الحفصي الحسن بن محمد الى اسبانيا [٢] ثم أقام خير الدين الرشيد أخو الحسن بن محمد على تونس ،وأعلن ضم تونس للأملاك العثمانية ،في وقت بدت فيه سيادة العثمانيين في حوض البحر المتوسط الغربي .[٣]

حاصر السلطان السعدي احمد الاعرج في نفس الوقت مدينة آسفي بأزمور وذلك سنة ٩٤١هـ (١٥٣٤م) ،وكادت المدينة أن تقع بيد السعديين لولا النجدات التي بعثها البرتغاليون للمدينة المحاصرة ،وقد بدا وكأن تعاونا قد حصل بين العثمانيين والقوى الاسلامية في المغرب ضد المسيحيين ومراكزهم في الشمال الافريقي ،وعندما سمع الملك البرتغالي جان الثالث (Jean III) بوصول الاسطول العثماني في ٣ ربيع الاول ٩٤١هـ (١٣ سبتمبر ١٥٣٤م) بقيادة خير الدين بربروسا الى الشمال الافريقي ،فكر في الجلاء عن بعض المراكز المستولى عليها من قبلهم ،وذلك حتى يركز على المناطق الشمالية في المغرب مثل سبتة وطنجة باعتبارها مناطق حيوية للدفاع عن مصالح المسيحيين في غرب البحر المتوسط ،ولصد الهجوم العثماني عن شبه الجزيرة الايبيرية، فبعث الملك يوحنا الثالث استفتاء الى جميع النبلاء والاساقفة يستشيرهم في موضوع الجلاء عن بعض مراكز الوجود البرتغالي في جنوبي المغرب ،وكان المطلوب الاجابة على الاسئلة الآتية : هل ينبغي ترك آسفي وآزمور للمغاربة ؟ هل ينبغي الجلاء عنهما أو عن بعضهما ؟ واذا كان ينبغي الاحتفاظ بهما هل تحول الى حصون للتقليل من حجم المصروفات ؟ ثم ما هي الأضرار الناتجة عن ذلك ؟ وكيف نتفاداها ؟[٤] .

---

(١) احمد توفيق مدني : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٣٠ .

(٢) محمد آمين : مصدر سبق ذكره ،ق ١٩٨ب .

(٣) محمد عبد اللطيف البحراوي : مرجع سبق ذكره ،ص ١٢٨.

4- Sources Inedites de L Histoire Du Maroc . Portugal Tom/// Seconde parte . P.640 .

تلقى الملك البرتغالى اجوبة عديدة بين موءيد فى الابقاء على المناطق الجنوبية فى حوزة البرتغاليين وبين معارض،وكانت اجوبة رجال الدين للملك جان الثالث موحدة تقريبا تضمنت النصح بالتخلى عن المراكز الجنوبية ،يحول الملك كل وسائل الدفاع الموجودة هناك الى المراكز الشمالية لصد الخطر العثمانى بقيادة خير الدينبربروسا ،فأسقف (Lemego) ينصح باخلاء سانتاكروز وآسفى وآزمور ،لأن أهميتها أقل بكثير من النفقات التى تصرف عليها ،ويرى توجيه القوى ضد فاس ،كما ينصح بتحسين وسائل الدفاع عن سبتة خوفا من هجوم خيرالدين عليها ،أما رئيس (Santiago) كان رأيه قريب من الأول ،رأى التخلى عن المراكز السابقة ،واختلف اسقف (AL Grave) نوعا ما فذكر فى جوابه " ... اذا كان الملك يهمه بالدرجة الأولى القضاء على الشريف ،فعليه أن يسيطر على سلا ،ويجعلها قاعدة للهجوم على فاس ومكناس ...ونصح الملك الى ضرورة الاستعانة بأموال الاكليروس للقيام بمشروعه وعليه أيضا كسب جانب القبائل المغربية القريبة من المراكز البرتغالية وذلك بجعلها تستقر حول هذه المراكز وتقوم بالزراعة ثم طلب غزو المغرب واعلاء الصليب " (١)

ان الوجود العثمانى فى الجزائر أثر على موقف الملك البرتغالى فى المغرب اذ تراجع عن القيام بعمليات عسكرية فيه ،كما ادخل استيلاء العثمانيين على تونس الحيرة لدى البابا ،والامبراطور شارل الخامس الذى اعتبر ذلك تهديدا مباشرا للمسيحية ،ولخطوط مواصلاته البحرية مع أطراف مملكته (٢)،فوصل التهديد العثمانى أقصاه فضلا عن أن الدولة العثمانية ضمنت السيطرة على الممرات الضيقة بين صقلية وافريقيا .(٣)

كان الموقف ملائما بالنسبة لاسبانيا وذلك للقيام برد فعل عنيف ،فقد

1- Saurces Inedites de L Histoire du Maroc.Portugal.Tom.//Seconde Parte, 656-662

(٢) عبد الجليل التميمى : رسالة منمسلمى غرناطة الى السلطان سليمان القانونى ،المجلة التاريخية المغربية عدد (٣)،تونس .

3- J.H. Elliott: Imperial Spain P.43 .

أنشغلت الدولة العثمانية فى النزاع مع الفرس، وطغى على الصراع فى اوروبا ووعد فرنسوا الأول ملك فرنسا شارل الخامس بالحياد – تردد شارل فى اختيار المكان الذى سيوجه اليه ضربته فى شمال افريقيا الجزائر أو تونس ولكن استنجاد السلطان الحفصى الحسن بن محمد، والرغبة فى عزل استانبول دفع شارل الخامس الى اختيار تونس للهجوم .(١)

قاد شارل الخامس عملية بحرية شاقة، تكونت من ثلاثين ألف مقاتل اسبانى وهولندى والمانى ونابولى وصقلى، على ظهر خمسمائة سفينة، وركب الامبراطور البحر من ميناء برشلونة، وعندما رست سفنه أمام تونس قامت الحروب الشديدة بين الطرفين (٢)، الامر الذى اعاد السيطرة الاسبانية على تونس فى ٩٤٢هـ (١٥٣٥م) (٣) اذ لم تكن قوة خيرالدين بكافية للرد على ذلك الهجوم، فكان الجيش الاسلامى تعداده سبعة آلاف جندى عثمانى وصلوا مع خير الدين ونحو خمسة آلاف تونسى، كما تخلف الاعراب عن الجهاد، فكانت النتيجة الحتمية أن استولى شارل على معقل حلق الوادى مرسى تونس، ثم تونس (٤)، ونصب الاسبان الحسن بن محمد حاكما عليها، وعملا بمنطوق المعاهدة كان مولاى الحسن بن محمد سيسلم بونة والمهدية الى شارل الخامس، فأستولى على بونة، وبما أن المهدية كانت فى حوزة العثمانيين، فان مولاى الحسن لم يستطع الوفاء بعهده، فأشترط الاسبان عليه أن يكون حليفا ومساعدا لفرسان القديس يوحنا فى طرابلس (٥)، وأن يقوم بمعاداة العثمانيين وأن يتحمل نفقات ألفى اسبانى على الاقل يتركون كحامية فى قلعة حلق الوادى (Guletta)، وعاد شارل الخامس الى اسبانيا واستقبل استقبال الغزاة الفاتحين، فى الوقت الذى كان فيه السلطان يحارب الفرس .(٦)

---

(١) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٤ .

(٢) اسماعيل سرهنك : مرجع سبق ذكره ، جـ١ ، ص ٤٢٠ .

3- Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P.93 .

(٤) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ، ص ٢٣١ .

(٥) عزيز سامح : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٨ ،
حسن سليمان محمود : مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٧ .

(٦) محمد عبد اللطيف البحراوى : مرجع سبق ذكره ، ص ١٣٠ .

عاد خير الدين الى الجزائر بعد هزيمته فى تونس ،واستقر أول الامر بمدينة قسنطنية ،ومن هناك اخذ يستعد لاستئناف الجهاد ضد الاسبان فى الجبهات التى يحددها ،وكان لزاما على خير الدين ،وقد أستقر موءقتا بمدينة الجزائر نظرا لالتزاماته التى تفرضها عليه خطته الجديدة كقبودان باشا للاسطول الاسلامى العثمانى أن يشعر شارل الخامس بوجوده ،وأن يرد على ضربة تونس بضربة مثلها ،فقام بالهجوم على جزر البليار الاسبانية وعلى سواحلها الجنوبية ،فأجتاز مضيق جبل طارق ،وأطلق العنان لنفسه بالانقضاض على السفن الاسبانية والبرتغالية العائدة من الاراضى الأمريكية ،والمحملة بالذهب والفضة ،فأهتزت لتلك الاحداث جميع الاوساط المسيحية ،وأقلقت شارل الخامس الذى اعتقد خطأ أن خير الدين لن يقوى شأنه بعد حادثة تونس السابقة فى ٩٤٢هـ (١٥٣٥م) [(١)]، من ناحية اخرى دخلت الدولة العثمانية فى تحالف رسمى مع فرنسا فى ٩٤٣هـ (١٥٣٦م) ،ويعتبر ذلك هو رد الفعل على الهجوم المضاد الذى قام به الاسبان على تونس .[(٢)]

وبدا وكأن الامبراطورية الرومانية المقدسة قد طوقت من قبل خصومها الفرنسيين والعثمانيين ،مما أدى الى استئناف الحروب بينها من جديد كما صارت اهداف اسبانيا والبرتغال واحدة وذلك فى احتلال مراكز فى بلاد المغرب بالاضافة الى خوفهم من تقدم العثمانيين داخل شبه الجزيرة الايبرية

تلقى الملك احمد الوطاس هزيمة ٩٤٣هـ (١٥٣٦م) من السعديين فى موقعة بير عقبة قرب وادى العبيد ،بسبب تخلى قبائل الخلوط التى كانت تكون القوة الامامية للجيش الوطاسى ،ونشرت الفوضى فى سائر الجيش وأثر هذه الهزيمة تقرب احمد الوطاس من البرتغال وذلك نتيجة شعوره بانشغال العثمانيين فى حروبهم ضد الاسبان [(٣)]،ووقع معهم معاهدة لمدة احد عشر عاما تقضى بوضع المغاربة المقيمين فى ضواحى ارزيلا وطنجة والقصر الصغير تحت

---

(١) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص٢٢٧،٢٣٦،٢٤١،٢٤٢ .

2- Stanford Show : OP.CIT P.79 .

(٣) عبد الكريم كريم : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٦٠ .

السلطة القضائية لملك فاس ، كما يجوز لرعايا الملك الوطاسى المتاجـــرة بحرية داخل تلك المناطق باستثناء تجارة الاسلحة والبضائع المحظورة ، واذا وصلت مراكب عثمانية أو فرنسية او تابعة لمسيحيين من غير الاسبـــان ولا البرتغاليين آلى آراضى برتغالية ،محملة بغنائم آخذت من المغاربة فلـــن يشترى منها شئ ،وكذلك الحال بالنسبة للمغاربة لن يشتروا من العثمانييـــن ويتم الاستيلاء على الغنائم وترد من طرف لآخر ما لم يسمح قوات العدو فـــى مهاجمتها .(١)

حاول البرتغاليون كذلك عقد هدنة مع السعديين ،فبعثوا وفدا الـــى مراكش للتفاوض مع المولى احمد الاعرج الذى استجاب لذلك ،لانه كان فى حاجة الى تنظيم أمور دولته الناشئة ،سيما بعد الانتصارات التى حققها ضـــد خصومه الوطاسيين فى موقعة بير عقبة ٩٤٣هـ/ ١٥٣٦م ،وآتفق البرتغاليـــون مع السعديين لعقد هدنة بينهما فى ٢٥ ذى القعدة ٩٤٤هـ/٢٥ ابريل ١٥٣٧م لمدة ثلاث سنوات ،مع اقامة تبادل تجارى بين رعايا الطرفين .(٢)

كان هدف البرتغاليين من التقرب مع الوطاسيين والسعديين هو الحيلولة دون قيام تعاون حقيقى بين العثمانيين من ناحية والوطاسيين والسعدييـــن من ناحية آخرى ،لان آى تعاون من هذا القبيل معناه تهديد لمصالح شبـــه الجزيرة الايبرية فى المغرب ،والاهم من ذلك خوف اسبانيا والبرتغال مـــن تقدم الدولة العثمانية داخل شبه الجزيرة الايبرية ،وتحقيق هدفها فـــى استرداد الأندلس .

اشتغل خير الدين بربروسا بحكم منصبه قبودان باشا بالعمل فـــى الاسطول العثمانى وبدا نشاطه فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط ،بينمـــا

1- Sources Indites de L Histoire du Moroc . Espagne Tom./ P.83 .
2- IBID Tom.///P.44.

استمر حسن آغا الطوشى فى منصبه المستخلف عليه نائب البيلربك يعمل على قهر القرصنة الأوروبية،فأبلى فى سبيل ذلك البلاء الحسن،وصار شخصه فى الجزائر مثالا بارزا فى البطولة والتضحية الاسلامية فى سبيل الدفاع عن بلاد الاسلام فى الشمال الافريقى فأكتسبت الجزائر بموقفه مهابة وجلالا وجعلت الامم المسيحية تهرع على عاهلها الاكبر الامبراطور شارل الخامس مستنجدة بسلطانه منضوية تحت لوائه ،ومن بينها البابا بول الثالث،وقد حاول شارل الخامس ٩٤٦هـ (١٥٣٩م) عقد هدنة مع خير الدين الا أنه خاب أمله (١)،مثل ما خاب فى محاولته السابقة عندما عرض على خير الدين سرا الاعتراف به حاكما لشمال افريقيا مقابل جزية بسيطة ، اذ كان شارل الخامس يأمل فى قيام تحالف اسبانى جزائرى يجابه به التحالف الفرنسى العثمانى ويعمل على فصل شمال افريقيا عن الباب العالى على أمل أنه اذا تحقق ذلك فلن تستطيع شمال افريقيا ابداء مقاومة قوية ويكون من السهل سقوطها (٢).

أنهمك حسن آغا الطوشى فى توطيد الأمن ،ووضع الأسس للادارة المستقرة ،ومحاولة جمع أطراف البلاد حول السلطة المركزية الجزائرية (٣)،فأخضع مدينة مستغانم لدولته ،ثم تقدم نحو الجنوب الشرقى فأستولى على عاصمة الزاب بسكرة وملحقاتها ،وشيد هناك حصنا وأقام به حامية (٤).

ركب الجيش العثمانى فى شهر جمادى الاولى ٩٤٩ هـ / سبتمبر ١٥٣٩م البحر ،وكان قوامه ١٣٠٠ رجل ،على ظهر ثلاث عشرة سفينة واندفعوا فى حركة سريعة نحو بلدة جبل طارق ،وعلى حين غفلة من أهلها والمدافعين عنها من الاسبان نزل حسن آغا وجيشه الى البر ،فأحتل البلدة وتمكن منها،واستحوذ على ما فيها من خيرات وارزاق وغنائم للمسلمين ،وتوغل فى جهات الساحل الاسبانى الجنوبى ،وغنم ما وقع تحت يده من أموال ومتاع الاسبان ويختار من بينهم جماعات من الاسرى والسبايا يسوقهم للبيع فى المدن المغربية

---

(١) عبد الرحمن الجيلالى : مرجع سبق ذكره ،جـ٣ ،ص ٦٢ — ٦٣ .
(٢) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٥ .
(٣) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٧٩ .
(٤) عبد الرحمن الجيلالى : نفس المرجع،جـ٣ ،ص ٦٢ .

الشمالية خاصة تطوان ثم يعود للميدان وعندما أراد الرجوع للجزائر اعترضت طريقة عمارة اسبانية كبيرة العدد ،وقامت المعركة بين القوتين وكانت عنيفة قاسية ،أسفرت عن غرق عدد من سفن الجانبين ،ومع ذلك كانت خسائر الاسبان فى هذه المعركة عظيمة .(١)

عزم شارل الخامس على تجريد حملة للقضاء على حركة الجهاد الاسلامى فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ،مستغلا فرصة الهدوء النسبى فى القارة الاوروبية أثر عقد هدنة نيس فى محرم ٩٤٥هـ/يونيه ١٥٣٨م مع فرنسا والتى كانت مدتها عشر سنوات (٢) ،فتولى شارل الخامس بنفسه الاشراف على اعداد حملة شارك فيها هرنان كورتيس (Hernon Cortes) قاهر المكسيك (٣)، كما شارك فى هذه الحملة نبلاء اسبانيا والمانيا وايطاليا ،كما اشترك آخو البابا وفرسان القديس يوحنا ،وكانت هذه الحملة من الحملات الكبرى فى القرن السادس عشر .(٤)

رسا شارل الخامس امام مدينة الجزائر فى يوم الثامن والعشرون من شهر جمادى الأخرة سنة ٩٤٨هـ الموافق الخامس عشر من شهر اكتوبر ١٥٤١م وعندما شاهده حسن أغا الطوشى ،اجتمع فى ديوانه مع أعيان الجزائر ،وكبار رجال الدولة ،وحثهم على الجهاد والدفاع عن الاسلام والوطن قائلا لهم " ... لقد وصل العدو عليكم ليسبى أبناءكم وبناتكم ،فأستشهدوا فى سبيل الدين الحنيف .. هذه الأراضى فتحت بقوة السيف ويجب الحفاظ عليها ،وبعون الله النصر حليفنا ،نحن أهل حق .. " ،فدعا له المسلمون وأيدوه فى جهاد العدو ،ثم بدأ حسن أغا الطوشى فى اعداد جيوشه والاستعداد للمعركة (٥) ،

---

(١) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٨٠ .
(٢) عبد الحميد البطريق : تاريخ اوروبا الحديث ،ص ٥٨ .
3- John Lynch : Spain under the Habsburg Vol.1 P.96 .
(٤) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٦ .
(٥) احمد جواد موللى : مصدر سبق ذكره،ق ١٤أ - ١٥ب .

من ناحية اخرى بدأ الاسبان فى تحضير متاريسهم ،وتعجب شارل الخامس لاستعدادات حسن أغا ،وأراد أن يستهزئ به ،فأمر كاتبه باعداد خطاب لحسن أغا جاء فيه "... أنت تعرفنى أنا سلطان .. كل ملة المسيحيين تحت يدى اذا رغبت فى مقابلتى سلمنى القلعة مباشرة .. أنقذ نفسك من يدى والا أمرت بانزال أحجار القلعةفى البحار،ثم لا أبقى عليك ولا سيدكولا الاتراك ،وأخرب كل البلاد .." ،وصل ذلك الخطاب الى حسن أغا وأجاب عليه " .. أنا خادم السلطان سليمان ... تعال واستلم القلعة ،ولكن لهذه البلاد عادة ،أنه اذا جاءها العدو ،لا يعطى الا الموت " ،فغضب شارل من جواب حسن أغا وتشاور مع مستشاريه مع الاستمرار فى التجهيزات (١) وما كاد الامبراطور ينزل أرض الجزائر حتى هبت عاصفة قوية مزقت اسطول الامبراطور ،كما نفذت موئنه ،وصار بارود مدفعيتهم غير صالح لتعرضه للمطر ،وأمام تلك الصعوبات أضطر شارل للانسحاب من أرض الجزائر ،وتتبعهم المسلمين فقتلت اعدادا كبيرة من المسيحيين ،وتلقى شارل هزيمة قاسية لم يتلق مثلها من قبل .(٢)

وصل خير الدين بربروسا الى مدينة الجزائر للاسهام فى الدفاع عنها الا أنه وجد أن قوة الله القاهرة وسواعد المسلمين قد قضت على اسطول الاسبان فأكتفى بتفقد أمور البيلربكية والاطلاع على سير الامور فيها ،ثم انطلق بأسطوله نحو البلاد الاسبانية يذيقها العذاب الأليم ،وانعم السلطان سليمان على حسن أغا الطوشى برتبة الباشوية ،لدوره الفعال فى نصر سنة ٩٤٨هـ(١٥٤١م) وخلى البحر المتوسط تقريبا من الاساطيل الاسبانية الذى كان يضمد جراحه ويحاول استرجاع قوته ،فأنطلقت السفن العثمانية نحو السواحل الاسبانية والايطالية وتوالت هنالك الغزوات وساد الرعب والفزع تلك النواحى التى بقيت مفتوحة فى وجه العثمانيين ،يتوغلون داخلها ويغنمون ما فيها(٣) ، كما صارت الدول الاوروبية تعمل للعثمانيين حسابا ،فأهتز بذلك مركز الاسبان فىوهران وغيرها من مناطق نفوذهم فى الشمال الافريقى .(٤)

---

(١) محمد آمين : مصدر سبق ذكره ،ق ٢٧٢آ،٢٧٥آ .

(٢) احمد جواد: مصدر سبقذكره،ق١٨آ، ١٨ب،
محمد آمين : نفس المرجع ، ق٢٧٦آ،٢٧٧آ .

(٣) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٣١٣ .

(٤) شوقى عطا الله الجمل : مرجع سبق ذكره ،ص ٩٨ .

حقق السعديون على صعيد آخر نصرا كبيرا على البرتغاليين وفتحوا حصن سانتا كروز ،وما أن علم الملك البرتغالى جان الثالث بهذا الخبر حتى أمر حاميات آسفى وآزمور بالجلاء فورا عنها ،وقد وجه الملك جان الثالث فى هذا الشأن الى سفيره بمدريد (Francisco Lobo) رسالة مؤرخة فى الثانى والعشرين رمضان ٩٤٨هـ / ديسمبر سنة ١٥٤١م ، يطلع فيها الامبراطور الاسبانى شارل الخامس ،حيث جاء فيها ذكر للاسباب التى أجبرت البرتغال على اتخاذ قرار الجلاء عن قاعدتى آسفى وآزمور فبالاضافة الى موقعهما الحرج هناك تزايد قوات السعديين بفضل المساعدات العثمانية ،حيث صار الحاكم السعدى يملك المدفعية العثمانية ،والآلات الحربية ،وعلى جنود مدربين وقد رأينا كل ذلك عندحصار سانتا كروز ،مما جعل الاحتفاظ بهذين المركزين أمرا شاقا وصعبا ،ثم أن الجلاء عن آسفى وآزمور ليس معناه التخلى عن المغرب ،فقد أعطيت الأوامر لتحصين مازكان لسهولة استغلال مينائها طوال أيام السنة [1]، يظهر من ذلك مدى اهتمام الدولة العثمانية فى تقديم المساعدة للقوى الاسلامية فى المغرب ضد المسيحيين المتواجدين فيها وذلك لان الدولة ترغب فى تأمين ظهرها حتى يتسنى لها الهجوم ،فرغبت الدولة هنا فى مساعدة السعديين لينهوا التواجد البرتغالى فى المراكز الجنوبية من المغرب ،ثم يعبروا للاندلس ،لأن المغرب يمثل أقرب نقطة للعبور .

استمر حسن آغا فى القيام بواجبه الدينى حتى وفاته ٩٥١هـ (١٥٤٤م) فأجمع اهل الديوان بالجزائر على تولية الحاج بكير مكانه ،وريثما يعين الباب العالى باستانبول الحاكم الجديد ،الذى عين حسن ابن خير الدين وقدم فى نفس السنة .(٢)

1- Sources Indeites L'Histoire du Noroc , Portugal . Tom ///P.560.

(٢) عبد الرحمن الجيلالى : مرجع سبق ذكره ،ج٣ ،ص ٨٤ .

شرع حسن بن خير الدين حال وصوله ،ليستعد للجهاد ومواجهة المسحيين ،فعمل على تحصين مدينة الجزائر ،وذلك فى المناطق التى أظهر هجوم شارل الخامس عن ضعفها ،كما أخذ يعمل فى توطيد النظام فى الجزائر وبين صفوف الجيش ،ثم انصرف الى معالجة مشكلة تلمسان ، اذ تبين له أن بقاء الأسرة الزيانية ووجود الاسبان فى وهران يعيقان حل المشكلة. (١)

كان حاكم تلمسان (ابو زيان) احمد الثانى قد تولى الحكم بدعم من العثمانيين ،غير أنه ما لبث أن خضع لموءمرات خارجية وانساق فى تيارها واخذ يتقرب من الاسبان ،مما أدى الى كره الأهالى له وقرروا خلعه عن العرش ومبايعة احد أخوته (الحسن) فتوجه أبو زيان الى وهران طالبا الدعم من الاسبان ،مقدما لهم التعهدات بأن يحافظ على ولائه لهم ،فقرر حاكم وهران انتهاز هذه الفرصة ،فجهز جيشا ،وأنضم اليه جموع الخاضعين للاسبان من بنى عامر وفليتة وبنى راشد وعلى رأسهم القائد المنصور بن بو غنام ،وتقدموا الى تلمسان لابعاد الحسن ،واعادة تنصيب ابو زيان على عرش المدينة ،وما أن علم حسن بن خير الدين بتحرك القوة الاسبانية ،حتى قاد الجيش الاسلامى فى تلمسان ليمنع الاسبان من الوصول الى هدفهم ،وتمكن حسن بن خير الدين من ذلك ،ودعم حليفه الملك حسن فى تلمسان (٢) الذى اعترف بسلطة الدولة العثمانية كما ترك الباشا حسن بن خير الدين حامية عثمانية وتعدادها مائتى جندى بقيادة القائد محمود فى مدينة المشوار، الا أنه مع ذلك ظل نفوذ الدولة العثمانية مهتزا خارج تلمسان ،بسبب مضايقات بعض القبائل المجاورة بقيادة المزوار المنصور بن بو غنام ، الذى يرغب فى مساندة زوج ابنته الأمير مولاى احمد ،حليف الاسبان. (٣)

---

(١) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٨ — ٣٩ .

(٢) بسام العسيلى : الجزائر والحملات الصليبية ،ص ٢١ — ٢٢ .

3- Les Sources Inédites De L'Histoire Du Moroc.Espagne Tom/P.202-203.

عقدت الدولة العثمانية هدنة مع ملك النمسا سنة ٩٥٤هـ(١٥٤٧م) ،لمدة خمس سنوات تعهد فيها الملك النمساوي بدفع جزية سنوية مقدارها ثلاثون ألف دوكة مقابل أن يبقى ما تحت يده من بلاد المجر [١] ، وعلى أثر ذلك تمكنت الدولة من ارسال جنود عثمانيين وعدد من الموركسيين يقدر عددهم بنحو عشرين ألف رجل الى الشريف السعدى ،فألتفوا حوله ،ودفعوه الى بناء مراكب حربية للاستيلاء على اسبانيا ،فوافق الشريف السعدى على ذلك وصرف لهم أجورهم ومكافآت لهم .[٢]

أنصرف الشريف السعدى محمد الشيخ فى منازلة خصومه الوطاسيين ومحاولة القضاء عليهم ،فتقدم نحو سبتة والقصر الصغير ،ورفض فاس وأقسم بالاستيلاء أولا على (Fronteras) ،ثم دخل فاس وانهى الحكم الوطاسى وخصص محمد الشيخ للملك الوطاسى مقرا يستطيع الاقامة فيه ،ثم أقامت مدينة فاس الاحتفالات بمناسبة الحكم الجديد .[٣]

أستقر البلاط الاسبانى بعد استيلاء الشريف السعدى على فاس ،فصدرت التعليمان بانهاء استحكامات مليلة ،وفرضت عدة اجراءات أمنية على جبل طارق وقادش (Cadix) ،وأضطر كونت تنديلا (Tendilla) الى تحصين وتموين مدن الشاطئ الاندلسى ،وصدرت الأوامر أيضا لدون دى ميندوزا (Don Juan de Medoza) بزيارة (Fronteras) البرتغالية على المضيق وتفقد أحوالها [٤] ،وذلك تحسبا من أى هجوم عثمانى سعدى مشترك ، الغرض منه استرداد الاندلس .

ان طمع الشريف السعدى محمد الشيخ فى تلمسان جعله يتابع الاحداث

---

(١) محمد فريد بك المحامى : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٣٨ .

2- Les Sources Indites de L'Histore du Moroc.Espagne Tom/ P.151.

3- IBID P.151.

4- IBID P.164.

القائمة فيها باهتمام ،وفى ٩٥٦هـ (١٥٤٩م) أوفد الى الشرق فيلق مكون من ٦٠٠٠ خيال احتل جيرسيف (Gurecif) فى صفر ٩٥٦هـ (مارس ١٥٤٩م) ، وكان اظهار قوة السعديين قد أدى الى انضمام المديونة وبنى سنـــاش (Beni Snassen) كما فتحت وجده (Oudjda) فى نيدروما (Nedroma) ،وقدم اهالى الترارا (Terara) خضوعهم ،وفى كل مكان كان رجال الشريف يستقبلون كمحررين ،وكما هو الشأن دائما فى الازمنة المضطربة كانت أغرب الاخبار المغالى فيها تدور بين الأهالى ،فقيل أن الشريف السعدى سوف يدخل تلمسان ومنها يتجه الى وهـران ليطرد المسيحيين منها ،فقدمت قبيلة المديونة نفسها لحصار المدينة ريثما يصل جيش الشريف ،ومن الأخبار المؤكدة أكثر من غيرها أن الشريف قدم عروضا لباشا الجزائر حسن بن خير الدين للعمل سويا ضد الاسبان ،غير أن حاكم وهران الذى كان يملك جهاز مخابرات على مستوى عال ،لم يكن ليتأثر بتلك المعلومات ،ومع ذلك أمر بسرعة ترميم أسوار مدينة وهران وطالب بـلاط اسبانيا بتعزيزات ومساعدات نظرا للتجمعات الكبيرة للجيش السعدى فى فاس.(١)

عين محمد الشيخ ابنه الأكبر محمد الحرار قائدا للحملة الموجهة الى تلمسان ،واصطحب معه شقيقه مولاى عبد القادر ،ومولاى عبد الرحمن وتحركت الحملة فى جمادى الاولى ٩٥٧هـ / أواخر مايو سنة ١٥٥٠م ،ولم يواجه أى مقاومة أثناء تقدمه ،بل على العكس انضمت اليه فصائل من بنى راشد بقيادة المزوار المنصور ، الذى طالب بعرش تلمسان بعد وفاة ابو زيان احمد ،ومن تلمسان تم لرجال الشريف غزو قبائل دبدو ،وحصل حاكمهم مولاى عمار على اذن بالانسحاب مع رجاله وتوجهوا الى مليلة فوصلها مع حاشيته المكونة من ٣٠٠ شخص فى ٢٦جمادى الاولى ٩٥٧هـ (١٢يوليو ١٥٥٠م)،بعد أن خضعت تلمسان ودبدو ،كان من المنتظر أن يتجه رجال الشريف نحو الشرق الا أن قائد الحملة مرض وعاد الى فاس ،ومعه الجزء الأكبر من الجيش ، الذى انتقل قيادته الى مولاى عبد الرحمن ،فأمر الجنود بالتوجه الى تافيلت ليعمل ضد مولاى احمد الاعرج ،بينما بقى أخيه مولاى عبد الرحمن فى تلمسان

---

(1) Les sources indites de L;Histore du Maroc, Espagne Tom I P. 203.

مع حامية صغيـــــــــــرة .(١)

اغتاظ باشا الجزائر حسن بن خير الدين لسقوط تلمسان ، التى كـــان الشريف يرغب فى احتلالها نهائيا ، فجمع جيشا ، بلغ تعداده خمسة آلاف رجــل أنضم اليهم فيما بعد خيالة القبائل التى خضعت لحكم العثمانيين ، بالاضافــة الى ثلاثين مدفعية خاصة بالحصار والميدان ، وعقد قيادة ذلك الجيش لحســن كورسو ، فتقدم نحو ود تيلات طاردا امامه المزوار المنصور ، وجماعة بنــى راشد الذين تقهقروا نحو تلـمسان .

شعر الامير السعدى محمد الشيخ بالخطر الذى يتعرض له ابنه مولاى عبـد القادر و الذى لا يستطيع مقاومة العثمانيين ، فأمر فى أواخر أغسطس بتجميع القوات ووجه قيادته لآخر ابنائه مولاى عبد الله ، تقدم حسن كورسو لما بعـد القليلات ، ووصل أمام تلمسان وأحتدمت المعركة بالقرب من ودزاد جيـــــــده (Zadidja) ، وساء وضع مولاى عبد القادر ، ورد جيشه على أعقابـــه داخل المدينـــة .(٢)

علم حسن كورسو بوصول مولاى عبد الله وجيشه لتدعيم آخيه مولاى عبـد الله ، فبادر برفع حصاره فأندفع رجال الشريف وراء العثمانيين ، فأضطــر حسن كورسو الى التحصن بأحد المرتفعات ، فخفت حدة العمليات الحربيـــة نوعا ما ، وانسحب العثمانيون نحو الجزائر عن طريق مستغانم ، وعاد ابنـــاء الشريف الى تلمسان .(٣)

اعد حسن بن خير الدين جيشا قوامه ثلاثة آلاف وأربعمائة رجل حاملـى البنادق ، وأربعة آلاف فارس ، وعهد بقيادته الى القائد صفـــا ، الذى تحـــرك فى ذو الحجة ٩٥٧هـ (ديسمبر ١٥٥٠م) وضم فى طريقه عددا كبيرا من القبائـل من جهة أخرى أمر محمد الشيخ ابنه مولاى عبد الرحمن بالتحرك من تلـــمسان نحو تازه (Taza) حتى يكون بالقرب من أخوانه عند اللزوم ، وانتظـر أبناء الشريف بكامل قواتهم وصول العثمانيين ، ووقع الاصطدام فى محرم ٩٥٨هـ/

(1) Les sources indites de L'Historie du Maroc Spagne Tom P.204.
(2) IBID P. 205
(3) IBID P. 205

أوائل فبراير سنة ١٥٥١م ،بالقرب من ترعة أبو عزون على بعد ميل من تلمسان وأصيب رجال الشريف بهزيمة ساحقة ،وأستولى العثمانيون على مخيمهم ،وسقط مولاى عبد القادر فى المعركة ،بينما استطاع مولاى عبد الرحمن الهرب مع فرسانه ،وكانت الخسائر السعدية كبيرة للغاية ،وسارع العثمانيون وراء بقايا الجيش السعدى ،أما عن مولاى عبد الله والمزوار المنصور فقد اضطروا الى اللجوء لانصارهم حيث وصلوا الى فاس سائرين على أقدامهم.

ودخل العثمانيون تلمسان منتصرين ،وعين مولاى عمار احد امراء بنى زيان ملكا عليها ،ومن خلفه القائد صفا ،وكانت نكبة ود بو عزون (Bou Azzon) معناه سقوط أهداف الشريف نحو تلمسان ،وكان من أثرها المباشر التخلى عن كل البلاد الواقعةبين الووجده (Oudjda) وتازه (Taza).(١)

يتبين من خلال ذلك مدى الاهمية التى نشأت من أجله بيلربكية الجزائر من أجل تحقيق هدف الدولة العثمانية فى استرداد الاندلس التى واجهتها عدة عوائق ،ومن تلك العوائق الوجود الحفصى فى تونس وقد رأينا كيف سعى الحفصيون فى ايقاد نار الفتنة والثورة ضد الدولة العثمانية فى الناحية الشرقية فى جبال الكوكو وتلمسان ،كما أن بعض هوءلاء السلاطين لم يكتفوا بذلك ،وانما ذهبوا الى الاسبان يستنجدون بهم لنصرتهم على العثمانيين فكان يهم هوءلاء السلاطين ضمان البقاء فى الحكم والسيادة ،جتى لو كان ذلك على حساب دينهم ورغبة شعبهم فى الجهاد ،فلو استمر الوجود العثمانى فى تونس دون مضايقات ،لكان من الممكن أن تتحكم الدولة فى غرب البحر المتوسط وطرق المواصلات فيه ،فيسهل بذلك التقدم نحو الغرب.

يأتى العائق الثانى فىتلمسان والأسرة الزيانية ، التى لم تتردد فى الاستنجاد بالاسبان فى سبيل الوصول للملك ،وضمان البقاء فيه ،فنجد

1- Les Sources Inedites de L'Historie du Moroc . S pagne Tom/ P. 207.

الدولة تمد نفوذها فى تلمسان ،لكن بمجرد رجوعها للجزائر ينقلب الوضع فيتعاون الملك الزيانى مع الاسبان ،ويذهب مجهود الدولة سدى ،وبذلك لم تستطع الدولة أن تجعل من تلمسان نقطة ارتكاز للتقدم نحو المغرب أو نحو الاندلس مباشرة ،وكان تخوف الحفصيين وبنو زيان من الدولة العثمانية لشعورهم بأن الدولة فاتحة بالجهاد ،فخافوا على مراكزهم ، وانصراف المسلمين عنهم .

توالت العوائق على بعضها فظهر الوطاسيون الذين قبلوا التعاون مع الدولة العثمانية فى تحرير الشمال الافريقى من الوجود المسيحى فى الشمال الافريقى بعد أن عرضت الدولة خدماتها ،ونظرا لانشغال الدولة العثمانية فى حروبها مع الاسبان فى جبهات عديدة ،وتزايد نفوذ السعديين المنافسين للوطاسيين ،رأى الملك الوطاس أن يوقع معاهدة صداقة مع البرتغال من ناحية اخرى بدا السعديون أول الامر كمحررين للمغرب من الوجود المسيحى فأكسبهم ذلك تأييد المسلمين ،اذ اعتبروا ذلك نوعا من الجهاد فقدمت الدولة العثمانية مساعدات كبيرة لتحقيق ذلك ،ثم عرضت على السعديين مشروع استرداد الاندلس ،الا أنه بعد أن دانت بلاد المغرب للشريف السعدى وانتهاء الحكم الوطاسى ،توجه الشريف بأنظاره نحو تلمسان ،فأرسل جيوشا كبيرة لانهاء الحكم العثمانى فيها ،وعندما شعر العثمانيون بتلك المطامع وانحراف الشريف السعدى عن الهدف الاسلامى ارسلت له حملات ليعود الى بلاده .

كان كل ذلك عوائق ، أثرت وبشكل واضح على المشروع الاكبر للدولة فى استرداد الاندلس ،لكن مع ذلك تواصل الدولة جهودها لتحقيق ذلك ،طالما أن لديها القدرة ،والقوة اللازمة ،هذا سوف نلمسه فيما هو آت .


الفصل الخامس

(الفصل الخامـــــس)

" تكثيف الجهـــــــــــــــــود لاستعادة الاندلـــس "

أ - دور البحرية العثمانية فى عصر سليمان الكبير ٠

ب - خطة استعادة الاندلس فى عهد صالح ريس بيلربك افريقيـــــه ٩٦٠هـ / ١٥٥٢م٠

ج - آدوار حسن بن خير الديــــــن ٠

د - جهود بيلربك قلج على ٩٧٨هـ / ١٥٦٨م٠

٠٠٠

بعد أن آمن السلطان سليمان الناحية الشرقية بالاستيلاء على رودس بدأ فى مساندة النظام العثمانى فى شمال افريقيا ،وذلك بأن أرسل لهم قوات عن طريق البحر ،لتساعدهم فى حربهم ضد الاسبان [١] من ناحية اخرى بعث السلطان سليمان الصدر الأعظم ابراهيم باشا فى ٩٣١هـ (١٥٢٤م) لتنظيم الادارة العثمانية فى سوريا ومصر ،فأعاد ابراهيم باشا ترتيب الشئون البحرية فى ميناء السويس ،الذى جعلوه قاعدة لعملياتهم فى البحر الاحمر والمحيط الهندى ،ثم لم يلبث أن أبحر الأسطول فى ٩٣٢هـ (١٥٢٥م) فى محاولة لاخضاع اليمن للنفوذ العثمانى الا أن الحملة لم تحقق ما هو مرسوم لها وكان السلطان سليمان قد أهتم بشن هجوم مضاد قوى ضد الغزو البرتغالى فى البحر الأحمر .[٢]

ان المجهود الحربى الذى قام به الامبراطور شارل الخامس والحملات العسكرية التى أعدها ،قد فرض ذلك كله أعباء جسيمة على المجتمع والاقتصاد الاسبانى وتبعثرت الالوف المؤلفة من الجنود والبحارة وأرتفعت الضرائب على طبقة (Pecheros) وهى الطبقات العامة فى اسبانيا ،وذلك لتغطية تكاليف المجهودات ،رغم أن طبقة النبلاء ظلت معفية من تلك الضرائب فقد فرضت على الطبقة الوسطى ومع ذلك ظلت احتمالات الضرر بنمو الاقتصاد الاسبانى قائمة .[٣]

استمر المجاهدون فى شمال افريقيا يهددون أمن غرب البحر المتوسط فقاموا بمناوشات بحرية أزعجت التجارة والسفن المحملة بين اسبانيا وايطاليا وغص المجاهدون من البربر الجزء من البحر المتوسط بين سردينيا والساحل الافريقى ،وبذلك اضطرت السفن المسيحية أن تطرق الطرق الأكثر امانا بالقرب من رأس كورسيكا ،ولكن الاحتلال الفرنسى للرأس بمساعدة العثمانيين هددوا ايضا الاتصالات بين اسبانيا وايطاليا ،ولم تكن هناك مهلة لشارل فى الدفاع عن الطرق البحرية لامبراطوريته ،وبالتالى لم يستطع انجاز الحملة ضد القسطنطنية التى كانت حلمه منذ سنوات طفولته ،كما أنه صار غير قادرا على تقديم مصالح مباشرة لاسبانيا .[٤]

1- Sir Gerog Clark : Early Modern Europe P.48 .

(٢) السيد رجب حراز : أريتريا الحديثة ١٥٥٧ – ١٩٤١ ،ص ٢٨ .

3- Paul Coles : OP.CIT P. 126 .

4- Hohn Lynch : Spain under the Habsburg Val.1 P.97 .

وينتظرون قدوم العثمانيين لحمايتهم من الاسبان ومن حكامهم المحتمين بهم لذا فان ررغوث أحتل المدينة والقلعة بدون مقاومة .[(١)]

أضطر شارل الخامس أن يعد حملة كبيرة فى أواسط عام ٩٥٧هـ /١٥٥٠م الى المهدية ،بينما توجه ررغوث الى سواحل اسبانيا تاركا المهدية لقيادة أحد الربانية ،وكان ورغوث قد دمر سواحل بالنسبه ،ثم توجه الى جزر البالييار وعندما عاد وجد المهدية مطوقة برا وبحرا من قبل شارل الخامس .[(٢)]

وصل الى طرابلس الحاكم الجديد فاليس (Gaspare de Vallies) فى جمادى الاولى ٩٥٨هـ /مايو ١٥٥١م [(٣)]،وهو يعلم بأن الاسطول العثمانى فى طريقه الى طرابلس لتحريرها ،فأخذ فى تقوية الحصون وأبراج وأسوار طرابلس ،وأستصرخ الفرسان ملوك أوروبا ،وأستنجدوهم لدفع خطر المسلمين ضد المسيحية ولكنهم فشلوا فى مسعاهم ،ألتقى الأسطول العثمانى فى شرق البحر المتوسط بقيادة سنان باشا ،بدرغوث باشا فى ١٤ رجب ٩٥٨هـ الموافق ١٨ يونيه ١٥٥١م ،وقاموا باحتلال جزيرة فوزوا احدى جزر مالطة ،وعندما اكتفوا بتحقيق ذلك ،أبحر الأسطول العثمانى نحو طرابلس [(٤)] ورسا الاسطول قرب طرابلس ،ونزلت قوة فى منطقة زواوه ،بينما نزل سنان باشا على تاجورا ،حيث كان يقيم مراد أغا ،الذى أحضر المدفعية ،وفتحت نيران المدفعية على طرابلس وسرعان ما بدأ حاكم المدينة دوفاليرز مفاوضاته مع العثمانيين ،وأستجاب لشروطهم وسلم المدينة لهم ،بعد ذلك عين العثمانيون مراد أغا واليا على تاجوراء وطرابلس ،وصدمت أوروبا بسقوط طرابلس .[(٥)]

---

(١) عزيز سامح : الاتراك العثمانيون فى افريقيا ،ص ٣٨،٣٧،٢٩ .

(٢) عزيز سامح : المرجع السابق ،ص ٣٩ .

(٣) اتورى روسى : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٧٣ .

(٤) حسن سليمان محمود : مرجع سبق ذكره ،ص ١٧٠ .

(٥) جون رايت : تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور ،ص ٩١ .

عمل مراد باشا فى حدود ادراكه لتنظيم ادارة البلاد وتحصينها واعمارها ولم يثر أى حادث مدة حكمه حتى وفاته ثم اسندت الامارة الى درغوث باشا وبذل جهود جبارة فى تحصين طرابلس ،كما جلب عدد من الانكشاريين وجاهد لترسيخ العدالة والطمأنينة فى البلاد [١] ،وأمتدت سيطرة درغوث فشملت طرابلس الغرب بأسرها ،وبلغت جنوبا منطقة غريان ،وشرقا منطقة مصراته ،وكان حكمه على غربى طرابلس أكثر توسعا وامتدادا حيث شمل كل الجنوب التونسى من جربه وصفاقس والمونستير وسوسه والقيروان [٢]، رغب الاسبان تسليم المهدية لفرسان القديس يوحنا ،بعد خروجهم من طرابلس ،الا أن الفرسان رفضوا ذلك بسبب ادراكهم بعجزهم عن الاحتفاظ بها ،فقام الاسبان بنقل الاسلحة ،وبعد أن دمروا التحصينات أخلوها ورحلوا عنها ،وبذلك ألحقت المهدية ،كما ربطت فزان بالحكم العثمانى وفرضت عليها ضريبة [٣].

اشترك سنان باشا ودرغوث في قيادة اسطول جديد يتجه للغرب ،وأستطاعوا بمساعدة الفرنسيين الاغارة على شواطئ نابلى وصقلية وكورسيكا [٤] ،كما أرهب درغوث باشا موانى (Elba) ،وقطالونيا (Catalonia) وباليركس (Balearics) [٥].

قامت عدة محاولات مسيحية لاعادة احتلال طرابلس بعد سيطرة العثمانيين عليها ،فنادى البابا بيوس الرابع الدول المسيحية ،باعداد جيش صليبى ضد العثمانيين ،وقد لقى هذا النداء استجابة ،فقامت مدن ايطاليا ،وكذلك اسبانيا وصقلية بالتحضير للحملة ،وكان التخطيط المرسوم لها ،أنه سيتم احتلال طرابلس ويترك فيها أسطول مالطة وصقلية ،وذلك لمنع السفن العثمانية من العبور الى

---

(١) عزيز سامح : مرجع سبق ذكره ،ص ٥٣ – ٥٤ .
(٢) اتورى روسى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٩١ .
(٣) عزيز سامح : نفس المرجع ،ص ٥٤ .
4- Stanford Show : OP.CIT P. 106 .
5- Paul Coles : OP.CIT P.95 .

غربى خوض البحر المتوسط ،وبذلك لا تستطيع الجزائر أن تتلقى النجدة من العاصمة ،وتعتمد على قواتها الخاصة ،ثم تهاجم الجزائر ويتم اخراج العثمانيين من افريقيا الشمالية ،خاصة بعد أن تمكن الاسبان من استمالة حكام المغرب الى جانبهم وقرروا أن يقوموا باحتلال اقاليم الجزائر الغربية ،أما تونس فانها كانت تابعة لاسبانيا ٠

تأكد بيلربك الجزائر من هذه الاخبار ،وبادر بارسالها الى استانبول فحرك ذلك مخاوف كبيرة ،لأن أمور الدولة غير مستقرة نوعا ما ،اذ بدأ الروس بالزحف فى اتجاه بحر آزوف والبحر الاسود ،والبرتغاليون دخلوا خليج البصرة والبحر الأحمر ،كما بدأت سفنهم تتجول أمام السواحل العثمانية ،وقامت عصابات صغيرة من القراصنة فى بحر الادرياتيك وايجة بالاعتداء على المسلمين والنصارى من رعايا الدولة العثمانية ،وأمام تلك الأخطار ومع كل ذلك،صدرت أوامر الباب العالى لأمير البحر بيالة باشا بأن يستكمل احتياجاته ،ولما كانت رودس تقع فى منطقة خطرة ،فقد أمر شجاع أمير بحر الاسكندرية بالتوجه الى ر ودس ،وأخذ بعض المراكب من اسطول رودس لمضاعفة قواته وحراسة تلك الجهات ،كما صدرت الأوامر الى على بك حاكم قوجه ايلى والى قورت أوغلى أحمد بك بأن يلتحقوا بأمير البحر بيالة بيك (١) وأمام تلك الاستعدادات العثمانية لمواجهة الحلف الصليبى ،لقى المسيحيون هزيمة ساحقة سنة ٩٦٨هـ /١٥٦٠م ،الا أنهم مع ذلك أستطاعوا احتلال جزيرة جرية ،بعد أن ذبحت معظم قواتهم ،عندما تخلى عنهم اسطولهم ٠(٢)

صار للعثمانيين قاعدة مفيدة فى طرابلس ،وحلقة أخرى فى سلسلة مع الجزائر ،كما صار لدى الدولة مواقع ونقط أمامية أخرى على ساحل شمال افريقيا ،وقعت بالتدريج فى آيدى المسلمين ،وآستمر السلطان يرسل

---

(١) عزيز سامح : مرجع سبق ذكره ،ص ٥٥- ٥٨ ٠
(٢) جون وايت : مرجع سبق ذكره ،ص ٩٣ ٠

أساطيله القوية لتهاجم سواحل البحر المتوسط المسيحية ،ولكن كانت هناك نقاط ضعف لم تمكن السلطان من الضغط المتواصل ،ومن تلك النقاط انشغاله بالحرب مع فارس وشعوره بعدم الثقة من التعاون مع فرنسا ، اذ أنه عبرت الاساطيل العثمانية المسافات الواسعة للبحر المتوسط ،ولم تستطيع تلك الأساطيل على تحقيق السيادة والتفوق البحرى فى غرب المتوسط ،لقد كان عامل المسافة أكسب اسبانيا مهلة واستراحة [1]،ومع ذلك لازال السلطان العثمانى يواصل جهوده فى تقوية اساطيله البحرية ،التى أثبتت من خلال ما سبق ذكره على مقدرتها فى تطوير نفسها ،لتنفيذ ما خططته الدولة فى السابق لاسترداد الأندلس ،وسنلاحظ ذلك من خلال الفقرات التالية ٠

1- John Lynch : OP.CIT Vol.1 P. 97 .

كان حسن بن خير الدين بربروسا بعد أن هزم السعديين فى تلمسان ،ووطد دعائم الحكم العثمانى فيها ٩٥٩هـ/١٥٥١م (١)،انتهج سياسة مضادة لكل الدول الأجنبية ،بما فيها فرنسا التى كانت ترتبط بالدولة العثمانية بروابط رسمية جيدة ،ساعدت الفرنسيين على الافادة من الامتيازات الاقتصادية التى منحت لها معاهدتها مع استانبول والتى شملت جميع أقاليم الدولة العثمانية ،غير أن حسن بن خير الدين لم يلتزم بذلك ،وأعلن عداءه لفرنسا فى مناسبات عديدة فما كان من فرنسا ألا أن أرسلت سفيرها المعتمد فى استانبول الى الجزائر بهدف معرفة المدى الذى سيصل اليه حسن بن خير الدين فى عدائه لفرنسا ،وفيما اذا كان هذا العداء سيؤثر على العلاقة الاقتصادية ما بين فرنسا وبيلربكيه الجزائر .

اجتمع سفير فرنسا بالبيلربك حسن بن خير الدين ،وعرض عليه تقديم مساعدات عسكرية ،لتنفيذ مشروع الدولة العثمانية فى مهاجمة اسبانيا ،ونجدة مسلمى الأندلس ،لكن حسن رفض هذا العرض ،لمعرفته بمواقف فرنسا السابقة مع الدولة العثمانية نفسها ،وأعلن صراحة أن قضية الجهاد هى قضية خاصة بالمسلمين ،فأكد بذلك القاعدة الثابتة وهى عدم الانتصار بكافر على كافر ورجع السفير الفرنسى الى استانبول ،فأوغر صدر الباب العالى بقوله (ان السلطة الواسعة المطلقة التى يمارسها حسن بن خير الدين ومحاولته توسيع مملكته ستحطم وحدة الدولة العثمانية وتهدد كيانها بالانقسام ،(٢) خاصة وأن والدته من الأسر الجزائرية المعروفة .

رأت الدولة العثمانية أنه لزاما عليها من تغيير سياستها فى المنطقة خاصة بعد أن صار المغرب حليفا قويا للاسبان ،مما أدى الى قلب الموازين الاستراتيجية رأسا على عقب ،فأتخذ السلطان عدة تدابير لمواجهة الحالة الجديدة ،ومن ذلك عزل السلطان سليمان القانونى بيلربك الجزائر حسن بن خير الدين بدعوى الاساءة الى حسن الجوار مع المغرب ،كما دعا الى الوحدة الاسلامية والى حسن الجوار (١).

---

(١) أبى عبد الله السليمانى : اللسان المعرب عن تهافت الاجنبى حول المغرب ص ٩٤ .

(٢) بسام العسيلى : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٠ – ٣٢ .

(٣) محمد الغربى : بداية الحكم المغربى فى السودان الغربى ،ص ٩٠-٩١.

بعث السلطان سليمان القانوني برسالة الى حاكم فـــاس جاء فيها "..... ولما بلغ سمعنا الشريف أن أمير الأمراء ،بولاية الجزائر سابقـا حسن باشا لم يحسن المجاورة مع جيرانه ومال الى جانب العنف والاعتساف ونبذ وراء ظهره طرق الوفاق والائتلاف وسد باب الاتحاد مع المجاهدين حماة الدين ،لذلك بدلناهم غيره ،فأنعمنا بولاية الجزائر على مملوك حضرتنا العلية وخلاصة خدام اعتابنا الجليلة أمير الامراء الكرام كبير الكبراء الفخام ذى الجلال والاحترام صاحب الفرد الاحتشام المختص بمزيد عناية الملك الأعلى صالح باشا دام اقباله لفرط شهامته وشجاعته وكمال دينه وديانته فوضنا اليه تلك الديار وأمرناه باقامة الشراع (الشرع) الشريف المتين ،واحياء تواقر سيد المرسلين وصون الرعايا وحفظ البرايا الذين هم ودائع الله تعالى وان يكون مع الاهالى الاسلام على اكمل اتحاذ واجمل اتفاق مجدا فيما يتعلق بالدولة والدين وقيام ناموس سلطاننا المتين مشابرا على دفع أعداء الدين وقمع الكفرة الفجرة المتمردين على أن اقصى مراد حضرتنا العلية احياء مراسم الاسلام واطفاء نائرة الكفرة والمتمردين اللئام وذلك المرام يكون باتفاق أمراء الاسلام واتحاد أمناء شرع سيد الأمام ويتم به النظام وينفى آثارهم فى الشهور والاعوام .

وأمرناه أيضا أن ينظر الى احوال المسلمين بنظر الاشفاق والمراحم وينظر بينهم بكمال العدالة وحسن المكارم ليكونوا فى أيام دولتنا العادلة آمنين مطمئنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .[١]

---

(١) خليل الساحلي : تقليد صالح باشا ولاية الجزائر . المجلة التاريخية المغربية ،عدد (٢) ،ص ١٢٩.

كما بعث السلطان سليمان القانونى بخطاب آخر الى حاكم المغرب محمد الشيخ السعدى ،يمنحه بخلع ،والخطاب عبارة عن مرسوم سلطانى قال فيه "... هذا مثالنا الشريف .. الخ أصدرناه الى الجناب العالى حاكم فاس يومئذ الشريف محمد .. نخصه بسلام تتكمل به صلات المحبة بالتحيات الطيبات وتتأكد بعطره صلات المودة بالتسليمات الزاكيات وبعد .

فان الله جلت قدرته وتعالت عظمته منذ أقامنا فى دولة هايلة نركب خيولها ،ونعمة طائلة نسحب ذيولها وسيادة سايدة كالشمس وضحيها .. وامضاء سنى سنن سيد الأولين والآخرين ومظاهرة حماة الدين ومجاهدين الكفرة المتمردين وأنت من أولاد سيد المرسلين وقائد الغر المحجلين صلوات الله عليه وسلامه وقد سمع سيدتنا العلية حسن أقدامك وكمال دينك وديانتك وخلوص طويتك وصفاء سيرتك وقيامك فى الذب عن المسلمين وقمع اعداء الدين ولذلك الشأن حباك احساننا الشريف العالى السلطانى ورعاك جزيل فضلها السامى الخاقانى فأنعمنا عليك وعلى ولديك بثلاث خلع سنية لتكون صلة للمحبة منا وسببا لنسج المودة بيننا ،على أن أقص مراد حضرتنا العلية أن تكون أهالى الاسلام وحماة دين النبى عليه السلام فى أيام دولتنا العادلة فى اكمل الراحة واجمل الاستراحة آمنين مطمئنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ان شاء الله تعالى .. " (٢)

تحريرا فى أوائل محرم سنة تسع وخمسين وتسعمائة الموافق يناير ١٥٥٢م ،بمقام آدرنة .

أصدر السلطان سليمان القانونى تعليماته للمسئولين باعداد السفن وتجهيزها فقد جاء فى أمره ما يلى " آمرنا أن تسلموا شيئا من البارود الى السفن الخمس المتوجهة الى جزائر الغرب والتى ستمكث هناك ..." (٣) ،لم يكن ينتظر من صالح رايس حسن الجوار مع السعديين ،طالما لا يفضلون لجيرة

(١) خليل الساحلى : مرجع سبق ذكره عدد (٢) ،ص ١٣٠ .

(٢) خليل الساحلى : نفس المرجع ، ص ١٢٩-١٣٥

العثمانيين ، المنافسين لهم فى زعامة العالم الاسلامى ،وطالما كان السعديون طامعيين فى تلمسان ،لكن المصلحة اقتضت المداراة حتى تضع الحرب اوزارها عمل صالح رايس فى سياسته الداخلية على تحقيق آمرين ،أولهما تحقيق الوحدة بصفة تامة مطلقة بين كل أجزاء الجزائر ،وثانيهما ادخال بقية اجزاء الصحراء الجزائرية ضمن هذه الوحدة حتى يتفرغ للاندلس ،أما سياسته الحربية الخارجية فقد كانت ترمى الى ثلاثة أهداف ،أولها ابعاد الاسبان نهائيا عن اراضى الجزائر ،وثانيهما وضع حد فاصل للمشاغبات والمفاجآت التى تقوم بها الدولة المغربية السعدية ،وثالثهما اعلان نفير الجهاد العام والسير برا وبحرا على رأس الجيوش الاسلامية الى بلاد الأندلس .(١)

ابتدأ صالح رايس فى مستهل ولايته بتحقيق الوحدة الداخلية ،وكان فى الجنوب الجزائرى ، امارتان مستقلتان تمردتا على الحكم العثمانى ، فأمارة توقرت كان يتولى أمرها ملوك بنى جلاب يتوارثونها أبا عن جد ،وامارة بنى وارجلان (ورقلة) يتولى أمرها الشيوخ الاباضيون - احدى طوائف الخوارج ورثة دولة بنى رستم ،ويمتد سلطانها الى قرب وادى ميزاب غربا والى المنيعة جنوبا ،كانت الامارتان قد دخلتا أيام خير الدين بربروسا ضمن الوحدة الجزائرية ،لكن ابتعاد خير الدين ،واشتغال العثمانيين بحوادث تلمسان والمغرب ،قد جعل الامارتين تمتنعان عن دفع الجزية للعثمانيين وتعلنان استقلالهما عن ادارة الجزائر ،وحاول صالح رايس اقناعهما باللين الا أنه فشل (٢)فى تحقيق ذلك ، فقرر توجيه حملته اليهم ،مستعينا بصديقه عبد العزيز أمير قلعة بنى عباس حيث أتصل به فى مجانة ومعه يومئذ ثمانية آلاف جندى (٣) وسار الجميع نحو توقرت حيث تمت مهاجمة واحات توقرت ،وكانت قوة الصدمة أكبر من أن يحتملها ملك توقرت وجيشه ،وبعد معركة قصيرة وحاسمة أمكن تصفية المقاومة فى توقرت ،والقضاء على حكم بنى جلاب وضم توقرت نهائيا

---

(١) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٣٧ .

(٢) بسام العسيلى : مرجع سبق ذكره ، ص ٧٣ .

، احمد توفيق مدنى : نفس المرجع ،ص ٣٣٨ - ٣٣٩ .

(٣) عبد الرحمن الجيلالى : تاريخ الجزائر العام ،ج٣ ،ص ٨٦ - ٨٧ .

الى السلطنة العثمانية وتوجه جيش الجزائر بعدها الى بنى وارجلان ،واجتمع هنا شيوخ ورقلة وأعلنوا رفضهم لقتال اخوتهم المسلمين وانضمامهم للدولة العثمانية وصاروا منذ ذلك الوقت جزءا لا ينفصل عن الدولة العثمانية وتعهدت لهم الدولة بالمقابل احترام مذهبهم الاباضى وحرية ممارستهم له والتقاضى بمقتضاه بالنسبة لكل من يعتنقونه [١] ولا يعنى أمر السلطة العثمانية هنا قيام حكم مباشر لان ظاهره الحكم المباشر أصلا فى نظام السلطة العثمانية .[٢] ليس محكا للسيارة داخل انلاكها .

دب الخلاف بين صالح رايس كممثل للدولة العثمانية ،وبين عبد العزيز كسلطان لقلعة بنى عباس ومجانة ،فالأول كان يرى أنه من الضرورى التوحيد المطلق للبلاد ،والثانى كان يرى أنه ملك مستقل ،وأنه يمد يده للدولة العثمانية كحليف يعينها عندما يرى ذلك ،وانما لا يخضع لها ،فكان الصدام بين الفكرتين ،ووقعت أحداث موءلمة بين الجانبين ،وأندحر أثناءها الجيش العثمانى فى محرم سنة ٩٦٠هـ / ديسمبر ١٥٥٢م ،كما اندحر مرة اخرى رغم انضمام بلاد كوكو أعداء قلعة بنى عباس التقليدين للعثمانيين .[٣]

حدث أن هرب أحد افراد اسرة بنى وطاس ابن الحسن على بن محمد الشيخ الوطاسى المعروف بلقب أبو حسون من مراكش وذهب يلتمس مساعدة البرتغاليين والاسبان لاعادة اسرته الى الحكم .[٤]

علم مولاى عمر[٥] ،بتوجه بو حسون الى اسبانيا مع ابن الامبراطور شارل الخامس لجمع حملة عسكرية وكانت المغرب فى حالة فوضى ،فعرض العثمانيون على مولاى عمار تدخلهم ،لكن رفض المذكور نظرا للعلاقات التى تربطه بالامبراطور ،فأوفد مولاى عمار وفدا الى البلاط لمقابلة بو حسون ويرجوه بالعودة سريعا ،وأن يعرض على الامبراطور ويلتمسه المساعدة ضد العثمانيين

---

(١) بسام العسيلى : مرجع سبق ذكره ،ص ٧٤ .
(٢) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٤١ .
(٣) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره،ص ٣٤٠ .
(٤) عبد العزيز الشناوى : مرجع سبق ذكره ج٢،ص ٩٤٧ .
(٥) احد امراء بنى زيان ،عينوه العثمانيين على تلمسان بالاسم ،اذ كانت السلطة الحقيقية فى يد القائد العثمانى .

نظرا لتشابه موقفهم .(١)

لم يسفر لقاء بو حسون مع ابن الامبراطور عن النتيجة المنشودة ،كما أن محاولته للقاء الامبراطور فى ألمانيا قد فشلت أيضا ،وأنتهت جهوده الى البرتغال التى وصلها فى عام ٩٦١هـ /١٥٥٣م وحصل من ملكها على مساعدة تمثلت فى ست سفن حربية ،والتساؤل التاريخى حول سبب رفض الاسبان تقديم العون الى بو حسون وانحصار العون البرتغالى فى هذا المدد المحدود ،وقد اتجه الى الاخذ باحتمال تحالف بين الاسبان والسعديين ،كذلك أو على الاقل الاتصال من اجل تحقيق مثل هذا التحالف .(٢)

نزل بو حسون بسفنه الى خليج الحسيمة ،غير أن الإسطول العثمانى سرعان ما أسر السفن البرتغالية بعد معركة جرت بين الطرفين (٣) ،وذلك أثناء تجول صالح رايس فى البحر لغزو سواحل الامم المسيحية والذى اشتهر بها صالح رايس مدة ولايته ،فى محاولته الجادة لاسترداد الاندلس (٤) ،وكان الجهاد الإسلامى يشمل يومئذ من الناحية الجزائرية بلاد اسبانيا والبرتغال .

حكى بو حسون على صالح رايس قصته ،وذكر أنه ذهب أول الأمر الى اسبانيا لطلب العون والمساعدة فى استرجاع عرشه ،لكن لم تستجب اسبانيا لدعوته وان الامر يهم البرتغاليين فتوجه الى البرتغال التى كانت ترغب فى الانتقام من الاشراف السعديين الذين أخذوا يسترجعون من البرتغاليين ما يحتلونه من المغرب الاقصى ومن سواحله ،فقرر اعانته ،وأمده بالسفن ،وكانت تلك العمارة التى أسرها صالح رايس .(٥)

1- Les Sources Indites Lhistoire Du Moroc . Espagne Tom 1P.591

(٢) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ،ص ١٤٤،١٤٥.

3- Les Sounces Indites Lhistoire Du Moroc . Espagne Tom 11 P.36.

(٤) عبد الرحمن الجيلالى : مرجع سبق ذكره ،ج ٣ ،ص ٨٧ .

(٥) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٤١ .

ان العثمانيين قد ادركوا هدفهم من الحلف الإطلسى ،الا وهو الوصول بالحكم العثمانى نفسه الى الحاضرة المرينية فاس التى مال اهلها آنذاك بكل مشاعرهم نحو بوحسون الوطاس ، فهو أصلا ابن موءسس الاسرة الوطاسية ومنثم فان هدفه من الحملة العثمانية لم يكن يعنى سوى العودة بهذه الإسرة الى حكم المغرب وان كان تحت السيادة العثمانية .(١)

اتفق صالح رايس مع أبى حسون ،تعهد له هذا بأنه يعترف بمجرد جلوسه على فاس بالتبعية للسلطان العثمانى ،والاستعداد من قبل الطرفين لتجهيز الجيوش الاسلامية لمباشرة غزو اسبانيا برفقة صالح رايس .(٢)

وصلت القوات العثمانية لنجدة أبو حسون الى بادس حتى تلقى طاعة القبائل المجاورة للمنطقة ،وأخذ فى اعداد قوات محاربة ،كما انضم الى ابو حسون عمر ـ عمار ـ ملك دبدو (٣)،وقد حصلت اصطدامات عسكرية بين قوات محمد الشيخ والقوات العثمانية قرب بادس التى رسا بها الاسطول العثمانى الا أن الهزيمة لحقت بالقوات السعدية ،مما أفسح المجال أمام العثمانيين لكى يواصلوا زحفهم نحو الداخل ،وقبل أن تنتهى سنة ٩٦٣هـ/١٥٥٣ سقطت مدينة تازة فى يد العثمانيين الذيت اشتبكوا مع السعديين فى معارك متواصلة أهمها بكدية المخالى فى ساحة فاس ،عند ذلك تقدمت القوات العثمانية ومعها أبو حسون نحو فاس التى دخلتها فى ٣ صفر سنة ٩٦٤هـ /٨ يناير ١٥٥٤م(٤)، وأعلن الباب العالى ضم المغرب الى الدولة العثمانية بعد أن خطب الامام للسلطان العثمانى .(٥)

ان الاعتراف الرمزى بالسيادة العثمانية تمثل أخطر مرحلة فى تاريخ المغرب منذ الفتح الاسلامى ،لأن المغرب أصطدم خلالها باحتلال اسبانى وبرتغالى

---

(١) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ،ص ١٤٤ .

(٢) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٤١ .

(٣) دبدو هى مجموعة من القرى تقع على الهضبة المطلة على ساحل تفرطا على الضفى اليمنى لنهر ملوية ،وكان شيخ هذه القبائل يشمل نفوذه قبائل وادى تازة وفى القرن السادس عشر لقبه الاسبان بلقب ملك .

(٤) عبد الكريم كريم : مرجع سبق ذكره ،ص ٨٠ ـ ٨١ .

(٥) محمد الغربى : مرجع سبق ذكره ،ص ٩١ .

لقسم كبير من شواطئه ،فكان الاعتراف بسيادة الدولة العثمانية والحالة هذه ليس من باب الحكمة فقط ،بل وضرورة سياسية كذلك ،لأن العثمانيين أحتضنوا الخلافة الاسلامية أولا ،ولأنهم جابهوا الدول الاستعمارية بما فيها الاسبان سواء فى تونس والجزائر ،كما فعلوا ايضا فى مساعدتهم للوطاسيين والقوات السعدية بالمغرب ضد الوجود الاسبانى .(١)

باستقرار مولاى عمار فى دبدو وأبى حسون بفاس ،ساد النفوذ العثمانى شرق المغرب والمناطق الوسطى ،وازداد فزع الاسبان والبرتغال لرؤية الاساطيل العثمانية وهى تسيطر على بعض الموانىء المغربية القريبة من مراكز احتلالهم التى سيطهرها العثمانيون ومن ثم التوجيه للاندلس ،وقد جاء فى الرسالة التى بعثها الملك البرتغالى (جان الثالث) الى الامبراطور شارل الخامس ،ما يدل على هذا الفزع اذ كتب اليه يحثه على التدخل فى المغرب للحيلولة دون توطيد العثمانيين لاقدامهم فى هذه البلاد ،لان ذلك يشكل خطرا كبيرا على مصالح الأمتين .(٢)

مكث صالح رايس بمدينة فاس أربعة أشهر ضمن خلالها استقرار الأمور للدولة العثمانية ،وفى خلال تواجده فى فاس ،لم يترك الجهاد ضد الاسبان فأرسل فرقة من جيشه الى الريف المغربى استرجع من الاسبان معقلهم الكبير باديس أو صخرة فاليس كما يدعونها (٣) ،كما حاول صالح رايس أن يستبدل الباشا العثمانى أبا حسون بالشريف الادريسى الراشدى مولاى بو بكر ،بناء على اقتراح المرابطين الصوفيين للقيام على حكم فاس باسم السلطان العثمانى ،الا أن ثورة الأهالى اضطرت صالح رايس لاعادة بو حسون الى حكم فاس ،فأذعن بو حسون لشروط العثمانيين بشأن الحفاظ على السيادة العثمانية منحيث الخطبة باسم السلطان العثمانى

---

(١) ابراهيم حركات : التأثير العثمانى فى المغرب ،اشغال المؤتمر الاول ، لتاريخ المغرب وحضارته ،جـ٢ ،ص ٩ .

(٢) عبد الكريم كريم : مرجع سبق ذكره ،ص ٨١ .

(٣) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٤٢ .

واقامة حامية عثمانية فى مقر بلاطه [1] تمهيدا للعمل المشترك فى استرداد الأندلس .

لم يكن صالح رايس يهتم قبل كل شئ الا بمحاربة الاسبان ،ولا يهدف من وراء أى عمل الا جمع القوى الاسلامية من أجل تطهير البلاد من التواجد المسيحى ،وكان يرى قبل كل شئ وجوب طرد الاسبان من وهران ،ثم النزول الى الاندلس ،لكن كيف يتسنى له ذلك وسلطان السعديين بالمغرب يترقب به الفرص وسلطان قلعة بنى عباس ببلاد مجانة يعلن انفصاله واستقلاله ،ترامت لصالح رايس يومئذ الانباء عن ضعف القوى الاسبانية بمدينة بجاية ،علاوة عن معاناة الحامية بالضيق فرأى صالح أن يغتنم الفرصة ،وأن يبدأ بتطهير الشرق من الاسبان قبل أن يطهر الغرب ولعل انقاذ بجاية سيكون له أثر فى عودة ملك بجاية الى حظيرة الوحدة الاسلامية تحت ضغط السكان .

سار صالح رايس فى ربيع اول سنة ٩٦٣هـ/يناير ١٥٥٥م نحو مدينة بجاية على رأس جيش كبير يقدر بنحو ثلاثين ألف رجل عززهم فى الطريق بالمجاهدين من امارة كوكو ،فوطدت الجيوش العثمانية وحاصروا المدينة ،بينما جاء الاسطول العثمانى يحمل الاسلحة والمدافع فرسى بجانب الجيش وصوب المسلمين قذائفهم على القلعة [2] ودارت معركة عنيفة ونجح صالح رايس فى انتزاع بجاية من الاسبان فى ذو القعدة سنة ٩٦٣هـ/ سبتمبر ١٥٥٥م ،ولم يستطع حاكم نابولى من نجدة حاكمها فى الوقت المناسب [3]، كما استسلم الحاكم الاسبانى الونسو دوبيرالتو (ALOnso de Perralto للقوات العثمانية . [4]

صار بوحسون يواجه منافسة المولى محمد الشيخ السعدى الذى جمع قوات من

---

(١) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ،ص ١٤٧ .
(٢) احمد توفيق مدنى: مرجع سبق ذكره ،ص ٣٤٣ - ٣٤٤ .
(٣) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ،ص ٤١ .
(٤) عبد الرحمن الجيلالى : مرجع سبق ذكره ،ج٣ ،ص ٨٨ .
، شارل اندرى جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية ،ج٢ ،ص ٣٤٤ .

الحوز والسوس وأتى يجر جنوده الى أن وصل رأس الماء من أحواز فاس [١] وكان بو حسون بعد انسحاب العثمانيين قد اخذ فى اعداد الجيوش وآلات الحرب التى أن قضت ثمانية شهور فأمر بالخروج لمواجهة مولاى محمد الشيخ والوصول الى مراكش ولما تقابل الجيشان قام بينهم قتال عظيم و استطاع بو حسون أن ينزل بالسعديين هزيمة شنيعة حتى استطاع أن يردهم على أعقابهم ،ثم ارسل بو حسون لمولاى محمد الشيخ وقال له أخرج أنت واولادك الى لقائى وانا أخرج اليكم بنفسي و نترك المسلمين بدون قتال ،فتظاهر محمد الشيخ بالموافقة ،فخرج بو حسون لمقابلة احد ابناء محمد الشيخ الذى انهزم ورجع الى والده واخوته الستة الذين اجتمعوا على بوحسون فجعل يطاردهم حتى طربه فرسه فسقط فطعنوه فأحتزوا رأسه و أتوا به جيشه ،فأنهزموا بلا قتال ،واخذ محمد الشيخ فاس [٢] وهكذا مات بو حسون بعد تسعة شهور من عودته لحكم فاس ،وان كانت قد ضاعت بموته الفرصة الاولى لإعلان، السيادة العثمانية على فاس ،الا أن احداث هذه الوقائع كانت تعنى أن الفرصة مازالت واسعة أمام العثمانيين لتطبيق غزوهم المرحلى للمغرب ،لاسيما وأن محمد الشيخ السعدى باسم القضاء على الحزب العثمانى بين المغاربة انزل القتل فى اكثر من مائتين من كبار أعيان فاس فضلا عن الفقيهيين المرينيين أبى محمد عبد الوهاب الزقاق قاضى فاس ،و أبى الحسن على حزوز خطيب فاس . [٣]

ان عودة فاس للسعديين كانت نقطة تحول هامة فى تاريخ الدولة السعدية فالمولى محمد الشيخ قد ظهر كخصم عنيد للعثمانيين ،ومن المعارضين لسياستهم التوسعية فى بلاد المغرب ،بل والاكثر من ذلك أنه أعلن أثر دخوله فاس بأنه عازم على الذهاب الى الجزائر لمنازلة العثمانيين هناك ،فهذا التنافس السعدى العثمانى على شمال افريقيا ،بل وعلى الخلافة الاسلامية كان فى صالح الاسبان والبرتغال ،ولا عجب أذا رأينا بعد ذلك تقاربا بين هوءلاء جميعا ضد العثمانيين . [٤]

---

(١) عبد الكريم كريم : مرجع سبق ذكره ،ص ٨٢ .

(٢) موءلف مجهول : تاريخ الدولة السعدية ،ص ٢٠ – ٢١ .

(٣) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ،ص ١٤٨ .

(٤) عبد الكريم كريم : نفس المرجع ،ص ٨٣ .

بعث الملك جون الثالث رسالة الى حاكم مازكان البرتغالى الفارو دى كافالو (AL Varo de Carralho) ردا على الطلب الذى تقدم به المولى محمد الشيخ الى كل من مدريد ولشبونة لتزويده بقوات عسكرية ضد العثمانيين كما حددت الرسالة بعض الشروط التى يراها البرتغاليون لمساعدة السعديين ،كتسليم بعض المراكز البحرية المغربية مثل بادس وبنيون والعرائش ،بالاضافة الى تموين القوات المسيحية التى سيرسلها لمساعدته ،واخيرا يختتم الملك البرتغالى يوحنا الثالث بضرورة اخبار الامبراطور الاسبانى بذلك للتنسيق فى عمل مشترك ضد العثمانيين ،ونتيجة لهذا التقارب فقد عقدت هدنة بين السعديين والبرتغال بواسطة حاكم مازكان لمدة ستة آشهر وذلك فى مطلع ٩٦٢هـ/ ١٥٥٥م ،وظل مفعول هذه الهدنة زمنا طويلا .

اذ كان حاكم مازكان هو الذى قام بدور الوساطة مع السعديين فان المزوار بو غانم هو الذى كلف من قبل المولى محمد الشيخ بالوساطة مع الاسبان وأول رسالة للمنصور فى هذا الصدد ،تلك التى بعثها الى حاكم وهران الاسبانى الكونت دى الكودين (Comet de AL Coudet) فى مطلع ربيع اول ٩٦٣هـ/ يناير ١٥٥٥م ،وقد اخبر المزوار الكونت الاسبانى بوصول رسائله وأنه أعلم بها المولى محمد الشيخ وابنه عبد الله الذين اعربا عن سرورهما لقدوم وفد اسبانى للتفاوض معه ،وقد ارسل حاكم وهران بالفعل الى فاس وفدا يتألف من ثلاثة اشخاص جاءوا للاتفاق مع المولى محمد الشيخ حول اعداد حملة مشتركة اسبانية ـ مغربية ضد العثمانيين .(١)

وقد جاء فى التقرير الذى رفعه الوفد للكونت الكوديت حاكم وهران الاسبانى الذى اشرف على سير المحادثات "... بعد أسلمناه الرسائل .. طلب الينا الملك السعدى أن نقول له شفويا عن سبب المهمة التى قدموا من أجلها الى فاس .....

---

(١) عبد الكريم كريم : مرجع سبق ذكره ،ص ٨٣، ٨٤ .

انـنـا جئنـا استجابة لطلب مولاى عبد الله والقائد منصور بن بوغانم حيث طلب من حاكم وهران ارسال بعض الرجال للتفاوض فى أمر الجزائر .

آجابنا الشريف بأنه لايزال عند فكرته ،وأنه يرغب فى طرد العثمانيين من بقايا افريقيا ،ومن أجل ذلك فهو يطلب من جلالة الامبراطور امداده بعشرة آلاف مقاتل مسلحين بأسلحة نارية ،وأنه (اى الشريف) يرى بأنه من المناسب أن يقوم جلالة الامبراطور بكل ما يلزم لهوءلاء المقاتلين من نفقات ،ذلك لان طرد العثمانيين انما هو عمل تستفيد منه ممالك الامبراطور والمسيحية جمعاء ...... وطالت المذكرات كثيرا واخيرا علمنى القائد برشميدة بأن الشريف قد أدخر كثيرا من المال لمحاربة العثمانيين ،وأنه يسعده أن يعين الامبراطور على ذلك وأن الامر مستعجل جدا .... " .

" ... جاء ذكر الجزائر ماذا نصنع بها بعد احتلالها ،فكان من رأى الملك السعدى تحطيم هذه المدينة وازالتها تماما ،أما أهلها فتوءخذ أموالهم ،واذا امتنعوا فيقتلوا ،ورفض الملك السعدى أن يوءخذوا عبيدا للمسيحيين ،وذكر الوفد أن الاتراك أجانب عن البلاد وانهم اعداء له فيجب معاملتهم معاملة الاعداء ،اما العرب فيمكن أن تترك لهم حريتهم فى حالة استسلامهم دون مقاومة . الا أن الملك السعدى أوضح أنه لن يسمح أبدا بأن يصبح أى عربى عبدا ،لان هذا مخالف الشريعة"(١)

يتبين من خلال ذلك مدى حقد الشريف السعدى على العثمانيين ،الذى لم يتورع فى الاستنجاد بالقوى المسيحية اسبانيا والبرتغال فى سبيل تحقيق أهداف شخصية ،حتى لو كان على حساب عقيدته الإسلامية ،ومصالح المسلمين .

نتيجة لذلك التقرير فقد بعث الكونت الكوديت حاكم وهران ذلك الى الامير فيليب ابن الامبراطور شارل مشفوعة بخطاب هذا نصه "... يجب علينا

---

(١) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٦١ – ٦٢ .

أن نعتبر انفسنا سعداء جدا فى الوقت الذى يبذل فيه ملك فرنسا عدونا الالد كل جهوده للحصول على اسطول السلطان العثمانى ،حتى يهاجم ممتلكات جلالة الامبراطور ،وكون أمير عربى يعرض علينا نفوذه فى مهاجمة العثمانيين فى الجزائر ومحاربتهم وابعادهم عن الأرض التى يحتلونها فى افريقيا ،وذلك فيما اذا قدمنا له اثنى عشر ألف من المقاتلين الاسبان على حسابه ،كذلك يتعهد الشريف السعدى فى حالة الموافقة أن أبعث بأحد أبنائى رهينة لديه ،وان يضع المال اللازم لتجهيز هذه الحملة بكل سرعة ،وبما أن هذه الصفقة ستجر خيرا عظيما على جلالته وعلى المسيحية جمعاء فأنا لا أتردد فى قبول طلب الشريف وارسل اليه ابنى رهينة ،حتى لو كنت على يقين أنه يريد أن يذبحه ،بل اننى وجميع من حولى مستعدين لتقديم أنفسنا كرهائن حتى لو كان الشريف يريد بيعنا عبيدا .... " (١)

أطلع صالح رايس على تلك المؤامرة التى كانت تحاك ضد الدولة العثمانية بين ملك المغرب والاسبان والتى كان هدفها طرد العثمانيين من الجزائر ،لأنه طالما أن الدولة فى الجزائر معناه خطر على اسبانيا ،فبعث صالح رايس للباب العالى يخبره بشأن تلك المحادثات ،فكان جواب السلطان سليمان سريعا وحاسما بوجوب مهاجمة وهران ،قبل أن تستمر المحادثات بين الجانبين السعدى والاسبانى عن نتيجة عملية ،فأرسل السلطان سليمان أربعين سفينة وعلى ظهرها ستة آلاف رجل الى صالح رايس لمساعدته فى الاستيلاء على وهران والمرسى الكبير ،ومنذ ذلك الوقت كانت الهجرة والتجنيد الطوعى من مختلف انحاء الدولة العثمانية هى التى تغذى الأوجاق ،الذى كان تبعا لذلك يتجدد على الدوام .(٢)

استعد صالح رايس لفتح وهران ،وضم اسطوله الى جانب اسطول السلطان

---

(١) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٦٤ - ٣٦٥ .

(٢) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ،ص ٨١ .

وصار لديه نحو سبعين سفينة ،واجتمع لديه من الجند ما يقارب من أربعين الف جندى ،وكان ينوى من اتمام زحفه هذا بالمسير الى مراكش للقضاء على الفتن والاضطرابات واخضاعها لسلطانه ،ولكن القدر لم يمهله فتوفى صالح رايس بالطاعون فى شهر رجب ٩٣٦هـ / الموافق ١٥٥٦م عن عمر سبعين سنة .(١)

وهكذا لم تستطع الدولة فى تحقيق خطتها فى استعادة الاندلس ،من خلال وجود صالح رايس ،الذى رأى تطهير الشمال الافريقى من الوجود المسيحى أولا ،ثم الوصول الى أقرب نقطة للعبور للأندلس ،لكن كان هناك الوجود السعدى الذى فضل التحالف مع اسبانيا والبرتغال ليكتمل حكمه على المغرب ثم الجزائر ،وكان ذلك عائقا لتقدم الدولة .

ان الدولة العثمانية سعت الى ضم المغرب فى نطاق توحيد البلاد الإسلامية والوقوف بها صفا واحدا ضد الهجمات المسيحية ،ذلك ان استقراره فى قواعد بحرية تنتشر على طول سواحل المغرب الاقصى المطلة على المحيط الاطلسى ،يعنى حقيقة الأمر نجاح الاساطيل العثمانية فى اعتراض الطرق البحرية للبرتغال أو اسبانيا مع العالم الجديد والشرق ،من هنا نرى ان نجاح الفكرة كان يعتمد اساسا على وصول العثمانيين الى تلك السواحل ليشاركهم فى ذلك المجاهدون الذين عملوا سنوات طويلة تحت امرة أمراء البحر العظام ،أمثال خير الدين وعروج بربروسا وصالح رايس .(٢)

قام القائد يحيى باكمال خطة صالح رايس فأبحر نحو زهران وفى الطريق وصلت الاوامر السلطانية بتعيين حسن قورصو لمنصب بيلربای ،ووصلت الجيوش البرية والبحرية الى وهران وحوصرت حصارا شديدا ،الا أنها لم تفتح رغم استعدادات العثمانيين الكبيرة وذلك بسبب النجدات المتواصلة التى كانت

---

(١) عبد الرحمن الجيلالى : مرجع سبق ذكره ،ج ٣ ،ص ٨٨ - ٨٩ .

(٢) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٤٣ .

تبعثها اسبانيا الى المدينة المحاصرة .[1]

انتهز الشريف السعدى محمد الشيخ فرصة عودة الاسطول العثمانى الى استانبول ،فأسرع بارسال جيوشه نحو تلمسان ،التى كان رجالها قد انضموا الى صفوف المجاهدين فى محاولتهم لاسترجاع وهران فدخلها الشريف السعدى على غفلة ،ووضع على رأسها القائد ابن غنام زعيم قبائل بنى راشد ،ووزير آخر ملوك الزيانين المحتمين باسبانيا ،اما الحامية العثمانية الموجودة فى تلمسان بقيادة القائد محمود صفا بك فقد استطاعت الصمود فى وجه السعديين حتى أحتوت ذلك الهجوم السعدى .[2]

ان السعديين كانوا يرون فى ضم تلمسان عاملا قويا فى توطيد سيطرتهم على المغرب الشرقى لصد كل تدخل عثمانى فى المغرب ،بعكس العثمانيين الذين كانوا يرون فى التمركز بتلمسان تدعيما لوجودهم بالجزائر وقاعدة حصينة لغزو المغرب [3] ،باعتبارها أقرب نقطة للوصول للأندلس ،كما أن شواطىء المغرب الشمالية والغربية تعتبر قواعد رئيسية لتهديد المواصلات البحرية للبرتغاليين والأسبان .

بدأت الدولة العثمانية بتغيير سياستها مع الحكام السعديين ،عندما بعث السلطان سليمان القانونى برسالة الى سلطان الدولة السعدية يهنئه بما أحرزه من انتصارات ،ويعلمه بما كان عليه بنومرين من الهدايا والرد والخدمة والميل اليه ،وأن السلطان فى نصرتهم ،وقد سبق وأن ظهر ذلك مع آخر ملوك دولتهم أبى حسون ،الذى زوده بأربعة آلاف جندى ،كان ذلك فى محاولة من السلطان لتكوين اتحاد اسلامى كبير ،يواجه به الاخطار الخارجية ،غير أن ذلك قوبل بالرفض من قبل السلطان السعدى محمد الشيخ ،الذى رد على مبعوث

---

(١) أحمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٦٦ - ٣٦٧.

(٢) احمد توفيق مدنى : نفس المرجع ،ص ٣٦٧ - ٣٦٨ ، ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٠ .

(٣) غسان على رمال : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٤٥.

السلطان بقوله " سلم على أمير القوارب سلطانك وقل له أن سلطان الغرب لابد أن ينازعك على محمل مصر ويكون قتاله معك عليه ان شاء الله ويأتيك الى مصر والسلام " (١) ،يظهر من خلال ذلك استياء محمد الشيخ الذى لم يكن يرى شرعية الخلافة العثمانية ،كما أظهر طموح محمد الشيخ الذى كان يحلم بامامة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها .

لقد كان اغتيال محمد الشيخ ٩٦٤هـ/١٥٥٧م من قبل حرسه الخاص ،بداية تطور هام للاحداث المقبلة بالمغرب ،خاصة فيما يتعلق بالدولة السعدية ،اذ لم يعد هناك مجال للشك فى أن العثمانيين انما يسعون جادين للاستيلاء على المغرب لا باعتباره الجزء المتمم للشمال الافريقى فحسب ،بل ولأهميته الاستراتيجية كأقرب نقطة الى بلاد اسبانيا والبرتغال .(٢)

اعاد السلطان العثمانى حسن بن خير الدين الى الجزائر للمرة الثانية وذلك بعد مصرع حسن قورصو ٩٦٤هـ/ ١٥٥٧م بعد غيبة ناهزت أربعة أعوام قضاها فى الجهاد فى ميادين أخرى ،وآستبشر الناس خيرا ،لما عرفوه عنه من سيرته وما كاد يستقر به المقام حتى أرجع الى الادارة نظامها ،والى الجيش انقياده ثم عزم على استئناف الجهاد ، وانجاز مشروعين عظيمين ،تطهير الشمال الافريقى من الوجود المسيحى ،والنزول الى الأراضى الاندلسية .(٣)

تجددت الثورات الانفصالية عن الامارة السعدية بعد مقتل محمد الشيخ فى تارودانت ،فقامت ثورة المولى عثمان فى السوس بالجنوب فى جمادى الاولى ٩٦٥هـ / فبراير ١٥٥٨م ،وثورة المولى عمر فى دبدو بالمشرق فى رجب ٩٦٥هـ ابريل ١٥٥٨م ،وثورة المولى عبد المؤمن فى مراكش فى ربيع الاول ٩٦٦ هـ / ديسمبر ١٥٥٨م ،ثم كانت المذبحة الجديدة التى انزلها عبد الله الغالب

---

(١) مؤلف مجهول : تاريخ الدولة السعدية ،ص ٢٦ – ٢٧ .

(٢) عبد الكريم كريم : مرجع سبق ذكره ،ص ٨٦ .

(٣) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٧١ ،
عبد الرحمن الجيلالى : مرجع سبق ذكره ،ج٣ ،ص ٩٠ .

بثلاث من اخوته لرفضهم البيعة بولاية العهد لابنه محمد المتوكل ،مما اضطر اخوته للهروب الى تلمسان والجزائر ،فهرب المولى عمر والمولى عبد المؤمن وعبد المالك واحمد المنصور ،وذلك خوفا من القتل .(١)

قصد مولاى عبد الله الغالب الى مراكش ثم تارودانت حيث أنتقم من قتلة أبيه ،كما قضى على ثورة السوس التى نزعها المولى عثمان ،ثم عاد سريعا الى فاس لاعداد قواته ،لصد الحملة العسكرية التى يقودها حسن بن خير الدين والذى حاول اغتنام فرصة الأحداث الداخلية المغربية لاحتلال البلاد(٢) وقامت بين الطرفين معركة على وادى اللين بالقرب من فاس لم تسفر عن شئ الا أن حسن بن خير الدين وصلته انباء عن تحرك الاسبان من مدينة وهران بما يوشك أن يقطع عنه خط العودة ،فذهب بالجيش العثمانى الى مرفاء قصاصة فى الشمال فركب سفنه وعاد للجزائر ،بينما ذهب قائد تلمسان الى حاميته استعدادا للحوادث المقبلة .(٣)

كان دو الكوديت (De AL Coudet) حاكم وهران يدرك أن استرجاع العثمانيين لتلمسان يهدد الوجود الاسبانى تهديدا خطيرا ،فقرر الاستيلاء على مستغانم التى جعلها العثمانيون قاعدة لهم للهجوم على وهران ،وكان دا الكوديت يأمل أن يجعلها قاعدة للهجوم على الجزائر(٤) لذلك اعد قوة كبيرة تتكون من اثنى عشر ألف مقاتل ،وخرج على رأسها فهاجم مدينة مستغانم ،الا أن محاولته باءت بالفشل اذ تكبدت القوات الاسبانية فى ذو القعدة ٩٦٥هـ / أغسطس ١٥٥٨م خسائر فادحة ،وكان حاكم وهران الكوديت من بين القتلى ،ورغم فشل الحملة الاسبانية ضد مستغانم فان العثمانيين لم يعد لديهم أدنى شك فى تواطوء المولى عبد الله الغالب بالله مع الاسبان مما جعلهم يتخذون جانب الحيطة والحذر عند محاولة

---

(١) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ،ص ١٧٥.
(٢) عبد الكريم كريم : مرجع سبق ذكره ،ص ٨٦ .
(٣) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٧٢ .
(٤) أبى عبد الله السليمانى : مرجع سبق ذكره،ص ٩٤ ،
محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ،ص ٤٤ .

القيام بمساعدة الثائرين ضد الحكام السعديين ،فعندما ثار المولى عبد المؤمن فى مراكش فى ربيع الاول ٩٦٦هـ / ديسمبر ١٥٥٨م واستنجد بوالى الجزائر لم يمده بأية مساعدة عسكرية بل رحب به فى بلاد الجزائر وزوجه باحدى بناته ثم ولاه مدينة تلمسان .(١)

أراد حسن بن خير الدين أن يغتنم فرصة انتصار مستغانم لتطهير المركز الاسبانى فى وهران وأخذ يستعد فى مدينة الجزائر لجمع قوى جديدة منظمة منقادة الى جانب الجيش العثمانى ،فجند عشرة آلاف رجل من زواوة (٢) ،كما أنشأ قوة من العلوج ووضع على رأسها احد اعوان والده القدامى ،وفى الوقت نفسه حاول الحصول على تأييد القوة المحلية فتزوج من ابنة سلطان كوكو ابن القاضى وكان هذا الزواج يخدمه من ناحية آخرى فى الاستعانة بقوة ابن القاضى لمواجهة زعيم قبلى آخر (عبد العزيز بن عباس) الذى أعلن استقلاله فى المغرب (٣) ،بذلك صار اسطول الدولة العثمانية يتردد دائما على مدينتى حجر باديس وطنجة .(٤)

عين حسن بن خير الدين فى ٩٦٥هـ/ ١٥٥٨م بو يحيى الرايس (الهراس AL Harraez) (٥) قائدا على بادس ،فقام بتخريب الساحل الاسبانى من قرطاجنة حتى رأس سانت فنست ،وصار تحت قيادته فى بادس عدة سفن وتلقب بحق سيد مضيق جبل طارق ،وقد جاء فى تقرير اسبانى بقلم فرانسسكو دى ايبانير (Francissco de Iborez) أن يحيى يملك أربع سفن حربية الاولى بقيادته وعلى ظهرها ٩٠ عثمانى ،مسلحين بالسهام والاقواس والمناجيق والسفينة الثانية يقودها قره مامى (Cara Mami) وعلى ظهرها ٨٠ جندى عثمانى مسلحين بنفس الاسلحة ،والثالثة بقيادة مراد الرايس

---

(١) عبد الكريم كريم: مرجع سبق ذكره ،ص ٨٧ ،
شوقى عطا الله الجمل : مرجع سبق ذكره ،ص ٤٤ .

(٢) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٧٧ .

(٣) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ،ص ٤٥ .

(٤) اسماعيل سرهنك : مرجع سبق ذكره ،جا ،ص ٣١٩ .

(٥) بو يحيى الرايس تركى الاصل ،اشتغل باعمال الجهاد البحرى من أول ../==

(Morato Arraez) بقوة ٧٠ جندى ،والرابعة تحمل نفس العدد وبنفس الاسلحة ،وبالاضافة الى هذه السفن الاربعة العاملة عبر مياه المضيق ، كان فى حوزة بو يحيى سفينتان فى بادس ويقوم بصنع سفينة اخرى ،ويتصل بنشاط سفن بادس سفن تطوان العرائش وسلا ،ففى تطوان ثلاث سفن صغيرة ،وفى العرائش ثلاث سفن أخرى على شاكلة سفن تطوان ،وفى سلا سفينتان من النوع الأخير ،الا أن السفن الاخيرة لم تتبع قيادة بويحى ودعا حسن بن خير الدين السفن الحربية الاسلامية للنهوض بنشاط يستهدف تخريب سواحل الاندلس والاستيلاء على سفن الهند ودفع تجار اشبيليه نتيجة لذلك شكواهم للملك الاسبانى يشكوان فيها الفظائع التى تركتها سفن بادس والسفن الاسلامية الاخرى ضد السفن الاسبانية على طريق الملاحة والتجارة الهندية [١]،ولم تستطع السفن العبور دون اذن من بو يحيى ،فعم الخوف سكان الساحل الاسبانى،لدرجة أن هوءلاء لم يكونوا يزرعون أراضيهم الا بكل حذر ،وغالبا ما كان العثمانيون يحاصرونهم أثناء عملهم وكذلك الصيادون لم يكونوا يجازفون بالابتعاد كثيرا عن الشاطىء .[٢]

تابع المولى عبد الله سياسة والده الرامية الى مقاومة الهدف فى المغرب ،والاستعانة فى سبيل ذلك باعداء العثمانيين من اسبان وبرتغال عن طريق مهادنتهم ،والمحافظة على احوال السلم معهم وقد دفعته سياسة المهادنة مع المسيحيين الى الاستجابة لكثير من المطالب التى تقدمت بها بعض الدول الاوروبية ،كفرنسا التى استقبل سفيرها وحمله الى الأمير أنطونيو دى بربون (Antonie de Bourbon) رسالة يعبر فيها

=== وصوله الى الجزائر ،وفى عام ١٥٥٢م اسر عند رأس جاتا (Cap de Gata وأمضى سنتين ونصف فى الأسر ،الى أن افتداه قبطان جنيوى ،عاد بعدها الى الجزائر وامتلك سفينة حربية (Galiote) نشط بها ضد سواحل الأندلس .

(١) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ،ص ٩، ١٠، ٢١٩ .
(٢) عبد الكريم كريم : مرجع سبق ذكره ،ص ٩٠ .

عن استعداد المغرب الاستجابة للمطالب الفرنسية ،ثم عقد الامير الفرنسي معاهدة فى شوال ٩٦٦هـ / يوليه ١٥٥٩م مع المولى عبد الله الذى تنازل عن المرسى الصغير لفرنسا مقابل مده بالاسلحة والعتاد الحربى ، وارسال فرقة عسكرية تكون بمثابة حرس خاص للغالب ،بعد أن فقد ثقته بالحرس التركى الذى سبق وأن اغتال والده محمد الشيخ .

وكانت فرنسا بعد أن عقدت معاهدة كاتو كمبرسيس (Cateu -Cambresis) فى ٢١ جمادى الاولى سنة ٩٦٦هـ / ١٣ ابريل ١٥٥٩م مع اسبانيا والتى انهت الحرب الايطالية ،وأخذت تبحث عن حلفاء يمكن الاعتماد عليهم فى حالة تجدد النزاع مع اسبانيا خصوصا وقد صار لفيليب الثانى الذى خلف والده شارل الخامس نفوذ قوى فى أوروبا ،لان المعاهدة المذكورة قد دعمت نفوذ اسبانيا فى ايطاليا والأراضى المنخفضة مما يهدد فرنسا التى طوقت بالممتلكات الاسبانية ،لاجل ذلك تقربت فرنسا من بريطانيا عن طريق مشروع زواج الاسرتين الحاكمتين ،كما أخذت فى التقرب من المغرب البلد الاسلامى مستغلة الروابط الحسنة التى تربط فرنسا والسلطان العثمانى ومما لا شك فيه أن فرنسا كانت ترى فى المغرب حليفا يمكن الاعتماد عليه ضد اسبانيا ،كما كانت ترى فى ميناء القصر الصغير الاستراتيجى الذى لا يبعد الا بضع كيلو مترات عن جبل طارق وعن الاراضى الاسبانية منطقة هامة يمكن اتخاذها لغزو اسبانيا فى اراضيها [١] ولعل ذلك كان سببا فى عدم قيام الدولة العثمانية بموقف ايجابى تجاه المعاهدة ،لانها كانت تأمل فى أن تقوم فرنسا بدور الوسيط مع السعديين ،فهدف الدولة العثمانية وفرنسا واحد فى مسألة الهجوم على اسبانيا وان اختلفت من الناحية العقائدية ،ففرنسا كانت ترغب فى الهجوم على اسبانيا من اجل تحقيق نصر عسكرى لتكون سيدة الموقف فى غرب البحر المتوسط ،بينما الدولة العثمانية تهدف انقاذ المسلمين من الحكام الاسبان ثم استرداد الاراضى الاسلامية فى الاندلس ،حول حسن بن خير الدين انظاره سنة ٩٦٦هـ/١٥٥٩م وتحرك بجيوشه نحو النواحى التابعة لامير قلعة بنى عباس عبد العزيز فاستولى على المسيلة وحصنها وبنى برجا وذلك لتثبيت

---

(١) عبد الكريم كريم : مرجع سبق ذكره ،ص ٨٧ – ٨٨ –

الوجود العثملنى هنالك ، ووضع حامية بلغ عددها أربعمائة جندى ،ثم غادر حسن بن خير الدين المسيلة متوجها الى بلاد حمزة من أنحاء بربرة ،عندها أنقض أمير قلعة بنى عباس على الحصن العثمانى ونشبت معارك بين الحامية العثمانية لقى فيها الامير عبد العزيز بن عباس صاحب القلعة حتفه ،وخلفه احمد مقران الذى امتلك نواحى بلاد كوكو ،فاعترف به حسن بن خير الدين .(١)

اشتدت حملة ازعاج تجارة المسيحيين من ناحية موانى تونس والجزائر وذلك بالاغارة على السفن المسيحية ،كما بعثت تلك الموانى ببعض القوات العسكرية البرية وجزء من الاسطول ،لمساندة السلطان فى حروبه فى الشرق .(٢)

ترددت الانباء فى انحاء اوروبا عن استعدادات الدولة العثمانية للقيام بحملة لسلب قوة اسبانيا وضرب تحالفها وصداقتها التى قامت بها فى سواحل المغرب ،وبالتالى يسيطرون على طرق الملاحة ،وتتعرض اسبانيا ذاتها للخطر ، أو تقوم القوات العثمانية بالهجوم على مالطة وصقلية ومكان آخر فى ايطاليا (٣)
قام الاسطول العثمانى بقيادة بيالى باشا بالهجوم على جزيرة جربة فى رمضان سنة ٩٦٧هـ / مايو ١٥٦٠م ،ونجح الأسطول فى تحقيق أهدافه ضد الاسبان (٤)، الذين لم يجدوا حرجا من الاستنجاد بفرنسا (٥) ،بعد ذلك كان من المقرر أن يقوم بيالى باشا ببعض الغارات فى البحر المتوسط قبيل عودته لقسطنطنية ،ولكن درغوث باشا الذى سبق وأن ضايقه الثوار فى الداخل ، اقنع ببالى باشا بالتوجه الى طرابلس لمساعدته فى القضاء على التمرد قرب تاجوراء ،وقد وصل ببالى باشا الى طرابلس وصول الفاتحين ودخلت السفن العثمانية المزينة بالأعلام

---

(١) عبد الرحمن الجيلالى : مرجع سبق ذكره ،جـ٣ ،ص ٩١ .
2- Sir George Clark : Early Modern Europe P.48 .
(٣) ابراهيم شحاته حسن: مرجع سبق ذكره ،ص ٢٠٠ .
4- M.A.Cook : A History of the Ottoman Empire P.101 .
(٥) ابراهيم شحاته حسن : نفس المرجع ،ص ١٣٨.

والشارات التى غنمها من الاعداء بينما كانت اعلام الاعداء منكسة فوق سوارى السفن وقا
بيالى باشا بطرابلس اياما قليلة كافية لمعاقبة سكان تاجوراء ، ثم اقلع
باسطوله صوب عاصمته .(١)

صار بامكان حسن بن خيرالدين متابعة استعداداته لمهاجمة المغرب فشرع فى تكوين قوة من رجال القبائل كان ينوى أن يوكل اليها حراسة الجزائر اثناء غيابه لعدم ثقته بالانكشارية ، الذين احسوا بالخطر ، فقاموا فى صيف ٩٦٩هـ / ١٥٦١م باعتقال حسن باشا وأعوانه وارسلوه مقيدا الى استانبول، ورافق حسن باشا عدد من زعماء الجند مهمتهم أن يوضحوا للسلطان الأسباب التى دفعتهم الى هذا التصرف متهمين حسن باشا أنه كان ينوى القضاء على الاوجاق والاعتماد على جيش محلى بغرض الاستقلال عن السلطان ،لكن السلطان أرسل أحمد باشا مع قوة بحرية لمعاقبة المتمردين والقضاء على الفوضى ونجح احمد باشا فى اعتقال زعماء التمرد وارسلهم الى استانبول .(٢)

ان قصر المدة التى تولاها حسن بن خير الدين فى منصب بيلربك الجزائر ،وذلك بسبب استماع الباب العالى للوشايات التى تحاك ضده ،وخوف السلطان العثمانى من استقلال حسن بن خير الدين عن الدولة العثمانية ،وبذلك تتعطل خطة الدولة لاسترداد الاندلس ،وكان هذا فى الواقع عائقا فى تقدم الدولة العثمانية المباشر نحو الاندلس ،علاوة على ان الحركة البحرية خلال فصل الشتاء كان لها سببا فى انقطاع الاتصال بين استانبول والقواعد المغيرة ذات المسافة البعيدة مثل الجزائر وربما كان للحملات التى يقوم بها المجاهدون ضد المسيحيين مفعول قوى ،لكن ايضا كان موسم الابحار قصير جدا ،بالاضافة لمشاكل الاتصال والامدادات المعقدة ،كل ذلك كانت عوائق تقلل من امكانية الاستيلاء على مراكز استراتيجية متقدمة وبعيدة ،لتحقق منها الدولة العثمانية اهدافها فى استرداد الاندلس وتحويل البحر المتوسط الى بحيرة اسلامية .

---

(١) اتورى روسى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٩٠ .
(٢) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ،ص ٤٦ .

ان الاسطول العثماني قاس من افول نجمه جزئيا فى أواخر حياة باوباروسا وبعد موته مباشرة ،وذلك بسبب انتقال قيادة الاسطول ولأسباب سياسية الى قواد الجيوش البرية مثل محمد صوقللى (Mehmet Sokullu) ثم لستانى باشا (Kosa Sinan Pasha) والذى كان مجرد شقيق رستم كما تحددت سلطة أمير البحر بسبب تعيين حكام مستقلين للجزائر ،وانحسار الدخل المالى للاسطول والذى يتعين لأمير البحر الحصول عليهم فىغاليبولى والاسكندرية ،وانتقلت القيادة الفعلية للاسطول فى هذا الوقت لدرغوث باشا الذى اظهر نجاحا وتمكن منالاحتفاظ على السيطرة العثمانية رغم كل المصاعب (١)

يتبين من خلال ذلك محاولة صالح رايس وحسن بن خير الدين فى استرداد الاندلس ،لكن ظهرت تلك المحاولات بعدم وضوحها نظرا لتحالف القوى المغربية مع المسيحيين ،ويلاحظ أن محاولات خيرالدين بربروسا تختلف تماما عن تلك التى قام بها كل من صالح رايس وحسن بن خير الدين ،وذلك لأن خير الدين تولى منصب قبودان باشا بجانب منصب بيلربك الجزائر ،فظهرت محاولاته نظرا لصلاحياته الكبيرة اكثر وضوحا ممن خلفه ،ولكن تصر الدولة العثمانية فى تحقيق هدفها لاسترداد الأندلس ،وتعود سياستها السابقة فى تخصيص منصب قبودان باشا ،لبيلربك الجزائر باعتباره أعلم القواد العثمانيين بالمنطقة واكثرهم دراية بأبناء المنطقة ،وهذا ما نلاحظه فى الفقرة التالية عندما يتولى حسن بن خير الدين فى ولايته الثالثة على الجزائر منصب قبودان باشا ويتبعه قلج على .

1- Stanford Show : History of the Ottoman Empire P.105 .

اعاد السلطان العثماني سليمان القانوني حسن بن خير الدين الى بيلربكية الجزائر للمرة الثالثة فى اواخر سنة ٩٧٠هـ/١٥٦٢م ،معززا بعشرة سفن حربية ومزودا بقوات عسكرية مسلحة (١) قضى بعدها حسن بن خيرالدين خمسة أشهر بعد عودته يهيى العدة والعتاد لمهاجمة وهران والمرسى الكبير وهما كل ما بقى لاسبانيا ببلاد الجزائر .(٢)

فبعث فى نفس الوقت ملك البرتغال سباستيان الاول برسالة الى سفيره فى اسبانيا فى ٢٥ رجب ٩٧٠هـ / ٦ مارس ١٥٦٢م ، اندرى دى منزس (Andre Tles de Meneses) يخبره بأن رسائل القادة البرتغاليين أفادت باستعدادات الشريف السعدى للخروج لحصار تطوان ردا على خروج سيدى حمو عن طاعته ،كذلك افاد القادة البرتغاليون بأن نوايا العثمانيين تتجه الى التوسع فى المغرب ،وبناء قلعتين فى القصر الصغير والمرسى (قرية جنوب غرب سبتة) حيث سيضعون فيها قوة من ٦٠٠ جندى عثمانى مع سفنهم للسيطرة على طريق السفن الموصلة بين الشرق وبونانت (Ponant) مما يهدد الى حد كبير المسيحية والملاحة فى المضيق لاسيما على الطريق المؤدى الى مملكة الجرف (AL Garve) ومن الافضل لنا ألا يملك العثمانيون مدخل الطريق الى مملكة فاس ، والا يشيدوا هاتين القلعتين لانهم منذ تواجدهم فى الجزائر قد كلفوا المسيحية غاليا ،وكلما سيطروا على أحد المضايق كان من الصعب اخراجهم منه ،ومن جهة أخرى سيكون الخطر أعمق اذا ما أتحدوا مع الشريف ،وهو أمر ممكن حدوثه لانهم يعتنقون دينا واحدا .(٣)

وحول استعدادات العثمانيين بقيادة حسن بن خير الدين لمهاجمة

---

(١) عبد الرحمن الجيلالى : مرجع سبق ذكره ،ج٣ ،ص ٩٣ .

(٢) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٧٩ .

(٣) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ،ص ٢١٢ .

وهران ،وصدى ذلك لدى الشريف السعدى ،بعث حاكم طنجة البرتغالى برناردديم دى كارفالو (Bernard dim de Carvalho) الى سكرتير الدولة بدرو دى الكاسوفا كارنيرو (B.de A. Carneiro) فى ٢٩ جمادى الاولى ٩٧٠هـ / ٨ مارس ١٥٦٢م ،بأن الشريف السعدى يتجه الى حصار مازكان بقوات عظيمة ،لكن وصلت للشريف اخبار تفيد بأن العثمانيين غادروا الجزائر للهجوم على فاس أو وهران ،فرجع الشريف عن حملته على مازكان لانقاذ الحاضرة المغربية ،ووراء الهجوم العثمانى المرتقب ،ثم توصل الشريف السعدى بأخبار أخرى تفيد عن قيام العثمانيين على حصار وهران بالفعل ،فكان أن أتجه الشريف من جديد لاستئناف حملته على مازكان ،كما بعث حاكم طنجة الى سبستيان الاول فى ٢١ رجب ٩٧٠هـ/ ٣١ مارس ١٥٦٢م برسالة أخرى تفيد أن الشريف أجل حصار مازكان لاعتقاده بأن العثمانيين اذا ما فشلوا فى الهجوم على وهران سيتجهون بقواتهم الى فاس.(١)

خرج حسن بن خير الدين فى سنة ٩٧١هـ/١٥٦٣م من مدينة الجزائر نحو الغرب ، يقود جيشا كبيرا موءلفا من خمسة عشر ألف رجل من رماة البندقية ، وألف فارس من الصباحية تحت امرة احمد مقران الزواوى ،وأثنى عشر ألف رجل من زواوة وبنى عباس ،أما موءن وذخيرة الجيش فقد حملها الأسطول العثمانى الى مدينة مستغانم التى اتخذها قاعدة للعمليات ،وفى ٣ ابريل وصل حسن بن خير الدين بكامل قواته امام مدينة وهران وضرب الحصار حولها ،وكان الاسبان مستعدين لتلقى الصدمة وراء حصونهم وقلاعهم (٢) ،بعد أن توالت النجدات الاسبانية والبرتغالية على وهران استجابة لنداء حاكمها ،منذ أن صارت القوات العثمانية على مسافة مرحلتين ،وبينما كان البيلربك نفسه على بعد ست مراحل مما أضطر حسن بن خير الدين الى رفع الحصار قبل وصول المزيد من هذه النجدات التى أتخذت من مالطة مركزا لتجمعها (٣) وهكذا لم يستطع حسن بن خير

---

(١) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ،ص ٢١١ .
(٢) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٧٩ .
(٣) ابراهيم شحاته حسن : نفس المرجع ،ص ٢١٣ .

الدين من تحقيق هدفه ،ذلك لأن فيليب الثانى كان قد وضع برنامجا طموحا للاسطول الاسبانى ، والبناء البحرى فى ترسانات ايطاليا وقطالونيا ،كما وردت لخزانة اسبانيا اعانة من البابوية واجتمعت سلطة قشتالة التشريعية فى جلسة غير عادية ،وأقرت وجوب امداد اسبانيا بمعونات مالية ،لتساندها في حربها مع العثمانيين ،وما كانت ثمرة تلك المجهودات واعادة التنظيم لهيكل اسبانيا هزيمة العثمانيين فى وهران سنة ٩٧١هـ / ١٥٦٣م.(١)

بدأ فيليب الثانى يستعد لاحتلال جزيرة بادس (Penon de Vellez) فدعا بذلك النصر الذى حققه فى وهران ،توجه لذلك أسطولا فى نفس السنة ٩٧١هـ / ١٥٦٣م ،فقاومه المجاهدون مقاومة عنيفة ،أضطرت الأسطول الى التراجع (٢) والجدير بالذكر أن جزيرة بادس كانت أقرب نقطة مغربية الى جبل طارق ،وأنها كانت بالنسبة للمجاهدين ميناءا هاما (٣) ، اذ يمكنهم من خلالها العبور للاندلس ،كما يمكنهم التسلل لداخل الاراضى الاسبانية لتقديم المساعدة للمسلمين هناك والذين اطلقوا على انفسهم الغرباء ،وهذا ما دفع الاسبانيين الهجوم عليها من خلال محاولتهم السابقة .

كما كانت جزيرة بادس بالاضافة الى ذلك مثار رعب وخوف لدى السلطان السعدى الغالب بالله ، اذ خاف السلطان ان يخرج الاسطول العثمانى من تلك الجزيرة الى المغرب ،فاتفق مع الاسبان أن يخلى لهم الادالة من حجرة بادس ويبيع له البلاد ويخليها من المسلمين ،وينقطع اسطول العثمانيين فى تلك الناحية (٤) ،مقابل الدفاع عن شواطىء المغرب اذ هاجمها الاسطول العثمانى الذى علم بتلك الموءامرة فانسحب ورجع الى الجزائر (٥) ،كما عزل بو يحيى

1- Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P.P. 96 - 97.

(٢) محمد بن تاويت : تاريخ سبتة ،ص ١٨٣ .

(٣) عبد الكريم كريم : مرجع سبق ذكره ،ص ٨٩ .

(٤) موءلف مجهول : تاريخ الدولة السعدية ،ص ٣٦ .

(٥) محمد بن عبد السلام بن عبود : تاريخ المغرب ،ص ١٧ .

رايس من منصبه في بادس في اواخر ٩٧١هـ / ١٥٦٣م، وأنصرف العثمانيون عن الحرب في غرب البحر المتوسط، اذ توجه نشاط الاسطول الحربي الى جزيرة مالطة في الشرق (١).

كان السلطان العثماني سليمان القانوني قد عزم على فتح جزيرة مالطة التي كانت اكبر معقل للمسيحيين في وسط البحر المتوسط، والتي سبق وأن استقر فيها فرسان القديس يوحنا، فأرسل السلطان العثماني أسطوله بقيادة بيالي باشا نفسه، كما طلب من درغوث رايس حاكم طرابلس وجربه، وحسن بن خيرالدين باي لربای الجزائر، أن يتوجها على رأس أسطوليهما الاسلاميين للمشاركة في عملية مالطة واخضاعها استعدادا لمنازلة بقية المعاقل الاسلامية بعد ذلك فسار حسن بن خير الدين على رأس عمارة تشمل ٢٥ سفينة وثلاثة آلاف رجل ووصل الاسطول الاسلامي امام جزيرة مالطة يوم ١٨ مايو وفرض الحصار عليها، واستمر الحصار ضيقا شديدا الى أن جهزت المسيحية رجالها وأساطيلها، ووصل المدد تحت قيادة نائب الملك في صقلية، برفقة اسطول تعداده ٢٨ سفينة حربية تحمل عدد كبير من المقاتلين ونشبت المعركة بين الطرفين، وتمكن الاسطول الاسلامي من الانسحاب في ١٨ ربيع الاول ٩٧٣هـ / ٨ سبتمبر ١٥٦٥م (٢).

أشتد مرض السلطان سليمان القانوني وتوفى في ٢٠ صفر ٩٧٤هـ، الموافق ٥ سبتمبر سنة ١٥٦٦م عن عمر يناهز أربع وسبعين سنة، وكانت مدة حكمه ثمان وأربعين سنة قضاها في اعلاء كلمة الاسلام والجهاد في سبيل الله (٣) ونتسائل هنا ماذا كان يحدث أو يتحقق اذا امتدت حياة السلطان سليمان القانوني أو على الاقل وجد وريثا قادرا على استمرار اعماله وانجازاته ؟

توقف النشاط الحربي موءقتا، اذ كانت الدولة تعاني من مشكلة اقتصادية

---

(١) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره، ص ١٩٠-١٩١ .
(٢) احمد توفيق مدني : مرجع سبق ذكره، ص ٣٨٣ .
(٣) محمد فريد بك المحامي : مرجع سبق ذكره، ص ٢٥١ .

ذلك بسبب الزيادة الهائلة فى الانفاق الحكومى خلال حكم سليمان القانونى اذ كانت الدولة تضم جهاز ادارى ضخم ،كما أحاطت بالسلطة بلاط فاخر ،بالاضافة الى حملات السلطان سليمان القانونى السنوية فى أوروبا وآسيا (١).

خلف السلطان سليمان القانونى ابنه السلطان سليم الثانى ، الذى اسند منصب القائد العام للاسطول العثمانى الى حسن بن خير الدين فترك مملكة الجزائر متوجها الى استانبول سنة ٩٧٥هـ/١٥٦٧م (٢)،ومن هنا يتجدد اصرار الدولة العثمانية على استرداد الاندلس من خلال اسناد منصب قبودان دوريا الى بيلربك الجزائر ، العالم بشوءون اسبانيا ، المقدر للموقف فى الشمال الافريقى اذ سبق أن اسندت الدولة ذلك المنصب الى والده خير الدين بربروسا ،وكانت تلك الهجمات على سواحل أوروبا عامة واسبانيا بصفة خاصة ،وها هى الدولة الآن ترغب فى اعادة تلك الضربات على السواحل المسيحية من خلال تعيين حسن بن خير الدين اميرا للبحر ،وكأن الدولة تريد اعادة بناء الاسطول لتسترد الأندلس .

تولى منصب بيلر باى الجزائر بعد حسن بن خيرالدين محمد بن صالح رايس ،فى ذى الحجة ٩٧٤هـ /يونية ١٥٦٧م وصادف فى الك السنة انتشار الأوبئة والمجاعة ،صحبها تمرد الجند العثمانى واضطرب الشعب ،فاضطر الى صرف وقته فى مواساة المصابين ،وتسكين الفتن ،ثم فاجأت محمد بن صالح رايس ثورة عامل قسنطنية المتأثر بولاة تونس الحفصيين فعزله البيلر باى وقضى على ثورته وولى على قسنطنية القائد رمضان بن تشولاق ،وفى ربيع الاول سنة ٩٧٥هـ / سبتمبر ١٥٦٧م ،هاجم الاسبان مدينة الجزائر ، الا أنهم ردوا على اعقابهم ،ثم لم تطل ولاية محمد بن صالح رايس ، اذ تعين نقله الى ولاية أخرى فى انحاء الدولة العثمانية (٢)

1- Stanford Show : History of the Ottoman Impire P.107.

(٢) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٨٥ .

(٣) عبد الرحمن الجيلالى : مرجع سبق ذكره ،جـ٣ ،ص ٩٤ – ٩٥ .

كان قلج علي المعروف لدى المؤرخين الغربيين باسم (Lucciali Oechiali) قد اعتنق الاسلام واصله من كالابريا (Calabria) ومن مواليد كاستللى (Castelli) الواقعة قرب رأس الاعمدة (Capo delle Colonne) وكان قد آسره احمد على وهو أيضا يونانى الاصل الحديثى عهد فى الاسلام وكان من رؤساء البحر فى الجزائر ،فرمى بقلج الى عمل المجداف ،وكان قبيحا ذميما لذا لقب بالفرطاس ،وقد عرف اسم قلج على بين أعوان ورغوث الذى ارسله الى القسطنطنية للابلاغ بوصول المسيحيين الى جربة وعاد مع الحملة العثمانية ضمن حاشية بيالى باشا ،وكان له نصيب وافر فى توجيه المعركة الحربية التى انتصر فيها العثمانيين ،كما شارك قلج على فى حصار مالطة السابق .(١)

تمرد أهل تاجوراء فى عهد محمد باشا بعد استشهاد درغوث ،فحل قلج على مكان محمد باشا ،واستطاع قلج على أن يشتت المتمردين ودخل تاجوراء، واخضع جميع سكانها وفرض الضريبة عليهم ،وتقديرا لما قام به قلج على فى اخماد ثورة أهالى تاجوراء فقد صدر الامر السلطانى التالى " أخبرتنا بوصولك للولاية وان البلدة المسماة تاجوراء كانت ثائرة فى عهد امير الامراء السابق محمد بك وبعد وصولك لما وجدتم يعاندون فى التمرد بالهجوم على عساكر المسلمين زحفت عليهم واستوليت بعناية الله على حصنهم، والزمتهم بالطاعة ،لقد بعثت لك سيفا وخلعتين ولتكن أفعالك مشكورة فى حفظ وحراسة البلاد .(٢)

اسند منصب بيلربك الجزائر الى قلج على فى ١٤ صفر سنة ٩٧٦هـ / الموافق ١٨ أغسطس ١٥٦٨م وعرف عنه بالعزم فى تسيير الادارة والبطولة الحربية والشجاعة

---

(١) آتورى روسى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٩٦

، عزيز سامح : مرجع سبق ذكره ،ص ٨٢ .

(٢) عزيز سامح : نفس المرجع ،ص ٨٢ .

الادبية [١] وكان الباى لارباى الجديد قلج على على معرفة تامة بالايالة اذ سبق أن ولى على تلمسان وقاد المقاومة الاسلامية فيها ضد الاسبان، وشغل فكره فى انقاذ المسلمين فى الاندلس، وتدعيم ثوراتهم ضد اضطهاد النصارى. [٢]

اتخذ القلج على خطوات عملية لتنفيذ مشروع خطير للغاية هو اعادة الحكم الاسلامى فى اسبانيا وتحرير المغرب العربى من الجيوب الصليبية فوجه اهتمامه الى الاسطول أكثر من غيره وصار من بعده مبعث قلق ورهبة للاوروبيين [٣]، كما انتزع من الفرنسيين حق احتكار تجارة المرجان بمركز القالة بسبب تماطلهم وتخلفهم عن دفع الضريبة لثلاث سنوات مضت وتصرفهم فى المنطقة التى نزلوا فيها تصرف السادة. [٤]

من المؤكد ان القلج على قبل أن يقدم على مشروع استرداد الاندلس كان على علم تام بالجهود الجبارة التى بذلتها الدولة العثمانية ابان وجود خير الدين بربروسا وخلفائه فى الجزائر للقضاء على الزحف الصليبى على شمال افريقيا، كما كان يعلم مدى النجاح الذى حققه فى طرد الاسبان من بعض قواعدهم وتحطيم حصن بنيون فى الجزائر وفى تشجيعه بل وفى اسهامه فى انقاذ آلاف المسلمين فى اسبانيا من الافلات من قبضة الحكومة الاسبانية واللجوء الى شمال افريقيا. [٥]

صمم قلج على على ضرورة تصفية القواعد الاسبانية فى تونس، قبل أن يبدأ نشاطه فى شبه الجزيرة الايبيرية [٦]، وذلك لتعبئة الدفاع عن طرابلس

---

(١) عبد الرحمن الجيلالى : مرجع سبق ذكره، ج٣، ص ٩٥.
(٢) شارل آندرى جوليان : مرجع سبق ذكره، ج٢، ص ٣٤٦.
(٣) شوقى عطا الله الجمل : مرجع سبق ذكره، ص ١٠٠.
(٤) عبد الرحمن الجيلالى : نفس المرجع، ج٣، ص ٩٥-٩٦.
(٥) عبد العزيز الشناوى : مرجع سبق ذكره ج٢، ص ٩٢٤ - ٩٢٥.
(٦) جلال يحيى : مرجع سبق ذكره، ص ٨٤.

والجزائر ،وكان الإسبان قد اتخذوا من تونس نقطة ارتكاز وقاعدة انطلاق على العثمانيين فى طرابلس والجزائر [١] لذلك لابد من تأمينها .

كانت اسبانيا تواجه صعوبات داخلية من جراء ثورة المسلمين فى غرناطة وثورة الاراضى المنخفضة وحدث خلاف بين السلطان الحفصى ابى العباس احمد ووزيره ابى الطيب الخضار ،وأحس الوزير بالخطر فاتصل بقلج على يحرضه على احتلال تونس ويهون عليه أمرها ويتعهد له بتقديم العون .[٢]

جهز بيلر بك الجزائر قلج على جيشا مؤلفا من نحو سبعة آلاف مقاتل وزحف به نحو تونس فقابل سلطانها ابى العباس احمد بباجة ، ثم بعد قتال عنيف انهزم الامير الحفصى وتقدم قلج على بجموعه نحو تونس واخذ بيعة أهلها للسلطان سليم الثانى ورتب حامية لحراسة البلاد تحت رعاية حيدر باشا وعاد الى مقره بالجزائر [٣] ،وبقيت منطقة حلق الواد بيد الاسبان ،وكانت قوات قلج على لا تكفى وحدها لتطهير البلاد من الاحتلال الاسبانى ،لذا فانه كتب الى استانبول يطلب مده بقوة تكفى لتحرير الموقع [٤] ،وكان اهتمام قلج على بشرق الجزائر يأتى مخالفا لاسلافه [٥]، فكان يرى أنه لابد من تأمين ظهره ليتسنى له التقدم للغرب ،ثم التوجه للاندلس ،بعد أن يكون قد خفف من قوة الاسبان فى الشمال الافريقى .

كانت الاعمال البطولية البارعة للمجاهدين المسلمين فى شمال افريقيا ،هيجت الموركسوس وأثارت حفيظتهم على المسيحيين ،كما جعلتهم متململين ،وزاد من توترهم محاصرة العثمانيين لمالطا ،حيث كان الكثير من

---

(١) عزيز سامح : مرجع سبق ذكره ،ص ٨٤ .
(٢) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ،ص ٤٩ .
(٣) عبد الرحمن الجيلالى : مرجع سبق ذكره ،ج٣ ،ص ٩٦ .
(٤) عزيز سامح : نفس المرجع ،ص ٨٥ .
(٥) آرجمنت كوران : السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسى للجزائر، ص ٢٤ .

اللاجئين الموريسكوس والذين كانوا بارزى الشأن فى القوات العثمانية قد تذمروا من القسوة الاسبانية فأثار ذلك تمرد المسلمين فى الاندلس على الحكومة الاسبانية [١] التى كانت تعانى من ازمة كبيرة فى ادارتها واقتصادها، نتيجة الهيجان العام فى الداخل والحروب الخارجية، فسادت الأقاليم الاسبانية موجة من الظلم والارهاب والفظائع، فهذه الحالة المربكة، وما صاحبها من مظالم وويلات جعلت بقية مسلمى اسبانيا فى الجنوب، سواء من الذين ظلوا محافظين على دينهم أو المتنصريين ظاهريا، يتأهبون للانقضاض على الحكم الاسبانى. [٢]

ساد فى اسبانيا ارهاصات ثورة المسلمين فى غرناطة، فشكل الملك الاسبانى فيليب الثانى نوعا جديدا من الميليشيات تقيم فى كل مدينة من مدن اسبانيا لمواجهة الثورة بين الموريسكيين، الذين استقبلوا مبعوثين من ملك فاس لجمع الخراج على تبعيتهم فى الولاء لسيادة الامير السعدى، كما تلقى الموريسكيون على مساعدات عثمانية [٣]، صار الموقف حرجا بالنسبة لاسبانيا خاصة فى غرناطة ومما زاد الحالة خطورة أن بحرية فيليب الثانى كانت متفرقة فى انحاء بعيدة، وحصونه غير معززة، والسواحل مكشوفة، خاصة الشواطىء الجنوبية موقع الثوار.

تعرقل وصول المروسكيين لاسوار غرناطة فى الموعد المحدد لذلك فى ٥ رجب سنة ٩٧٦هـ / ٢٥ ديسمبر سنة ١٥٦٨م بسبب كثافة الثلوج المتراكمة فى جبال نفادا، وكانوا قد أعلنوا بذلك كمقدمة للثورة، الا أن زعيمهم أبو الفرج وصل الى البيازين على رأس جماعة من المجاهدين يوقظ الناس، وينادى بأعلى صوته " لا أله آلا الله محمد رسول الله "، ورنين السلاح يتردد من المآذن ولكن النصارى عندما سمعوا ذلك، قرعوا أجراس الكنائس طلبا للنجدة، فرجع المجاهدون

---

(١) Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P.128 .

(٢) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ، ص ٣٩٢ .

(٣) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ، ص ١٧٩ – ٢٠٤ .

من حيث أتوا ،ولكن مع ذلك شاع خبر الثورة بين الاسبان ،فاستعدوا للامر فجمعوا السلاح والجيش وارسلوا الجواسيس فى كل النواحى ليستطلعوا الخبر .

كان اهالى البوشارات يتشوقون بدورهم الى اليوم الذى يعلنون فيه الثورة على المسيحيين ليتخلصوا من نير الاستعباد ،ونظروا الى غرناطة التى يشرفون عليها بشوق وحنين ،ومنوا أنفسهم بالعودة اليها لاقامة ملكهم الضائع لذلك اخذوا بعد فشلهم السابق يتربصون الفرص لتحقيق رغبتهم والوصول اليها.

بعد أن اعيت النصارى كل الوسائل للقضاء على الروح الدينية للموركيين وتحويلهم للمسيحية لجأوا الى العنف فحرموا على الموركوس التحدث بالعربية والاتصال بالمسلمين فى الشمال الافريقى وفى بعض اقاليم اسبانيا كما حرموا على النساء الخروج الى الشارع متحجبات وقفل ابواب دورهم وتحطيم الحمامات واقامة الحفلات حسب تقاليدهم ،كل ذلك كانت من دواعى اثارة الحرب ،وحرب البوشارات هذه هى أهم حرب او ثورة مسلحة قام بها المسلمون بعد سقوط غرناطة كانت هذه الحرب فى ١٥٦٨م وتزعمها احد المورسيكوس المتنصر بالظاهر يدعى فرناندو دى فالور وسمى فيما بعد بمحمد بن أمية .(٢)

بذل السلطان السعدى الغالب بالله الوعود لرسل ثوار البورشارات وذلك بأن يناصرهم ويقدم جميع ما يحتاجونه فى ثورتهم ،لكن ظل الغالب بالله فى الواقع محافظا على الروابط الودية التى تربطه مع فيليب الثانى ،بل وذهب الى ابعد من ذلك فقد عمل فى الخفاء ضد الموركيين (واما اهل الاندلس وغشه لهم وتوريطهم للهلكة فى دينهم وأقوالهم وأولادهم وفى نفوسهم فأمر مستعظم عند جميع من فى قلبه ذرة من الايمان وادنى مملكة من الاسلام وذلك أنه لما أحتوى عليهم النصرانى ،وأخذ جميع أراضيهم وشملها سلطانه ،

---

(١) محمد قشتيليو : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٣ - ٣٤ - ٣٥ .

بقى المسلمون بضع سنين تحت الذمة والذلة فقهروهم بكثرة المكس ،فصاروا يكتبون الى ملوك المسلمين شرقا وغربا وهم يناشدونهم الله فى الاغاثة ،وأكثر كتبهم الى مولاى عبد الله لانه هو القريب الى اراضيهم ،وكان قد قوى سلطانه وصحت اركانه وجندت اجناده وكثرت اعداده فأمرهم غشا منهم بأن يقوموا مع النصارى ليثق بهم فى قولهم بظهور فعلهم ،فلما قاموا على النصارى تراخى عما وعدهم به من الاغاثة وكذب عليهم غشا منه لهم ولدين الله عز وجل ومصلحة لملكه الزائل وكانت بينه وبين النصارى مكاتبات فى ذلك ومراسلات ،وأنه استشار معهم واشار عليهم أن يخرجوا أهل الاندلس الى الناحية المغرب وقصده بذلك تعمير سواحله ويكون لهم بمدينتى فاس ومراكش جيش عظيم ينتفع به فى صالح ملكه .(١)

تطورت الاحداث سريعا فى اسبانيا ،وبلغ عدد المتمردين فى أوائل سنة ٩٧٦هـ / ١٥٦٩م أكثر من مائة وخمسين ألف مسلم ،وصادف ذلك التمرد صعوبات كبيرة بالنسبة للحكومة الاسبانية ،اذ كانت غالبية الجيش متقدمة مع دوق اليا (Duke Of Alba) فى الاراضى المنخفضة ،وأثبتت الدوريات البحرية انها غير قادرة على حرمان الثوار المسلمين من الاتصال بالعثمانيين فى الجزائر .(٢)

بعث محمد بن أمية أخاه عبدالله للجزائر مع هدايا من الرقيق ،بعد أن نظم رجاله بنظام عسكرى دقيق (٣) ،وكانت الجزائر هى الدولة الاسلامية الوحيدة والتى مدت يدها بالاعانة الفعلية للثائرين فى الاندلس من رجال واسلحة وعتاد ،لانها كانت جزء من الدولة العثمانية (٤) وتنفيذا لهذا البرنامج عقد القلج على اتفاقا سريا فى مطلع سنة ٩٧٧هـ /١٥٦٩م مع المسلمين المعتصمين بجبال البشارات ،تم الاتفاق بمقتضاه على أن يقوموا بثورة عارمة ،فى الوقت

(١) موءلف مجهول : تاريخ الدولة السعدية ،ص ٣٧ – ٣٨ .

2- Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P.128 .

(٣) محمد قشتيليو : مرجع سبق ذكره ،ص ٤٤ .

(٤) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٩٤ .

الذى تصل فيه القوات الاسلامية من الجزائر الى مناطق معينة على الساحل الاسبانى .[١]

جمع قلج على جيشا عظيما قوامه أربعة عشر ألف رجل من رماة البنادق وستين ألفا من المجاهدين العثمانيين من مختلف أرجاء البلاد ،وأرسلهم الى مدينتى مستغانم ومازغران استعدادا للهجوم على وهران ثم النزول فى بلاد الاندلس ،وكان يرافق ذلك الجيش عددا كبيرا من المدافع وألف وأربعمائة بعير محملة بالبارود الخاص بالمدافع والبنادق .

وفى اليوم المتفق عليه وصلت أربعون سفينة من الاسطول العثمانى امام مرسى المرية الاسبانى ،لشد آزر الثورة ساعة نشوبها ،لكن أخفق ذلك المخطط وذلك بسبب سوء تصرف احد رجال الثورة الاندلسيين اذ انكشف أمره فداهمه الاسبان ،وضبطوا ما كان يخفيه من سلاح [٢] بعد أن نجح قلج على فى انزال الأسلحة والعتاد والمتطوعين على الساحل الاسبانى [٣] ، لم تقع الثورة فى اليوم المحدد لها ،وضاعت بذلك فرصة المبادرة .

بعث قلج على فى شعبان سنة ٩٧٦هـ / يناير سنة ١٥٦٩م أسطول الجزائر، لتأييد الثائرين فى محاولتهم الاولى ،وحاول انزال الجند العثمانى فى الاماكن المتفق عليها ،لكن الاسبان كانوا قد عرفوا ذلك بعد انكشاف المخطط فصدوا قلج على عن النزول ،وكانت الثورة فى عنفوانها ،وزوابع الشتاء قوية فى البحر فالاسطول الجزائرى صار يقاوم الاعاصير من أجل الوصول الى أماكن أخرى من الساحل ينزل بها المدد المطلوب ،الا أن قوة الزوابع أغرقت ٣٢ سفينة جزائرية تحمل الرجال والسلاح ،وتمكنت ست سفن من انزال شحنتها فوق سواحل الأندلس ،وكان فيها المدافع والبارود والمجاهدين .[٤]

---

(١) عبد العزيز الشناوى : مرجع سبق ذكره ،ج٢،ص ٩٢٦.

(٢) احمد توفيق مدنى . مرجع سبق ذكره ،ص ٣٩٢-٣٩٣ ،
بسام العسيلى : الجزائر والحملات الصليبية ،ص ٥٨ .

(٣) عبد العزيز الشناوى: نفس المرجع ،ج٢،ص ٩٢٦.

(٤) احمد توفيق مدنى : نفس المرجع ،ص ٣٩٣،
بسام العسيلى: نفس المرجع ،ص ٦٢ .

تقدم في هذا الوقت القبطان خوان ماطيو فلوبز (J.M. de Florio) وهو مهندس اسباني تقدم بمشروعه الى فيليب الثاني سنة ٩٧٧هـ/١٥٦٩م يقضي باغلاق مدخل بحر شيكا (المرسى الجديد Puerto Nuero) ، وبعد أن ترددت اخبار استعدادات استانبول والجزائر من جديد لتمويل الاسطول العثماني بكل ما يلزمه حتى يستعد مع قدوم الربيع التالي لنجدة الموريسكيين في غرناطة ،وأقترح المهندس الاسباني المذكور في البداية تشييد القلعة عند مدخل الخليج ،وحصن على الحدود مع المسلمين ،الا أن الحكومة الاسبانية لم تأخذ بهذا الاقتراح ،فبعث باقتراح آخر بسد مدخل الخليج وان يكون ذلك في سرية تامة ،حتى لا يقوم المجاهدون بعمل يعوق تنفيذ المشروع ،الا ان السياسة الاسبانية رأت أن اغلاق الخليج المذكور لن يمنع العثمانيين من أن يفتحوه بدون صعوبة ،وأنه من الأفضل تركه مفتوحا مع اتخاذ الوسائل الحربية لتحصينه ،كما كان الامر أيام سيطرة العثمانيين عليه [١] من ذلك يتبين ادراك الاسبان لمقدرة الاسطول العثماني على اختراق الحواجز البحرية وان أسطورة الأسطول الذي لا يقهر لازالت سائدة لدى جميع الأوساط الأوروبية لذلك فان التخوف من محاولة الدولة العثمانية لاسترداد الاندلس لازال عالق في الاذهان .

لم يأبه قلج علي للكارثة التي احلت بالدعم العسكري للثوار في شعبان ٩٧٦هـ / يناير ١٥٦٩م ،وصمم على ارسال مدد جديد لمسلمي الاندلس وتمكن من انزال أربعة آلاف من المجاهدين من رماة البنادق مع كمية كبيرة من الذخائر وبعض من قادة المجاهدين العثمانيين ،للعمل في مراكز قيادة الثورة [٢] وعاد العثمانيون فأرسلوا دعما جديدا من الرجال والسلاح اعانة للثورة الاندلسية ،فصدرت الاوامر الى قلج علي بذلك في ٢٣ شوال ٩٧٧هـ / ٣١ مارس ١٥٧٠ "... عليك بالتنفيذ بما جاء في هذا الحكم حال وصوله وأن تعاون أهل الاسلام المذكورين بكل ما يتيسر تقديمه لهم وأن الغفلة عن الكفار اصابهم الدمار

---

(١) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٢٠-٢٢١.

(٢) احمد توفيق مدني : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٩٤ .

غير جائرة .. " وكان فلج على قد عزم على الذهاب بنفسه ليتولى قيادة الجهاد هنالك لكن ما شاع عن تجمع الاسطول الصليبى للقيام بمعركة حاسمة مع المسلمين وأمر السلطان العثمانى له بالاستعداد للمشاركة فى هذه المعركة جعله مضطرا للبقاء فى الجزائر منتظرا للحوادث .(١)

وفى غمرة الثورة الأندلسية كانت خيوط المؤامرة تحاك ضد ابن أمية وكان المسؤولون عن تلك المؤامرة قد اتهموا محمد بن أمية بالتقاعس فى حرب الاسبان ،فهاجموا المتآمرين منزل ابن أمية وخنقوه ،وانتخب احد المتآمرين مكان ابن أمية لتولى قيادة الثورة وهو دييغو لوبث (Diego Lopez) وأطلق عليه اسم مولاى عبد الله محمد بن عبو ،ووافق على انتخابه قلج على نائب السلطان فى الجزائر ،وبعث لابن عبو بعض التعزيزات ، ونجح الاخير فى حملاته الحربية الاولى ضد الاسبان وطوق جيشه مدينة ارجيه (Orjiba)(٢)

ارسلت الحكومة الاسبانية اخا الملك فيليب الثانى الدوق يوحنا الاستيرى – وهو ابن غير شرعى – للامبراطور شارل ،وقد تولى فيما بعد قيادة الاسطول المسيحى – للقضاء على صورة المسلمين ،فباشر فى قمعها سنوات ٩٧٧ – ٩٧٨هـ /١٥٦٩ – ١٥٧٠م ،وأتى من الفظائع ما بخلت بأمثاله كتب الوقائع فذبح النساء والاطفال امام عينيه،وأحرق المساكن ودمر البلاد وكان شعاره لا هوادة ،وأنتهى الامر باذعان المورسيكيين ،لكنه اذعان موءقت ،اذ لم يلبث مولاى عبد الله ان اعاد الكرة ،فأحتال الاسبان عليه ،حتى قتلوه غلية ، ونصبوا رأسه منصوبا فوق احد ابواب غرناطة زمنا طويلا .(٣)

يتبين من خلال ذلك مدى اهتمام الدولة العثمانية بالحالة فى الاندلس ومحاولة استعادة والدخول مرة اخرى فى ديار الاسلام ،وتحقيقا لذلك فقد أخذت الدولة تواظب فى اسناد منصب قبودان دوريا الى قواد لهم خبرتهم ،وعلمهم فى مجال البحر كما اسندت منصب بيلر باى الجزائر الى قلج على الذى كان له

---

(١) دفتر الامور المهمة رقم ٩،صفحة ٧٧،حكم رقم ٢٠٤،أرشيف (Basrekalet)

(٢) محمد عبده حتاملة : مرجع سبق ذكره ،ص ٦٧ – ٦٩ .

(٣) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٩٥.

دور فى المنطقة وفى الهجوم على السواحل الاندلسية وبالفعل حققت الدولة ما هدفت اليه ونجحت فى انزال قواتها فى الاراضى الاسبانية الا أن انكشاف مخطط الثورة وتخاذل السلطان السعدى الذى كان له دور كبير فى ذلك أفشل نجاح الخطة وتبقى مع ذلك محاولات الدولة فى استرداد الاندلس قائمة بعد ذلك ،لكن هزيمتها فى ليبانتو قد رفعت من معنويات الاوروبيين ،وزالت المخاوف من الاسطول العثمانى (١) ويزداد الخطر فى البحار الجنوبية ،مما يوءدى الى توجيه اهتمام الدولة لتلك المناطق وهذا ما نلمسه من خلال الفصل التالى ٠

---

(١) د٠ محمدعبد اللطيف البحراوى : التاريخ المعاصر وعلاقة العضوية بالازمة الحديثة٠ الدارة ، العدد (٢) ، السنة (١١) ،ص ٨١ ٠

الفصل السادس

(الفصل السادس)

" العوامل المضادة والتحولات "

أ - الصراع بين العثمانيين والصليبيين فى البحار العربية ٠

ب - موقف الصفويين الشيعة فى ايران ٠

جـ - التجمع البحرى الصليبى فى البحر المتوسط - موقعة ليبانتو البحرية ٩٨٠هـ / ١٥٧١م ٠

د - انتهاء عصر بيلر بك افريقية ٠

النيابات الثلاث : الجزائر - تونس - طرابلس ٠

هـ - الدفاع عن شبه الجزيرة العربية - تأمين مكة والمدينة ٠

...

واستمرت البندقية من ناحية اخرى فى القيام باعمالها العدوانية ضد العثمانيين، متخذة من قبرص قاعدة لها على الرغم من المعاهدة التى عقدت مع النمسا فى رمضان ٦ ٩٧هـ/١٥٦٨م (١)، وقد ذكر السلطان سليم الثانى ذلك الاعتداء فى خطابه للموريسكين فى ٢٤ شوال ٩٧٧هـ / ٢٠ مارس ١٥٦٩م قوله " .. ولكن كفرة جزيرة قبرص القريبة من ممالكى المحروسة والتى كانت على العهد والامان ،منذ زمان اجدادى العظام ،انا الله براهينهم ، الا أنهم نقضوا تلك العهود واخذوا بالتعدى على التجار واهل الاسلام ،والمسافرين بحرا لطواف بيت الله الحرام وزيارة تربة حضرة سيد الانام عليه افضل الصلاة والسلام بخلوص النية وصفاء الطوية وبذلك فانهم مصرون على العصيان والطغيان ،لذا فبعد التوكل والاعتماد على علو عناية الحق سبحانه وتعالى والتوسل والاسناد الى المعجزات الكثيرة البركات لفخر الموجودات صلوات الله عليه وسلامه ،وكذلك بالاستمداد بالارواح الطاهرة لسائر الصحابة الكرام عليهم رضوان الله تعالى اجمعين فقد استقرت نيتى الملوكية على فتح وتسخير الجزيرة المذكورة فى الربيع الاخير القادم ونضرع الى عتبة الحق جلا وعلا ان ييسر لنا فتح وتسخير تلك الجزيرة وان يبسط ايدينا عليها حتى تأخل بأهل الاسلام كما كانت عليه وحتى تقام بها شعائر الشرع الشريف وحتى يأمن التجار ويسلموا فى غدوهم ورواحهم وينصرفوا للدعاء وثبات ومجد وربعة الدولة ..." (٢)

استعدت الدولة العثمانية لخوض غمار الحرب ضد البندقية وفتح قبرص فتعذر على الدولة ارسال الاسلحة للمسلمين فى الاندلس وبعث السلطان سليم الثانى خطابا لهم فى ٣ صفر ٩٧٩هـ / ٢٧ يونية ١٥٧١م جاء فيه " .. ارسلتم الى سدة سعادتنا خطابا تعربون فيه عن عدم وصول الاسلحة المرسلة وانكم اصبحتم تواجهون ضائقة فى الذخيرة وان الكفار تمكنوا من السيطرة على تلك الجوانب لذا تعلمون عن حاجتكم عن ارسال المعونة .

اننا نلاحظ اهمية ارسال الاسطول الهاميونى لنجدتكم غير ان ذلك لم يتيسر نظرا لتوقع غزو البندقية لممالكنا فى هذه السنة ،هذا الى جانب مهمة فتح قبرص .

وقد ارسل حكم همايونى الى على دام اقباله امير امراء الجزائر بشأن توجهه الى طرفكم على رأس بضعة قطع من الاسطول لمعاونتكم اذا سنحت الظروف المذكورة بذلك فى هذا العام ..." (٣)

اصدرت الدولة توجيهاتها الى قلج على بيلربك الجزائر ليستعد فى معاونة الاسطول العثمانى لفتح جزيرة قبرص كما وضعت الخطة اللازمة لذلك

---

(١) بسام العسيلى : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٤ .

(٢) دفتر الامور المهمة ،رقم ٩،صفحة ٨٩،حكم رقم ٢٣١، أرشيف (Basrekalet)

(٣) دفتر الامور المهمة ،رقم ١٤،صفحة ١٩٩،حكم رقم ٢٨٣، بأرشيف الوثائق التابع لرئاسة الوزراء . (Basrekalet)

اذ جاء فى الامر السلطانى الصادر فى ٣ صفر سنة ٩٧٩هـ /الموافق ٢٧ يونيه ١٥٧١م ،ما يلى : " ... حال وصول (الحكم) عليك بالاهتمام بهذا الموضوع وفيما اذا أتحد الاسبانيون مع البنادقة وتعسر انفصالك عن اسطولى الهايمونى فعليك بالتشاور بالامر مع وزيرى برتو باشا أدام الله تعالى اجلاله ،لبذل قدراتك فى الخدمات اللازمة فى كلا الحالتين ،وحسبما تقتضيه الظروف ، اما اذا لم يكن ثمة خطر من اسطول الكفار اصابهم الدمار ،وتوقعتم محاولات استيلاء الكفار ،والحاقهم الضرر بتلك الديار ،فعليك بالتشاور مع المشار اليه بالتوجه الى هناك بما فى حوزتك من سفن اللوند ،وفيما اذا اقتضى الامر يمكنك اصطحاب قبودانى دام اقباله ايضا .

وعليك ببذل انواع سعيك واقدامك فى سبيل دفع ورفع ضرر وفساد الاعداء عن المسلمين ،وعليك ايضا القيام بما تقتضيه المصلحة بتمام البصيرة والانتباه ،آخذا بمشورة المومى اليه والمأمول منك هو بذل قدراتك واظهار جلادتك وشهامتك المتأصلة فى ذاتك سواء كنت تؤدى خدماتك فى اسطولى الهايمونى أو فى العمل على دفع الاذى عن المسلمين فى تلك الديار ،ولا تتوانى عن اعلامنا بأوضاع الجزائر وبما اقدمت عليه ، وعليك بتتبع افكار وتحركات الكفار ،وأبعث لنا بكل ما يردك من الاخبار الموثوقة "(١)

كانت ايطاليا واسبانيا تقدر أهمية جزيرة قبرص وشاع فى اوروبا عن تكون حلف ضد السلطان ولكن لم يعمل شئ فى حينه لانقاذ قبرص من العثمانيين الذين نزلوا بقوة كاسحة ،نفذت الى الجزيرة بدون صعوبة ووقفت مدينة فامرجستا (Famagosta) الحصينة امام العثمانيين بقيادة باجليون (Baglione) وبراجادينو (Bragadino) ، الذين واجهوا القوة العثمانية التى وصلت مائة الف مقاتل استعمل خلالها العثمانيين جميع وسائل الحصار المعروفة ،من حفر للخنادق ،وزرع للالغام ولم ينتج آى تأثير على الحامية ،ولو وصلت قوة مسيحية للنجدة ،لصار

---

(١) دفتر الامور المهمة ،رقم ١٤،صفحة ٢٠٠،حكم رقم ٢٨٤،بأرشيف الوثائق التابع لرئاسة الوزراء .

العثمانيين فى خطر ، الا آن المجاعة قامت بعملها ، واستسلمت المدينة فى ربيع الثانى ٩٧٩هـ / اغسطس ١٥٧١.(١)

نقلت الدولة العثمانية بعد احتلالها لقبرص عددا كبيرا من سكان الاناضول الذين لايزال احفادهم مقيمين فى الجزيرة ، ورغم ترحيب القبارصة الاثوذكس بالحكم العثمانى ، الذى انقذهم من الاضطهاد الكاثوليكى الذى مارسته البندقية لعدة قرون ، الا آن احتلال العثمانيين آثار الدول الكاثوليكية (٢)

رسى الاسطول العثمانى بعد انتهاء مهمته فى ابنانجنى (Lepant) وانصرف معظم جنوده بمناسبة حلول موسم الشتاء ، حيث تتوقف ساحة المعارك فى مثل هذا الوقت من السنة ، والاستعداد للسنة المقبلة .(٣)

عقد البابا بيوس الخامس وفيليب الثانى ملك اسبانيا وجمهورية البندقية معاهدة فى اوائل ٩٧٩هـ / الموافق مايو ١٥٧١م ، تعهدوا فيه القيام بهجوم بحرى ضد العثمانيين الذى يرجع لهم الفضل فى احياء مجد الاسلام وتأسيس دولة اسلامية واسعة الارجاء تضم قسما كبيرا من اوروبا ومعظم الحوض الشرقى من البحر المتوسط والذين ما فتئو يهددون المسيحية فى عقر دارها لجهودهم المتواصلة الى اتمام السيطرة على الحوض الغربى من البحر المتوسط حتى يسهل عليهم تطويق آوروبا الغربية وانزال الضربة الحاسمة بها

1- A.G.Grant : A History of Europe from 1494-1610 P.222.

(٢) احمد عبد الرحيم مصطفى : فى اصول التاريخ العثمانى ، ص ١٤٦-١٤٧.

(٣) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثمانى ، ص ١٤٢.

ويستردوا الاندلس .[١]

شارك فى الحلف كذلك بعض المدن الايطالية ،وذلك بعد تحريك بيوس الخامس لروح التحالف ، اذ ارتبطت توسكانى (Tuscany) وجنوة ، وساقوى (Savoy) وبعض الايطاليين فى الحلف المقدس ،بينما حافظت فرنسا على مفهوم علاقاتها الحسنة مع السلطان العثمانى كما كان شارلز التاسع ملك فرنسا مشغولا بالحروب الاهلية فى بلاده ،لذلك لم يكن قادرا على تقديم اى مساعدة للعثمانيين .

حددت المعاهدة عدد السفن والبحارةوالجنود والاموال التى يقدمها الاطراف المتعاهدة فى الحلف المقدس ،وعين دون جون (Don John) وهو ابن غير شرعى للامبراطور شارل الخامس ،قائدا لاسطول الحلف [٢] ،وذلك بعد ان اقترح اخاه فيليب الثانى علىالعصبة بتعيينه وذلك فور انتهاء دون جون من قمع ثورة الموريسكيين فىالجنوب ،غير ان الاخبار التى كانت ترد من مناطق الثورة لم تكن مشجعة والمقاومة العنيفة التى أبداها الاندلسيون يمكن أن تستمر فترة طويلة وقد يضطر دون جون الى البقاء فى الجنوب مما سيضيع الفرصة عليه وهنا أوعز فيليب الى آخيه فتح حوار مع الاندلسيين .[٣]

صارت مقومات احراز نصر مسيحى كما ينبغى ،فعزز دون جون نفسه باستقدام الاميرال الاسبانى سانتا كروز ،كما تقدمت البندقية بقائد اسطولها بربريجو (Barbarigo) ،وكان مجموع الاسطول المسيحى مقاربا للاسطول العثمانى .[٤]

---

(١) عبد الكريم كريم : مرجع سبق ذكره ،ص ٩٤ .

2- A.G.Grant : History of Europe from 1494-1610 P.222-223.

(٣) عادل سعيد بشتاوى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٦١ .

4- A.G.Grant : IBID 1494-1610 P.223.

سار دون جون الى البحر الادرياتيك ،حتى وصل الى الجزء الضيق من خليج كورنث (Corinth) ،بالقرب من باتراس (Patras) ،وليست ببعيدة عن ليبانتو والذى اسمها اعطى للمعركة (١).

كان من رأى قادة الاسطول الاسلامى الافادة من تحصين الخليج وعدم الاشتباك بالاسطول الصليبى ،غير أن القائد العام على باشا صمم على الخروج للمعركة معتمدا على تفوقه فى عدد سفنه ،ونظم على باشا قواته فوضع سفنه على نسق واحد من الشمال الى الجنوب ،بحيث كانت ميمنتها تستند الى مرفأ ليبانتو ،وميسرتها فى عرض البحر ،وقد قسمها على باشا الى جناحين وقلب فكان هو فى القلب وسيروكو فى الجناح الايمن وبقى الجناح الايسر بقيادة قلج علـى .

ومقابل ذلك نظم دون جون قواته فوضع سفنه على نسق يقابل النسق الاسلامى ووضع جناحه الايمن بقيادة دوريا مقابل قلج على ،واسند قيادة جناحه الايسر الى بربريجو مقابل سيروكو وجعل دون جون نفسه لقيادة القلب ،وترك احتياطيا بقيادة سانت كروز .(٢)

احتدمت المعركة فى ١٧ جمادى الاولى سنة ٩٧٩هـ / ١٧ اكتوبر ١٥٧١م ، احاط الاسطول الاسلامى بالاسطول المسيحى وأوغل العثمانيون بين سفن العدو ،ودارت معركة قاسية اظهر فيها الفريقان عنادا كبيرا ،غير أن المعركة انقلبت على العثمانيين ،وانتهت بتحطيم عدد كبير من اسطولهم ،واستطاع قلج على انقاذ سفنه واستطاع كذلك المحافظة على بعض السفن التى غنمها ومن بينها السفينة التى تحمل علم البابا ،رجع بها لاستنبول ، التى استقبلته استقبال الفاتحين ،رغم الشعور بمرارة الهزيمة (٣) ،وبادر السلطان سليم

1- A.G.Grant : History of Europe from 1494-1610 P.223.

(٢) بسام العسيلى : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٧-٣٨.

(٣) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره،ص ٣٩٨ - ٣٩٩.

الثانى اثر ذلك بترفيع قلج على الى رتبة قائد البحرية العثمانية (قبودان باشا) ،مع الاستمرار فى منصبه كباى لرباى للجزائر .(١)

احتفلت القارة الاوروبية بنصر ليبانتو ،فلأول مرة منذ أوائل القرن الخامس عشر تحل الهزيمة بالعثمانيين (٢) فهلل الاوروبيون وكبروا لذلك الانتصار واقيمت معالم الزينات فى كل مكان وافرطت فى التسبيح بحمد دون جون أمير الاساطيل المتحدة ،الذى احرز هذا الانتصار ،الى حد أن البابا لم يتورع عن القول اثناء الاحتفال فى كنيسة القديس بطرس ،بمناسبة هذا النصر (ان الانجيل قد عنى دون جون نفسه ،حين بشر بمجىء رجل من الله يدعى حنا) وظل العالم المسيحى ومؤرخوه ينوهون بهذا النصر البحرى ،حتى أن القواميس المدرسية الحديثة لا تذكر شغر ليبانت ،الا وتذكر معه دون جون المشار اليه على اعتبار انقد المسيحية من خطر كان يحيق بها .(٣)

ان نتيجة معركة ليبانتو،كانت مخيبة لامال العثمانيين ،فقد زال خطر السيادة العثمانية فى البحر المتوسط ومع زوال الخطر ،زال الخوف الذى كان قويا ،للمحافظة على حلف مقدس دائم ،واستعاد الحسد والغيرة نشاطة بين الدول المسيحية .

ان اهمية ليبانتو كانت عظيمة واسطورة عدم قهر العثمانيين قد اختفت ولم تعد للوجود ثانية على اقل تقدير فى البحر ،وازيح ذلك الخوف عن قلوب حكام ايطاليا ،واسبانيا ،وتزعزع تاثير الدولة العثمانية على سياسة القوى الغربية لاوروبا ،اذ كانت من الحقيقة القوات العثمانية هائلة فى كل من المجال فى كل من المجال البرى ،والمجال البحرى (٤) ،كما أن الانتصار المسيحى فى

---

(١) آرجمنت كوران : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٤.
(٢) احمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٤٧.
(٣) محمد جميل بيهم : مرجع سبق ذكره ،ص ١٤٣.
4- A.G.Grant : History of Europe P.224 .

ليبانتو ١٥٧١ كان اشارة لتحضير حاسم فى ميزان القوة البحرية فى البحر المتوسط ،كما أنه أنهى عصرا من عصور العمليات البحرية الطموحة فى البحر المتوسط ،والتى تكاليفها باهظة .(١)

لم يعد يفكر العثمانيون بعد تلك الهزيمة فى اضافة حلقة اخرى الى سلسلة امجادهم البحرية (٢)،اذا كان هذا الانكسار نقطة البداية نحو توقف عصر الازدهار لقوة الدولة البحرية .(٣)

كانت معركة ليبانتو فرصة مواتية لاظهار طمع فرنسا نحو المغرب الاسلامى ، اذ بمجرد انتشار خبر هزيمة الاسطول العثمانى فى تلك المعركة قدم ملك فرنسا شارل التاسع مشروعا الى السلطان العثمانى (٩٨٠هـ /١٥٧٢م)، وذلك بواسطة سفيره باستانبول ،يتضمن طلب الترخيص لحكومته فى بسط نفوذها على الجزائر ،بدعوى الدفاع عن حمى الاسلام والمسلمين بها وان فرنسا مستعدة فى مقابل ذلك دفع مغرم للباب العالى ،فأعرض السلطان عن السفير الفرنسى ولم يهتم به ،ومع ذلك آوغلت فرنسا فى طموحها وآلحت على طلبها وسلكت للتوصل الى هدفها مسالك دبلوماسية عديدة ،حتى تحصلت على امتيازات خاصة ،فى القالة واماكن اخرى على الساحل الجزائرى ،وتصريح من السلطان باقامة مراكز تجارية .(٤)

اقبل القبودان باشا قلج على ،بهمة ونشاط متزايد ،على تجديد الاسطول العثمانى ،وتعويض ما فقد منه ،وما حل صيف ٩٨٠هـ /١٥٧٢م ،حتى قد هيأ مائتان وخمسون سفينة جديدة ،وخرج قلج على باسطوله فى البحر وارتاعت

1- Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P.97 .
، محمد البحراوى : التاريخ المعاصر وعلاقته العضوية بالازمة الحديثة الدارة ، العدد الثانى ، السنة ١١، محرم ١٤٠٦هـ، ص ٨١ .

(٢) محمد الغربى : مرجع سبق ذكره ، ص ٩٤ .

(٣) محمد جميل بيهم : مرجع سبق ذكره ، ص ١٤٣ .

(٤) عبد الرحمن الجيلالى : مرجع سبق ذكره ، ج٣ ، ص ٩٧ — ٩٨ .

البندقية من هذا الاستعداد البحرى ،فطلبت الصلح من الدولة العثمانية ،بشروط مخزية اذ تنازلت لها عن جزيرة قبرص ،كما دفعت غرامة حربية قدرها ثلاثمائة ألف دوكة [١] ،ولكن هذا النشاط كان من قبيل اليقظة التى تسبق فترة الاحتضار البحرى ذلك لان الدولة انصرفت الى حروب متواصلة ،نشبت بينها وبين النمسا وحليفاتها منجهة ،وبينها وبين فارس من جهة اخرى كما أنها انشغلت باخماد الثورات الداخلية المستمرة .[٢]

انهار الحلف المقدس بعد انسحاب البندقية ،واذا كان الحلف لم يستفد من انتصاره فى ليبانتو بسبب اختلاف القادة حول ميادين القتال المقبلة ضد العثمانيين ،فان الاسبان والبرتغاليين قد خططوا لغزو شمال افريقيا [٣]، وحسب هذا المخطط شرع فيليب الثانى فى اعداد حملة كبيرة ،وأسند قيادتها للامير دون جون النمساوى [٤] ،وكان فيليب الثانى قد تشجع لذلك بسبب لجوء السلطان الحفصى ابى العباس الثانى ، الذى حكم تونس ٩٤٢ - ٩٨٠هـ/١٥٣٥-١٥٧٢م الى فيليب الثانى ،وطلبه المساعدة فى اخماد الثورات القائمة ، الا أن شروط الاسبان كانت قاسية تقضى باعطاءهم امتيازات كبيرة ،وتتيح لهم سكن جميع انحاء تونس ،وتتنازل عن عنابة وبنزرت وحلق الواد [٥] ،فرفض أبو العباس الشروط لكن أخاه محمد بن الحسن قبلها [٦] بعد ذلك .

خرج دون جون بأسطوله منجزيرة صقلية فى رجب ٩٨١هـ / اكتوبر ١٥٧٣م، على رأس اسطول مكون من ١٣٨ سفينة تحمل خمسة وعشرون ألف مقاتل ،ونزل بقلعة حلق الواد التى كانت تحتلها اسبانيا ،ثم باغت دون جون تونس واحتلها وخرج اهلها بوادى تونس فارين بدينهم وشرفهم [٧] ،كما انسحب

---

(١) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٣٩٩.
(٢) محمد جميل بيهم : مرجع سبق ذكره ،ص ١٤٣ .
(٣) عبد الكريم كريم : مرجع سبق ذكره ،ص ٩٥ .
(٤) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ،ص ٥٠ .
(٥) شوقى عطا الله الجمل : مرجع سبق ذكره،ص ١٠٧.
(٦) محمدخير فارس : نفس المرجع
(٧) احمد توفيق مدنى : نفس المرجع ،ص ٣٩٩ - ٤٠٠،
عزيز سامح: مرجع سبق ذكره ،ص ٢٤٥ .

الحاكم العثمانى الى القيروان [١]،وكانت اوروبا قد ادركت انها لا تستطيع أن تقضى على الدولة الا مجتمعة ،لانها أى الدولة لازالت لديها القدرة على استرداد الاندلس ولعل ذلك سبب خروج الجيش المسيحى بقيادة دون جون للاستيلاء على تونس والتى كانت السيطرة عليها تشكل عنصرا هاما لاسبانيا فى معاركها الحربية ضد الدولة العثمانية .

اهتم قلج على بتسليح البحارة وتدريبهم على الاسلحة النارية الحديثة ،وقد لفت هذا النشاط البحرى انظار كل المقيمين الاجانب وازدادت مكانة قلج على حتى ان البابا نصح فيليب الثانى ملك اسبانيا ان يسعى لاغرائه [٢] وذلك بمنحه راتبا من عشرة آلاف واقطاعية من مملكة نابلى او غيرها من ممتلكات العرش الاسبانى ويتوارثها نسله من بعده ،مع لقب كومت او ماركيز او دوق ، كما شمل المشروع ايضا منح امتيازات مماثلة لاثنين من مساعديه [٣] ،وكان البابا يرى أن هذه المحاولة ان لم تنجح فانها على الاقل ستثير شكوك السلطان بقلج على وهو الشخص الوحيد القادر على دعم امور السلطنة ولكن هذه المحاولة فشلت وكانت النتيجة انها أثارت غضب قلج على بدلا من أن تغريه [٤]،وأنه لا يمكن شراء امانة المسلم المجاهد اذ انه وجوده فى خدمة الدولة ،انما كان يعنى انه وهب نفسه لسبيل الله وهذا ما سارت عليه الدولة فى سياستها فى جميع فتوحاتها ولعل ذلك كان سببا مباشرا فى سرعة الفتح ونجاحه ،فى كل الاقاليم والميادين التى طرقتها الدولة وكان العثمانى فى اى موقع يخدم الدولة بكل اخلاص وما خدمته تلك ،الا خدمة للاسلام .

اصدر السلطان سليم الثانى اوامره الى وزيره سنان باشا وقبودانه

---

(١) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ،ص ٥٠ .
(٢) محمد خير فارس : نفس المرجع،ص ٥١ .
(٣) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٨٠ .
(٤) محمد خير فارس : نفس المرجع ،ص ٥١ .

قلج على بالاستعداد للتوجه الى تونس ،لفتحها نهائيا ، واعادة نفوذ الدولة العثمانية اليها [١] كما صدرت نفس الاوامر والتوجيهات لبقية الاقاليم بتحضير الجنود والذخيرة ،والموءن والجنود مع مائتين وثلاث وثمانين سفينة مختلفة الاحجام ،كما اكد على المكلفين بالخدمة فى الاناضولى والروم يلى بالاشتراك فى السفر بحرا ،كما احضر المجدفين اللازمين للاسطول ،وانذر من لا يحضر من المجدفين بالعزل من مناصبهم على ان لا يسند اليهم فى المستقبل اى عمل [٢] وبينما كان الاسطول يتأهب ،اخذ حيدر باشا الحاكم العثمانى فى تونس والذى انسحب للقيروان فى حشد المجاهدين من الاهالى الذين التفوا من حوله .[٣]

ابحر الاسطول العثمانى بقيادة سنان باشا وقلج على فى ٢٣ محرم ٩٨٢هـ/ ١٤ مايو ١٥٧٤م ،فخرج من المضائق ونشر اشرعته فى البحر الابيض ،فقاموا بضرب ساحل كالابريا ،مسينا ،واستطاع العثمانيون ان يستولوا على سفينة مسيحية وبعد أن نقلوا الغنائم احرقوها ومن هناك قطعوا عرض البحر فى خمسة ايام [٤]، فى هذا الوقت وصل الحاكم العثمانى فى تونس حيدر باشا ،كما وصلت قوة من الجزائريين بقيادة رمضان باشا ،وقوة طرابلس بقيادة مصطفى باشا ، كما وصل ثمة متطوعين من مصر [٥] .

بدأ القتال فى ربيع سنة ٩٨١هـ/١٥٧٤م ،ونجح العثمانيون فى الاستيلاء على حلق الواد ،بعد أن حوصر حصارا محكما [٦] ،وقامت قوات اخرى بمحاصرة مدينة تونس ،ففر الاسبان الموجودون فيها ومعهم الملك الحفصى محمد بن الحسن

---

(١) اسماعيل سرهنك : مرجع سبق ذكره ،جا ،ص ٤٢١.
(٢) عزيز سامح : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٤٨.
(٣) عزيز سامح : نفس المرجع ،ص ٢٥١.
(٤) عزيز سامح : ،ص ٢٥٠.
(٥) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٤٠٠ ،
عزيز سامح : نفس المرجع ،ص ٢٥٣.
(٦) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ،ص ٥١ .

الى البستيون [١] التى بالغ الاسبان فىتحصينها وجعلوه من أمنع الحصون فى الشمال الافريقى [٢] .

توجه العثمانيون بعد تجمع قواتهم الى حصار البستيون ،وضيق العثمانيون الخناق على أهله من كل ناحية وباشر الوزير سنان الحرب بنفسه كواحد من الجند حتى انه أمر بعمل متراس يشرف منه على قتال من فى البستيون كما كان ينقل الحجارة والتراب على ظهره مثل الجنود ،فعرفه احد امراء الجنود فقال له : ما هذا أيها الوزير ؟ نحن الى رأيك أحوج منا الى جسمك ،فقال له سنان لا تحرمنى من الثواب .

وشدد سنان باشا فى حصاره على البستيون حتى استطاع فتحه [٣]،وقد شارك سنان باشا فى الحصار الاميرين السعديين عبد الملك واخيه أحمد اللذان كانا قد توجها الى استانبول طالبين المعونة لفتح المغرب لخلع ابن اخيهما المتوكل ،وقد ساعدهما الحظ فى أن يكونا أول من أبلغ السلطان بنبأ النصر .[٤]

لجأ الحفصيون الى صقلية حيث ظلوا يوالون الدسائس والمؤامرات والتضرعات لملوك اسبانيا سعيا لاسترداد ملكهم ،واتخذهم الاسبان آلات حيطة تخدم بها مآربهم السياسية حسبما تمليه الظروف عليهم [٥] وقضى سقوط تونس على الامال الاسبانية فى افريقيا وضعفت سيطرتها تدريجيا حتى اقتصرت على بعض الموانى مثل مليلة ووهران والمرسى الكبير وتبدد حلم الاسبان نحو اقامة دولة اسبانية فى شمال افريقيا وضاع بين الرمال [٦] ، اذ كان من

---

(١) البستيون قلعة بناها الاسبان بجانب تونس .

(٢) محمد الهادى العامرى : تاريخ المغرب فى سبعة قرون بين الازدهار والذبول ،ص ١٩٥.

(٣) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٤٠١ .

(٤) عبد الله كنون : النبوغ المغربى فى الادب العربى ،ج١ ،ص ٢٣٥.

(٥) محمد الهادى العامرى :نفس المرجع ،ص ١٩٦.

6- J.H.Elliott: Emperial Spain P.43 .

المنتظر رد فعل اسبانى قوى ،ولكن فيليب الثانى خيب ظن الجميع ،ويعـــود هذا الى شخصية فيليب التى تختلف عن شخصية والده شارل الخامس ،ذلـــك آن فيليب لم يمارس قط قيادة جيش ولم يظهر فى ساحة معركة ،وكان ملكـــا اداريا يعانى آنذاك من ضائقة مالية وثورات فى ايطاليا والاراضى المنخفضـــة ومشاكل سياسية مع انكلتره وفرنسا ،وكانت انظاره تتجه نحو عرشها ،كل هذا يفسر انصراف فيليب الثانى عن البحر المتوسط وشمال افريقيا (١) ،وكـــان بامكان الدولة العثمانية انتهاز ذلك ، الا آنها كانت قد حولت كل مجهوداتها نحو فارس ،وفى المجر ضد آل هابسبرج ،لكنها لم تتوج تلك الحروب بانتصارات ساحقة كما هو الحال فى السابق (٢)، الامر الذى جعل العثمانيون يفكرون فـــى مفاوضات للسلام وهى التى بـــــــــــدآت (٣) ،على الرغم من التماس قلج على لدى الشريف السعدى فى مراكش عبد الملك ،بتدخله لدى الباب العالـــى للحيلولة دون عقد الصلح بين السلطنة العثمانية واسبانيا ،وما يترتب علـــى هذا الصلح من آثار سلبية على النشاط الجهادى على طريق الملاحة عبـــــر المضيق .(٤)

مضت الدولة العثمانية فى مفاوضات السلام مع الحكومة الاسبانية فـــى ٩٨٥هـ / ١٥٧٧م ،ثم تم ابرام هدنة رسمية بعد اربع سنوات تحددت بعد ثـــلاث سنوات مرة اخرى كانت خلالها الدولة تتسم بمنزلة سامية فى البحر المتوســـط الشرقى ،بالاضافة الى امتلاكها للقواعد الافريقية الشمالية الرئيسية مثـــل الجزائر وطرابلس وتونس التى ظلت فى حيازتها .(٥)

يتبين من خلال ذلك بداية التحول فى سياسة الدولة بعد معركة ليبانو التى تعتبر نقطة البداية نحو تحولات كبيرة وتوقف الامتداد العثمانى بعـــد

---

(١) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ،ص ٥١ .

2- Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P. 167 .

3- IBID P. 98 .

(٤) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكـــــــــــــره ،ص ٢٢٠ .

5- Paul Coles : IBID P.P.98, 102.

ذلك ، اتجهت الدولة فى سياستها الى المحافظة بقدر الإمكان على ما بحوزتها خاصة الاماكن المقدسة الإسلامية •

•••••

كانت الحكومة الاسبانية قد سحبت قواتها من تونس وطرابلس والجزائر تدريجيا ،بعد استقرار العثمانيين فى تونس سنة ٩٨٢هـ / ١٥٧٤م ،وذلك بسبب قيام المنازعات بين السلطتين العسكرية والمدنية حول ادارة تلك الجيوب بالاضافة الى صعوبة تموين تلك المدن الساحلية ،نظرا لامتناع السكان عن التعاون مع الغزاة المسيحيين ،مما أدى الى اضطرار الحكومة الاسبانية الى نقل المؤن عبر البحر المتوسط ، فصارت تلك الحاميات عبئا ثقيلا على ميزانية الدولة ،لذلك كان طلب فيليب الثانى توقيع الهدنة مع الباب العالى ،ولكن النزاع بين اسبانيا ونيابة الجزائر تجدد بعد ذلك [1] وذلك لخوف اسبانيا من أن تعود الجزائر مركزا لاسترداد الاندلس ،خاصة بعد تحول الدولة فى سياستها تجاه الشمال الافريقى .

اكتسب نجاح العثمانيين فى البقاء بتونس اهمية ،ذلك ان وجودهم صار شرعيا ،فقد ربطت ولاية تونس بالمركز مباشرة ،وطبق نفس النظام المعمول به فى الجزائر بعد معركة ليبانتو [2]، اذ قسمت تونس الى تقسيمات ادارية أسوة بالايالات العثمانية ،وطبق نظام التيمارات والزعامات والوقف [3] ، كما انتفع العثمانيون فى نفس الوقت بالنظم المتبعة فى العهد السابق [4]، فظل النظام الجبائى السابق على ما كان عليه ،وذلك فى استخلاص الجباية بالمحلات العسكرية فى الصيف والشتاء ،وان كان قد اجرى عليها بعض التغييرات ،وذلك فى اسماء فرق المحلات العسكرية ،فبعد أن كانت التشكيلات يطلق عليها الموحدين او الزمازمة ،صارت تسمى الجوانب او الصباحية والمزارقة ،وألحقوا بالمحلة قاضيا حنفيا كالحفصيين [5]،وكان هذا القاضى تعينه الدولة من الاتراك

(١) صلاح العقاد : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٦ - ٢٧ .
(٢) عبد الرحمن تشانجى : المسألة التونسية والسياسة العثمانية ،ص ٢٩.
(٣) عزيز سامح : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٥٩.
(٤) صلاح العقاد : نفس المرجع ،ص ٣٣ .
(٥) محمد الهادى العامرى : مرجع سبق ذكره ص ٢٢٦.

كان سنان باشا قد وضع قوة عسكرية فى تونس قوامها اربعة آلاف جندى من الانكشارية بقيادة الوالى العثمانى حيدر باشا ،ووضع على رأس كل مائة رئيس [١] بلوك باشى (Boluk Bos)ويشكل مجموعهم الديوان ، الذى اهتم بادىء الامر بشوءون الجنود الانكشاريين ،اما طائفة الرؤساء البحريين فأخذوا على عاتقهم مراقبة اعمال القرصنة المسيحية [٢]،ثم فرض سنان باشا على طائفة الصناع الاعمال ،وأشغلهم بعمل المدافع ،والتحصينات ثم رتب القوانين وسن الانظمة ،واصلح شوءون العامة ،ونظم الادارة ،وجعل الخطبة باسم السلطان العثمانى ،وعند توجهه للاستانة أوصى حيدر باشا الوالى العثمانى على تونس باليقظة والحذر ،وأمره بأن يصرف أموال الجباية فى تقوية القلاع والحصون الموجودة فى انحاء تونس ،وادارة المصالح الضرورية ،وغادر سنان باشا البلاد بعد ان أطمأن عليها .[٣]

اديرت تونس وطرابلس معا من قبل حيدر باشا ،وذلك بعد وفاة حاكم طرابلس مصطفى باشا ٩٨٢هـ /١٥٧٥م ،وكان مصطفى باشا ،قد رمم المسجد الكائن فى طرابلس ،كما سك النقود باسم سلاطين آل عثمان ،وعمل على تحسين حالة الأهالى .[٤]

كان ديوان الانكشارية ينظر فى شوءون الجند ،وكان البايات يتشاورون مع ديوان الانكشارية فى الشوءون الهامة ،وديوان الباشا هو مركز الادارة الاساسى وجميع الاعمال تقرر وتنفذ على يديه ،وكان آغاوات الانكشارية يعينون بالترقية من نواب الانكشاريين ،الا أنه قد يحدث أن يعين ويرسل من الاستانة وكان آغاوات الانكشاريين يتنقلون حسب الحاجة التى يراها الحاكم .

قسم حيدر باشا تونس الى آلوية ،وعين حكام للالوية وأسست قيادات

---

(١) محمد بيرم التونسى : صفوة الاعتبار ،جا ،ص ١٣٢ .
(٢) عبد الرحمان تشانجى : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٩.
(٣) اسمعيل سرهنك : مرجع سبق ذكره،جا ،ص ٤٢١ .
(٤) عزيز سامح : مرجع سبق ذكره ،ص ٨٨ .

ارسل لها قادة ،كما عين حسين افندى احد كبار العلماء ،قاضيا للقضاة للعمل بالاحكام الشرعية ،وأوفد لكل الجهات قضاة ونواب ،وتحددت مرتبات الجنود والحكام والكتاب ووظائف الديوان ٠

وكان الانكشاريون فى عهد حيدر باشا ،شأنهم فى كل مكان ،يقومون بمشاغبات ،وكان الباشا يسعى لاصلاحهم وتنظيمهم ،ولما كان التونسيون لم يألفوا بعد الادارة العثمانية ،فان كثيرا من المفسدين حرصا منهم على مكاسبهم الخاصة - يسعون لضمهم الى صفوفهم فىالعمل للاتحاد مع المسيحيين ولما عرف حيدر باشا بعض هؤلاء المفسدين استخدمهم ضد الاخرين منتهجا، بذلك سياسة اضعافهم وتصفيتهم (١) ٠

اصاب الفقر تونس ،وصغرت كثيرا ،وبما أن التمرد استمر فى هذا الاقليم ،فقد تعذر جباية الضرائب ،كما أن اعتداءات الاساطيل المسيحية قد زاد من صعوبة الجباية ،لذا فقد كانت الواردات عبارة عن واردات مدينة تونس ٠

ولما كان حيدر باشا يبذل جهوده للمزيد من التحصينات من بنزرت وتونس ،الا أنه كان يفتقر للمال فكتب للباب العالى يعرض عليه ،أن ولاية تونس لم تسلم اليه وهى عامرة ،بل كانت محتاجة للاعمار ،وأنه عندما وصل لادارتها لم يجد بارة واحدة فى خزينتها ،وأنه بذل كل جهوده لاعمارها ولما كانت سواحل العدو قريبة فهو مضطر للانفاق على عدد كبير من الجنود وبما أن الجنود الكثيرين يحتاجون لمصاريف كبيرة ،فقد زادت نفقاتهم لذلك استرحم حيدر باشا من الباب العالى بالحاق القيروان والمنستير بتونس ٠

---

(١) عزيز سامح : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٥٨-٢٦٠٠

استجاب الباب العالى الى طلب حيدر باشا ،وأمر باعطاء القيروان ، والمستنير الى تونس ،على أن تقدر وارداتها ،وبعد تنزيل المصاريف يرسل الباقى للاستانة .(١)

لم يأل جهدا حاكم قفصة ذو النون فى بث الفتنة والفساد فى انحاء تونس ،فانتشرت اقواله الداعية لاثارة العربان ،وعمت الفوضى بينهم ،لذلك باشر حيدر باشا بنفسه ردع حاكم قفصة ،فقد وصلته الاوامر من الباب العالى بذلك ،كما ارسل له من طرابلس ألف جندى ومدافع عن طريق البر ،وشحنت اسلحة ومدافع بسفينة خفيفة بقيادة حاكم المنستير ،وزحف الوالى السابق رجب باشا ايضا على رأس اكثر من خمسمائة فارس ،وامام تلك القوات لم يستطع ذو النون الصمود فى قفصة ،فانهزم مع بعض اعوانة ولجأوا الى قلعة نفعه التى كان بها فى السابق .(٢)

استولت القوات التابعة لحيدر باشا على قفصة ،وارسل محمود بك حاكم فزان على رأس الف فارس فى اثر ذى النون ،الذى تسلل من حصار نفعه آيضا وانسحب الى جبال تبغة ،بعد ذلك قام حيدر باشا بالاستيلاء على عدة قلاع ومدن وقتل الفا من المتمردين ورحل الباقون فعين الى تونس وجربة وطرابلس .(٣)

انفصلت طرابلس عن تونس فى ١٨ ربيع الاول ٩٨٥هـ / ٨ يوليه ١٥٧٧ م ، وصارت ولايتين وأوفد النشاقرجى حسن باشا من الديوان السامى معينا لامارة طرابلس وبقى حيدر باشا على تونس فقط ،اذ صدر اليه الامر الاتى :

يوءمر أمير أمراء تونس حيدر باشا :

" فصلت الان امارة امراء طرابلس الغرب ووجهت فى ١٨ ربيع الاول سنة ٩٨٥هـ الى تشاقرجى باشا المقام السامى الذى هو حسن باشا دام اقباله وتقرر أن تبقى امارة امراء تونس لك بنفس المخصصات المذكورة فى مرسوم

---

(١) عزيز سامح : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٦٤.

(٢) عزيز سامح : نفس المرجع ،ص ٢٦٥.

(٣) عزيز سامح : نفس المرجع ،ص ٢٦٥.

تعيينك لها فى السابق وعليك ان لا تغمض طرفك عن حراسة طرابلس الغرب والمحافظة عليها الى ان يصل المرما اليه لذلك الجانب " .

فى ١٨ ربيع الاول سنة ٩٨٥هـ .(١)

ان طرابلس الغرب بالنسبة الى تونس والجزائر بلاد فقيرة ، والاماكن المسكونة منها هى الواحات والسفوح الشمالية للجبال والوديان ، وكانت الاراضى التى تزرع وتحصد قليلة ، وكانت القواعد التى وضعتها الحكومة هناك لجباية الضرائب هى نفس تلك فى الولايات الاخرى ، اذ يخرج الجنود مرتين فى العام للجباية .(٢)

اشتكى اهالى تونس حيدر باشا ووجهت شكاوى كثيرة للاستانة ، الذى صدر امرها بنقل حيدر باشا الى طرابلس الغرب وتعيين رمضان باشا ، نائب قلج على فى الجزائر .(٣)

استقرت الامور فى تونس وصارت اكثر هدوءا وتنظيما ، اذ منحت الحرية للزوايا الدينية ، والمدارس التونسية بناء على تعليمات الباب العالى بأن لا يتعرض احد لهذه الموءسسات وكان اشراف واعيان تونس قد بعثوا تقريرا للاستانة يثنون فيها على خدمات رمضان باشا ، ويطالبون بعدم تعرض احد لتلك الموءسسات .

ظل رمضان باشا فى منصبه بتونس التى يعرفها جيدا عدة سنوات ، الا أنه فى الثامن من شهر رمضان سنة ٩٨٧هـ الموافق اكتوبر ١٥٧٩م ، عين حاكما للواء تلمسان ان تعيين رمضان باشا من منصب امير امراء تونى الى حاكما للواء ، يعد انتقاصا لمكانته ، الا أن ذلك من الموءكد انه مكلف باعمال تتعلق بفاس ومراكش (٥)

---

(١) عزيز سامح : مرجع سبق ذكره ، ص ٨٩ .
(٢) عزيز سامح : نفس المرجع ، ص ٩١ .
(٣) عزيز سامح : نفس المرجع ، ص ٢٧٠ .
(٤) عزيز سامح : نفس المرجع ، ص ٢٣٨ .
(٥) عزيز سامح : نفس المرجع ، ص ٢٧٠ .

قام حسن فنزيانو نائب قلج علي فى الجزائر بالهجوم على الاراضى الاسبانية وجزر البليار،وبعد أن قضى حسن فنزيانو ثلاث سنوات ، استدعى الى استانبول وسافر اليها سنة ٩٨٨هـ / ١٥٨٠م ،وعين بدلا منه جعفر باشا وفى عهده بلغ وحدات الاسطول العثمانى فى الجزائر ستين قطعة منها خمس وثلاثون بارجة وعشرون مركب حربى ٠

استطاع جعفر باشا أن يخمد الثورات التى قامت فى انحاء الجزائر ثم ادخل بعض الاصلاحات فىالادارة العسكرية وانشأ قلعة الكيفان الموجودة شرق الجزائر ٠(١)

تولى امر السعديين بعد وفاة عبد الله الغالب بالله ابنه المتوكل على الله الذى كان يضمر الشر لعميه عبد الملك ابى مروان واحمد المنصور فخرجا من المغرب واتجها الى السلطان العثمانى يستنجدا به (٢)،وما من شك فى أن انتصار العثمانيون فىتونس ضد الاسبان واستباب الامر فيها ،قد شجعهم على مساعدة المولى عبد الملك المطالب بالعرش المغربى ،لبسط نفوذهم على البلاد ،ولان الاستيلاء علىالمغرب يوءمن الحدود الغربية للدولة العثمانية ، ويوطداقدام العثمانيين فى مجموع الشمال الافريقى ،علاوة على أن ضم المغرب من شأنه أن يبعث الرعب فى قلوبالاسبان والبرتغال ويبعثهم على طلب ود السلطان فىاستانبول ٠(٣)

تابع المتوكل على الله خطةوالده فى التقرب من الدول المسيحية ومسالمتها لصد العثمانيين ،حيث لم يعد لديه شك فى أنهم سينجدون عميه بقوات عسكرية فعقد اتفاقا مع انجلترا ،التى كانت ترغب فى تنمية تجارتها مع المغرب للفوائد التى تعود على التجار الانجليز من وراء ذلك ،زيادة

---

(١) عبد الرحمن الجيلالى : مرجع سبق ذكره ،ج٣ ،ص ١٠٠-١٠١٠

(٢) محمد العمروسى المطوى : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٦٥٠

(٣) عبد الكريم كريم : مرجع سبق ذكره ،ص ٩٧٠

على انها تدرك الاهمية العظمى التى للمغرب ، خصوصا وقد كانت انجلترا فى حالة حرب ضد اسبانيا .

وتوقيع المتوكل للاتفاقية التجارية مع الانجليز ،يعد العمل الوحيد الذى قام به خلال حكمه القصير ،وقد فعل ذلك باعتبار أن الانجليز كانوا من بين التجار الاجانب الذين يبيعون مواد الحرب من ذخائر واسلحة للمغاربة منذ زمن بعيد ،ولا تخفى علينا حاجة المتوكل فى هذا الوقت الى السلاح لصد الخطر العثمانى ولمقاومة عمه المطالب بالعرش .

وجدت الدولة العثمانية فى انشغال ملك اسبانيا فيليب الثانى باحداث اوروبا الغربية حيث ثورة الاراضى المنخفضة ،فرصة مناسبة للتدخل فى المغرب (٢) ،فأمدو المولى عبد الملك بجيش قوامه خمسة آلاف مقاتل مسلحين بأحسن الاسلحة ،ودخل المولى عبد الملك فاس بعد أن أحرز انتصارا كبيرا على ابن اخيه المتوكل وعاد الجيش العثمانى ادراجه الى الجزائر (٣) .

ظلت العلاقات بين المولى عبد الملك والسعديين هادئة تماما بسبب انصراف السلطان السعدى الى تثبيت دعائم حكمه ،وشاء عبد الملك أن ينهج بالمغرب سياسة جديدة ،تكسبه احترام الجميع لهذا فقد تودد للسلطان العثمانى وأرضى قواته التى جاءت لمساعدته ،كما ارسل الى ملك فرنسا هنرى الثالث مع الضابط (Luis Cabrette) يطلعه على احداث المغرب ويخبره بتوليه حكم البلاد ،كما كلف الضابط نفسه ،بنفس المهمة لدى ملك اسبانيا فيليب الثانى (٤) .

قام تاجر انجليزى يدعى جون وليامز ،والذى كان يعمل وكيلا

(١) محمد الغربى : مرجع سبق ذكره ،ص ٩٤ .
(٢) عبد الكريم كريم : مرجع سبق ذكره ،ص ٩٧-٩٩ .
(٣) محمد الغربى : نفس المرجع ،ص ٩٤ .
(٤) عبد الكريم كريم : نفس المرجع ،ص ٩٩ .

لادموند هوجان ،احد كبار تجار لندن ،قام ببيع كمية كبيرة من قنابل المدافع الى الحاكم السعدى عبد الملك ،وقد حصل الانجليز مقابل ذلك من المغاربة على كمية من نترات البوتاسيوم وكان هذا بمثابة تنازل هام ،لان حكام المغرب السعديين كانوا قد منعوا تصدير هذه المادة ،وقصروا استخدامها على قواتهم .

وكان عبدالملك فى حاجة الى قنابل المدافع ،خاصةوانه كان قد اشتبك قبل ذلك بقليل فى قتال ابن اخيه محمد المتوكل ،وقد سعى بعد ذلك القتال الى تدعيم مركزه فى مراكش وكان ما ابداه من استعداد لتقديم نترات البوتاسيوم الىالنصارى انما يعبر عن تلك الحاجة ،ذلك ان المسلمين الحقيقين كانوا يستنكرون مثل هذا العمل شأنهم فى ذلك المسيحيين الذين أدانوا بيع السلاح والذخيرة الىالمسلمين (١) ،الجدير بالذكر أنه كان من اسباب توثيق العلاقات الانجليزية مع الملوك السعديين فى هذا الوقت تلك العداوة المشتركة من جانبهما تجاه اسبانيا ،ذلك ان الملكة اليزابيث والحكام السعديين قد تخوفوا من الروح الصليبية لفيليب الثانى وكانت نتيجة ذلك توثق العلاقات الودية بين الملكة البروتستنتية والملوك المسلمين .(٢)

وكان السلطان السعدى محمد المتوكل بعد هزيمته من عمه عبد الملك قد اتصل بملك البرتغال سبستيان (Sebastian) ،واتفق معه على أن يعينه على طرد عمه من حكم المغرب ،وأن يتنازل له مقابل ذلك عن جميع شواطئ المغرب ،فقبل سبستيان ذلك العرض المغربى .(٣)

انتقل المتوكل الى سبتة واقام بها أربعة شهور ،ومنها اتجه الى

---

(١) ب . ج . روجرز : تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية ،ص ٤٢ .

(٢) ب . ج . روجرز : نفس المرجع ،ص ٤٨ .

(٣) محمد عبدالسلام بن عبود :مرجع سبق ذكره ،جـ٢ ،ص ١٩.

طنجة فى انتظار دون سبستيان على رأس القوات العسكرية ،ومن هنا وجه المتوكل كتابا الى علماء المغرب يبرر فيه عمله ،الا أن العلماء استنكروا تصرفاته واجابوه بخطاب طويل وهام ٠

وبالتجاء المتوكل الى طنجة حيث الحامية البرتغالية خضعت معظم البلاد لعمه عبد الملك ،ولم يبق خارجا عنه غير منطقة الغرب التى تضم القصر الكبير واصيلا والعرائش ،والتى كانت تحت حكم عبدالكريم ابن تودة صهر المتوكل، الذى طلب النجدة من البرتغال مقدما لهم مدينة اصيلا التى سرعان ما وقع احتلالها من طرف البرتغال ٠[١]

ان تمادى ملك البرتغال دون سبستيان فى خطته الرامية الى غزو المغرب بدعوى مساعدة المتوكل وحرصه على اغتنام هذه الفرصة ،جعل ملك اسبانيا فيليب الثانى الذى كان منشغلا باحداث اوروبا الغربية ونزاعه مع بريطانيا ،يبعث الى قريبه دون سبستيان عدة سفارات يحذره من مغبة اعماله ومن السفارات التى وجهها فيليب الثانى الى لشبونة (Don Juan de Silba ثم Don Luis de Silba) كما بعث اليه سفيرا فوق العادة هو (Don Medina Sidonia) ،ولكن جميع المحاولات باءت بالفشل ،لاصرار ملك البرتغال على اغتنام الفرصة للتدخل فى المغرب ،واستعادة نفوذ بلاده ٠[٢]

وفى اثناء استعدادات الدول المسيحية وخاصة البرتغال للوثوب على المغرب ،واخضاعه بالكامل ،ارسل العثمانيون مدربين واسلحة متنوعة ،واشفعوا فى ذلك بغيلق عسكرى [٣] ،حيث تتجلى هنا الروح الاسلامية فى الدفاع عن

---

(١) عبد الكريم كريم : مرجع سبق ذكره ،ص ١٠٢-١٠٣٠

(٢) عبدالكريم كريم : نفس المرجع ،ص ١٠٣٠

(٣) محمد الغربى : مرجع سبق ذكره ،ص ٩٤٠

عقيدتهم ،لان المعركة هنا تهم الدولة العثمانية ،التى كانت تحمل على عاتقها حماية المسلمين وأراضيهم ،بعيدة عن المصالح المادية .

تقدم دون سبستيان ملك البرتغال مدفوعا بروح صليبية الى المغرب مستهدفا اخراج شعبه عن الاسلام [١] ،وذلك على رأس قوات جرارة ،وارست جميع قطع الاسطول بمدينة اصيلا ، التى اتخذت نقطة انطلاق لغزو المغرب ،وقد كان وصول القوات المهاجمة يوم ٦ جمادى الاولى ٩٨٦هـ / الاثنين ١٢ يوليو ١٥٧٨م، حيث عسكرت بضواحى مدينة اصيلا ،وعلاوة على قوات المتوكل ، اما المولى عبد الملك الذى كانت عيونه تراقب كل تحركات الحملة البرتغالية منذ خروجها من لشبونة فى ١٨ ربيع الثانى ٩٨٦هـ / ٢٥ يونيو ١٥٧٨م،فقد خرج من مراكش فى اليوم التالى وقصد مدينة سوس ،وذلك لاعداد وتجهيز القوات العسكرية ثم عاد الى مراكش وخرج منها باتجاه الشمال حيث عسكر فىمنطقة الخميس ثم تحرك ووصل تاسنا فسلا فالمعمورة ،ونصب بها بعض قطع المدفعية لكنه آدرك هنا بنزول الحملة فى اصيلا ،والتقى الجمعان قرب وادى المخازن ،وجرت معركة حاسمة فى تاريخ المغرب يوم الاثنين ٣٠ جمادى الاولى سنة ٩٨٦هـ / ٤ أغسطس ١٥٧٨م عرفت بمعركة وادى المخازن [٢] ، ان معركة وادى المخازن التى تعد أعظم حدث عسكرى فى تاريخ المغرب الاسلامى ،لم تسل فيها دماء الاتراك الى جانب المغاربة فحسب ،بل دبرت فيها خطط عسكرية بالغة الدقة على يد القواد العثمانيين [٣] الذين استطاعوا الحاق الهزيمة بالقوات البرتغالية ،سقط بها آلاف القتلى وعلى رأسهم دون سبستيان ،والمتوكل [٤]،وبذلك صار شمال افريقيا كله فى دائرة النفوذ العثمانى وحانت الفرصة الحقيقية لتحقيق ذلك لو قدر لها أن تكون فى ضمائرهم .

---

(١) ب . ج . روجرز: مرجع سبق ذكره ، ص ٤٥ .

(٢) عبد الكريم كريم : مرجع سبق ذكره ،ص ١٠٤.

(٣) ابراهيم حركات : التأثير العثمانى فى المغرب ، اشغال المؤتمر الاول لتاريخ المغرب وحضارته ،ج٢ ،ص ١٣ .

(٤) صلاح العقاد : مرجع سبق ذكره ،ص ٥٧ ،عبد الله كنون: مرجع سبق ذكره ،ج١،ص ٢٣٦.

اعتلى احمد المنصور عرش المغرب بعد مقتل اخيه عبد الملك المعتصم فأعدم غالبية القواد الاندلسيين وذلك بعد ان أتضح وجود اتفاق بين الموركسيين والاتراك لقلب نظام الحكم وتأسيس دولة اندلسية تحت الحماية العثمانية .(١)

استقبل احمد المنصور عددا من السفراء الذين قدموا لتهنئته ،وكان من بين هؤلاء سفير البرتغال ،والوفد العثمانى الذى قدم هديته الى المنصور عبارة عن سيف مرصع ،الا أن المنصور ،بدرت منه جفوة تجاه الوفد العثمانى كان كافيا لقيام الحرب بين البلدين (٢) ،فحاول قلج علي وزير البحرية تحريض السلطان لارسال حملة الى المغرب ،لكن المنصور السعدى ارسل وفدا مغربيا لاسترضاء السلطان برئاسة احمد بن يحى الهوزلى ،كما حمل رسالة خاصة الى باشا الجزائر حسن البندقى .(٣)

بدأت القوات الاسبانية فى اكتساح الاراضى البرتغالية ،ولم يستطع الامير البرتغالى دون انطونيو (Don Antonio) مقاومة تلك القوات الاسبانية ، التى ضمت اراضيه سنة ٩٨٨هـ /١٥٨٠م ،عند ذلك اقترح السلطان العثمانى مراد الثالث عقد تحالف عسكرى ضد الاسبان على اساس امداده باسطول حربى وقوات عسكرية فبعث برسالتين فى رجب ٩٨٨هـ /سبتمبر ١٥٨٠م،قال فيها "... فلما وصل بمسامعنا الشريفة ومشاعرنا الخقانية المنيفة خبر طاغية قشتالة وانه احتوى على سلطنة برتغال ،أو كاد وأنه جعل اهلها فى الاغلال والاصفاد ،وانه لكم جار وعدو مضرار حركتنا الحمية الاسلامية .. لاظهار الالفة الازلية أن تتخذ عهدا ونؤكد أن المملكتين محروستا الجوانب ونعلق العهد بالكعبة المنورة والروضة المعظمة فاذا تم هذا الشأن .. نوجه لكم ثلاثمائة غرابا سلطانية وجيش عز ونصر وكماه عثمانية تستفتح بها انشاء الله بلاد الاندلس ... "

---

(١) محمد الغربى : مرجع سبق ذكره ،ص ٩٤ .

(٢) ابراهيم حركات : مرجع سبق ذكره ، ،ج٢ ،ص ١٣ .

(٣) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ،ص ٥٣ ، ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٤٦ .

كما قبل فى نفس الوقت السلطان العثمانى زواج المنصور من احدى بناته " عهدنا الى امير الامراء .. أن يصهر لكم على احدى بناتنا .. اسعافا لغرضك المنيف .. " غير أن المنصور تردد فى جوابه . [١]

عقدت الدولة العثمانية نتيجة للتطور للاحداث فى الاناضول وفارس واوروبا هدنة فى ١٨ ذو الحجة ٩٨٨هـ / ٢٥ يناير ١٥٨١م مع اسبانيا [٢] وحتى تهيىء الدولة نفسها لفرض نفوذها على المغرب .

كان قلج على بعد استقرار الدولة العثمانية فى تونس بدأت انظاره تتطلع الى المغرب [٣]، واخذ يعمل فى توحيد الوجهة السياسية لبلاد المغرب الاسلامى، لضمه الى الدولة العثمانية [٤] خاصة بعد تذبذب موقف المولى احمد المنصور الاخير من الدولة .

صدرت الاوامر الى قلج على قائد الاسطول العثمانى بالتوجه الى المغرب لضمه للدولة العثمانية، فوصل قلج على الى الجزائر فى جمادى الثانية ٩٨٩هـ/ يونية ١٥٨١م بينما كان المنصور يرابط بقواته عند نهر تانسيفت، وكانت القوات المغربية قد استعدت لمواجهة التدخل العثمانى، اذ جهز المنصور جنوده وتقدم بها حتى حدود بلاده، كما سد مداخل مملكته، وحصن الثغور، والى جانب تلك الاستعدادات وجه المنصور سفارة خاصة لاستانبول، وذلك بعد أن توصل الى شبه اتفاق عسكرى مع الملك الاسبانى الذى انتهى من مشاكله بدخوله للعاصمة البرتغالية لشبونة فى ٢٧ جمادى الثانى ٩٨٩هـ / ٣١ يوليو ١٥٨١م، على اساس تقديم المساعدة العسكرية للمغرب، لمواجهة التدخل العثمانى، مقابل التنازل عن مدينة العرائش وامتيازات اخرى وامام تطور الاحداث لم يجد السلطان العثمانى بدا من قبول الامر الواقع والتراجع عن غزو المغرب بأن امر قلج على [٥]،

(١) عبد الكريم كريم : مرجع سبق ذكره ، ص ١١١-١١٢ .
2- Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P.98 :
(٣) محمد خير فارس : مرجع سبق ذكره ، ص ٥٢ .
(٤) عبد الرحمن الجيلالى : نفس المرجع ، ص ١٠١ .
(٥) عبد الكريم كريم : مرجع سبق ذكره ، ص ١١٢ .

وجعفر باشا نائب قلج على فى الجزائر ،بالتخلى عن العمل بالمغرب والانتقال الى الشرق ،حيث اضطربت الامور بالحجاز فتخلى قلج على عن هدفه الطموح فى استرداد الاندلس ،بعد توحيد الجبهة لبلاد المغرب الاسلامى .(١)

شجع المولى احمد المنصور السعدى التجارة مع انجلترا وذلك لحاجته الى انواع جديدة من الاخشاب المتوفرة فى اوروبا لبناء اسطول جديد لمواجهة العثمانيين ،غير أن انجلترا كانت حريصة على الاحتفاظ بتلك الانواع من الاخشاب لبناء اسطولها ،ومع ذلك فانه عندما قدم احد التجار لانجلترا واحد المتعاملين مع المغرب ويدعى جون سيمبكتس ،ضمانا للملكة اليزابيث فى جمادى الاولى ٩٨٩هـ / يونية ١٥٨١م ،بأنه سوف يستبدل الاخشاب بنترات البوتاسيوم اعطته تصريحا بقطع ستمائة طن من النوع المطلوب من الاخشاب فى كل من سسكسي وهامبشير لتصديرها الى المغرب .(٢)

كان لتراجع الدولة العثمانية عن مشروعها فى المغرب وشبه الجزيرة الايبرية ،والاتفاق القائم بين ملك اسبانيا فيليب الثانى والمولى السعدى المنصور كان لذلك اثره فى حياة الموريسكيين الذين فقدوا كل الامال لتلقى المساعدات ،فقامت الحكومة الاسبانية بمحاولاتها نحو فصل الموريسكيين عن حلفائهم فى شمال افريقيا ،وذلك بمنعهم من الدخول الى المناطق البحرية فى الاندلس وفالينسيا ،واعلنت الحكومة الاسبانية رسميا " بأنه ينبغى حصر جميع المورسكيين ، الذين لا يخفون عداوتهم عند الحكومة وحيث ان المورسكيين قد تجردوا فى انسانيتهم بسبب المعاملة القاسية لذلك تناقص عددهم ،وتحولوا الى الجريمة وقطع الطريق كأسلوب لحياتهم ... " (٣)

جهز الوالى العثمانى فى الجزائر اسطوله فى سنة ٩٩٠هـ/١٥٨٢م ،لمحاربة

---

(١) عبد الرحمن الجيلالى : مرجع سبق ذكره ،ص ١٠١ .

(٢) بـ ج. روجرز : مرجع سبق ذكره ،ص ٤٦ .

3- Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe PP. 128 - 129 .

اسبانيا فوق ارضها ،فنزل المجاهدون المسلمون فى برشلونه ،فأعملوا فيهـا تدميرا ،ثم عبروا مضيق جبل طارق وهاجموا جزر الكنارى التى تحتلهـا اسبانيا فدمروا المراكز العسكرية وغنموا ما فيها ولم يكن الاسطول العثمانى يذهب للاندلس لمجرد التنكيل بالاسبانيين ولتدمير منشآتهم ،بل كان يهـدف بالدرجة الاولى انقاذ المسلمين من نكبتهم وتعرض المجاهدون اثناء ذلك لمعارك قاسية وهزائم احيانا .(١)

ازداد تطاول الانكشارية فى الجزائر على الاهالى ،فى الوقت الذى انصرف رجال البحر ليمارسوا الجهاد البحرى على نطاق واسع (٢) ،لذلك حضر حسـن فنزيانو من نشاطه البحرى ،الذى بادر الى عودته الى الجزائر حينما بلغـه انتشار الفوضى بين الجنود ،فانتصب على الجزائر للمرة الثانية ،وفرض طاعتـه على الرعية وذلك فى ربيع الثانى سنة ٩٩١هـ / ابريل ١٥٨٣م ولم يعارض البـاب العالى فى توليه ،لما كان له من الفضل فى حسم الخلاف واطفاء نار الفتـن واستتباب الامن بالجزائر .

باشر حسن فنزيانو تسيير الادارة بما عهد منه من نشاط وحزم ،فانـه لم يترك قيادة الاسطول العثمانى بالجزائر لغيره ،وكثرت فى ايامه المغانـم بما كانت تجلبه السفن من السواحل الاسبانية والجزر الشرقية من نفائس ،وبمـا كان يستولى عليه من الاسرى ومغانم البلاد فى غزواته .

وفى ٩٩٢هـ / ١٥٨٤م ابحر حسن فنزيانو باسطوله على ثغر بلنسيـه وحمل اعدادا كبيرة من الموريسكيين ،اذ أنقذهم من اضطهاد الاسبان ،كمـا استطاع فى السنة التالية انقاذ جميع سكان كالوسا ،اذ حملهم الى الجزائـر وفى السنة بعدها توغل مراد رايس فى المحيط الاطلسى فأغار على جزر الكنـارى

---

(١) بسام العسيلى : مرجع سبق ذكـره ،ص ٦٣ .

(٢) محمد خير فارس مرجع سبق ذكـره ،ص ٥٩ .

وغنم منها غنائم كثيرة بما فيهم زوجة حاكم تلك الجزر ،وبقى حسن قنزيانو على رأس الحكومة العثمانية بالجزائر الى ان استدعاه السلطان الى استانبول ليتولى منصب امارة البحر " قبودان دوريا " [١] وذلك بعد وفاة قلج على سنة ٩٩٥هـ /١٥٨٧م وبوفاة قلج على انتهى فى الجزائر نظام البيلربك الذى جعل من حكام الجزائر ملوكا واسعى السلطة والنفوذ واستعيض عنه بنظام الباشوية مثلها فى ذلك تونس وطرابلس [٢] ،ويفسر هذا التغيير فى شكل الحكم العثمانى تخوف السلطان العثمانى فى ان يتجه البيلربك بسبب قوتهم وضعف البحرية العثمانية نحو الاستقلال ٠

وكان الباشا موظف ترسله الاستانة لمدة ثلاث سنوات يتولى خلالها حكم البلاد دون أن يكون له سند اساسى او سند محلى بين القوى التى تسيطر على البلاد [٣] ويكون الباشا فى كل من طرابلس وتونس والجزائر وكيلا للسلطان ويكون مطلق التصرف لبعد الولاية عن العاصمة استانبول ٠[٤]

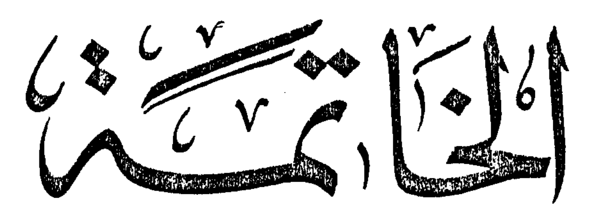
كانت احداث ما بعد ٩٩٧هـ /١٥٨٨م فى النيابات العثمانية الثلاث طرابلس وتونس والجزائر تفيد بسطوة الجنود ورجال البحرية على السلطة فيها على حساب سلطة الباشا الا أن طبيعة علاقات السلطة فى داخل الولاية ، مع امساك السلطنة العثمانية بسلطة اصدار الفرامانات ،قد ضمنا تحقيق الاهداف العثمانية فى الحكم من حيث الخطبة باسم السلطان وتحصيل الضريبة سنويا والمساهمة فى حروب الدولة والقبول بالباشا القادم من الاستانة ممثلا أعلى للسلطان فى حكم النيابة وهى جميعها من رموز السيادة العثمانية الرسمية ٠[٥]

---

(١) عبد الرحمن الجيلالى : مرجع سبق ذكره ،جـ٣ ،ص ١٠٢- ١٠٣ ٠
(٢) احمد توفيق مدنى : مرجع سبق ذكره ،ص ٤١٠ ٠
(٣) صلاح العقاد : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٨ ٠
(٤) محمد الهادى العامرى : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٢٠٠
(٥) ابراهيم شحاته حسن : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٣٩٠

كان ذلك هو التحول الذى جرى فى الدولة نحو الشمال الافريقى ، اثر معركة ليبانتو سنة ٩٧٨هـ / ١٥٧١م ، فبعد أن كان الشمال الافريقى تحت مسوءولية البيلربك الموجود فى الجزائر ، انقسمت المنطقة الى ثلاث ولايات هى طرابلس وتونس والجزائر وصارت ولايات عادية مثلها مثل سائر الولايات العثمانية الاخرى ، مع الابقاء على خطة استرداد الاندلس وانقاذ المسلمين فيها ، اذا ما سنحت الفرصة لذلك ، وقد ظهر ذلك فيما سبق ، الا أن موقف السعديين من جهة وتصرف بعض الانكشاريين فى الدولة من جهة اخرى ، جعل الدولة العثمانية تصرف نظرها عن تلك الخطة الطموحة.

.....


الخاتمة

ظهرت نزعة الجهاد الاسلامى واضحة جلية فى كل الخطوات التى قام بها العثمانيون منذ بداية تكوينهم ،وخاصة فى جهادهم ضد المسيحيين وفى دفاعهم عن بلاد المسلمين ،من هذا المنطلق كان زحف القبائل التركية التى اعتنقت الاسلام غربا ٠

قامت تلك القبائل التركية باحتلال المقاطعات الآسيوية للامبراطورية البيزنطية غربا ،وسجلت انتصارات كبيرة على المسيحيين ،من أهمها معركة ملاذكرد ،عند ذلك تمكنت القبائل التركية المسلمة من تثبيت أقدامها فى بلاد آسيا الصغرى بعد أن دمرت تحصينات الحدود البيزنطية ٠

تطورت الاوضاع السياسية فى المشرق الاسلامى بعد الغزو المغولى سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢٠م ،فهاجرت جماعات تركية نحو الغرب ،وتركزت هجرة تلك القبائل على الحدود البيزنطية فى مناطق الأناضول الغربية حيث السهول الخصبة ،والمراعى الغنية ٠

ازداد تجمع المسلمين الاتراك على مناطق الحدود الاسلامية ،وحث زعماء تلك المناطق رجالهم على الغزو ضد الممالك المسيحية ،على أن ذلك الجهاد اسلامى ،وتجمع هوءلاء الرجال المحاربون حول زعماء الجهاد الذين نظموا هذه الجماعات ،وصارت الغارات الاسلامية على الاقاليم الغربية المسيحية اكثر ضراوة وشدة ،وتأسست بعد ذلك امارات اسلامية مستقلة فى غرب الاناضول

لم تشأ تلك الجماعات التركية المسلمة ،أن تتجه بغزواتها نحو المشرق الاسلامى وذلك نظرا لوجود الممالك الاسلامية القديمة والقائمة بحماية المسلمين وأراضيهم ،لذلك فان الوضع الطبيعى لمد نفوذهم هو الغرب المسيحى لان ذلك هو الجهاد الحق ونشر لواء الاسلام فوق أراضى لم يسبق الوصول اليها٠

كان من ضمن تلك القبائل التركية والتى تزعمت الجهاد الاسلامى قبيلة

قابى اسلاف العثمانيين وظهر ارطغرل بن سليمان شاه ،ومن بعده ابنه عثمان ،والذى برز كأمير فى شمال غرب الاناضول ،برأس قوة تزعمت الجهاد ضد بيزنطة فى تلك المنطقة .

وفر الغازى عثمان لنفسه قاعدة ،ينطلق منها نحو الغرب ،وكانت تلك القاعدة مدينة بنى شهر ،القريبة من بروسة ونيقية أهم المدن فى غرب الاناضول ،ومن تلك القاعدة ارسل عثمان حملاته على المدن المجاورة واستولى على عدد من حصونها ،واستمرت تلك الحملات حتى أقترب عثمان من بروسة ونيقية ،عند ذلك شيد قلعتين بجوارهما لتمكنه من فرض الحصار.

لما بعث الامبراطور البيزنطى جيشا كبيرا ،استطاع الغازى عثمان ايقافه وهزيمته فى بافيون (Baphaeon) وذاعت شهرة عثمان فى الأفاق واخذت بعض الامارات الاخرى اسمه وصاروا معروفين بالعثمانيين وطد عثمان أمور امارته الداخلية ونظم شوءونها ،ثم عزم على فتح بروسة فأرسل ابنه أورخان الذى تمكن منها ،وجعلها عاصمة جديدة لدولته الناشئة وكانت تلك خطوة هامة حققها العثمانيون الى الامام ،اذ تحولت املاكهم من امارة حدود الى دولة اسلامية .

سار اورخان على نهج اجداده القويم ،فى الجهاد فى سبيل الله والتوسع نحو الغرب حيث الاقاليم المسيحية ،فأعلن الحرب على بلاد الروم اذ ارسل جيشا فتح ازميد ثم تقدم اورخان بعد ذلك نحو بحر مرمرة واستطاع أن يهزم حملة بيزنطية ضخمة ،ثم قام بعمليات عسكرية هامة منها الاستيلاء على ازنك (İZnik) ،وعلى بعض الأراضى البيزنطية حتى صاروا على مقربة من أوروبا .

ومن اقدار الله العظمى أن الاتراك العثمانيين اعتنقوا الاسلام على المذهب السنى ،ويروى الموءرخون فى ذلك قصة معروفة متكررة ولكننا

تضيف أن المذهب السنى الوهبين هو الذى صادف القبول لدى الاتراك ،ومن ثم لم يستهوهم المذهب الشيعى على الرغم من اختراق القبائل التركية مناطق الشيعة فى زحفها من وسط آسيا الى غربها ،وذلك امر على جانب كبير من الاهمية فى تاريخ الاسلام الحديث .

لم يتردد العثمانيون فى العبور الى القارة الاوروبية عندما سنحت لهم الفرصة ،طالما أن ذلك يحقق اهدافهم فى الامتداد نحو الغرب لانقاذ المسلمين فى الاندلس والتى اخذت املاكهم تتساقط فى ايدى المسيحيين ويستمر الجهاد ضدهم لتبقى كلمة الاسلام هى العليا ،ولان دولة الاسلام لابد أن تكون فى حالة جهاد دائم .

تحرك العثمانيون داخل القارة الاوروبية كفاتحين وداعين للاسلام ففتحوا الساحل الاوروبى من بحر مرمرة ،وهاجموا تراس (Trace)، وموريا (Morea) ،ثم زحفوا على بلاد الروملى فى جنوب شرق أوروبا وكان تأسيسهم قاعدة لهم فى جزيرة غاليبولى (Gollipoli) حدث له ما بعده ،ليزحفوا منها نحو قلب اوروبا ،ثم نقل سليمان بن أورخان مسلمى الاناضول الى اوروبا لاسيما البدو منهم ،ليكونوا داعين للاسلام وسفراء له هناك ،مما يوفر للعثمانيين الكثير من الجهد ،وذلك بانضمام المسيحيين الذين يعتنقون الاسلام عن اقتناع .

ان الاجل لم يمهل اورخان ليبلغ امنيته ،لكنه اوجد قاعدة للتوسع فى اوروبا وجهز الدولة بوسائل للقيام بمزيد من الفتوح ،وهو الذى اوجد يكى جرى (الانكشارية) ورباهم تربية اسلامية أهلتهم لاكتساح شرق اوروبا ،وخلفه ابنه السلطان مراد ، الذى قيض له أن يقود الجيوش العثمانية صوب نهر الدانوب ،ففى ٧٦٣هـ / ١٣٦١م سقطت أدرنه (Adrianople)، ثانى مدينة فى الامبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية ،ثم قليبوليس وبذلك تحولت مقدونيا وتراقيا - او الروميللى بالمصطلح الحديث - الى

آراضى عثمانية ٠

اعترف الامبراطور البيزنطى سنة ٧٦٣هـ / ١٣٦٣م بالممتلكات العثمانية ومن تلك المواقع الممتازة انتشر العثمانيون داخل الفراغ الذى تركته السلطة المنهارة فى الجنوب الشرقى من اوروبا وبمجرد التوغل غربا فى وسط المجتمع الاوروبى صار العثمانيون مبعث خوف وقلق لاوروبا المسيحية ومن ثم اخذت المسألة الشرقية طابعا جديدا ،وساهم تقدم الاسلحةالعثمانية والتى لم تجد مقاومة فى خلق روح التقدم العثمانى ،مقابل روح التشاؤم التى كانت من سمات سيكولوجية العصر لدى الاوروبيين ٠

لم يرق للصليبيين ذلك التقدم العثمانى فى اوروبا فجمعوا الجموع لحملة صليبية دعا اليها البابا آوربانوس وجرى اللقاء الاول بين العثمانيين ومسيحى الشمال على ضفاف نهر مارتزا بالقرب من آدرنه ،بعد آن تقدم ملك المجر وبولنده وآمراء البوسنة والصرب وولاشيا للقضاء على الوجود العثمانى فى اوروبا ،الا آن العثمانيين اوقعوا بهذا الحلف البلقانى المسيحى هزيمة منكرة ،ضم العثمانيون اثرها جنوب جبال البلقان وعرفت اوروبا آن الاسلام قوة ثابتة الدعائم فى شرق اوروبا فى مطلع العصر الحديث ٠

اخذ السلطان مراد فى تنظيم الاقاليم والبلدان المفتوحة ،كما هو شأن الفاتح الحكيم الذى لا يكتفى بفتح البلاد وكان ينهج فى ذلك منوال اجداده ويستريح ويرتب جيوشه ويكمل ما نقص منها ،ولما عظم شأن الدولة خشيها مجاوروها ،فأرسلت جمهورية راجوزه (Raguse) - على شاطىء البحر الادرياتيكى وفى سنة ٨٧٠هـ ١٤٦٥م الى السلطان مراد رسلا امضوا معه معاهدة ودية وتجارية ،تعهدوا فيها بدفع جزية سنوية قدرها ٥٠٠ دوكة ذهب ،وهذه اول معاهدة امضيت بين العثمانيين والدول المسيحية ٠(١)

---

(١) محمد فريد بك المحامى : تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١٣٢-١٣٣٠

واستمرت الفتوحات العثمانية فى خط سيرها السابق ،نحو قلب اوروبا وفتحت مدينة موناستر [١] وبرلبه (Prilep) [٢] واستيب (Stip) [٣] ثم وقعت مدينة صوفيا فى قبضة العثمانيين بعد حصار دام ثلاث سنوات ٧٨٣ - ٧٨٤هـ /١٣٨١-١٣٨٣م ،وعقب ذلك فتح الصدر الاعظم خير الدين باشا مدينة سلانيك وواصل العثمانيون زحفهم الى الساحل الالبانى فوصلوه عام ٧٨٧هـ/١٣٨٥م عبر سبرين دموناستير ،وقبل الحكام المحليين فى مقدونيا وألبانيا السيادة العثمانية ،ثم هوجمت نيس (Nis) سنة ٧٨٩هـ/١٣٨٧م ،واخيرا انهزم الحلف الصربى فى اول معركة فى سهل قوص آوه (Kossoro) فى ٧٩٢هـ / ١٣٨٩م ،عندها بدأ العثمانيون تدعيم انتصاراتهم فى البلقان بالفتح المنظم لليونان وبلغاريا ،وكان العثمانيون عندما بدأوا برنامج غزوهم للبلقان قد اسسوا بالفعل دولة قوية فى الاناضول امتدت من انقرة الى الدردنيل ،ومع تفكك امبراطورية الصرب ومملكة بلغاريا لميكن هناك دولة بلقانية تقارن بالدولة العثمانية فى الحجم والقوة ٠

آثار التوسع العثمانى فى البلقان مخاوف البابوية اذ صارت المخاطر تهدد الدول المجرية الكاثوليكية خاصة بعد انهيار مقاومة الصرب وحلفائها سنة ٧٩٢هـ /١٣٨٩م فى موقعة كوسوفو (Kossovo) ،لهذا هرع الملك سكسموند الى المغرب مستغيثا بحكامه ،واحدثت استغاثاته اصداء فى الاوساط البابوية والعثمانية ،حيث اعلن البابا بونيفس التاسع الدعوة لحملة صليبية ،لباها امير برغندى فيليب الجسور ،كما تتطوع عدد من امراء فرنسا وفرسان القديس يوحنا فى رودس والبنادقة وقدر عدد افراد

---

(١) موناستر : بلدة يوكسلافية تسمى اليوم بيتولا(Bitola)
وتقع بالقرب من الحدود الألبانية اليونانية ٠

(٢) برلبة : بلدة فى يوكسلافية الاسلامية شمال بيتولا ٠

(٣) ستيب : تقع فى وسط يوغسلافية ٠

افراد الحملة بمائة الف مقاتل وكان التفاؤل يغمر قلوب الصليبيين حتى خيل اليهم بأنهم سوف ينهون الدولة العثمانية ويستولوا على بلاد فارس وسوريا ويخلصوا بيت المقدس من ايدى المسلمين ٠

اتخذت الحملة معسكرها تحت اسوار مدينة نيقوبولس ،بعد استيلائها على بضعة مدن تابعة للعثمانيين فى جهات الدانوب وتشجع القادة المسيحيون فى بداية الامر بالانتصارات التى احرزوها ،ولم يهتموا لنداء التحذيرات من الخطر العثمانى العسكرى الذى بات قريب منهم ،بل انهم ضحكوا من فرسان الاستطلاع الذين اخبروهم بأن السلطان بايزيد الاول صار على مسيرة ساعات من نيقوبولس والاغرب من ذلك انه أتهم احد الجنرالات الفرنسيين حاملى الانباء بتلفيق الأخبار ،وهدد ببتر اذان مروجيها ٠

فى هذا الوقت هجم السلطان بايزيد على الجموع المسيحية وقاتلهم قتالا عنيفا فى ٢٣ ذى القعدة سنة ٧٩٨هـ / ٢٧ سبتمبر سنة ١٣٩٦م٠

شدد بعد ذلك السلطان بايزيد حصاره على مدينة القسطنطنية الا أنه لم يلبث أن رفع الحصار عنها ،وذلك بسبب اقتراب الخطر المغولى من آسيا الصغرى ،اذ ان الامور مرهونة بأوقاتها ،فأكتفى بابرام الصلح بشرط دفع عشرة آلاف ذهب سنويا ،وأن يسمح للمسلمين ببناء جامعا لاقامة شعائر الدين الحنيف ٠

شاهد القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر ميلادى بدء تكوين العثمانيين كأمة ودولة ،فاذا كان عثمان وأورخان قد وضعا اساس الامة والدولة العثمانية فلا شك أن مراد وبايزيد قد جعلا من هذه الدولة نواة لدولة مترامية الاطراف ،اذ وجهوا كل جهدهم لنشر لواء الاسلام وفتح أوروبا من شرقها الى غربها ،ولانقاذ المسلمين فى الاندلس،وتمكنوا

بالفعل فى اخذ بلاد البلقان وبلاد المجر والكثير من بلاد النمسا ،وجنوب روسيا حول البحر الاسود ،ولولا نقمة الله التى احلت على المسلمين من جديد ،متقمصة فى شخصية المخرب تيمور لنك سليل جنكيز خان وهولاكو ،على رأس جيوش من قبائل المغول ،وحارب تيمور لنك السلطان بايزيد ،وانتصر عليه عام ٨٠٤هـ / ١٤٠٢م ،ولولا ما عقب ذلك من فترة اضطراب وتحولات فى احياء المقاومة ضد العثمانيين مما أعاقهم فى التقدم وأخل ببرنامج فتوحاتهم وجهادهم مدة خمسين سنة ،لبلغت الدولة العثمانية مبلغا عظيما من فتوحاتها ولتمكنت من الوصول الى هدفها لانقاذ المسلمين فى الاندلس قبل فوات الأوان ،وذلك قبل أن توحد أوروبا جهودها وقبل أن تستعد للمقاومة المستميتة .

قضى السلطان محمد جبلى الغازى مدة حكمه فى اعادة وحدة البلاد التى انفرط عقدها بعد هجوم تيمور لنك على آسيا الصغرى ،كما أدخل اصلاحات للجيش اذ أدرك السلطان محمد أنه لا بقاء لدولته الا بالتفوق الحربى فقد سبق وأن حقق اجداده امجادا عسكرية يفخر بها الاسلام ومن ثم كان الجيش بوجه خاص أهم ما عنوا به وقد بقى السلاطين يملكون الجيش الثابت النظامى الوحيد الذى له اعتبار فى اوروبا وبفضل الجيش استطاع العثمانيون ان يكونوا قوة رهيبة فى أعين رعاياهم وجيرانهم ،كما كانت منشآت السلاطين العسكرية فى المدفعية والهندسة العسكرية وشئوون الامدادات والتموين فوق مستوى عصرهم ،كما لم يكن فى وسع اى دولة من دول غرب اوروبا تقاوم فرق السباهية ويكى جرى (الانكشارية) ،واستطاع السلطان محمد جبلى أن يستعيد اجزاء كبيرة من الاناضول ،كما تمكن من تقويم جيشه واعادة رهبته وقوته .

تهيأ الجو للسلطان مراد الثانى ٨٢٥هـ – ٨٥٥هـ ١٤٢١–١٤٥١م ،أن يستأنف عمليات الجهاد والفتح على الجهات الأوروبية ،ففتح سلانيك ،ثم أتجه لفتح ما بقى من بلاد الصرب والبانيا والفلاخ قبل أن يعيد الكرة

على القسطنطنية حتى لا يكون لها من هذه الولايات نصير ،فوجه اهتمامه أولا الى بلاد ألبانيا فأطاعه سكان يانيه (Jarina) وسكان اغلب باقى البلاد ،وفى ٨٣٧هـ ١٤٣٣م أعترف امير الفلاخ بسيادة الباب العالى عليه تخلصا من الحرب ،ثم فتح السلطان مراد مدينة سمندرية بالقرب من مدينة بلغراد عاصمة بلاد الصرب .

هرع الامبراطور البيزنطى جون الثامن ٨٢٩-٨٥٢هـ /١٤٢٥-١٤٤٨م ،للغرب طالبا المساعدات العسكرية عن طريق البابوية ،وكان البابا آنذاك يوجينيوس الرابع الذى رأى الفرصة مناسبة لمساومة الامبراطور على كره منه أن يوافق على ذلك فى موءتمر فلورنس سنة ٨٤٣هـ / ١٤٣٩م ،واعتبرت الكنيسة الارثوذكسية خطوة الامبراطور تلك خيانة عظمى بالنسبة لمذاهبها وعلى كل فقد أعلن البابا دعوة لتشكيل حملة صليبية ،وأرسل نائبه الكاردينال جوليان بفرقة عسكرية فرنسية للمجر للاسهام فى المعركة ضد العثمانيين مع كل من الصرب فى عهد جورج برنكوفيتش (George Brankovich) وملك المجر والقائد المجرى والاسقف البولندى ،وتمكنت هذه الحملة من الانتصار على مراد الثانى فى بداية الامر سنة ٨٤٧هـ ١٤٤٣م الا ان السلطان مراد لم يلبث أن كر على الصليبيين واستطاع أن يهزمهم فى موقعة فارنا سنة ٨٤٨هـ / ١٤٤٤م ،ولم تعد هناك عقبات امام العثمانيين بعد موقعة فارنا فى الجهات البلقانية (١).

كان السلطان محمد الثانى حصيفا فى تفكيره وتقديره عندما أرتقى عرش الدولة العثمانية عام ٨٥٥هـ / ١٤٥١م اذ أدرك بأن الوقت حان للقضاء نهائيا على الامبراطورية البيزنطية ،وأن دولته لابد وأن ترث الدولة البيزنطية فى ممتلكاتها ،اذ أن عداء أوروبا لبيزنطة ،قد أختلف ،ففى السابق كانت أوروبا الشرقية أرثوذكسية ،والآن تدعم فيها الاسلام .

---

(١) عبد القادر احمد اليوسف : علاقات بين الشرق والغرب ،ص ٢٤٨.

كانت الدولة العثمانية فى هذا الوقت قوية بقدر كاف ،تمكن السلطان الشاب محمد الثانى ومستشاريه شهاب الدين وزاجانوس (Zaganonos) من تحقيق خططهم ،وكان هدف السلطان محمد الرئيسى احياء مجد سلفه السلطان بايزيد ،وذلك باخضاع جميع الاراضى فى اوروبا وفى جنوب الدانوب - وجميع الاراضى فى آسيا شرق الفرات للحكم العثمانى المباشر ،ولكن بطريقة تناقض اسلوب جده السلطان بايزيد وذلك بفضل الاستيلاء أولا على القسطنطنية ،ليضمن لنفسه السيطرة والاحترام والسلطة اللازمة لانشاء دولة قوية متسعة الاطراف ،بالاضافة الى ذلك كان الاستيلاء على القسطنطنية يمنح السلطان منطقة نفوذ فى مدخل البحر الاسود الضيق ويتيح الفرصة للعثمانيين الدخول الى خزان ضخم جديد من الامدادات الغذائية اذ أنه خلال اوائل القرن التاسع الهجرى / القرن الخامس عشر مارست المستعمرات التجارية اليونانية والجنوية تجارة خصبة مع أوروبا فى الغلال والرصاص والسمك والجياد وعبيد روسيا الجنوبية .

ان فتح القسطنطنية كان مقياسا حقيقيا لقوة العثمانيين وقوة الارادة والجهاد .

ان الدولة منذ قيامها تعتبر دولة برية بمعنى ان قوتها الحقيقية تكمن فى البر والقتال فى البر ،ومعنى اتجاه الدولة لفتح القسطنطنية انها وضعت نفسها امام جهد بحرى جبار ،والدولة لم تصل بعد الى القوة البحرية التى تؤهلها لمناجزة أقوى قوة بحرية فى أوروبا وفى العالم حينئذ ،لكن روح الجهاد التى اشرنا اليها عوضت العثمانيين عن كل ذلك ، لذلك كانت خطة الدولة هى الاحاطة بالقسطنطنية من غربها برا ثم توجيه الضربة القاضية لها من هذا الاتجاه .

ونجح العثمانيون فى ذلك نجاحا بهر أوروبا المسيحية والعالم .

تمكنت قوات السلطان محمد الثانى من اقتحام حصون القسطنطينية بعد حصار دام ٥٤ يوما ٢٣ جماد أول - نهاية جماد ثان سنة ٨٥٨هـ /١٦ابريل ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣م ،محطمة بذلك وهما كبيرا سيطر على الاذهان طوال العصور الوسطى آلا وهو استحالة سقوطها .

وبذلك حرمت اوروبا من قاعدة كان وجودها يشكل قوة دفاعية فعالة اذ كانت القسطنطنية تعتبر رمزا للمقاومة المسيحية وان سقوطها كان تحذيرا للدول الاوروبية بأن هناك مظهرا جديدا من الجهاد فى العالم الاسلامى ،كما أن الاستيلاء على هذا المركز التجارى الادارى العسكرى العظيم سهل السيطرة والدفاع بالنسبة لفتوحات السلطان ،بينما شكل التحكم فى الممرات المائية بين بحر البلقان والبحر المتوسط قبضة قوية خانقة على التجارة الاوروبية مع البلدان الساحلية الواقعة فى الشمال والشرق وفرت للسلطان دخلا كبيرا ومتجددا لا يستهان به [1]،ولكن اهم من ذلك بالنسبة لموضوعنا هو أن فتح القسطنطنية اعطى زعامة العالم الاسلامى للعثمانيين وآكسبهم الثقة فى النفس بالنسبة للمشروعات الطموحة ومن أهمها انقاذ الاندلس .

حول العثمانيون كنيسة ايا صوفيا الشهيرة الى مسجد ،ووجدت عاصمة الكنيسة الشرقية نفسها تحت رحمة العثمانيين المسلمين ،وربما لم يكن سقوط المدينة يعنى الكثير بالنسبة للكنيسة الغربية فى روما لان الكنيستين انفصلتا عن بعضهما رسميا قبل سقوط القسطنطنية بأربعة قرون ٤٤٦هـ/١٠٥٤م ، الا أن نهوض العثمانيين على هذه الصورة بعد الهزيمة الماحقة التى آلحقها بهم تيمور لنك سنة ٨٠٥هـ / ١٤٠٢م هو الذى جعل الرعب يدب فى الشمال والغرب وسرت خشية رهيبة فيما بعد من أن يتابع العثمانيون امتدادهم نحو اوروبة فيستولون على ايطاليا ثم الاندلس كما استولوا على اليونان خاصة بعد أن تدفق اللاجئون للدولة ،مما أدى الى سواد الخوف والقنوط فى كل مكان من العالم المسيحى وكان استمرار

1- Stanford Show : History of the Ottoman Empire P. 57.

الفتوحات العثمانية فى آوروبا شيئا واردا ومضمون فى ذلك الوقت وذلك بزوال القاعدة الاستراتيجية الوحيدة التى تمكن العالم المسيحى من استخدامها ضد الاتراك العثمانيين .

ومن هذا التاريخ يمكن القول بأن عصر تحول الدولة الى دولة برية وبحرية وذلك ببدء عصر البحرية العثمانية الزاهر ،ورثوا اعظم ترسانات بحرية وهى دور صناعة السفن فى القسطنطنية بالاضافة الى أن التقدم العثمانى فى البلقان قد وفر أهم المواد اللازمة لصناعة السفن ،كما أن الدولة آخذت تسيطر على اقاليم هى أهم النماذج الجغرافية للبيئة البحرية ،مما جعل جهود الدولة لانقاذ الاندلس واسترداده آمرا واردا .

اعترف العالم الاسلامى على اثر فتح القسطنطنية بالسلطان محمد الثانى قائدا للجهاد الاسلامى ضد المسيحية ،وتفوق على جميع الحكام المسلمين كما اعتبر نفسه حامى العالم الاسلامى وقد ورد ذلك فى رسالة بعث بها الى سلطان المماليك قائلا له " .. ان مسئوليتك أن تحفظ طرق الحج مفتوحة للمسلمين وواجبنا هو مدها بالغزاة الفاتحين ..." (١)،ثم اخذ الفاتح يؤكد صلات القربى بين الاباطرة والاتراك القدامى فى اواسط آسيا مشجعا تدوين الالقاب القديمة التى توضح أن أسرته كانت تنحدر من سلالة (Oguz Har) ،منافسا بذلك طموحات غريمه الرئيسى آوزون حسن ،لكل ذلك اعتبر محمد الفاتح نفسه وريثا للامبراطورية الرومانية الشرقية ولدولة عالمية شاسعة المساحات واخذ العلماء البيزنطيين المحيطين به يشجعون لديه الافكار البراقة للسيطرة على العالم .(٢)

---

(١) ابراهيم شحاته حسن : اطوار العلاقات المغربية العثمانية ،ص١٠٣.

2- Stanford Show : History of the Ottoman Empire P.P. 60-61.

صارت القسطنطنية بعد الفتح الاسلامى عاصمة الدولة العثمانية وتحول وجهها النصرانى وطابعها البيزنطى الى طابع اسلامى جميل ،وتحولت الكنائس الى مساجد وساد الامن وانتشر العدل وهاجر المسلمون وعلماؤهم اليها وصارت المدينة ملاذ العالم ومأمن الخائف ،ولجأ اليها بعض من بلاد الاندلس ، الذين أوضحوا للسلطان العثمانى المآسى الكبرى التى يعانونها من قبل الحكام المسيحيين فى شبه الجزيرة الايبرية .

بدأ الكيان العثمانى يتبلور فى ذهن محمد الفاتح بعد أن استقرت الاحوال فى العاصمة الجديدة القسطنطنية وقرر بأنه لابد وأن تتمركز دولته فى كل من الاناضول والبلقان وهى نفس الاقاليم التى تمركزت فيها الامبراطورية البيزنطية وبناء على تخطيط محمد الثانى للكيان العثمانى نجد أنه حينما شرع فى التنفيذ كان واضعا نصب عينيه اتمام السيطرة على الاناضول ودعم النفوذ العثمانى فى البلقان لتكون منطلقا له نحو وسط اوروبا ليتسنى له التقدم للاندلس لانقاذ المسلمين من نير التسلط المسيحى.

تفاقمت المخاوف المسيحية مع زيادة القوة العثمانية وكان من الطبيعى أن تعمل بابوية روما على حث اوروبا على قتال العثمانيين ، اذ دعى البابا لحرب مقدسة ضدهم ،ضمن محاولة لانتزاع بيت المقدس ،ووجدت دعوة البابا استجابة من المجر وصربيا حيث سبق لهاتين الدولتين استئناف الحرب ضد العثمانيين ٨٥٨هـ / ١٤٥٤م ،وبالرغم من أن هذه الحملة تمكنت من تحقيق انتصار على العثمانيين فى معركة بلغراد ٨٦١هـ / ١٤٥٦م فى فكهم الحصار العثمانى عنها ،الا أن الحملة جاءت الى نهايتها عند وفاة ملك صربيا وبذلك تمهد الطريق امام العثمانيين من اجل القضاء على المقاومة السلافية الجنوبية بشكل حاسم ،حيث جعلت صربيا ولاية عثمانية سنة ٨٦٤هـ / ١٤٥٩م وكذلك بوسنيا سنة ٨٦٨هـ /١٤٦٣م ،عند ذلك أبدى البابا بايوس (Pius) الثانى رغبته فى قيادة الحملة شخصيا واعلن

الحملة رسميا فى ٨٦٨هـ / ١٤٦٣م وراح دعاتها من الفرنسيسكان والدومينيكان يكرسون الجهود لتحريك الجماهير عاطفيا ،ولبت النداء مجموعات من الفرسان تقاطرت على الموانىء الايطالية ، الا أنها لم تجد وسائل النقل البحرى ، اما البابا فقد التحق فعلا بالجموع فى انكونا الا أنه توفى بعد شهرين من وصوله اليها سنة ٨٦٩هـ / ١٤٦٤م فتفرقت الحشود .(١)

شدد محمد الفاتح هجومه على آلبانيا وآثينا وسلانيك وصارت معظم شبه جزيرة البلقان تحت الحكم العثمانى ولم يبق الا جيوب مسيحية صغيرة على الساحل الغربى فى يوغسلافيا شمال آلبانيا والتابعة للبندقية وواصل العثمانيون فتوحاتهم الى (WALLACHIA) ،وهناك توقفوا لانهم وجدوا مقاومة عنيفة ضدهم فاتجهوا ناحية الجنوب والغرب .

كان الجنويون يعتبرون البحر الاسود منطقة نفوذ لهم ،كما كان البنادقة يعتبرون البحر المتوسط ملكا لهم ولكل منهم اسطول كبير وادراكا من السلطان لتأمين ظهره فى البحر الاسود ،وانصرف محمد الفاتح لتعزيز القوى البحرية تعزيزا عظيما حتى اذا اعتمد عليها وجهها الى البحر الاسود ،فأستولت سفنه على ميناء (Caffa) مركز طليعة الجيش الجنوى الرئيسى علاوة على موانىء اخرى رئيسية على البحر الاسود ،واضطر تتار كريميا القاطنين من وراء الساحل حتى الشمال الى أن يتأقلموا مع العثمانيين .

توجه السلطان الفاتح بعد ذلك الى البحر المتوسط غير متهيب لجمهورية البندقية ،والتى كانت اعظم دولة بحرية وتجارية ،فأستولى على جزيرة فجربونت التى كانت مركزا استراتيجيا للبنادقة فى الارخبيل

---

(١) عبد القادر احمد اليوسف : علاقات بين الشرق والغرب ،ص ٢٥٠.

وأتبعها بجزر اليونان ،ثم هاجم جزيرة رودس والتى كان فرسانها قد اعاقوا العثمانيين للوصول الى البحر المتوسط وشكلوا تحت امرة البابا حرسا صليبيا ،ثم غزا العثمانيون جنوب ايطاليا ،وحاصروا اوترانتو (Otranto) فى شبه الجزيرة الايطالية عام ٨٨٥-٨٨٦هـ/١٤٨٠-١٤٨١م ، وكان ذلك بمثابة تهديد مباشر للكاثوليكية ،ولولا وفاة الفاتح آنذاك لتم الاستيلاء على ايطاليا ولتغير وجه التاريخ٠

تولى بايزيد الثانى - اكبر ابناء السلطان محمد الفاتح - العرش بعد وفاة والده ،وهاجمت قواته بلاد المورة (Morea) ،وكانت تحت سيطرة البندقية ،وهزم اسطولها واضطرت أن تجنح الى السلام مع العثمانيين ، الذين منحوا البندقية امتيازات تجارية ،مقابل أن تتخلى الدولة العثمانية على موانئ المورة ومن ضمنها ميناء ليبانتو (Leparto) ،وأثبتت هذه الحرب التى تحالف فيها مع البندقية ملك هنغاريا ،أن الاسطول العثمانى قد نمت قوته الى حد القدرة على تحدى البندقية فى البحار المفتوحة ومعنى ذلك تأهيل البحرية العثمانية لمشروع الاندلس ٠

استولت القواتالعثمانية على ولاية الهرسك ،حيث استسلمت دون مقاومة تذكر و وضمت الى املاك الدولة العثمانية ،ثم نفذ السلطان بايزيد عملياته الحربية فى البلقان ،مثبتا وممكنا النفوذ العثمانى على المناطق التى لم يسبق فتحها ،ثم قام بايزيد بشن غاراته على الهابسبرج ليؤمن حدوده ،ثم شق طريقه بغزو مولدافيا (Moldaivia) ،ثم ارسل جيشه الى غاليسيا (Galicia) الا ان هذا الغزو توقف بسبب الطقس الشتوى الصعب ،ووعورة الطرق ٠

فزعت اوروبا كلها من التقدم السريع وتسامع اهلها بسقوط عواصم اوروبا الشرقية والوسطى الواحدة بعد الاخرى ،وسرت خشية رهيبة من

أن يتابع العثمانيون امتدادهم نحو اوروبا فيستولوا على ايطاليا كما استولوا على اليونان ويهددوا الكاثوليكية فى عقر دارها ،وساور الاوروبيين القلق على مستقبلهم وبدأ الملوك والامراء يفكرون فى بذل المعونة والوقوف فى وجه التقدم العثمانى الاسلامى ، اذ استفاقت المسيحية من ثبات نومها ،فاذا بها تقف امام الخطر الكبير الذى هدد كيانها فى الشرق الاوروبى واحست به الشعوب الاوروبية احساسا دينيا بسبب ما كانت تعلنه الكنيسة فى ذلك الوقت من حرب صليبية عنيفة على المسلمين فى اسبانيا وتحثهم على شن الحرب الاخيرة ضد غرناطة ،وحماية الجناح الغربى للعالم المسيحى ولاسيما بعد أن سيطر العثمانيون على شرق البحر المتوسط وظهور طلائع المجاهدين العثمانيين فى حوضه الغربى ،وذلك من اجل انقاذ اخوانهم فى الاندلس .

لم يحمل الاتباع الاوائل للنبى العقيدة الاسلامية للشام وآسيا الصغرى فقط ،ولكن حملوها الى السواحل الشمالية لافريقية ،مكتسحة امامها الحضارة التى تركتها روما هناك ،ثم عبرت مضيق جبل طارق وتغلبت على اسبانيا وهددت فرنسا ،هذا التيار الاسلامى قد فقد قوته [1] وحيويته عندما بدأت الممالك المسيحية تتحد فيما بينها مكونة ما يعرف باسم الدولة الحديثة فاتحدت قشتالة وارا غوان فى مملكة واحدة - اسبانيا - كما أوضحنا من قبل ،ووجهوا اهتمامهم نحو انهاء الوجود الاسلامى فأخذت الممالك الاسلامية تتساقط فى ايديهم تباعا ،ما عدا غرناطة التى قاومت المسيحية زمنا ليس بالقصير .

لعل من اهم الاسباب التى أدت الى زيادة التدهور فى غرناطة هو النزاع بين امراء الاسرة الحاكمة مما أفسح المجال لتدخلات ملوك قشتالة ومناصرة فريق على آخر والعمل على اضعاف الفريقين .

1- A.J.Grant : A History of E urope from 1494-1610 P.209.

وما كادت غرناطة تسقط بيد فرديناند وايزابيلا حتى بدأت موجة الاضطهادات العنيفة ضد السكان فقد اصدرت السلطات الاسبانية قرارها بأن يغادر اليهود الذين لم يتنصروا اراضى قشتالة خلال اربعة شهور وعوقب المخالفون بالموت ولم ينج من ذلك حتى اليهود الذين اعلنوا تنصرهم ولقى المسلمون فى نواحى قشتالة واراغوان نفس المصير فى وقت سابق ثم جاء دور سكان غرناطة الاضطهادى بعد ذلك حيث اكره السكان على تغيير معتقداتهم وانيطت مهمة من يتهم بالزيغ والمروق الى محاكم التفتيش الدينية التى ملأت بهم السجون حيث التعذيب الوحشى والتى تقذف بهم جموعا اثر جموع فى محارق النيران .

اراد الملكان الكاثوليكيان انهاء الوجود الاسلامى فى شبه الجزيرة الايبرية وذلك بدمج الموركسيين بالمسيحيين ولكن ذلك الشىء صعب تحقيقه فمثلا من الصعب على موريسكى وسيدة مسيحية أن تعايشا معا تحت سقف واحد حتى لو كانا متحدين برباط الزواج ذلك ان المسيحى يعرف جيدا المعتقدات السرية لقرينه ولن يتردد تحت ضغط محاكم التفتيش أن يكشف عن جريمة الكفر .

وتوجد ملابسات اخرى تجعل من الصعب على الموريسكيين والمسيحيين التعايش معا ،ونعنى بذلك محيط السجن ،ذلك ان الاختلاط نفسه يعنى أنه يمر شىء دون ان يشاهد من طرف الاخرين فى السجن الجماعى وحيث يعتبر كل شىء سببا للاثارة وهذا ما لوحظ باحد السجون حيث تكونت وبصورة تلقائية مجموعتان متنافستان تبحثان دوما عن اثارة النزاع فقد كان الموريسكيون، يسحبون القش من فراشهم ويصنعوه على شكل صليب ويرموه فيه بعد تحت اقدامهم مظهرين الازدراء والاحتقار ، اما المسيحيون فانهم يجدون من ناحيتهم متعة بقلى واكل لحم الخنزير علانية ،ونتيجة لذلك فان الطرف الموريسكى ينشغل بالحديث فيما بينهم حتى لا يشاهد اكل الخنزير

وانه كلما شوى هذا اللحم فانهم يسدون انوفهم حتى لا يستنشقوا رائحته وتصل هذه الاخبار الى علم محاكم التفتيش فتزيد فى تعذيب الموريسكيين[(١)].

تيبين من خلال ذلك مدى تمسك المسلمين بدينهم وعقيدتهم على الرغم من محاولة السلطات الاسبانية صهر المسلمين فى بوتقة المسيحية ،وكان لتلك الاحداث صداها فى الدولة العثمانية ، اذ تغيرت استراتيجيتها فبعد أن كانت تهدف الى انقاذ المسلمين فى الاندلس ،والذين كانوا يلاقون التعذيب من قبل السلطات المسيحية ، بالاضافة الى نشر لواء الاسلام فى القارة الاوروبية اثناء عبورهم الاندلس تحولت تلك الاستراتيجية بعد سقوط غرناطة وصارتمهمة الدولة استرداد الاندلس وعلى ضوء ذلك اخذ المسوءلون فى الحكومة العثمانية يضعون الخطة اللازمة لذلك .

اتفق السلطان بايزيد الثانى والاشرف قيتباى لتوحيد الجهود من اجل استرداد الاندلس ووضعا خطة مشتركة وذلك بأن ترسل الدولة العثمانية اساطيلها لغزو صقلية الاسبانية ليهدد فيها فرديناند وايزابيلا،وأن تقوم الجيوش البرية المصرية بعبور البحر من جبل طارق الى اسبانيا .

وبعث السلطان بايزيد باسطوله الى الشواطىء الاسبانية بقيادة كمال رايس الذى انزل الرعب فى الاساطيل المسيحية ،كما شجع السلطان بايزيد المجاهدين المتجهين للاندلس لمناصرة اخوانهم على العدو المشترك بينما اكتفى السلطان المملوكى بارسال خطابات الىالبابا فى روما والملكان الكاثوليكيان فرديناند وايزابيلا ،يطلب منهم رفع الاذى عن المسلمين ،الا أن السياسة الاسبانية سارت فى طريقها المرسوم ولم تمنعها رسائل السلطان المملوكى ولعل فى هذا رد على هوءلاء الذين يزعمون أن الدولة لم تسع الى التعاون مع الدولة المملوكية .

---

(١) لوى كاردياك : الموريسكيون الاندلسيون والمسيحيون ،ص ٢٠ - ٢١ .

لما كانت البرتغال تملك شاطئا كبيرا يبلغ طوله حوالى ثلاثمائة ميل به كثير من الموانى العميقة المحمية فقد توفرت لدى البرتغاليين الفرصة لبناء مجد بحرى لهم وللمسيحية بصفة عامة [(١)].

توجهت الجهود البرتغالية آنذاك لمواصلة الحرب المقدسة بالاغارة على السواحل الافريقية فقد كان من أهداف البرتغاليين الاحاطة بحرا بالمغاربة ومواصلة القتال ضد المسلمين والاتصال بالملك المسيحى فى الحبشة (Presto Joan) لمعاونتهم فى تحقيق أغراضهم السياسية والتجارية والدينية فقد كان من أعز أمانيهم نشر المسيحية والتبشيرلها.

وكان الغرض الاخير جاعلا المستكشفين البرتغاليين يتركون آثارا تدل عليهم وتدل عليه فى نفس الوقت فقد كانوا يقيمون صلبانا أو أعمدة تحمل صلبانا واحيانا كانوا يحفرون هذه الصلبان فى قشور الاشجار وعلى جزوعها أو يقيمون اعمدة من الاحجار ثم يحفرون الصلبان فيها ،كما كانت كتاباتهم على هذه الشواهد تنتهى بصليب فى اعلاها .

ولعل نظرة فحص دقيقة فى ذلك اللقب الذى حمله ملوك البرتغال انفسهم فى ذلك العصر تظهر لنا الاهداف الرئيسية المختلفة التى وضعها هوءلاء نصب أعينهم ، اذ كان الملك يتلقب بلقب (سيد الملاحة والفتح والتجارة فى جزيرة العرب) .

(Lord of the Navigation conquest and commerce of Aribia)

وفى الكلمات الاخيرة يكمن الهدف الدينى .

كان استيلاء الامير هنرى الملاح على ميناء سبتة ،حملة صليبية بالمعنى المحدود وامتدادا لما سبقها من حملات متشابهة ،وداعبت خياله

---

(١) محمد عبد اللطيف البحراوى : فتح العثمانيين عدن ،ص ٥٣ .

مشاريع خطيرة ، اذ كان يأمل الاطباق على العالم الاسلامى عن طريق قيام تحالف مع الحبشة ،يهدف الى قيام الاحباش بهجوم من الجنوب فى الوقت الذى تزحف فيه قواته من الشمال ،ولكن بقى اقتراحه فى عداد الامنيات .

ان عزم الامير هنرى الملاح فى مواصلة كفاحه الدينى قاده الى الامر باستطلاع الساحل الغربى للقارة الافريقية املا فى الوصول من هناك الى المشرق الاسلامى لغزوه روحيا وماديا واستمرت السلطات البرتغالية فى السير على منهج هنرى الملاح فى ذلك المجال بعد وفاته كما أوضحنا .

وهكذا ما كادت شمس القرن العاشر الهجرى ، الخامس عشر الميلادى تؤذن بالمغيب حتى كانت الافاق مفتحة والاذهان مستنيرة ،وأشرف العالم على تنافس قاتل فى ارتياد البحار وارتبطت مشروعات البرتغاليين الصليبية بالحبشة ارتباطا وثيقا .

ان اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ادى الى نتائج خطيرة فى علاقات الشرق والغرب فى اوائل القرن السادس عشر فبالاضافة الى الأهمية الاقتصادية فانه فتح فصلا جديدا فى تاريخ الصراع بين المسلمين والمسيحيين ، اذ تمكن البرتغاليون من انزال خسائر جسيمة فى الاسطول المملوكى ولعل من اهم حوادث الصراع بين البرتغال والمماليك هو انتصار القوات المملوكية على البحرية البرتغالية فى أول الأمر ،الا أن المماليك لم يلبثوا أن تلقوا هزيمة قاسية من البحرية البرتغالية فى ديو ،وتمكن البرتغاليون على اثرها من توطيد نفوذهم على نقاط على الساحل الجنوبى الشرقى لشبه الجزيرة العربية وبعض المراكز فى القرن الافريقى ،ومن تلك النقاط المسيحية اخذ البرتغاليون فى الاتصال بالحبشة ،كما قاموا بعدة محاولات لتهديد الاماكن المقدسة الاسلامية فى مكة والمدينة ووصل الخطر الصليبى لاول مرة فى التاريخ على الحدودالجنوبية للعالم الاسلامى .

استولى الصفويون على العراق ،وقام الشاه اسماعيل الصفوى باضطهاد اهل السنة واخذ يبحث عن التحالف مع البرتغاليين ، اذ عرض عليهم تقديم كل العون والتأييد فى احتلال بعض المناطق فى الخليج ،مقابل أن تمد البرتغال الشاه بالاسلحة المتطورة ليمنع العثمانيين من التقدم فى المشرق ولم يكتف الصفويون بذلك بل تحالفوا مع البندقية للهجوم سويا على الاناضول لانهاء الوجود العثمانى هناك وليعم المذهب الشيعى تلك المنطقة ٠

امام تلك الاخطار التى احدقت بالعالم الاسلامى من حدوده الجنوبية وقفت الدولة العثمانية فى مفترق الطرق ،هل تستمر الدولة العثمانية فى خطتها الاساسية بالتقدم فى القارة الاوروبية لنشر لواء الاسلام فيها ،ومن ثم استرداد الاندلس وانهاء دولة اسبانيا والبرتغال ؟ لكن سبق وان صادف الجيوش العثمانية عوائق كبيرة منها صعوبة الطقس ووعورة الطرق مما شكل عائقا نحو التقدم العثمانى ،لذلك لابد من ا يجاد طريق آخر ،اذا رغبت الدولة الاستمرار فى خطتها لاسترداد الاندلس ،او تترك ذلك المشروع ،على الاقل موءقتا لتواجه الاخطار الجسيمة التى أخذت تحيط بالعالم الاسلامى بتهديده من حدوده الجنوبية ؟ لقد كان موقفا حرجا واختيارا صعبا واجهه السلطان العثمانى فى ذلك الوقت ٠

لقد اعتبر العثمانيون انفسهم جزء من العالم الاسلامى وان واجبهم بالاضافة الى نشر الاسلام ،الدفاع عن الاقاليم الاسلامية ضد الاخطار والهجمات الخارجية ،واعتقدوا أنهم أقدر من الممالك الاسلامية الاخرى مثل الصفويين والمماليك على الدفاع عن المنطقة وتوحيدها فى صف واحد قوى ،واستخدام العثمانيون السيف وسيلة لتوحيد العالم الاسلامى بأقاليمه فى دولة واحدة اى ان المسألة قد وصلت الى مرحلة معركة حول قيادة المنطقة ووحدتها ٠

تقدم الاتراك العثمانيون بقيادة السلطان سليم الاول زاحفين نحو الشرق فهزموا القوات الفارسية فى موقعة تشالديران ٩٢٠هـ / ١٥١٤م،ودخلوا

عاصمتهم تبريز ،ولكن السلطان لم يرغب فى القضاء على قوة الصفويين نهائيا نظرا للارتباط الدينى الذى يربطهم كما أنه لا يريد التوسع الصفوى ان يسيطر على بقية الاقاليم العربية ،وخاصة الاماكن المقدسة الاسلامية فى مكة والمدينة والقدس ،ومن ثم يعم المذهب الشيعى ارجاء العالم الاسلامى ويكون المذهب نفسه المسيطر على الحياة العامة للمسلمين .

دخل الاتراك العثمانيون بعد ذلك القاهرة عام ٩٢٣هـ / ١٥١٧م وكان ذلك فى حد ذاته يمثل تحولا جديدا فى تطور الاحداث التاريخية فى القرن السادس عشر الميلادى داخل العالم العربى وعلى الرغم من كافة الاسباب التى ذكرها المؤرخون فى تفسيرهم لاسباب تحول العثمانيين من اوروبا الى المشرق العربى ،الا اننا نستطيع أن نؤكد أن وصول الاتراك الى مصر والشام امر كان لابد منه فى هذه الظروف ،ذلك لان الدولة العثمانية قد هددت اوروبا فى الشرق ،وبوصول البرتغاليين للمحيط الهندى ،صار العالم الاسلامى كله مهددا من الناحية الجنوبية وكان على الدولة العثمانية ضرورة حماية هذا العالم ممن طرقوا ابوابه الجنوبية ،ولن يتطرق بنا الحديث لتفسير ما حدث بين العثمانيين والمماليك ،فمجمل القول ان العالم الاسلامى كان يحتاج فى تلك الفترة الى قوة تنبع بالحيوية والنشاط ، لتحميه من تلك الاخطار .

ومعنى هذا ان الدولة العثمانية تحولت نحو الشرق العربى لتحميه من الاستعمار الاوروبى وكان ضمها للشام ومصر والحجاز وبقية هذا المشرق هو بناء حزام امن حول الحرمين الشريفين وهنا نتساءل كيف جروء بعض المؤرخين على تفسير ذلك بأنه استعمار عثمانى ،مع ان الدولة أتت للمشرق العربى لحمايته من الاستعمار الاوروبى .

ونضيف الى ذلك سوءال نتجه به الى هوءلاء المؤرخين وهو ما معنى الاستعمار ؟
والاجابة على ذلك السوءال هو الاستغلال واستعباد الشعوب لتحقيق هذا الاستغلال فهل كانت الدولة العثمانية فى كل فتوحاتها تهدف الى الاستغلال ؟

ان الاجابة على ذلك هى من واقع النظم العثمانية التى تؤكد بما لا يدع مجالا للشك ،أن الدولة فى كل تحركاتها كانت تهدف فقط الى نشر الاسلام ،او استرداد جزء من ممتلكاتها المفقودة او حماية اجزاء هددها الاستعمار الاوروبى •

كان المغرب العربى يقاسى فى نفس الفترة التى امتدت فيها انتصارات العثمانيين فى البلقان والمشرق العربى من هزات عنيفة اصابته فى الاندلس وعلى سواحله الطويلة الممتدة جنوب الحوض الغربى للبحر المتوسط ،لقد كان سقوط غرناطة فى ايدى المسيحيين نقطة تحول خطيرة فى تاريخ هذا الاقليم الاسلامى ،اذ تطور الاضطهاد المسيحى للمسلمين فى الاندلس وزادت قسوته فحرم عليهم بيع الحرير والذهب والفضة والاحجار الكريمة وامروا ان يسجدوا فى الشوارع عند مرور كبير الاحبار وسلطت عليهم اقصى انواع العقوبات اذا لوحظ عليهم بعض الولاء الى ماضيهم او التعلق بدينهم فى ابسط مظاهره وعاداته ،استمرت تلك المحنة سنوات طويلة ،وتوالت هجرات الاندلسيين الى بلاد المغرب العربى والمشرق الاسلامى خلال تلك الايام السوداء ناقلة معها فى اول الامر علمها وفنها وأدبها واختصاصها وناقلة فى آخر الامر بؤسها وشقاءها •

تتبعت الحكومة الاسبانية الموريسكيين فى مهجرهم الجديد فى الشمال الافريقى وذلك خوفا من تلقيهم مساعدات حربية من اخوانهم فى الدين سكان الشمال الافريقى ومن ثم يعملون على الانتقام من الاسبان الذين اخرجوهم من ديارهم ،لذلك قام الاسبان بالنزول على السواحل الافريقية الشمالية للانتقام من مراسيها •

كما أن التعصب الدينى والرغبة الجامحة فى محاولة تنصير المسلمين والرغبة فى ابعاد حدود الاسلام كل ذلك حذا بالاسبانيين الى غزو البلاد الاسلامية فى الشمال الافريقى فاصطبغت حروبهم بصبغة الصليبية

وذلك نظرا للدور البارز الذى قام بأدائه رجال الكنيسة من اجلها فالكنيسة باسبانيا قد اهتمت بجميع ما لديها من الحماس بهذه المعركة ضد المسلمين بل ان الكنيسة قد ارادت فى الكثير من الاحيان اعتبار هذه المعركة معركة خاصة بها (١)

فشلت القرصنة المسيحية فى آداء مهمتها فى غرب البحر المتوسط كما فشلت فى الاستيلاء على مراكز الغارات الاسلامية فى الشمال الافريقى وذلك بسبب نشاط المجاهدين المسلمين ونجاحهم فى الدفاع عن اراضيهم كما اتضح ذلك فى الفصول السابقة ،ولم يكن ذلك الفشل بسبب طبيعة الارض وقلة كفاءة الجيوش الاسبانية ذلك لانه بالامكان التغلب على الصعوبات الطبيعية الكبيرة ،اذا اخذت قشتالة وسيلة اخرى اكثر فعالية فى محاربة شمال افريقيا فمن الناحية العملية اتجه الوضع الى اعتبار هذه الحرب امتدادا لحرب غرناطة ،وهذا يدل أن الاسبان اعتبروا الحرب الموجهة للشمال الافريقى حملة تأديبية ، الغرض منها الاستيلاء على الغنائم واقامة المراكز الحربية ،ولم تكن لديهم خطة مدروسة لمشاريع استعمارية ومع كل ذلك كان شمال افريقية طوال القرن السادس عشر الميلادى جوهرة ثمينة تهفو اليها اسبانيا عبر البحار ،واختفى ذلك الفشل فى شمال افريقيا عند استبداله بنوع آخر من الحرب التقليدية بعد أن حقق للاسبان نجاح باهر فى مشروع اكثر روعة ألا وهو الانتشار فى عالم جديد .(٢)

ان النجاح السريع الذى عرفته الدولة العثمانية فى كل من اوروبا وآسيا وافريقيا ومدى الانتصارات الحربية التى حققها السلاطين العثمانيون على الجيوش الاوروبية المتحالفة آنذاك وسقوط عدد من العواصم الاوروبية

---

(١) احمد توفيق مدنى : حرب الثلاثمائة سنة ،ص ٨١ .

2- J.H.Elliott: Imperial Spain P.P. 43 - 44 .

قد دفع بالمجاهدين الجزائريين وعلى رأسهم خير الدين باربروسا الى التفكير بضرورة ضم الجزائر الى الدولة العثمانية وان تكون جزء من اراضيها المترامية الاطراف فكتبوا للسلطان العثماني يعرضون عليه رغبتهم تلك ولم يتأخر كثيرا جواب السلطان فقد اعلم خير الدين واهل الجزائر بقبول رغبتهم وانه قرر أن يشمل الجزائر برعايته وتكون مشتركة مع الدولة العثمانية فى الجهاد ضد المسيحية واسترداد الاندلس ،ومنح خير الدين لقب بايلربك ،وبذلك قام نظام بيلربك فى الجزائر ،وهذا يدل دلالة قاطعة على ادراك الدولة لاهمية الجزائر لاسترداد الاندلس لان هذا النظام كان يقوم عادة فى اطراف الدولة التى يراد التقدم منها لفتح اجزاء تالية .

اخذ خير الدين فى الاستعداد لمواجهة الخطر المسيحى وصار بذلك الحارس الامامى للدولة العثمانية فى غرب البحر المتوسط وصارت تسنده جميع قوات هذه الدولة فى صراعه مع الغرب ،فكان مجىء العثمانيين الى شمال افريقيا كان نجدة انقذت البلاد من الغزو والاستعمار الاوروبى وعملت على توحيد البلاد سياسيا وقد رحبت معظم طبقات السكان بمجىء العثمانيين ما عدا اصحاب النفوذ الاقتصادى والسياسى وبعض الولاة والقواد فقد ظهر لديهم رد فعل ضد العثمانيين لخشيتهم من أن يفقدوا مصالحهم السياسية والاقتصادية و كان ميل العثمانيين مع رجال الدين والعامة قد اضر بمصالح بعض الامراء والولاة والقواد الكبار فكان هذا الموقف سببا فى ثورة بعض هؤلاء الاعيان غير ان سياسة العثمانيين لم تكن هى حكم البلاد المباشر بل الحكم بواسطة اهل البلاد انفسهم ، اذ امتازت جبهة الشمال الافريقى عن جبهة المحيط الهندى بقربها من المراكز الرئيسية للامدادات ، فى مصر وتركيا اضافة الى اطلاع المسئولين بصورة متتابعة على الاحداث والتطورات بعكس المحيط الهندى الذى لا تصل اخباره الا بعد فترة طويلة .

ان المظهر الجهادى للوجود العثمانى فى الجزائر ثم استمرار التهديد

الاجنبى قد طبعا الحكم العثمانى بالحذر الدائم من الخارج وكان لهذا اثره على الحياة العامة فرغم تصفية الوجود الاسبانى من مدينة الجزائر وجيجل وبجاية وعنابة ومستغانم ودلس فانه ظل قائما فى وهران والمرسى الكبير اذ عمل الاسبان على تدعيم وجودهم هناك بالتحصينات والعدد والعدة ،وكان الاسبان بعد ان فشلوا فى تحالفهم مع آخر ملوك بنى زيان واستيلاء العثمانيين على تلمسان بعد ذلك قد بدأوا فى التحالف مع بعض الجزائريين المقيمين حول مدينة وهران كبنى عامر ،والذين اجبرتهم الظروف الاقتصادية على التعامل مع الاسبان وكان هذا نوعا من محاولة لمد النفوذ الاسبانى داخل البلاد مما اقلق السلطة العثمانية والسكان فظهر الجهاد البرى الخاص الى جانب الجهاد البحرى .

كان الموريسكيون قد ازدادا خطرهم بعد اتصالهم بالعثمانيين فى الجزائر وتلقيهم مساعدات عسكرية فاخذوا يغيرون معا على الموانى الاسبانية كما قاموا بمساعدة العثمانيين على اختطاف ابناء المسيحيين للدخول فى الانكشارية فيما بعد (١) كل ذلك جعل الاسبان يصرون على ملاحقة المسلمين اينما كانوا وذلك من خلال الحملات المتعددة وتشييد الحصون المعروفة باسم (Pegnon) أو (Torre) على ارض افريقيا الشمالية لوضع حد للغارات الاسلامية ولمراقبة الحركة البحرية العثمانية وقطع الطريق للمحاولات المتكررة التى ما فتئ المجاهدون القيام بها بنجاح لانقاذ المورسكيين من الاراضى الاسبانية كما كان هوءلاء يتصلون سرا برجال البحر المسلمين ويمدونهم سرا بالمعلومات اللازمة للقيام بحملاتهم بنجاح (٢) ،وخوفا من انتقال متاعب الموريسكيين الى الاراضى الجديدة فى امريكا الوسطى والجنوبية ،وتحسبا فى محاولة اعاقة اعتناق

---

(١) شكيب ارسلان : مرجع سبق ذكره ،ص ٢٩٧ .
(٢) عبد الجليل التميمى : مرجع سبق ذكره ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد (٣) ،ص ٣٩ .

الهنود الحمر للدين المسيحى فقد منع شارل الخامس الموريسكيين من دخول منطقة الهنود ولم يسمح لهم ولا لذريتهم ان يستقروا بالعالم الجديد ، دون ان يتحصلوا على اذن من الملك ومع ذلك فان الاسبانيين الذين حلوا بامريكا قد جلبوا معهم عبيدهم وتغافلوا عن التصريح بانهم من العرب العبيد .(١)

اشتدت الحرب ضراوة بين الدولة العثمانية واوروبا بزعامة اسبانيا واشتدت من جراء ذلك الحرب البحرية فزادت رغبة العثمانيين فى تحقيق هدفهم لاسترداد الاندلس ،ولتحقيق ذلك فقد بادر السلطان العثمانى سليمان القانونى باسناد خطة قبودان باشا الى خيرالدين باربروسا وبذلك كان اول وزير للبحرية العثمانية وفى هذا ايضا برهان على اهتمام الدولة باسترداد الاندلس ،وتحويل البحر المتوسط الى بحيرة اسلامية .

نظم خير الدين بربروسا ومن خلال منصبه الجديد الاساطيل العثمانية واخذ فى ادخال العديد من التحسينات على السفن الحربية وزاد فى عددها وكانت البحرية العثمانية فى هذه الحقبة فى عصرها الذهبى ،بعد ذلك شن غارات منظمة على جزر البليار لانقاذ الموريسكيين وتقديم المساعدات العسكرية لهم ثم عمل فى تحرير عدد من الموانى الاسلامية فى شمال افريقيا مستعينا بقاعدته فى الجزائر لذلك قام شارل الخامس بعدة محاولات للاستيلاء على بعض الحصون فى تونس والجزائر مستغلا انحياز بعض السلاطين الحفصيين بجانبه الا انه لم يفلح فى تحقيق هدفه امام اصرار المجاهدين الملسمين بقيادة خير الدين الذى اخذ فى الاغارة على سواحل اوروبا الجنوبية مهددا الجزر الايطالية بعاصمتها روما ،ثم استولى على طولون ونيس فى طريقه نحو الاندلس فاقلق هذا العمل المسيحية جمعاء وفى مقدمتهم اسبانيا وظل خير الدين مجاهدا للمسحيين حتى وفاته .

---

(١) لوى كارولياك : مرجع سبق ذكره ،ص ١٤٧،١٥١ .

اسند السلطان العثمانى سليمان القانونى رتبة باى لرباى الى ابن خير الدين بربروسا حسن الذى ولد فى الجزائر من ام جزائرية وتثقف على يد علماء الجزائر وكان حسن بن خير الدين محبوبا بين السكان [1] ،لذلك بادر السلطان باسناد ذلك المنصب الهام اليه وتقديرا لاعمال والده ٠

استطاع حسن بن خير الدين ان يسجل انتصارا كبيرا فى بداية حكمه على الاسبان فى مستغانم ،وبعد استقراره فى الجزائر ،جهز حسن بن خير الدين جيشا كبيرا ليخلص وهران من يد الاسبان وليفتح بذلك الطريق الى الاندلس ،وفى طريقة نحو وهران استولى الملك السعدى محمد المهدى مدينة تلمسان ثم اتجه نحو مستغانم ،واحتلها ثم اتجه نحو الجزائر وهددها تهديدا مباشرا ٠

غير المجاهدون العثمانيون وجهة طريقهم فوجوا نيرانهم نحو السعديين والتقى الجيشان العثمانى والسعدى عند نهر الشلف ،واستطاع العثمانيون الحاق هزيمة ساحقة بالسعديين ،واسترجعوا مستغانم ثم تلمسان٠

كانت سياسة حسن بن خير الدين قد سارت على نفس نهج والده ،والتى كانت ترمى الى وحدة البلاد وارساء اركان الدولة على اسس متينة وتحصين الثغور لصد العدو ثم العمل على استرجاع المدن الجزائرية بجاية ووهران من يد الاسبان لتسير بعد ذلك جماعات المجاهدين ويكونوا مددا لبقايا مسلمى الاندلس ليقهروا اسبانيا لاقامة دولة اسلامية جديدة ٠

اخذ حسن بن خير الدين يعمل نحو تحقيق تلك الاهداف فهيأ الاسطول الاسلامى لمهاجمة اسبانيا ،وبينما هو كذلك وصل السفير الفرنسى وعرض على حسن اعانة فرنسا له باسطولها ورجالها من اجل غزو اسبانيا

---

(١) ابو القاسم سعد الله : مرجع سبق ذكره ،ج١ ،ص ١٣٨-١٣٩٠

لكن حسن بن خير الدين رفض هذا الغرض ،موضحا انها قضية جهاد اسلامي لا يدخل فيها غير المسلمين .

قرر السلطان العثماني دعوة حسن بن خير الدين الى استانبول وعين مكانه صالح رايس وكان صالح رايس معروفا لدى المجاهدين العثمانيين فهو من الرجال الذين رافقوا عروج وخير الدين بربروسا فى جهادهم ضد المسيحية وامتاز بحسن قيادته فى البحر وبمواقفه البطولية بالاضافة الى دقة نظره فيما يتعلق بنظام الادارة ،وقوبلت توليته منصب بيلربك بابتهاج عام .

هدفت سياسة صالح رايس الداخلية الى تحقيق الوحدة بصفة تامة بين كل اجزاء الجزائر ،وادخال بقية الاجزاء الصحراوية فيما يلى الزيبان ضمن هذه الوحدة ،اما سياسته الخارجية فقد استهدفت الى ابعاد الاسبان نهائيا عن الشمال الافريقى ووضع حد فاصل لاعتداءات السلاطين السعديين الذين لم يتورعوا بالاستعانة بالقوى المسيحية فى سبيل تحقيق مصالحهم الشخصية اى ازالة اهم العوائق التى تعوق الاسترداد ،ثم اعلان نفير الجهاد العام والسير برا وبحرا على رأس الجيوش الاسلامية الى بلاد الاندلس ،وهى التعليمات التى تلقاها من السلطان العثمانى فى بداية توليه منصب باى لرباى الجزائر .

بدأ صالح رايس اولا بتوحيد الجبهة الداخلية ،فضم من جديد الى الوحدة الجزائرية امارة توقرت ،وامارة بنى وارجلان (ورقلة) ،ثم اتجه الى غزو اسبانيا وفى اثناء ذلك ظهر ابو حسون الوطاسى الذى تعهد بالاعتراف بالدولة العثمانية ومساعدة العثمانيين فى تجهيز الجيوش لمباشرة غزو اسبانيا مع صالح رايس ،مقابل ارجاعه الى حكم مملكته .

جهز صالح رايس الجيوش العثمانية وسار فى مقدمتها نحو فاس فدخلها

ومكث بها اربعة شهور بعد ان رتب امورها ثم اتجه بعد ذلك نحو بجاية واستطاع ان يخلصها من الاسبان كما خلص مدينة التل بعدها وطهر اثر الاحتلال الاسبانى من الساحل الشرقى الجزائرى .

وجه صالح رايس ومن معه من المجاهدين اهتمامهم الى ناحية وهران وما حولها لانقاذها من يد الاسبان ثم الاستعداد للوثبة الكبرى نحو الاندلس ،لكن الشريف السعدى قويت شوكته واستطاع أن يستعيد فاس ،ثم عمل مع الاسبان ضد الدولة العثمانية وذلك لاخراج العثمانيين من الجزائر وتقسيم الممتلكات العثمانية هناك .

علم السلطان سليمان القانونى بتلك المفاوضات بين السعديين واسبانيا وقرر مهاجمة وهران واحتلالها فارسل الى صالح رايس مددا بحريا موءلفا من اربعين سفينة وعلى ظهرها آلاف المجاهدين وذلك اعانة على هذا الزحف فسارت جيوش المجاهدين نحو وهران ، الا أن صالح رايس توفى فى تلك الاثناء وحمل الرايةمن بعده القائد يحيى الذى واصل زحفه وابحاره نحو وهران ، الا أنه لم تفتح وهران رغم شدة الحصار الذى فرضه العثمانيون.

اسرع السلطان السعدى اثناء عودة الجيوش العثمانية من وهران وارسل جموعه نحو تلمسان واحتلها منتهزا فرصة غياب الجيوش العثمانية واضطر السلطان العثمانى الى اعادة حسن بن خير الدين الى الجزائر فارجع الى الادارة نظامها ثم عزم على استئناف الجهاد وانجاز مشروعين عظيمين ،تطهير الجزائر من الاسبان ،والاتجاه الى الاندلس .

فسار أولا بجيشه الى تلمسان لارجاع السعديين الى حدود بلادهم ونجح فى ذلك ووصل الى مدينة فاس ثم اضطر الى العودة خوفا من ان يقطع الطريق عليه بعد أن سمع بتحرك الاسبان فى وهران ،ثم استطاع حسن ان يحقق انتصارا كبيرا على الاسبان فى مستغانم وأراد بعد ذلك أن يستغل فرصة ذلك الانتصار ،لتصفية وهران ، وجرت معارك كبيرة انتهت

بعدم تحقيق العثمانيين لهدفهم وفى تلك الاثناء استطاع العثمانيون من تحرير جزيرة جربة ومن قبلها طرابلس الغرب ٠

وهكذا تعددت العوائق امام بيلربكية الجزائر العثمانية واخذت هذه العوائق تنمو بمضى الزمن والدولة تحاول جاهدة ان تتخطاها لتحقيق هذا المشروع العظيم ، استرداد الاندلس ٠

ومع ذلك قامت عدة محاولات محدودة من قبل عثمانيين هى اشبه بما نسميه اليوم حروب العصابات ،بمساعدة الموريسكيين تناقلتها بعض المصادر ومن ذلك أنه فى ربيع اول ٩٧٤هـ / سبتمبر ١٥٦٦م كان جابى محاكم التفتيش والمأمور القضائى يجوبون اسقفية قاوش (Cadis) والمرية (Meria) لايقاف المتهمين ثم قضوا ليلتهم فى احد بيوت مدينة طابرناس (Tabernas) وفى معيتهم احد الموريسكيان الموقوفين ،وفى الصباح استفاقوا على صوت طبل تركى وابواق وطلقات مدفعية ،واقتربت الاصوات من مسكنهم ،وكان يرشد العثمانيين احد مواطنى القرية حيث صاح فيهم " ان اصحاب محاكم التفتيش موجودون هنا " ،ولم يكن للجابى ومرافقه الا الهرب من اعلى المنزل فغادر بعدها العثمانيون حاملين معهم اسلحتهم ،وانضم اليهم عددا من الموريسكيين وكذلك عدد من الاسرى المسيحيين [١] ولعل ذلك يوضح مدى العلاقة بين الموريسكيين والعثمانيين الذين يعملوا دائما نحو انقاذ المسلمين مهما كلف ذلك من تضحية واستمرت الدولة على ذلك النهج حتى وفاة السلطان سليمان القانونى ٠

كانت السنوات الاخيرة من حكم السلطان سليمان القانونى قد شهدت بداية المشاكل الاقتصادية فأثارت الخوف خلال ما تبقى من القرن السادس

---

(١) لوى كاردياك : الموريسكيون الاندلسيون والمسيحيون ،ص ٨٥ ٠

عشر على الرغم من مقاومة السلطان لمحاولات البرتغاليين اغلاق ابواب التجارة الدولية عبر المشرق العربى ،بينما كان نقص المعادن النفيسة يوءدى الى انخفاض فى قيمة العملة المعدنية ،واكثر ما يثير الاعجاب هو أن النقص كان تأثيره على اوروبا اكثر بكثير من تأثيره على الدولة العثمانية وبالتالى فان النقص فى اوروبا رفع اسعار الذهب والفضة فى جميع انحاء القارة ارتفاعا هائلا (١) ،وكان لهذا صداه فى الدولة وعلى الاخص فى ممتلكاتها الاوروبية

ومن اسباب المشاكل الاقتصادية ايضا والتى وقعت فيها الدولة العثمانية هو ان الدولة كانت تضبط ميزانيتها اعتبارا من النوروز وهى اول السنة المالية اذ يقوم الدفتر دار بتخليص موارد الخزينة ومخاريجها من الروزنامجة (اى الدفتر اليومى) ،ومن باقى حسابات الاقلام التابعة له ثم ترتيب الموارد والمصاريف لمدة سنة مالية وبما أن الميزانية (او اجمالى الايرادات والمصروفات للخزانة حسبما يسميها الديوان) ميزانية سنة الدخل اى السنة الشمسية فانها اطول من السنة القمرية التى تعتبر اساسا للمصاريف لذلك كانت الدولة العثمانية كل ثلاث وثلاثين سنة تجد نفسها امام ميزانية اقرت فيها المصاريف فقط وليس لها دخل آخر لمواجهة تمويلاتها (٢) بمعنى اخر انه يوجد عجز مالى يبلغ مدفوعات سنة كاملة (٣) ،لذلك كانت الدولة تتجه احيانا الى انقاص قيمة العملة ،وكثرت المضاربات وتدفقت العملة الفضية الرخيصة من اوروبا الى الدولة العثمانية لاعادة بيعها نظير مكسب باهظ وشلت الحركة التجارية واستنزف الذهب من الدولة ونتج عن ذلك متاعب ،كما أدى الى ثورات الجند ، مما يضاف الى عوائق نجاح خطط الدولة المستمرة لاسترداد الاندلس .

1- Stanford Show : History of the Ottoman Empire P.107 .

(٢) تقوم الارض بدورتها حول الشمس فى سنة شمسية تعد ٣٦٥يوما وخمس ساعات و٤٩ دقيقة ،اما السنة القمرية فتتركب من ١٢ شهرا قمريا ،تكون بالتداول ما بين ٢٩ يوما و ٣٠ يوما توءلف فى مجموعها ٣٥٤ يوما و ٨ ساعات و ٤٨ دقيقة ،ويكون الفرق بين السنتين الشمسية والقمرية ١١ يوما ينتج منه خلال ٣٢ سنة : ٣٢×١١=٣٥٢ يوما اى ما يعادل سنة قمرية كاملة .

(٣) خليل الساحلى: سنو الازدلاف أو أزمان الامبراطورية العثمانية ،المجلة التاريخية المغربية ،العدد (١٢) ،ص ١٤٣ – ١٧٢.

لم تكن هذه الامور قاصرة على الدولة العثمانية لان الطرف الاخر وهو اسبانيا ،على الرغم من تدفق الفضة عليها من العالم الجديد فقد كان الامبراطور شارل الخامس قد فشل فى التحرر من اغلال النضال ضد الاسرة الحاكمة الفرنسية كما فشل فى النزاع الدينى السياسى فى المانيا علاوة على مشكلة ربط المستعمرات الامريكية باسبانيا لذلك واجه خلفه فيليب الثانى تلك المشاكل ،بالاضافة الى تمرد بلاد الاراضى المنخفضة اغنى الممتلكات الاسبانية الامر الذى اجبره على سحب افضل الوحدات العسكرية من البحر المتوسط سنة ٩٧٤- ٩٧٥هـ /١٥٦٦ - ١٥٦٧م ،لمواجهة ذلك التمرد (١)،ثم انشغل فيليب بالمشاكل الاقتصادية والتى تركها والده شارل الخامس نتيجة حروبه ضد الدولة العثمانية وضد البروتستانية فاضطر فيليب الثانى الى عقد معاهدة سلام مع فرنسا ثم حول جميع الديون والمتراكمة على الحكومة الاسبانية الى سندات مالية بفائدة .(٢)

تصدرت القضية الدينية قائمة اهتمامات فيليب الثانى فقد قاوم بشدة كل من لا يدين بالكاثوليكية وكان يهدف من وراء ذلك الى الوحدة الدينية حسب التعاليم الكاثوليكية ،لمواجهة المسلمين المتحدين فى الهدف والدين وكان هذا هو المحرك الرئيسى لكل اعمال فيليب الثانى اما فيما يتعلق بمسلمى الاندلس فقد اتبع سياسة هدفها تنصيرهم او تهجيرهم داخل شبه الجزيرة الايبرية .(٣)

شدد فيليب الثانى فى تنفيذ الاوامر ضد الموريسكيين وعزز الامر الصادر بهذا الشأن والمتعلق بتغيير الزى واللغة لاجل منع الطهارة

---

(١) 1- Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P.78 .

2- H.G.Korigsberber and Georg L. Mosse : Europe in the sixteenth centuryP.51.

(٣) محمد عبده حتامله : التهجيرالقسرى لمسلمى الاندلس فى عهد فيليب الثانى ،ص ٢١ .

التى هى من سنن الاسلام وذلك بأن اخذ يهدم الحمامات ،كما اخذ المسيحيون فى التعرض للنساء المسلمات فأثار ذلك المسلمين ،واستطار شرهم ،وعمت الثورة كل انحاء جبال البشرات سنة ٩٧٦هـ /١٥٦٨م ،ولما كانت هذه الجبال من اصعب تضاريس الارض مرتقى واوعرها مسلكا كان تدويخ سكانها من اصعب الامور منالا ،وكانت الفتنة فيها بعيدة المدى فاستمرت حولين كاملين اذ لعبت التنبوءات دورا هاما فى تهيئة حرب البشرات ،ذلك لان الموريسكيين كانوا متأكدين من مساعدة السلطان العثمانى .(١)

كان السلطان العثمانى قد بعث الى الاندلسيين فى ٢٤ شوال ٩٧٧ هـ / ٢٠ مارس ١٥٦٩م برسالة يطلب منهم عدم التراخى مع الاسبانيين " .. اننا نتوخى من خلال حميتكم الاسلامية المتأصلة فى جليتكم عدم التراخى عن اظهار غيرتكم على الدين المتين ،فلتظهروا انواع اقدامكم واصناف اهتمامكم فى الحرب والقتال ضد الكفار الاذلاء ... ولا تتوانوا عن اعلامنا باستمرار عن احوال واوضاع تلك الديار " (٢)،كما وجه السلطان العثمانى فى نفس الوقت اوامره الى بيلربك الجزائر قلج على وذلك فى ٢٣ شوال ٩٧٧هـ/ ١٩ مارس ١٥٦٩م يأمره بمساعدة الاندلسيين "... وعليك ان تعاون وتظاهر اهل الاسلام المذكورين بكل ما يتيسر تقديمه لهم وان الغفلة عن الكفار اصابهم الدمار غير جائزة فلتكن على بصيرة من الامر ،ولتظهر انواع اقدامك واصناف اهتمامك فى سبيل الامور المتعلقة بالدين المبين ،ودولتى الابدية ولا تتوانى فى اعلامنا باحوال واوضاع تلك الديار " (٣)

بعث قلج على اسطول الجزائر لمساندة المسلمين فى الاندلس وحاول انزال الجند العثمانيين فى الاماكن المتفق عليها ،لكن الاسبانيين كانوا قد عرفوا ذلك من قبل فصدوه عن النزول ،لم يأبه بذلك قلج على

---

(١) لوى كارداياك : الموريسكيون الاندلسيون والمسيحيون ،ص ٦١ .
(٢) دفتر المهمة رقم (٩) ص ٨٩ حكم رقم ٢٣١ ، ارشيف رئاسة الوزراء العثمانى.
(٣) " " " " ٧٧ " " ٢٠٤ " " " " .

وصمم على ارسال مدد جديد لمسلمى الاندلس ،وتمكن من انزال اربعة آلاف جندى بأسلحتهم ،بالاضافة الى ذخائر كبيرة ،وبعض القادة العثمانيين ،كما ارسل قلج على مددا جديدا من الرجال والسلاح اعانة للثورة الاندلسية ،وكان قلج على يرغب الذهاب بنفسه ليتولى قيادة الجهاد هنالك ،لكن اوامر السلطان العثمانى اقتضت بقاءه فى الجزائر استعدادا للحوادث المقبلة .(١)

كان المسلمون فى غرناطة يأملون كثيرا فى استرداد بلادهم ويوضحون ذلك لمحاكم التفتيش " ... لقد كانوا مسلمين وذكرت كتبهم وقصصهم ان هذه الارض (اسبانيا) سوف تفتح من جديد وان عرب المغرب سوف يفتحونها ،أن ساعة النجاة قريبة وسوف تأتى من شمال افريقيا ،وبجاية ووهران وسبتة سوف تفتح أولا ثم بعد ذلك سيتم من جديد غزو اسبانيا منتهجين نهج طارق ،وانه فى مضيق جبل طارق سيظهر جسر وبواسطته يجتاز العرب ويتمكنون من غزو اسبانيا حتى قاليسيا (Galicia) .

ان هذه التنبوءات تعبر عن اصل دينى وهى تؤكد ايضا الايمان بمصير سياسى محدد ،وهذان العنصران سوف يدمجان ليصلا الى حد الاقتناع بقرب انتصار الاسلام على المسيحية "... ان الاتراك بمعية جيوشهم سوف يتحولون الى روما وسوف لا يتم الا انقاذ المسيحيين الذين يعتنقون دين محمد ، اما الاخرون فسوف يؤسرون او يقتلون " ،ومن جهة اخرى ذكرت تنبوءات اخرى كذلك انه ستقع فضائح وسيتم تحالف بين عقيدة العرب وعقيدة المسيحيين ،والناس جميعا سوف يرجعون الى دين العرب " (٢).

شجعت تلك التنبوءات المسلمين فى البشرات ورفعت من معنوياتهم ،لذلك

---

(١) احمد توفيق مدنى : حرب الثلاثمائة سنة ،ص ٣٩٣ .

(٢) لوى كادرياك : الموريسكيون الاندلسيون والمسيحيون ص ٦١ ،٦٢ ،٦٤ .

ارسلت الحكومة الاسبانية لتدويخ الثوار فى البشرات الدون جون أخ فيليب الثانى فباشر القتال فى شتاء ٩٧٧ - ٩٧٨/١٥٦٩-١٥٧٠م وأتى من الفظائع ما بخلت بتنديده كتب الوقائع ،فذبح النساء والاطفال امام عينه ،واحرق المساكن ودمر البلاد ،وكانت شعاره (لا هوادة) ،وانتهى الامر باذعان الموريسكيين [1]،ولكن العوائق الاخذة فى النمو كما ذكرنا اعاقت الدولة عن انجاز مشروع استرداد الاندلس .

قامت الدولة العثمانية بغزو قبرص فى عام ٩٧٨-٩٧٩/١٥٧٠-١٥٧١م ،وبعد ذلك آخر الانتصارات العظمى للعثمانيين ،فالاستيلاء على هذه الجزيرة الحصينة جدا قد استلزم قطع خطوط المواصلات اقوى الاساطيل المسيحية فى البحر المتوسط ونقل جيش ضخم إلى الجزيرة والاحتفاظ به فى اراضيها ،هذا التصرف قد تحقق بالتعاون بين الانكشارية والبحرية ،وكان من اعظم انجازات الاسلحة المشتركة العثمانية ، وهذا الانتصار المحدود للدولة فى شرق البحر المتوسط قوى من الامل لدى الموريسكيين بينما زاد من خوف الاسبان ومن اضطهادهم لهم فى نفس الوقت .

ادرك البابا فى روما الخطر الاسلامى العظيم الذى يتهدد البلاد الاوروبية ،من جراء تدفق العثمانيين برا وبحرا واصرار الدولة على دخول اوروبا من جنوبها الغربى الى جانب تواجدهم فى جنوبها الشرقى ،فاخذ يسعى من جديد لجمع البلاد الاوروبية وتوحيد قواها تحت راية البابوية من اجل الوقوف فى وجه الاسلام واستطاع من جمع اسطولى اسبانيا والبندقية وبقية الجمهوريات والمانيا بالاضافة الى أسطول البابوية ،وتم عقد هذا الحلف فى كاتدرائية القديس بطرس .

استعدت المسيحية قاطبة ،تحت راية البابوية للقيام بمعركتها الحاسمة فاسندت قيادة اساطيلها الى الاميرال يوحنا الاستيرى ،فسار الى البحر

---

(١) شكيب ارسلان : خلاصة تاريخ الاندلس ،ص ٢٩٨ .

الادرياتيك وامام مدينة ليبانت اليونانية ، احتدمت نيران المعركة وكانت نتيجتها فى غير صالح المسلمين واستطاع قلج على ان ينقذ عددا من سفن المسلمين وبادر السلطان العثمانى على اثرها باسناد خطة قبودان باشا الى قلج على مع بقائه على منصبه كبيلربك للجزائر مثله فى ذلك خير الدين بربروسا وابنه حسن ،وكان هذا يدل دلالة واضحة على مدى رغبة الدولة فى استرداد الاندلس ،لان بيلربك الجزائر هم اعلم الناس باسبانيا واقدرهم على معرفة ظروف البحر المتوسط وتنفيذ خطة الدولة تجاه الاندلس .

اقبل قلج على بهمة ونشاط على تجديد الاسطول الاسلامى وتعويض ما فقد منه حتى ارتاعت البندقية من هذا الاستعداد فطلبت الصلح من الدولة العثمانية وتنازلت لها عن جزيرة قبرص ،ودفعت غرامة حربية كبيرة .

اذا كانت نكسة ليبانت (Lepante) قد احزنت الموريسكيين فان فتح تونس وحلق الوادى من طرف العثمانيين عام ٩٨٢هـ / ١٥٧٤م،قد سرهم وكانوا يعلقون على هذه الاحداث حتى فى القرى النائية فى باراقوان وقشتالة ، كان الموريسكيون يتابعونها بأهمية بالغة ،ففى تقرير لمحاكم ودواوين التفتيش ،لوحظ أنه فى كارينانا (Carinena) وضواحيها أن الموريسكيون أبدوا فرحهم وصورهم عندما سئل احد الموريسكيين : لماذا أنتم فىغاية الفرح ؟ رد الموريسكى أن ذلك بسبب نجاح استيلاء العثمانيين على احد قلاع ملكاسبانيا ،ونتيجة لذلك الشعور فان هناكاعدادا من الموريسكيين كانوا قد عذبوا بسبب الشك الذى شاع حول احتمالعلاقاتهم بالعثمانيين ،كما أن الموريسكيين المسجونيين صرحوا برغبتهم فىالنزوح الى المغرب ،حيث كان هناك شعور قوى بهجوم عثمانى علىاسبانيا .

ان هجمات المجاهدين على السواحل الاسبانية هو فى الغالب من عمل الموريسكيين الذين لجأوا الى الجزائر وكانوا يصنعون فى شارشال (Sargel) بعض السفن الشراعية ،ونظرا لكونهم اصلا من اسبانيا ،فانهم

كانوا يعرفون السواحل ويستطيعون استعمال كثير من الحيل لانجاح حركتهم وكانوا فى الغالب على اتصال باقربائهم أو اصدقائهم الذين تركوهم باسبانيا وكانوا ينزلون ليلا بعد أن يخفوا سفنهم الشراعية ثم ينزلون مرتدين لباسا مسيحيا حيث لا يتعرف عليهم وهذا بسبب اتقانهم اللغة القشتالية وكانوا بذلك يفاجئون المسيحيين ويأخذونهم كأسرى .[١]

لاحظ القبودان باشا قلج على الاخطار التى تهدد الاراضى الاسلامية واضطراب تجارتها نتيجة لاستقرار الاوروبيين على سواحل امريكا والهند والخليج العربى فاقنع السلطان بوجوب فتح قنال بحرى يصل بين ميناء السويس والبحر المتوسط وذلك لتأمين الحدود الجنوبية أولا واختصار طريق القوافل البحرية فتسترجع مصر وبلاد العرب اهميتها ولا تفقد موانى البحر المتوسط مكانتها الاقتصادية واقتنع السلطان بذلك وابتدأ العمل الذى لم يلبث أن توقف بعد فترة لموت قلج على [٢]ولا شك أن انفتاح الميدان الجنوبى واتساعه وما اقترن به من تحول للتجارة العالمية كان من اهم العوائق التى عاقت الدولة عن استرداد الاندلس .

ضعف الامل بعد ذلك لدى الدولة العثمانية فى القضاء على الخطر البرتغالى فى المحيط الهندى عن طريق اغلاق الباب المتمثل فى الشاطىء الغربى لافريقيا وبذلك ختم الصراع بين المسلمين بقيادة الدولة العثمانية والبرتغاليين ،بنجاح المسلمين فى تأمين البحر الاحمر وحماية الاماكن المقدسة الاسلامية من الخطر الصليبى البرتغالى وذلك باقامة حزام امن حول الحرمين الشريفين .[٣]

---

(١) لوى كارديان: الموريسكيون الاندلسيون والمسيحيون ،ص ٨٤ ،٨٥ .

(٢) احمد توفيق مدنى : حرب الثلاثمائة سنة ،ص ٤١٠ .

(٣) عمر بابكور : حزام الامن العثمانى حول الحرمين الشريفين ،رسالة ماجستير لم تنشر بعد .

بدأت اسبانيا تفكر فى تغيير سياستها تجاه شمال افريقيا وتونس بصفة خاصة بعد أن ظهرت المشاكل الاقتصادية فى البلاد ،وتراكم الديون على فيليب الثانى حتى توقف عن سدادها ورأت الحكومة الاسبانية ان تهتم بأوروبا فنقلت معظم القواد العسكريين الذين قادوا المعارك فى البحر المتوسط الى الاراضى المنخفضة وتبدلت بذلك السياسة الاسبانية التى انصرفت عن التفكير فى تجريد الحملات لغزو شمال افريقيا واخذت تبحث مسألة عقد هدنة فى اواخر القرن السادس عشر مع الدولة العثمانية وقابل ذلك انشغال الدولة العثمانية بحروبها مع الفرس تلك الحروب التى ملأت الجزء الاخير من هذا القرن .

ومعنى ذلك ان الصراع العثمانى الاسبانى ، او الصراع الاسلامى الاوروبى حول الاندلس قد دخل فى طور جديد يمكن ان يلحظه المؤرخ المدقق وكأننا بالدولتين العثمانية والاسبانية قد بدأت تعطى ظهرها لهذا الموضوع فالدولة العثمانية اخذت تتجه أكثر للمشرق، بينما اخذت اسبانيا تتجه اكثر للعالم الجديد ،أو بمعنى آخر لم تعد الاندلس فى موضع الصدارة فى سياسة الدولتين .

كان تدفق الفضة بالقدر الكبير على اسبانيا من العالم الجديد كما أوضحنا عمل على ارباك النظام المالى الاوروبى وطرد الذهب من دائرة التداول ولما ظل الانتاج الزراعى والصناعى ثابتا ،ولم يزداد مثل معدل العملات وارتفعت الاسعار وساد التنصر فى اوروبا وشعرت اسبانيا أولا بالصدمة ،حيث كان لديها احتكار واردات الفضة من العالم الجديد ،ولكن تورط اسبانيا الدائم فى السياسات الاوروبية وموقف الدولة العثمانية من حيث اصرارها على استرداد الاندلس ،ومشكلة الديون تعنى ان الفضة مع تضخم واردها كانت تتسرب من اسبانيا الى بقية انحاء اوروبا [1] وهذا ايضا مما جعل اسبانيا تولى ظهرها فى الحقبة الاخيرة من القرن السادس عشر الميلادى للصراع مع الدولة العثمانية .

1- Roger Locker : Habsburg & Bourbon Europe P.59 .

انطلقت السفن الحربية الاسبانية عام ٩٩٧هـ/١٥٨٨م باتجاه الشواطىء الانجليزية ولكن رداءة الطقس وبراعة القباطنة الانجليز ،أدت الى اخفاق عملية الغزو مما ساهم ذلك فى التقليل من هيبة اسبانيا فى تلك الحقبة من الصراع الدولى بالاضافة الى انها كانت عملية باهظة النفقات كلفت الخزينة الكثير من الاموال [٢] ،هذه التطورات الاخيرة قللت من الخطر الاسبانى الى حد كبير على شمال افريقية العثمانية مما اوحى للدولة العثمانية بتقليل تركيزها على مشروعاتها فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ،تحت ضغط التطورات فى الميدان الجنوبى ،اى فى البحار العربية ،وفى الميدان الشرقى مع فارس .

كلف السلطان العثمانى احد المدجنين ويدعى الكسندر كاستالانو (Alexander Costellano) من (Calando) ،للتأكد من بعض العلامات بقشتالة وبلنسيه ،ومعرفة ما اذا كانت تلك العلامات ملائمة لما نصت عليه احدى التنبوءات التى شاعت فى انحاء الدولة ،والتى تتعلق بزمن اعادة فتح اسبانيا ،وقد ذكر الكسندر كاستالانو ،آن زمن فتح اسبانيا من طرف العثمانيين قد اقترب ،ذلك ان العلاقات التى احتوتها احدى التنبوءات قد تمت وانه فى منطقة سيارا دو قاليتيرا (Syerros de Gallinera) من مملكة بلنسيه ،ظهر شاب فى مقتبل العمر ،يختلف كثيرا عن اقرانه وانه خلال مدة قصيرة سيكون يتيم

1- James Anthony Froude: English Seaman in the sixteenth century, P.205.

(٢) عادل سعيد بشتاوى : الاندلسيون المواركة ،ص١٢٧ .

الأب ثم يغزو الموريسكيون هذه المنطقة وينتصرون فى الحرب [١]، ليس غريبا ان يصدق السلطان تلك التنبوءات فقد كان الفلك والتنجيم لهما اهميتهما وكان منجم باشى من كبار الموظفين فى قصر السلطان [٢] ، مما يدل على المناخ السائد فى كل انحاء الدولة عن مشروع استرداد الاندلس .

كان المنصور السعدى موادعا للسلاطين العثمانيين فارسل اليهم بالهدايا وكانوا يرسلون اليه بالمكاتيب والخلع السنية حتى ان السلطان مراد الثالث كتب اليه قائلا :" لك على العهد ان لا امد يدى اليك الا للمصافحة ،وان خاطرى لا ينوى لك الا الخير والمسامحة [٣] وكان المنصور قد تراجع عن موقفه المعادى للدولة العثمانيةبعد هزيمة الارماد! سنة ٩٩٧هـ/١٥٨٨م ،وكان السلطان العثمانى مراد الثالث قد رغب فى انتهاز الموقف لعقد حلف مع السعديين فى المغرب ،يستهدف فى الدرجة الاولى غزو اسبانيا واستعادة الاندلس " ... ولما وصل لمسامعنا الشريفةومشاعرنا الخاقانية المنيفة خبر طاغية قشتالة وانه احتوى على سلطنة برتغال أو كاد وانه جعل اهلها فى الاغلال والاصفاد وانه لكم جار وعدو مضرار، حركتنا الحمية الاسلامية لاظهار الالفة الازلية ان نتخذ عهدا ونوءكد أن المملكتين محروستا الجوانب ونعلق العهد بالكعبة المنورة والحوضة المعظمة فاذا تم هذا الشأن نوجه اليكم ثلاثمائة غرابا سلطانية وجيش عز ونصره وكماة عثمانية تستفتح بها ان شاء الله بلاد الاندلس ... " ،ولعل السلطان كان صادقا فى تحليله وعرضه فاسبانيا بعد هزيمتها المنكرة امام انجلترا فى ٩٩٧هـ / ١٥٨٨م هبطت الى الدرجة الثانية بالنسبة للقوات الكبرى المعروفة آنذاك ،فصار من الممكن القيام بعمل ضدها سيما اذا كان من الحجم الذى تصوره السلطان مراد الثالث الذى كان يدرك ايضا مدى الصداقة القوية بين المغرب وانجلترا واتصال البلدين فى موضوع اسبانيا بالذات،مما جعل موضوع استرداد الاندلس باقيا لدى العثمانيين حتى بعد انتهاء عصر

---

(١) لوى كادياك : الموريسكيون الاندلسيون والمسيحيون ،ص ٦٤ .

(٢) محمد عبد اللطيف البحراوى :حركة الاصلاح العثمانى فى عصر السلطان محمود الثانى ،ص ٤٤ .

(٣) ابراهيم حركات : التأثير العثمانى فى المغرب ، اشغال الموءتمر الاول لتاريخ المغرب ،جـ٢ ،ص ١٤ .

سليمان الاول ٠

كان جواب المنصور "٠٠٠ لعل فى ذلك اجتماع كلمة الاسلام ان شاء الله بهذا الصلح الذى آن أن ينعقد بين الدولتين ويبرم حكمه بين المملكتين، عونا على صرف العناية بحول الله لمجاهدة عدو الدين ٠٠ " وجاء فى رسالة اخرى " ٠٠٠ فمآربكم بهذا الجانب الرفيع مقبولة واسباب التيسير ان شاء الله موصولة واشارتكم الى ما لجنا بنا العلوى من الجلال ،بالمثابة العثمانية الطاهرة الخضال ،نعم انها الرحم اسلامية ومؤاخاة دينية تزداد خلوصها ٠٠ " ،وفى رسالة منه للبيلربك العثمانى فى الجزائر "٠٠٠ اعلموا ان آنستم فى جانب الكفرة دمرهم الله عمارة تنشأ أو اسطولا يؤم ناحيتكم واحتجتم الينا فنحن بحمد الله بأنفسنا واموالنا واجنادنا موجودون بنصرتكم على اتم اهبة واستعداد ٠٠٠ " ٠

تردد السفراء بين الاستانة وفاس فتوجهت سفارات احمد بن ودة والشاطبى والشاظمى وابى الحسن على بن محمد التمكروتى بين عامى ٩٧٩/١٥٨٨م ،٩٩٩هـ/ ١٥٩٠م ،واستقبل احمد المنصور سفيرا عثمانيا فى ٩٩٨هـ / ١٥٨٩م ٠(١)

لم تتحقق رغبة السلطان العثمانى فى التحالف مع السعديين لاسترداد الاندلس وذلك بسبب انشغال الدولة بحروبها المضنية ضد الايرانيين والهابسبرج فى وسط اوروبا ،بالاضافة الى واجبها نحو حماية الاماكن المقدسة الاسلامية فى الحجاز ،وتدعيم حزامه الامنى ٠

كانت الدولة العثمانية قد ضمت جميع الاقاليم الغربية من ايران بين القوقاز ونهاوند وذلك فى الفترة فيما بين سنتى ٩٨٦-٩٩٩هـ/١٥٧٨-١٥٩٠م ، كما نجح عبد الله بك خان الحليف العثمانى فى وسط آسيا من غزو خراسان ،كما حصل القائد العثمانى فى غرب ايران (عثمان باشا) على

---

(١) محمد الغربى : بداية الحكم المغربى فى السودان الغربى ،ص ٩٥- ٩٧٠

مساعدة حربية من القرم ،وحاول تشييد اسطول فى بحر قزوين ،غير ان هجمات الروس فى شمال القوقاز على التعزيزات المرسلة من القرم وتجدد الصلات الدبلوماسية الروسية الايرانية اثار الانتباه لدى العثمانيين الذين عقدوا هدنة مع الايرانيين سنة ٩٩٩هـ / ١٥٩٠م ٠

نشبت الحرب بين الهابسبرج والعثمانيين فى عام ١٠٠٢هـ / ١٥٩٣م ،هذه الحرب والتى استغرقت وقتا طويلا ، أظهرت كيف أن كثيرا من الظروف الدولية قد تحولت ضد العثمانيين ،ففى شرق اوروبا حصل البابا على حلفاء اقوياء للنمساويين فى الافلاق والبغدان وترانسلفانيا كى يثوروا ضد العثمانيين ويحاربوا الى جانب النمساويين فضلا على هجوم قبائل قوساك الدينبر على العثمانيين وذلك فى جبهة متسعة فى البر والبحر وفى هذه المعارك بذل العثمانيون جهودا ضخمة واحرز جيشهم فى هنغاريا بقيادة السلطان نفسه على نصر عظيم فى ميزوكرزت(Mezokereszet) اكتوبر ١٠٠٥هـ / ١٥٩٦م، ولكن دون حسم مما اضطر الى مواصلة الهجوم والزحف حتى حاصر بودا (Buda) وتستمر تلك الحرب الاستنزافية على الجبهة الاوروبية زمنا ليس بالقصير وحالما تتوقف تلك الجبهة ينتقل العثمانيون الى الجبهة الفارسية وتركت العلاقات المغربية العثمانية كى تكون من هذا الوقت علاقات حدود بين دولتين اسلاميتين متجاورين هذا ،وكان السلطان احمد المنصور السعدى قد بدأ فى الخروج بالمغرب من اطار الامارة الناشئة المدافعة عن حدودها الى اطار الدولة الاسلامية الكبرى الثانية فى علاقات المغرب الاسلامى ٠

ارسل الشاه الصفوى عام ١٠٠٨هـ / ١٥٩٩م سفراءه الى أوروبا لعقد مباحثات عسكرية واقتصادية ذات صيغة معادية للعثمانيين ففى فيينا استقبل الامبراطور النمساوى السفارة الايرانية بحرارة واخبر اعضاءها برغبته فى تأليف حلف مضاد للعثمانيين مع الروس والجورجيين فى الشرق وأنه فى سبيل توحيد الملوك المسيحيين فى أوروبا للقيام بحملة صليبية مقدسة ،وفى ١٠١٢هـ / ١٦٠٣م اتجه الشاه الى استئناف الهجوم الفارسى على العثمانيين بهذا واجهت الدولة الحرب فى وقتواحد على جبهتين غربية

وشرقية بالاضافة الى الاضطرابات الداخلية التى اخذت تهز أرجاء الدولة العثمانية .

ومع ان الدولة العثمانية خالفت قواعد التاريخ المعروفة من حيث اشتباكها فى جهاد أو حروب فى اكثر من ميدان الا أن اشتعال الميادين الاربعة : الغربى والشرقى والجنوبى وبدء ثقل جديد على الدولة من الشمال كل ذلك مثل عائقا ضخما بالنسبة لاهداف الدولة فى شبه الجزيرة الايبرية .

استمر المجاهدون ومعهم حلفاؤهم العثمانيون فى القيام بالاعمال الحربية ضد اسبانيا لتشكل ضغطا مستمرا على اسبانيا فى غرب البحر المتوسط اذ تعرضت البحرية الاسبانية الى هجوم مستمر ،كما كان هناك عدد من الاسرى المسيحيين لدى سكان شمال افريقيا يحتاجون الى فدية وامام ذلك الضغط الاسلامى الصارم قامت البحرية الاسبانية بنشاط مضاد محققة بعض النجاح مما دعى الموريسكيين الى شن الحرب داخل المعسكر الاسبانى فى الفترة من ١٠١٠ - ١٠٢٥هـ / ١٦٠١ - ١٦١٦م .[1]

لم تكن هناك فى البداية حملة ضخمة لطرد وابعاد الموريسكيين من اسبانيا ،صحيح رأى المسيحيون فى الاسلام عدوا عنيدا للعقيدة الكاثوليكية ولاسبانيا بسبب حماسة العثمانيين ونشاطهم الذى لم يفتر ،ولكن العداء نحو الموريسكيين كان اقل من ذلك ،لذلك لا توجد دوافع ملحة لدى العامة لطردهم .

احتدت المناقشة بين رجال الدولة والكنيسة وانقسم رأيهم حول الاجابة على تساؤل فحواه : هل يمكن ان يندمج بعض الموريسكيين فى العقيدة المسيحية والمجتمع ؟ ،وقام عدد من رجال الدين بالدفاع عن الموريسكيين

1- John Lynch : Spain under the Habsburgs Val.2 P. 45 .

ولكن كانت توصياتهم غير ذى قيمة امام اغلبية الاصوات المتعصبة والذين طالبوا الملك الاسبانى والحكومة الاسبانية بطردهم فورا من التراب الاسبانى على اعتبارهم كفرة وبذلك يستفاد من ممتلكاتهم كما يجب استبعادهم عن العمل فى السفن المسيحية والمناجم ويجب بيع هوءلاء الموريسكيين فى خارج اسبانيا وعلى الصعيد الحكومى ،وكان هناك ايضا انقسام فى الرأى ،بين موءيد لعملية الطرد ومعارض لذلك وكان المعارضون اصحاب مصالح شخصية من الطبقة الارستقراطية والذين رأوا فى الموريسكيين كقوة عاملة يمكن الاستفادة منهم او من استئجار اراضيهم بقيمة منخفضة لكن كان الفلاحون الاسبان ينظرون الى خصومهم ومنافسيهم الموريسكيين بالحسد واعتبروهم تابعين للطبقة الارستقراطية ملاك الاراضى ولذلك طالبوا بطرد الموريسكيين، وكان الجنوب الشرقى من شبه الجزيرة الايبرية يعيش فى خطر حقيقى وذلك من جراء النمو السكانى السريع للموريسكيين فى فالينسيا (Valencia) والاراغوان (Aragon) وكان هذا يهدد ميزان القوة بين المجتمعين وربما فى النهاية ترجح الكفة لصالح الاسلام وبناء على ذلك فان ابعاد وطرد الموريسكيين يعتبر عمل من اعمال حروب الاسترداد المسيحية ٠

ناقش المجلس الاسبانى تلك الامور وبدأ يوص بابعاد الموريسكيين وذلك على اعتبار أن آمن اسبانيا لا يتحقق الا بتلك الطريقة ،وفى ٢٠ محرم ١٠١٨هـ / ١٤ ابريل سنة ١٦٠٩م اوصى المجلس وبشدة الملك بضرورة الابعاد ،وقبل الملك الاسبانى فيليب الثالث تلك النصيحة وتقرر طرد وابعاد جميع المورسكيين من اسبانيا على أن يبدأ ذلك من فالينسيا أولا ٠

كانت مشكلة الموريسكيين تعتبر من اقوى المشاكل حدة بسبب كثرة عددهم وتمركزهم فى الجبال المنيعة ولموقعهم بالقرب من الخط الساحلى والسهل الوصول اليه من شمال افريقيا ،وكان من المنطق أن يطردوا من فالينسيا أولا ،قبل أن ينظموا دفاعهم او يطلبوا مساعدة خارجية وبدأت الاستعدادات فى منتهى واقصى السرية وتجمعت السفن بالمجاديف فى البحر المتوسط كما احضر الاسطول المرابط فى الاطلس وحشدت الوحدات العسكرية وفى سبتمبر اخذت القوات البحرية مواقعها فى ثلاث موانى ،ثم انسحبت ثلاث

وحدات من ايطاليا واخذت مواقع استراتيجية فى شمال وجنوب فالينسيا ، وامر ماركيز كارازينا (Carazena) اعلان قرار الطرد والابعاد الذى شمل جميع الموريسكيين باستثناء الاطفال الذين تقل اعمارهم عن خمس سنوات وارتفع بعد ذلك الى اربعة عشر عاما ، اذا وافق آباؤهم على بقائهم (١) واستمرت عملية الطرد فى فالينسيا حتى ١٠١٩هـ / ١٦١٠م ، ثم جاء دور ارغوان بعد ذلك ثم تشمل جميع انحاء اسبانيا واستغرقت تلك العملية حتى ١٠٢٥هـ / ١٦١٦م .

لم تكن الحالة فى الدولة العثمانية تسمح بالتدخل فى قرار الطرد ولكن استطاع الباب العالى ان يستغل صداقاته مع فرنسا وبريطانيا والبندقية فضلا عن الولايات العثمانية بافريقيا والمغرب الاقصى وطلب من هاته الحكومات مساعدة الموريسكيين على الهجرة وتسهيل مهمتهم والتدخل لدى الحكومة الاسبانية للتخفيف من القوانين الجائرة والمسلطة على المسلمين .

سعى السلطان احمد الاول على تدعيم علاقاته مع المغرب الاقصى الذى يعتبر البلد الاسلامى المتصل مباشرة باسبانيا والاندلسيين وفى شعبان ١٠٢٢هـ / سبتمبر ١٦١٣م وصل خليل باشا الى المغرب فى مهمة الظاهر منها توطيد العلاقات مع السعديين وتبديل السفراء غير ان المتتبع والمتأمل فى سياسة الباب العالى فى هذا الوقت ، لا ينفى ان تكون مهمة لها علاقة مباشرة بقضية الموريسكيين هاته القضية التى اهتم بها المسلمين فى المشرق والمغرب ثم تأتى زيارة خليل باشا الى طرابلس الغرب لنفس المهمة والغرض .

كما قام السلطان العثمانى بمساعى اخرى حثيثة لدى بريطانيا وفرنسا والبندقية لمساعدة الموريسكيين وانقاذهم وتسهيل تحولهم الى الاراضى العثمانية فكلف السلطان احمد الاول الحاج ابراهيم اغا احد خواص الخدمة العثمانية بالسفر الى لندن ومقابلة ملكها جاك الاول (Jecqes I) ، وطلب مساعدته فى احتضان الموريسكيين

1- John Lynch : Spain under the Habsburgs Val.2 P.P.46-49.

الذين غادروا اسبانيا وتسهيل نقلهم الى الاراضى العثمانية الا ان بريطانيا التى عقدت معاهدة سلم مع اسبانيا لم تستجب لطلب السلطان العثمانى .

اما فرنسا حيث كانت علاقات الدولة العثمانية ودية معها فقد ارسل احمد الاول الى الملكة مارى دى ميدسيس (Marei de Medesis) الوصية على ابنها لويس الثالث عشر رسالة يطلب منها ان تساعد الموريسكيين الذين نزلوا بجنوب فرنسا وتوفير عدد من السفن ليتم نقلهم الى اراضى الدولة العثمانية ،وقد استجابت الملكة لنداء السلطان وامرت باخراج المسلمين واركابهم سفننا فرنسية من سواحلها الى حيث يرغبون من البلاد الاسلامية .

كذلك ناشد السلطان احمد الاول دوج البندقية تقديم كل اعانة لهؤلاء الموريسكيين كما طلب منه : "... فلا تسمحوا لاحد ان يتدخل فى امورهم او يتعرض لهم ولارزاقهم واموالهم ودوابهم خلافا للعهد والامان (بيننا) وهذا اثناء مرورهم بالمنازل والمراحل والمعابر ليصلوها آمنين سالمين وقد سبق واتضح لنا حسن اهتمامكم وتيقنوا أن مساعدتكم لهؤلاء المساكين بدخولهم بلادنا التى هى دار الامان وسيلة لتحصيل رضانا الميمون وسبب لتحكيم بنيان المصالحة وتمديد المعاهدة فاهتموا واسعوا ،بناء على هذا ان يمروا ويعبروا راضين عن حالهم مرفهى البال ." (١) تحريرا فى اواسط شهر جمادى الاول سنة ١٠٢٣هـ / الموافق ما بين ١٩ ، ٢٩ يونية ١٦١٤م .

نتبين من خلال ذلك مدى الاهتمام البالغ الذى اظهرته الدولة العثمانية لقضية الموريسكيين مع الحكومات الاوروبية حتى يبدو وكأن قضية الموريسكيين قد غطت على الهدف الاسمى الذى شغل الدولة فى القرن السابق ،وسبق لنا ان وضحنا اهتمام الدولة والسلاطين العثمانيين فى محاولات عديدة لاسترداد

---

(١) عبد الجليل التميمى : رسالة من السلطان العثمانى احمد الاول الى دوج البندقية حول الموريكسيين ،المجله التاريخية المغربية العدد٧، ٨ ، ص ٩ — ١٤ .

الاندلس وكادت تلك المحاولات آن تأتى بثمارها لولا الظروف التى تعرضت لها والعوائق التى اوضحناها .

اتضح جليا ان أمل اوروبا عامة واسبانيا خاصة فى سقوط الدولة العثمانية مبالغ فيه ،وافاد تاريخ الدولة العثمانية بان العثمانيين امتازوا بنشاط خاص وعبقرية فذة مكنتهم اكثر من مرة وقف مراحل السقوط وظهرت من اوائل القرن الحادى عشر الهجرى / القرن السابع عشر الميلادى علامات استعادة الزحف العثمانى وتجدده ففى سنوات لاحقة اتسعت الحدود العثمانية فى اوروبا بشكل يزيد عن الماضى واستطاع العثمانيون حصار فينا للمرة الثانية (١)،مما جعل المؤرخين يتساءلون عن سر تلك القوة الكامنة والتى لم تتوفر لدى الامبراطوريات الاخرى ؟ فهى تتعرض للسقوط عدة مرات على مدار الاربعة قرون لكن تأتى قوة خفية تنقذها من ذلك السقوط ويتجدد نشاط الدولة ،ولم يجد هؤلاء المؤرخين جوابا على ذلك التساؤل ولكننا نجيب على ذلك التساؤل بأنه الاسلام والروح الجهادية وطبيعة الدولة منذ نشأتها.

وكما طال عمر الدولة وطال عصرها الاول ،عصر المجد والعظمة والفتح والجهاد فقد طال مسعى الدولة سعيا صادقا دؤوبا وراء تحقيق استرداد الاندلس ،بيد ان اتساع الدولة وامتداد اطرافها وانشغالها فى اكثر من ميدان ،وظهور العوائق ونموها ،وخاصة خروج الاوروبيين الى المحيط الهندى والعالم الجديد وانتقال التوازن الدولى من البر الى البحر ،وما اعقب ذلك من تطورات خطيرة فى الميدان الشرقى ،كل ذلك اعاق استرداد الاندلس على ايدى العثمانيين .

1- Paul Coles : The Ottoman Impact on Europe P.P.159-160.


الملاحق

ملحـــــــــق رقم (١)

(المصــــــــــــــادر والمراجـــــــع)

......

وثيقة عربيـــة :-

١ - رسالة اهل الجزيرة بعد استيلاء اهل الكفر على جميعها الى السلطان بايزيد ، المكتبة الوطنية بالجزائر / رقم ١٦٢٠ .

٢ - زين الدين المليبارى : تحفة المجاهدين
عايش المؤلف الكثير من الاحداث التى ذكرها ،ومع صغر المخطوطة اذ لا تزيد عن سبع وأربعين ورقة ،الا انها مفيدة جدا فى التعرف على مجىء البرتغاليين الى السواحل الهندية ونشاطاتهم واعمال القرصنة البحرية التى كانوا يقومون بها ويركز المؤلف على كفاح حكام كالى كوت ،ضد الهيمنة البرتغالية كما تتضمن الرسالة الاخبار المتعلقة بالبرتغاليين منذ مجيئهم الى كالى كوت فى مطلع العصر الحديث وحتى سنة ٩٨٦هـ / ١٥٧٨م .
المخطوط محفوظ ضمن مجموعة فى مكتبة جامعة برستن بمدينة نيوجرسى الامريكية تحت رقم ٣٩٢٠ ،وتوجد نسخة مصورة على ميكروفلم ،فى المكتبة التابعة لمركز البحث العلمى واحياء التراث الاسلامى فى كلية الشريعة والدراسات الاسلامية بجامعة ام القرى ،بمكة المكرمة تحت رقم ٥٧٥(تاريخ وتراجم) .

٣ - عبد القادر ابن عمر بن محمد : سيرة خير الدين باشا .
يقع المخطوط فى ٧٣ ورقة ومحفوظ بالمتحف البريطانى قسم الدراسات الشرقية تحت رقم ٣٢٧٠٠، .

٤ - الحسن بن محمد الوزان الفاسى : وصف افريقيا
الشركة المغربية للناشرين المتحدين ، الرباط ، الطبعة الاولى ١٩٨٢م،
الكتاب عبارة عن رحلة قام بها المؤلف ،تحدث فى القسم الرابع عن مملكة تلمسان ،والخامس عن مملكة بجاية وتونس .

٥ – شهاب الدين احمد المقرى : ازدهار الرياض فى اخبار عياض
الرباط ،الطبعة الثانية ،١٩٧٨م.
يقع الكتاب فى خمسة اجزاء ،تحقيق مصطفى السقا ،ابراهيم الابيارى ، عبد الحفيظ شلبى .

٦ – شهاب الدين احمد بن محمد المقرى : نفح الطيب
من غصن الاندلس الرطيب
دار صادر ،بيروت ،١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .
الكتاب يقع فى ثمانية اجزاء ،تحقيق احسان عباس ،ينقسم الكتاب الى قسمين ،قسم خاص بالاندلس عامة وقسم خاص بلسان الدين الخطيب وما يتعلق به من شئوون .

٧ – محمد بن أحمد بن اياس : بدائع الزهور
فى وقائع الدهور
مطابع الشعب ،القاهرة ،١٩٦٠م .

٨ – قطب الدين محمد بن احمد النهروالى المكى : البرق اليمانى
فى الفتح العثمانى
دار اليمامة ،الرياض الطبعة الاولى ،١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .
يتحدث الكتاب عن تاريخ اليمن فى القرن العاشر الهجرى ،مع التوسع فى أخبار غزوات الجراكسة والعثمانيين لذلك القطر .

٩ – يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن على : غاية الامانى فى اخبار القطر اليمانى .
دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ،القاهرة ،١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .
تحقيق : سعيد عبد الفتاح عاشور ،يقع الكتاب فى جزأين ،وهو عبارة عن حوليات لأخبار اليمن .

١٠- موءلف مجهول : تاريخ الدولة السعدية .
الرباط ، ١٩٣٤م .

******

المراجع العربيـــــــــــــــة :

١١- ابراهيم شحاتة حسن : أطوار العلاقات المغربية العثمانية
قراءة فى تاريخ المغرب عبر خمسة قرون
(١٥١٠ - ١٩٤٧م) .
منشأة المعارف ، الاسكنـــــــــــــدرية ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٠م .
الفصل الثانى : الامبراطورية العثمانية ومراحل الغزو والتوسع فى تاريخها .
الفصل الخامس : ايالة الجزائر والعلاقات بينها وبين المغرب .

١٢- ابو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافى من القرن العاشـــر
الهجرى الى الرابع عشر الهجرى (١٦-٢٠م)
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، الطبعة الاولى ، ١٩٨١م .
جزئين الجزء الاول ، الفصل الثانى ، تحدث عن العلاقات بين الجزائريـــــين
والعثمانيين .

١٣ - أجيه يونان جرجس : البحر الاحمر ومضايقه بين الحق العربـــــــى
والصراع العالمى .
مكتبة غريب ، القاهرة ،
تحدثت الموءلفة عن أهمية البحر الاحمر خلال العصور التاريخية ، ثـــم
التنافس الدولى للسيطرة على مداخل البحر الاحمر .

١٤- احمد توفيق مدنى : حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيـــــــا
١٤٩٢ - ١٧٩٢م .
الموءسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٤م .

ويوضح الكتاب الغزو الصليبي الاستعماري الاسباني للجزائر ،وما كان لذلك الغزو من اسباب ونتائج وما اقترن به طيلة ثلاثة قرون (١٤٩٢-١٧٩٢م) من ملابسات وتطورات .

١٥ – احمد عبد الرحيم مصطفى : فى أصول التاريخ العثمانى

دار الشروق ،بيروت ،الطبعة الاولى ،١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

الفصل الاول : اصل الاتراك العثمانيين ،الفصل الرابع : نظام الحكم العثمانى ،الفصل الخامس : مرحلة الانتقال بين الدولة بعد سليمان القانونى.

١٦– اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار .

المطبعة الاميرية ،ببولاق ،مصر ،الطبعة الاولى ،١٣١٢هـ .

المؤلف كان ناظر المدارس الحربية ،يقع الكتاب فى جزء أول وجزء ثان ، الجزء الاول أربعة عشر بابا – ابتداء بذكر الملاحة فى الازمة القديمة حتى وصل لتاريخ الدولة العثمانية من تأسيسها حتى سقوطها . ثم كتب عن الادارة البحرية .

١٧ – بدر الدين عباس الخصوصى : دراسات فى تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر .

مكتبة الرأى العام التجارية ،الكويت ،الطبعة الاولى ،١٩٧٨م .

الجزء الاول : الفترة الزمنية الممتدة ما بين مطلع القرن السادس عشر وبداية القرن التاسع عشر .

١٨ – بسام العسيلى : الجزائر والحملات الصليبية (١٥٤٧ – ١٧٩١م) .

دار النفائس ،بيروت ،لبنان ،الطبعة الثانية ،١٩٨٣م.

الفصل الاول : الجزائر المجاهدة ،الموقف على الجبهة الاسلامية فى المشرق معركة ليبانتى ١٥٧١، الجهاد على الجبهة الاوروبية .

١٩- جلال يحيى : العالم العربى الحديث
دار المعارف بمصر ، ١٩٧٤م٠
الباب الاول : امتداد الحكم العثمانى ،تحول الطرق والتجارة ، الغزو العثمانى فى للشرق الادنى ، الدولة العثمانية والمغرب العربى ٠

٢٠- جلال يحيى : المغرب الكبير ، العصور الحديثة ،وهجوم الاستعمار
الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ،ط ١٩٦٦م٠
الجزء الثالث : الفصل الثالث : الدولة السعدية و مشكلات المغرب الاقصى ،
الفصل الرابع : تركز الاوضاع واستمرار الجهاد البحرى ٠

٢١- جلال يحيى ،جاد طه : معالم التاريخ الاوروبى الحديث
منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٧٣م٠
الكتاب عبارة عن دراسة لتطور الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى القارة الاوروبية وعلاقاتها مع العالم ٠

٢٢- حسن سليمان محمود : ليبيا بين الماضى والحاضر
موءسسة سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٦٢م٠
الباب الثالث : ليبيا فى العصور الحديثة (٩٥٨هـ / ١٣٨٠م) (١٥٥١-١٩٦١م)٠

٢٣- حسين موءنس : الشرق الاسلامى فى العصر الحديث
لجنة الجامعيين لنشر العلم ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٢م٠
القسم الاول : مقدمات العصر الحديث ، الاتراك يعيدون وحدة الاسلام ٠
نهضة اوروبا وانتقال الصراع الى البحر ،
حركة الكشف الجغرافى ٠

٢٤- السيد رجب حراز : ارتريا الحديثة (١٥٥٧ - ١٥٤١) ٠
معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٤م٠
يتكون الكتاب من ستة فصول فى الفصل الثانى تحدث عن ارتيريا تحت الحكم العثمانى ٠

٢٥- زاهر رياض : الاسلام فى اثيوبيا فى العصور الوسطى
دار المعرفة ، القاهرة ، الطبعة الاولى ، ١٩٦٤م.

٢٦- سليم طه التكريتى : المقاومة العربية فى الخليج العربى
دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٨٢م .
الفصل الثالث : عرب الخليج يقاومون الغزو البرتغالى .

٢٧ - شوقى عطا الله الجمل : المغرب العربى الكبير فى العصر الحديث
(ليبيا - تونس - الجزائر - المغرب)
مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٧م.
الباب الاول : اتجاه المطامع الاجنبية الى المغرب العربى .
الباب الثانى : المغرب الاقصى منذ بداية القرن السادس عشر .

٢٨- الأمير شكيب ارسلان : خلاصة تاريخ الاندلس
دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
الفصل السادس : فى سقوط غرناطة ، الفصل السابع : حال مسلمى الاندلس فيما بعد ملكهم .

٢٩- صلاح العقاد : المغرب العربى (الجزائر - تونس - المغرب الاقصى) .
مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة الطبعة الثالثة ، ١٩٦٩م.
القسم الاول : المغرب فى العصر الحديث احوال المغرب قبيل القرن السادس عشر .

٣٠- عادل سعيد بشتاوى : الاندلسيون المواركة
طبع بمطابع انترناشيونال ، القاهرة ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٣م.
الكتاب عبارة عن دراسة فى تاريخ الاندلسيين بعد سقوط غرناطة .

٣١- عبد الله كنون : النبوغ المغربي في الادب العربي
دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٦١م.
يقع الكتاب في ثلاثة اجزاء ، الجزء الاول : تحدث عن الحالة السياسية في المغرب ، كما تحدث عن الحالة عند السعديين .

٣٢- عبد الحميد البطريق : تاريخ اوروبا الحديث من عصر النهضة الى مؤتمر فيينا .
مطابع جامعة الرياض / الرياض .
الفصل الثالث : التوسع الاوروبي وحركة الكشوف الجغرافية ، ثم تحدث عن الصراع الديني في اوروبا .

٣٣- عبد الرحمن على الحجي : التاريخ الاندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة
دار القلم ، دمشق ، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ / ١٩٨١م.
الفصل الثامن : مملكة غرناطة ، حالة اسبانيا النصرانية ، الصراع بين غرناطة وسلطات اسبانيا النصرانية ، محنة المسلمين بعد سقوط غرناطة ومحاكم التفتيش .

٣٤- عبدالرحمن بن محمد الجيلالي : تاريخ الجزائر العام
دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨٠م.
الجزء الثالث : الدولة الجزائرية التركية العثمانية .

٣٥ - عبدالعزيز محمد الشناوي : أوروبا في مطلع العصور الحديثة
مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة الطبعة الثانية ١٩٧٥م.
يتناول هذا الكتاب - في جزأين الاول والثاني - تاريخ اوروبا منذ عصر النهضة حتى ابرام معاهدة وستناليا ١٦٤٨م.

٣٦- عبد العزيز محمد الشناوى : الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها
مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٠م.
يقع الكتاب فى ثلاثة اجزاء ، تحدث عن الدولة العثمانية ، ونشأتها وحملات التشهير بها ثم تحدث عن الخصائص العامة لها ، وعن سياستها العليا .

٣٧- عبد القادر احمد اليوسف : علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادى عشر والخامس عشر
المكتبة العصرية ، صيدا ، لبنان ، ط ١٩٦٩م .
الفصل الحادى عشر : تصارع القوى فى العالم الاسلامى فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

٣٨- عبد الكريم كريم : المغرب فى عهد الدولة السعدية
شركة الطبع والنشر ، الدار البيضاء ، المغرب ، ١٩٧٧م.
الفصل التاسع : التقارب السعدى البرتغالى - الاسبانى .

٣٩- على حسون : تاريخ الدولة العثمانية
المكتب الاسلامى ، دمشق ، الطبعة الاولى ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.
تحدث الكتاب عن نشأة الدولة العثمانية وفتوحاتها وعن السلطان محمد الفاتح كما تحدث عن الدولة فى اوج قوتها ، وعن عوامل الضعف والانحطاط وعن الدولة خلال تلك المرحلة .

٤٠- على حسون : العثمانيون والروس
المكتب الاسلامى ، دمشق ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٢م.
ثمانية ابواب أولاهما عن نشأة العثمانيون والروس حتى فتح القسطنطينية الباب الثالث على مصادر العداء العثمانى الروسى .

٤١- عمر عبد العزيز عمر : دراسات فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر
دار النهضة العربية ،بيروت ،١٩٨٠م٠
القسم الاول : تاريخ مصر الحديث والمعاصر ،١٥١٧ - ١٩٥٢م)٠

٤٢- فاروق عثمان اباظة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الاحمر
١٨٣٩ - ١٩١٨م٠
الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة،١٩٧٦م٠
المقدمة : الملامح العامة المميزة لمنطقة البحر الاحمر ولميناء عدن الهام
الفصل الاول : الاوضاع القائمة فى منطقة البحر الاحمر قبيل احتلال بريطانيا لعدن فى سنة ١٨٣٩م٠

٤٣- فائق بكر صواف : العلاقات بين الدولةالعثمانية واقليم الحجاز
فى القرن ما بين ١٢٩٣-١٣٣٢هـ /١٨٧٦-١٩١٦م٠
مطبعة سجل العرب ،القاهرة ،١٣٧٨م٠
الفصل الثالث : امتيازات ولاية الحجاز ٠

٤٤- قدرى قلعجى : الخليج العربى
دار الكتاب العربى ،بيروت ،١٩٦٥م٠

٤٥- محمد آنيس : الدولة العثمانية والشرق العربى
(١٥١٤ - ١٥١٤م) ٠
مكتبة الانجلو المصرية ،القاهرة
تحدث عن بناء الدولة العثمانية فىاوروبا ،كما تحدث عن الفتوحات العثمانية فى الشرق العربى ٠

٤٦- محمد بيرم الخامس التونسى : صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والاقطار
دار صادر ،بيروت
٤ أجزاء ،الجزء الاول : مراكش ،الجزء الرابع : مملكة مراكش ٠

٤٧- محمد بن تاويت : تاريخ سبتة
دار الثقافة ، الدار البيضاء ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٢م٠
تحدث عن تاريخ سبتة من الفتح الاسلامى لسبتة سنة ٨٩هـ ،
الباب السابع : سبتة فى عهد الاحتلال البغيض ٠

٤٨- محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثمانى
اسباب انحطاط الامبراطورية العثمانية وزوالها
شركة فرج الله للمطبوعات ، بيروت ، ١٩٥٤م٠
الفصل الثالث : القوى الحربية " القوى البرية ، القوى البحرية " ٠

٤٩- محمد حجى : الحركة الفكرية بالمغرب فى عهد السعديين
دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر ، المغرب ، ١٩٧٦م٠
يقع الكتاب فى جزئين ٠

٥٠ - محمد خير فارس : تاريخ الجزائر الحديث
من الفتح العثمانى الى الاحتلال الفرنسى
مكتبة دار الشروق ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٩م٠
الفصل الاول : التدخل الاجنبى فى شمال افريقية ، التدخل الاسبانى ، التدخل العثمانى ٠
الفصل الثانى : الجزائر العثمانية ٠

٥١ - محمد بن الشريف أبى عبد الله السيد محمد السليمانى :
اللسان المعرب عن تهافت الاجنبى حول المغرب
مطبعة الامنية ، الرباط ، الطبعة الاولى ، ١٣٩١ هـ/ ١٩٧١م٠

٥٢- محمد عبده حتاملة : التنصير القسرى لمسلمى الاندلس فى عهد الملكين الكاثوليكيين (١٤٧٤ - ١٥١٦م)٠
شركة المطابع النموذجية ، عمان ، الاردن ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٠م٠

٥٣ـ محمد عبده حتاملة : التهجير القسري لمسلمي الاندلس في عهد فيليب الثاني (١٥٢٧ ـ ١٥٩٨م)٠
عمان ، الاردن ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٢م٠

٥٤ ـ محمد بن عبد السلام بن عبود : تاريخ المغرب
دار الطباعة المغربية ، تطوان ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٧م٠
جزآين ، الجزء الثاني : عصر السعديين حتى انتهاء عصر الحماية

٥٥ـ محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الاصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩م)٠
دار التراث ، القاهرة ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٨م٠
الفصل الاول : الدولة العثمانية قبل حركة الاصلاح ٠

٥٦ـ محمد عبد اللطيف البحراوي : فتح العثمانيون عدن وانتقال التوازن الدولي من البر الى البحر
دار التراث ، القاهرة ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٩م٠
مقدمة وسبعة فصول وتحليل ونتائج ، الفصل الخامس : الاسباب التي حملت العثمانيين على فتح عدن ٠

٥٧ـ محمد العروسي المطوي / الحروب الصليبية في المشرق والمغرب
دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٢م٠
الفصل الرابع عشر : الصراع على المغرب بين الاسبان والعثمانيين ٠

٥٨ـ محمد عبدالمنعم السيد الراقد : الغزو العثماني لمصر ونتائجه على العالم العربي
موءسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٢م٠
الفصل الثاني : اسباب الغزو ـ الاتجاه نحو اوروبا ، الاتجاه نحو المشرق ٠
الفصل الرابع : نتائج الغزو العثماني ـ سيطرة العثمانيين على شمال افريقيا ٠

٥٩ - د. محمد المغربى : بداية الحكم المغربى فى السودان الغربى
الدار الوطنية للتوزيع والنشر بغداد ، ١٩٨٢.

٦٠ - محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية
دار النفائس ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٣م.
تحقيق الدكتور / احسان حقى ، يتطرق الكتاب الى تاريخ الدولة العثمانية بالتسلسل الزمنى لكل سلطان حتى ينتهى بآخر السلاطين .

٦١ - محمد قشتيلو : محنة الموريسكوس فى اسبانيا
مطبعة الشويخ ، تطوان ، ١٩٨٠م.
سقوط غرناطة آخر دولة اسلامية بشبه الجزيرة الايبرية ، كارلوس الاول - فيليب الثانى - حرب البوشارات واسبابها .

٦٢ - محمد كمال الدسوقى ، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية
دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٦م.
بدء المؤلف بالحديث عن توسع الدولة العثمانية ١٢٣٢هـ / ١٥١٢م وانتهى بالحديث عن البلقان والحرب العالمية الثانية ١٩٣٨ - ١٩٤١م .

٦٣ - محمد مرسى ابو الليل : الهند ، تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها
مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٦٥م.
يقع الكتاب فى أربعة أبواب ، الفصل الرابع من الباب الثانى تحدث عن الهند فى عصر الاستعمار .

٦٤ - محمد عبد الله عنان : نهاية الاندلس وتاريخ العرب المتنصرين .
مطبعة لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ، الطبعة الثالثة
١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .

٦٥ - محمد مظفر الادهمى : دراسات فى التاريخ الاوروبى الحديث
عصر النهضة - الثورة الفرنسية
مكتبة المعارف ، الرباط ، الطبعة الاولى ، ١٩٨٤م.

٦٦ ـ محمد الهادى العامرى : تاريخ المغرب العربى فى سبعة قرون بين الازدهار والذبول
الشركة التونسية للتوزيع ،تونس ،١٩٧٤م.
يبدأ الكتاب بالدولة الحفصية الموحدية بتونس ، وينتهى بعصر الاحتلال الفرنسى .

٦٧ - مديحة احمد درويش : سلطنة عمان فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر
دار الشروق للنشر والتوزيع ،جدة ، الطبعة الاولى
الفصل الاول : عمان قبل القرن الثامن عشر .

٦٨ ـ نبيل عبد الحى رضوان : الدولة العثمانية وغربى الجزيرة العربية بعد افتتاح قناة السويس ،
(١٢٨٦ – ١٣٢٦هـ / ١٨٦٩ – ١٩٠٨م)
رسالة ماجستير
تهامة ،جدة ،الطبعة الاولى ،١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

٦٩ ـ نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (اواخر العصور الوسطى)
الهيئة المصرية العامة للكتاب ،القاهرة ،١٩٧٣م.
الفصل الاول : نظرة سياسية عامة فى اصول دول البحر المتوسط من سقوط القسطنطينية ١٤٥٣ م الى دخول العثمانيين مصر ١٥١٧م .
الخاتمة : كشف طريق رأس الرجاء الصالح ونهاية دولة سلاطين المماليك .

٧٠ ـ نوال حمزة صيرفى : النفوذ البرتغالى فى الخليج العربى فى القرن العاشر الهجرى / السادس عشرالميلادى
بحث نالت به درجة الماجستير فىالتاريخ الاسلامى
دارة الملك عبد العزيز ،الرياض ،الطبعة الاولى ،١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

المراجع الأجنبية المترجمـــــــة :

٧١ــ اتورى روسى : ليبيا منذ الفتح العربى حتى سنة ١٩١١م
تعريب وتقديم خليفة محمد التليسى .
دار الثقافة ،بيرون ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٤م .
القسم الثانى : الفصل الاول : سيطرة الاسبان وفرسان مالطا على طرابلس .
الفصل الثانى : الحكم العثمانى

٧٢ ــ ارجمنت كوران : السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسى للجزائـــر
ترجمة : د. عبد الجليل التميمى .
منشورات الجامعة التونسية ،تونس ، ١٩٧٠م .
قدم هذا العمل فى سنة ١٩٥٣م الى كلية الاداب بجامعة استانبول كرسالـــة دكتـــــوراه .

٧٣ ــ ارنولدت . ويلسون : الخليج العربى
مجمل تاريخى من أقدم الازمنة حتى اوائـــل القرن العشرين .
ترجمة د . عبد القادر يوسف
مكتبة الامل ، الكويت ، السالمية .

٧٤ ــ باذل دافدسن : افريقيا تحت اضواء جديدة
ترجمة جمال م. أحمد
دار الثقافة ،بيروت ،لبنان
الفصل السادس : تجار المحيط الهندى

٧٥ - ب . ج . روجرز : تاريخ العلاقات الانجليزية - المغربية حتى عام ١٩٠٠م
ترجمة ودراسة وتعليق : د. يونان لبيب رزق
دار الثقافة ، الدار البيضاء ، الطبعة الاولى ، ١٩٨١م.
يتكون الكتاب من تسعة فصول . الفصل الثانى : التجارة والسياسة على عهد اليزابيث .

٧٦ - جون رايت : تاريخ ليبيا منذ أقدم العصور
ترجمة عبدالحفيظ الميار ، واحمد البازورى .
دار الفرجانى ، طرابلس ، ليبيا ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٢م.
تحدث عن الاتراك والقرة منليون .

٧٧ - سبنسر ترمنجهام : الاسلام فى شرق افريقيا
ترجمة وتعليق : محمد عاطف النواوى .
مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٣م .
القسم الاول : ذكر الاستعمار البرتغالى لشرق افريقيا .

٧٨ - ستيفن هيملسن لونكريك : اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث
ترجمة : جعفر الخياط
بغداد ، الطبعة الخامسة
يقع الكتاب فى اثنى عشر فصلا ، بدأ من الدخول التركى للعراق ، وحتى أواخر القرن التاسع عشر .

٧٩ - شارل اندرى جوليان : تاريخ افريقيا الشمالية
(تونس - الجزائر - المغرب الاقصى)
من الفتح الاسلامى الى سنة ١٨٣٠م .
تعريب : محمد مزالى ، البشير بن سلامة .
الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٧٨م.
جزآين ، الجزء الثانى ، الباب السادس ، الحروب الصليبية الاسبانية

والأخوة عروج وخير الديـــــــــن وتأسيس الايالة الجزائرية •

٨٠ ـ عزيز سامح : الاتراك العثمانيون فىافريقيا الشمالية •
ترجمة : عبد السلام أدهم عن اللغة التركية •
دار لبنان للطباعة والنشر ،بيروت ،الطبعة الاولى ،١٩٦٩م•
جزأين ،الجزء الاول مختصر تاريخ طرابلس الغرب ،حتى دخلت فى حوزة الاتراك •

٨١ ـ عبد الرحمان تشانجى : المسألة التونسية والسياسية العثمانية
(١٨٨١ – ١٩١٣م•)
ترجمة د عبد الجليل التميمى
دار الكتب الشرقية ،تونس ،الطبعة الاولى ،١٩٧٣م•

٨٢ ـ لوثروب ستوادرد: حاضر العالم الاسلامى
ترجمة : عجاج نويهض •
مكتبة عيسى البابى الحلبى ،القاهرة ،١٣٥٢هـ •
٤ اجزاء ،فيه فصول وتعليقات وحواشى مستفيضة عن دقائق احوال الامـــم
الاسلامية بقلم الامير / شكيب ارسلان •

٨٣ ـ د• لوى كاردياك : الموريسكيون الاندلسيون والمسيحيون
المجابهة الجدلية (١٤٩٢ – ١٦٤٠م) مع ملحق
بدراسة عنالموريسكيون بامريكا
تعريب وتقديم : د• عبد الجليل التميمى
المجلة التاريخية المغربية ،تونس ،الطبعة الاولى ،١٩٨٣م•
الفصل الثانى : الموريسكيون ودواوين محاكم التفتيش •

٨٤ ـ ك.م.بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية
ترجمة : عبدالعزيز توفيق جاويد .
دار المعارف ،القاهرة ،١٩٦٢م.
ستة اقسام ،القسم الاول : عصر التوسع ١٤٩٨ ـ ١٧٥٠م.

رسائل علمية :

٨٥ ـ عمر بابكور : حزام الامن حول الحرمين الشريفين
رسالة قدمت لنيل درجة الماجستير من جامعة ام القرى ،لم تنشر .

٨٦ ـ غسان على رمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين فى البحر الاحمر
رسالة ماجستير مقدمة لكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الملك عبد العزيز فى مكة المكرمة عام ١٤٠٠هـ / ١٤٠١هـ .

٨٧ ـ نصير احمد نور احمد : عصر اكبر سلطان الدولة المغلية الاسلامية فى الهند .
رسالة ماجستير فى التاريخ الاسلامى الحديث ،قدمت لكلية الشريعة والدارسات الاسلامية بجامعة ام القرى ـ عام ١٩٨٤م.

٨٨ ـ هشام محمدعلى عجيمى : قلعة المويلح
دراسات معمارية حضارية
رسالة ماجستير من كلية الشريعة بجامعة ام القرى

الدوريات والمجلات العلمية :

٨٩ - اشغال المؤتمر الاول لتاريخ المغرب وحضارته
سلسلة الدراسات التاريخية ،١٩٧٩م٠،تونس ٠

٩٠ - مجلة اوراق ،مجلة ثقافية يصدرها المعهد الاسبانى العربى للثقافة
العدد الثالث ،١٩٨٠م٠

٩١ - المجلة التاريخية المغربية ،تونس ،الاعداد الثانى والثالث ،والسادس
والسابع والثامنوالثانى عشر ٠

٩٢ - مجلة الدارة ،العدد الثانى السنة ١١ ٠

٩٣ - مجلة كلية الاداب بفاس ،العدد الثانى والثالث ٠

الوثائق التركية :

٩٤ - مهمة دفترى رقم ٩ صفحة ٧٧ رقم ٢٠٤ بتاريخ ٢٣ شوال ١٩٧٧٠ارشيف رئاسة الوزراء٠

٩٥ - " " " ٩ " ٧٩ " ٢٣١ " ٢٤ " ٩٧٧هـ " " "

٩٦ - " " " ١٤ " ١٩٩ " ٢٨٣ " ٣ صفـــر ٩٧٩هـ " " "

٩٧ - " " " ١٤ " ٢٠٠ " ٢٨٤ " ٣ صفـــر ٩٧٩هـ " " "

المخطوطات التركيـــــــة :

٩٨ - احمد جواد موللى : الزهرة النيرة فى بيان ما جرى حين اغارت على الجزائر
اجناسالكفرة ٠
يقع المخطوط فى ٥٢ ورقة ٠ ذكر خلالها هجمات الاسبان على الجزائر وعددهـا
ثمان هجمات ٠
مخطوط محفوظ بالمتحف البريطانى ٠ قسم الدراسات الشرقيـــــــــــــــــة
( ) ويحمل رقم ( ) ٠

٩٩ – محمد أميـــــــــــن : فتوحات خير الدين باشا

يقع المخطوط فى ٢٧٩ ورقة ومحفوظ بالمتحف البريطانى ، قســــــــــم

الدراسات الشرقية ويحمل رقم ٢٧٩٨ (   )

....

المصـــــادر الاجنبيـــة :

100- - Les Sources inedites de L'Histoire du Maroc
Archives et Bibliotheques D'Espagne
T.1 Par. H. De Casterie
Paris et Madrid 1921 .
T.2 Par. Robert Ricord et Chantal de la Veronne
Paris . 1956

Archives et Bibliotheques de Portugal
T.2 Seconde Partie
Par. Pierre de Cenival ,
David Lopes et Robert Ricord
Paris 1946.
T.3 Par. Robert Ricord
Paris 1948 .

المجموعة الكبرى للوثائق المغربيـــــة .

المطبوعة تحت عنوان : المصادر الاصلية لتاريخ المغرب

101- - Les Sources Inedites de L'Histoire du Maroc -

وبيان هذه المجموعة كلها كالآتى :-

١ - محفوظات ومكتبات البرتغال : Archives et Bibliotheques de Portugal .

المجلد الاول	باريس ١٩٣٤	من سنة ١٤٨٦ – ١٥١٦	
المجلد الثانى	أ – باريس ١٩٣٩	= =	١٥١٦ – ١٥٢٦
= =	ب – باريس ١٩٤٩	= =	١٥٢٧ – ١٥٣٤
= الثالث	باريس ١٩٤٨	= =	١٥٣٥ – ١٥٤١
= الرابع	باريس ١٩٥١	= =	١٥٤٢ – ١٥٥٠
= الخامس	باريس ١٩٥٣	= =	١٥٥٢ – ١٥٨٠

٢ – محفوظات ومكتبات اسبانيا : Archives et Bibliotheque de L'Espagne

المجلد الاول	باريس – مدريد ١٩٢١	من سنة	١٥٣١–١٥٥٢
= الثانى	باريس ١٩٥٦	= =	١٥٥١–١٥٦٠
= الثالث	باريس ١٩٦١	= =	١٥٦٠–١٥٧٨

٣ – محفوظات ومكتبات فرنسا : Archives et Bibliotheque Franc

المجلد الاول	باريس ١٩٠٥	من سنة	١٥٣٣ – ١٥٧٨
= الثانى	باريس ١٩٠٩	= =	١٥٧٨ – ١٦١٤
= الثالث	باريس ١٩١١	= =	١٦١٧ – ١٦٦٥

٤ – محفوظات ومكتبات انجلترا : Archives et Bibliothques Angletere

المجلد الاول	باريس – لندن ١٩١٨	من سنة	١٥٤٠ – ١٥٨٩
= الثانى	باريس ١٩٢٥	= =	١٥٩٠ – ١٦٢٥
= الثالث	باريس ١٩٣٦	= =	١٦٢٦ – ١٦٦٠

٥ – محفوظات ومكتبات البلاد المنخفضة : Archives et Bibliotheques Pays Bas

المجلد الاول	باريس ١٩٠٦	من سنة	١٥٧٨ – ١٦١١
= الثانى	باريس لاهاى ١٩٠٧	= =	١٦١٢ – ١٦١٦
= الثالث	باريس لاهاى ١٩١٢	= =	١٦١٧ – ١٦٢٣
= الرابع	باريس لاهاى ١٩١٣	= =	١٦٢٤ – ١٦٤١
= الخامس	باريس لاهاى ١٩٢٠	= =	١٦٤٢ – ١٦٥٤
= السادس	باريس لاهاى ١٩٢٣	= =	١٦٥٥ – ١٦٦٠

....

المراجع الاجنبيـــــــة :

102- A.J.Grant : A history of Europe from 1494 to 1610.
Methuen & Coltd . London .

103 - Dan O'Sullivan : The Age of Discovery
1400 - 1550
Longman . London and New York .

104 - George Clark : Early Modern Europe
From about 1450 to about 1720
Oxford University Press. London . 1966 .

105 - Halil Inalcik : The Ottoman Empire. Empire
The classical Age 1300 - 1600
Weidnfeld and Nicolson . London

106 - H.V. Livermone : A New History of Portugal
Combridge University Press. London . New York,Melbourne

107 . H.G. Koeniqsberger and George .L. Mosse
Europe in the Sixteenth Century
Longman .London . New York .

108 - James Anthony Froude : English SEaman in the sixteenth century
Longman , Grean . and CO. Bombay and Calcutta . 1912.

109 - J.H. Elliott : Imperial Spain
1469 - 1716
Edward Arnold .London . 1981 .

110 - J.M. Gomez Tabanera : A Concise History of Spain
Madrid , 1966 .

111- John Lynch : Spain under the Habsburgs
Basil Blackweel . Oxford .

112 - J.M. Thompson : Lectures on Foreign History .
Basil Blackweel . Exford . 1965 .

113 - M.A. Cook : A History of the Ottoman Empire to 1730 .
Combridge Undversity Press . London . New York .

114 - Paul Coles : The Ottoman Empact on Europe
Thames and Hudson . London . 1968 .

115 - Roger Lockyer : Habsburg & Bourbon Europe
1470 - 1720
Longman . London . New York . 1982.

116 - Stanford Show : History of the Ottoman Empire and
Modern Turkey
Cambridge Univerisity Press . London . New York ,
Melbourne .

117 - S.B.Miles : The Countries and Tribes of the Persian Gulf
Frank Cass & Co. LTD London . 1966 .

****

ملحــــــــــــق رقم (٢)

(وثائق مختـــارة)

......

[illegible]

Tasnifin cinsi	[illegible]	ic
Numarası	17	

مهمة دفتری رقم ١٤ صفحة ٢٠٠ حكم رقم ٢٨٤ بتاريخ ٣ صفر ٩٧٩هـ /٢٧ يونيو ١٥٧١م

حكم الى امير امر ا؛ جزائر الغرب

ارسل اعيان مندجل بخطاب الى سدة سعادتنا معربين فيه عن (——————)
والان ينبغى ان نظل عيننا ساهرة واذاننا صاغية تجاه ذلك الجانب حيث ان معانتهم ومظاهرتهم بما يمكن تقديمه وحسبما يقتضيه الوضع اصبح امرا مهما لذا امرت :

حال وصوله (الحكم) عليك بالاهتمام بهذا الموضوع وفيما اذا اتحد الاسبانيون واتفقوا مع البندقانيين وتعسر انفصالك عن اسطولى الهمايونى فعليك بالتشاور بالامر مع وزيرى برتو باشا ادام الله تعالى اجلاله لبذل قدراتك فى الخدمات اللازمة فى كلا الحالتين وحسبما تقتضيه الظروف اما اذا لم يكن ثمة خطر من اسطول الكفار اصابهم الدمار وتوقعتم محاولات استيلاء الكفار والحاقهم الضرر بتلك الديار (الجزائر) فعليك بعد التشاور مع المشار اليه بالتوجه الى هناك بما فى حوزتك من السفن اللوند وفيما اذا اقتضى الامر يمكنك اصطحاب قبودانى دام اقباله ايضا .

وعليك ببذل انواع سعيك واقدامك فى سبيل دفع ورفع ضرر وفساد اعدا المسلمين وعليك ايضا القيام بما تقتضيه المصلحة بتمام البصيرة والانتباه اخذا بمشورة المومى اليه والمأمول منك هو بذل قدراتك واظهار جلادتك وشهامتك المتأصلة فى ذاتك سواء كنت تؤدى خدماتك فى اسطول الهمايونى او فى العمل على دفع الاذى عن المسلمين فى تلك الديار ولا تتوانى عن اعلامنا بأوضاع الجزائر وبما أقدمت عليه وعليك بتتبع افكار وتحركات الكفار وابعث لنا بكل ما يردك من الاخبار الموثوقة .

....

٨٢

[illegible]

Tasnifin cinsi	Mühimme 14
Numarası	200

مهمة دفترى رقم ٩ صفحة ٧٧ حكم رقم ٢٠٤ بتاريخ ٢٣ شوال ٩٧٧هـ (١٩ مارس ١٥٥٩م)

٢٣ برهماد ١٢٨٥

اعطى الى خليل جاوش الجزائر فى ١٠ ذى القعدة ٩٧٧هـ

حكم الى على باشا امير امراء جزائر الغرب

وصل الى بابنا المعلا خطابك الذى علمنا من خلاله بأن الامان يعم ولايتك وان الرعايا والبرايا فى احسن حال وعلى ما يرام وانك قمت بتعمير الاماكن الواجب ترميمها وان طائفة لرطران قد حشدت حشودها وقامت بالاغارة ونهب الاجزاء المجاورة لها من اسبانيا وتمكنت من ضم تلك الاجزاء وان الهلع قد حل بالكفار اصابهم الدمار منذ بدأ اهل الاسلام فى الاندلس برفع هاماتهم وتمكنهم من صد هجماتهم والانتصار عليهم بارسال العتاد والرجال وعلمنا بان الاغارة على ولايات الكفار اصابهم الدمار غير منقطعة .

وقد عرض بالتفصيل على سرير دولتنا كل ما ذكرته واحاط علمى الشريف وشمل كل ذلك و لقد كان بنيتى ارسال اطولى الهمايونى لتلك الاطراف ولاعانة ومظاهرة اهل الاسلام لكن كفرة جزيرة قبرص القريبة من ممالكى المحروسة نقضوا العهد وبدأوا بالتعدى على التجار واهل الاسلام والمسافرين بحرا قاصدين طواف بيت الله الحرام وزيارة تربة حضرة سيد الانام عليه افضل الصلاة والسلام بخلوص النية وصفاء الطوية وبذلك فانهم مصرون على العصيان والطغيان لذا فبعد التوكل والاعتماد على علو عناية الحق سبحانه وتعالى والتوسل والاستناد الى المعجزات الكثيرة البركات لفخر الموجودات صلوات الله عليه وسلامه وكذلك بالاستمدات بالارواح الطاهرة لسائر الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم (وسلامه) اجمعين ،فقد استقرت نيتى الملوكية على فتح وتسخير الجزيرة المزبورة فى الربيع الاخير القادم ونضرع الى عتبة الحق جل وعلا أن ييسر لنا فتح وتسخير تلك الجزرة وان نبسط ايدينا عليها حتى تأهل بأهل الاسلام كما كانت عليه وكى تقام فيها شعائر الشرع الشريف وحتى يأمن الزوار والتجار ويسلمون فى غدوهم ورواحهم وينصرفون للدعاء بدوام وثبات ومجد ورفعة الدولة .

وبما اوتيت من قوة أسواء كان ذلك بارسال الجند او بارسال العتاد أمرت : عليك بالتنفيذ بما جاء فى هذا الحكم حال وصوله وان تعاون وتظاهر اهل الاسلام المذكورين بكل ما يتيسر تقديمه لهم وان الغفلة عن الكفار اصابهم الدمار غير جائزة فلتكن على بصيرة من الامر ولتظهر انواع اقدامك واصناف اهتمامك فى سبيل الامور المتعلقة بالدين المبين ودولتى الابدية الكروانية ولا تتوانى فى اعلامنا باحوال واوضاع تلك الديار.

تعريب محمد داوود التميمى

[illegible]

مهمة دفتري رقم ١٤ حكم رقم ٢٣١ بتاريخ ٢٤شوال ٩٧٧هـ / ٢٠ مارس ١٥٦٩م

اعطى الى خليل جاوش فى ١٠ ذى القعدة

حكم الى اهالى الاندلس

وصل الى آستانة سعادتنا عرض حالكم الذى جاء فيه ان الكفار اصابهم الدمار وجعل الضلالة لهم شعار قد سلبوكم اسلحتكم ومنعوكم من تحدث العربية وانهم يتعرضون لنسائكم ويمارسون كل انواع الظلم والتعدى عليكم وتعلمون انه يوجد حاليا لديكم ٢٠ الف رجل مسلح كما ان هناك ١٠٠ الف رجل قادر على حمل السلاح وعلمنا باستلامكم مقدارا من السلاح من الجزائر وان ذلك قد ربط على قلوبكم وتمكنتم بذلك من تكبيد الكفار العديد من الخسائر فالحمد لله على نصر اهل الاسلام ويكتب لهم الفوز الدائم على الكفار جعل الضلالة لهم ضعار .

وقد عرض بالتفصيل كل ما جاء فى عرض حالكم من تحريرات وتقريرات على سرير سعادتنا واحاط علمى الشريف الملوكى وشمل كل ما يتعلق باحوالكم واخباركم وان ، انظارى منصرفة دائما نحوكم ولكن كفرة جزيرة قبرص القريبة من ممالكى المحروسة والتى كانت على العهد والامان منذ زمان اجدادى العظام انار الله براهينهم الا انهم نقضوا تلك العهود واخذوا بالتعدى على التجار واهل الاسلام والمسافرين بحرا لطواف بيت الله الحرام وزيارة تربة حضرة سيد الانام عليه افضل الصلاة والسلام بخلوص النية وصفاء الطوية وبذلك فانهم مصرون على العصيان والطغيان لذا فبعد التوكل والاعتماد على علو عناية الحق سبحانه وتعالى والتوسل والاسناد الى المعجزات الكثيرة البركات لفخر الموجودات صلوات الله عليه وسلامه وكذلك بالاستمداد بالارواح الطاهرة لسائر الصحابة الكرام عليهم رضوان الله تعالى اجمعين فقد استقرت نيتى الملوكية على فتح وتسخير الجزيرة المزبورة فى الربيع الاخير القادم ونضرع الى عتبة حضرة الحق جل وعلا ان ييسر لنا فتح وتسخير تلك الجزيرة وان يبسط ايدينا عليها حتى تأهل بأهل الاسلام وكما كانت عليه وكى تقام فيها شعائر الشرع الشريف وحتى يأمن التجار فى غدوهم ورواحهم وينصرفوا للدعاء وثبات ومجد ورفعة الدولة وبما أن الوضع على هذا الحال فان ارسال الاسطول الهمايونى المظفر لحمايتكم سيتأخر ريثما يتم ايصال المراكب للعساكر المنصورة للجزيرة المزبورة وسيتم ذلك اثر انهاء الاسطول لمهمته بعناية الحق وقد ارسل امرى الهمايونى الموكد الى امير امراء الجزائر الذى تتجه انظاره وافئدته نحوكم لارسال النجدة والمعونة لكم اما بارسال العساكر المظفرة او بارسال العدة والعتاد وبموجب امرى الشريف فان امير امراء الجزائر سيكون خير معين وظهير لكم .

كما اننى نتوخى من خلال حميتكم الاسلامية المتأصلة فى جلبتكم عدم التراخى عن اظهار غيرتكم على الدين المتين فلتظهروا انواع اقدامكم واصناف اهتمامكم فى الحرب والقتال والجدال وضد الكفار الاذلاء والمأمول الا يضن علماء وصلحاء وسائر اهل الاسلام فى تلك الديار بالدعاء ليل نهار بتيسير الفتح والنصر للغزوة المظفرة ولا تتوانوا عن اعلامنا باستمرار عن احوال واوضاع تلك الديار .

تعريب محمد داوود التميمى

(الفهـــــرس)

-=-=-=-=-=-=-=-=-=-